التفسير الموضوعي
لسور القرآن الكريم

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد الخامس

الأنبياء - العنكبوت

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة

الإصدار رقم ١٠٢

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +)، فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ.د. مصطفى مسلم	رئيساً
أ.د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ.د. أحمد البدوي	عضواً
أ.د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم أسعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ.د. مصطفى مسلم محمد
أ.د. عيادة أيوب الكبيسي
أ.د. أحمد محمد الشرقاوي
أ.د. ناصر سليمان العمر
أ.د. أحمد عباس البدوي
أ.د. محمد أحمد عيد الكردي
أ.د. مساعد مسلم آل جعفر
أ.د. شحادة احميدي العمري
أ.د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
د. أبو بكر علي الصديق
د. أحمد شحروري
د. أحمد محمد نور إبراهيم
د. أحمد محمد مفلح القضاة
د. جمال أبو حسان
د. طه ياسين ناصر الخطيب
د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة
د. عبد الله محمد سلقيني
د. عدنان عبد الرزاق الحموي
د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
د. عطية محمد عطية
د. عفاف عبد الغفور حميد
د. محمد السيد محمد يوسف
د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
د. محمد عبد الرحمن الشايع
د. محمد عصام القضاة
د. محمد عيادة الكبيسي
د. نايل ممدوح أبو زيد
د. نشأت محمود الكوجك
د. هارون نوح علي سليمان
د. يوسف الشامسي

سورة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ

أولا: بين يدي السورة، وفيه:

أ - اسمها:

تسمى سورة الأنبياء بلا خلاف، فلم يعرف لها اسم آخر[1]، وتسميتها بذلك ظاهرة، لاشتمالها على فضائل جملة من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، من صبرهم وثباتهم وما جرى لهم مع أقوامهم، وتأييد الله تعالى لهم، ـ بلغ عددهم ستة عشر نبيا ـ بما فيهم أولو العزم الخمسة، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، والملاحظ أنها افتتحت بالحديث عن محمد ـ ﷺ ـ، وختمت بالحديث عنه وعن رسالته ـ ﷺ ـ، فهو ـ ﷺ ـ في هذه السورة الفاتح الخاتم، ورسالته أعظم الرسالات وأشملها، وأمته أعظم الأمم، ولها ارتباط وثيق بجميع الذين آمنوا بكلمة التوحيد ورسالته، وأذعنوا لها مستسلمين مسلمين[2].

وقال الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى: هي جديرة باسمها، لأن فيها قصصا من أخبار النبيين، وهو غير مكرر في غيرها من القصص[3].

ب ـ فضائلها:

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: (بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادي)[4].

والعتاق ـ بكسر المهملة ـ جمع عتيق، وهو القديم، أو هو كل ما بلغ الغاية في الجودة، والتلاد ـ بكسر التاء وتخفيف اللام ـ المال القديم، وهو بخلاف الطارف، ومراد ابن مسعود

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٥.

(٢) انظر كلمة التوحيد وأمة التوحيد في سورة الأنبياء، للشيخ عبد الحميد طهماز ص ٨.

(٣) انظر زهرة التفاسير ٩/ ٤٨١٩.

(٤) أخرجه البخاري برقم ٩٣٧٤ ـ في تفسير سورة الأنبياء.

رضي الله تعالى عنه: أنهن من السور التي أنزلت أولا بمكة، وأنها من أول ما تعلمه من القرآن وأن لهن فضلا لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم[1].

ج. مكية السورة أو مدنيتها:

سورة الأنبياء مكية باتفاق، وحكى ابن عطية والقرطبي الإجماع على ذلك [2]، واستثناء بعضهم آية: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾، مرجوح[3].

د. عدد آياتها:

مائة واثنتا عشرة آية، في عد أهل الكوفة، وعليه أغلب المصاحف وكتب التفسير، ومائة وإحدى عشرة آية، في عد غيرهم[4].

هـ. محور السورة:

معالم التوحيد وإثبات المعاد في دعوة الأنبياء، وموقف الناس من ذلك[5] .

المناسبات في السورة:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

ظاهر، لأن مهمة الأنبياء عليهم السلام تقوم على تصحيح عقائد الناس، وتطهيرها من الخلود إلى الدنيا، والوقوف عندها، ولا يتم ذلك إلا بإثبات التوحيد والمعاد.

---

(١) انظر الهداية في غريب الحديث ١/ ١٩٤و٣/ ١٧٩، فتح الباري ١٠/ ٣٥٨.

(٢) انظر المحرر الوجيز ١٠/ ١٢١، الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٦٦.

(٣) انظر محاسن التأويل ١١/ ٢٢٧،

(٤) انظر جمال القراء ١/ ٢٩٧ وقال: اختلافها آية: ﴿ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾، عدها الكوفي وحده، الإتقان ١/ ٣٢١ فصل في عدّ الآي، الزيادة والإحسان ٢/ ٥٩، التحرير والتنوير ١٧/ ٦.

(٥) قال الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى في زهرة التفاسير ٩/ ٤٨٢٤: (.. وصلبها التوحيد، وما لقيه النبيون في سبيل هذه الدعوة التي هي الحق، وضل من يعاندها).

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

لما كانت فاتحة السورة بالحديث عن قرب الساعة، وبيان أن الناس في غفلة عنها وإعراض ثم ذكرت أنهم لم ينتفعوا بالتذكير والتنبيه، وأنهم كانوا يقولون عن القرآن بأنه سحر، وأضغاث أحلام، وأن من جاء به بشر مثلهم، ووصفوه بصفات الذم من أنه كذاب مفتر شاعر!! ختمت السورة الكريمة بتعليم نبيه ﷺ هذا الدعاء الكريم ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾، المتضمن الإخلاص المستفاد من التعريف في قوله﴿ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾، وإبطال ما تفوهوا به من صفات الذم، المعارضة للحق الذي جاء به ﷺ، وفي تعليم هذا الدعاء إيذان بإجابته ونصره، وإزهاق الباطل ودحضه، وذلك ما حكم به أحكم الحاكمين في هؤلاء المعاندين بالحق يوم بدر، فالحمد لله رب العالمين [١].

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

مناسبة سورة الأنبياء لما قبلها – وهي سورة طه – ظاهرة، حتى إن الآلوسي اكتفى بقوله: (ووجه اتصالها بها قبلها غني عن البيان)[٢]، وذلك أن الله تعالى لما ختم سورة طه بقوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [طه: ١٣٥]، أي: إن العلم بالشقي والسعيد حاصل لا محالة، وأعلى أنواع العلم وأرقى درجاته اليقين، وهو ما يعاين بعد الموت ومفارقة هذه الحياة، حين يكشف الغطاء وتزول الحجب عن القلوب، حتى يدرك الأمر على ما هو عليه، لما ختم بهذا افتتح هذه السورة بها يؤكد ذلك ويقرره، وهو يوم الحساب في الآخرة، مخبرا أنه قريب الوقوع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء: ١].

وثمة سبب آخر، وهو أن الله تعالى لما حذر من الاغترار بالدنيا بقوله سبحانه في سورة

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ١٧٥.

(٢) انظر روح المعاني ١٧/ ٢.

طه: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه: ١٣١]، ورغب في الآخرة بقوله ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾، افتتح سورة الأنبياء بما يقتضي الإعراض عن زهرة الحياة الدنيا لدنوها من الزوال، والعمل للآخرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾(١).

٤ ـ المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

سورة الأنبياء وسورة طه مكيتان، ومن العتاق الأول، ومضمون السورتين بوجه عام واحد، وهو معالجة موضوع العقيدة وإثبات أصول الدين، المتمثل في ركائز ثلاث وهي: أ ـ التوحيد. ب ـ النبوة والرسالة. ج ـ البعث والجزاء.

فالتذكير بالله تعالى، والدعوة إلى الإقرار بوحدانيته، وإقامة الدلائل القاطعة على ذلك نجده في السورتين، وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ووحدة هدفهم، وما جرى لهم مع أقوامهم، وتأييد الله تعالى لهم، وحسن عاقبتهم، وتحقيق انتصارهم، وما فيه من عبر وعظات، نجده كذلك في السورتين، وإن كانت سورة طه أطنبت في الحديث عن موسى ﷺ، وكذا نجد في السورتين الحديث عن الساعة وأهوال يوم القيامة، وما أعد الله تعالى للمتقين من حسن الجزاء، وللمكذبين من العقاب والنكال، وأن الأصنام وعبادها هم وقود النار يوم القيامة.

والآيات التي تتحدث عما ذكر واضحة بينة، تظهر للقارئ بأدنى تأمل ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ١٧].

---

(١) انظر نظم الدرر ١٢/ ٣٨٠، التفسير المنير ١٧/ ٦.

المقطع الأول: غفلة الناس عن الساعة، وإعراضهم عن القرآن

قال تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ١-٦].

التفسير الإجمالي:

بهذا الأسلوب البديع المشتمل على الإنذار، افتتح ربنا تبارك وتعالى سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فنبه عباده من مشركي العرب وغيرهم، إلى أن وقت وقوع الساعة قد أظلهم، وأن يوم الحساب قد اقترب منهم، بينما هم في غفلة عن ذلك.

ودنو الساعة وقرب وقوعها، إنما هو باعتبار تحققه، أو باعتبار ما مضى من مدة بقاء الدنيا كقول النبي ـ ﷺ ـ فيما رواه سهل بن سعد ﷺ قال: رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ قال بإصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام، (بعثت والساعة كهاتين)[(١)].

ومن دلائل غفلتهم: أنه ما ينزل عليهم شيء جديد إنزاله من آيات القرآن، مما يتكرر عليهم إنزاله، إلا استمعوه وهم متشاغلون عنه، غير متأملين ولا واعين.

ومن صفات أولئك الكفار الظالمين: إخفاء التناجي، والمبالغة في كتمانه، لأنهم يرون أن ذلك أدعى لإيقاع الضرر، والصد عن الإيمان بمحمد ـ ﷺ ـ، ولئلا يطلع أحد من المسلمين على تآمرهم، فتفشل مخططاتهم.

وما أسروه هو قولهم فيما بينهم: هل محمد إلا بشر مثلكم، يأكل الطعام ويمشي في

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه، انظر رقم ٤٩٣٦ كتاب التفسير ـ تفسير سورة النازعات١١/ ١٠٩، ومسلم برقم ٢٩٥٠ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب قرب الساعة.

الأسواق؟ كما حكاه الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٧][1]، فكيف تجيئون إليه وتتبعونه؟ فما معنى اتباعكم له ـ وهو واحد من الناس غير متميز عنهم ـ إلا أنه سحركم فكيف تتبعون السحر وأنتم تشاهدونه وتبصرونه؟ أي: أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر، وهو يعلم أنه سحر[2] !!

لكن العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية، كشف سرهم، وأطلع نبيه ـ ﷺ ـ على ما كتموه، وأمره أن يجابهم بذلك، ويعلمهم بأن الله تعالى سميع لأقوالهم عليم بأحوالهم، لا يخفى عليه شيء من أمرهم، ولا من أمر سماواته وأرضه سبحانه وتعالى، ألا إنها شبهة واهية باطلة، فهل يكون الرسل إلا من جنسهم؟ إن بشر فبشر، وإن ملائكة فملائكة، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٥].

ومن صفات أولئك الكفار: الحيرة والاضطراب لدى إثارة الشبه والشكوك، فقد أضربوا عن قولهم سحر، إلى قولهم بأن ما يأتي به ما هو إلا رؤى كاذبة، وأحلام مختلطة، يراها في المنام، ثم أضربوا عن هذا إلى قولهم إنه كلام مفترى مكذوب، ثم أضربوا عنه إلى قولهم إنه شاعر من الشعراء، فهم في حيرتهم يترددون، وهكذا شأن المحجوج المبطل، يتردد بين باطل وأبطل منه ويذبذب بين فاسد وأفسد منه[3].

بعد هذا الاضطراب طلبوا منه ـ ﷺ ـ على سبيل التعنت، أن يأتيهم بمعجزة حسية تشبه معجزات الأنبياء من قبله، تشهد بصدقه كما شهدت لهم، كناقة صالح، وانفلاق البحر لموسى

---

(١) وقد رد الله تعالى قولهم هذا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ الفرقان/ ٢٠.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٥.

(٣) انظر إرشاد العقل السليم ٦/ ٥٥.

وإحياء الموتى لعيسى، ونحوها من الآيات، فرد الله تبارك وتعالى عليهم بأن أولئك القوم لم يؤمنوا بتلك الآيات فأهلكوا، وأنتم مثلهم بل أعتى منهم، إن كثيرا منكم لن يؤمنوا حتى بعد مجيء الآيات، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ الأنعام، وحينئذ سيصيبكم ما أصابهم، وقد سبق في علمي أن منكم من يؤمن ولو بعد حين، ومنكم من تكون له ذرية مؤمنة، وأن هذه الأمة معصومة من عذاب الاستئصال الذي أصاب من قبلها من الأمم، فلذا فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن لا تقع تلك الخوارق، ولا تحدث تلك المعجزات.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

* من أعظم أسباب الإعراض عن الإيمان، الغفلة والتشاغل عن التذكّر والتأمل، والتعلق بالدنيا وميل القلب إليها.

* الحث على الاستعداد ليوم المعاد، فالناس لم يخلقوا سدى، ووراء هذا العالم عالم آخر، يثيب الله تعالى فيه المحسن ويعاقب المسيء، ويوم مجيئه قريب غير بعيد، ولن يفلت من الموت أحد، ومن حكم الشعر:

الناس في غفلاتهم ورَحى المنية تطحن[1]

* الصد عن اتباع الحق، والحيلولة دون سلوك طريق الهدى، والتآمر لإخفاء الحقيقة، ظلم سافر عاقبته إلى خسران.

* من ثمرات تفويض الأمور لله تعالى والتسليم له، وصدق الاعتماد عليه، النصر والظفر والتأييد.

* من علامة دعاة الباطل وأهل الضلال، الحيرة والتردد والاضطراب في تقرير ما يرمون إليه من الأقوال والأحكام.

* من خصوصيات هذه الأمة المحمدية، عصمتها من عذاب الإبادة والاستئصال، الذي كان

---

(١) انظر الأغاني ٤/ ١٠٣، تاريخ بغداد ٦/ ٢٥٠، سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٩٦.

يصيب الأمم من قبلها.

* ليس من آية أنزلها الله تعالى أعظم من القرآن، وهو كفيل بمن تأمله أن يقوده إلى شاطئ الأمن والإيمان، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

قلنا إن محور السورة هو التوحيد، وإثبات المعاد في دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وموقف الناس من ذلك، وفي هذا المقطع الذي افتتحت به السورة الكريمة، تذكير للناس بحقيقة ما سيؤولون إليه، وهو الموت، ثم المثول بين يدي الإله الواحد سبحانه وتعالى، وأن الوحي ما جاءهم إلا لبيان ذلك.

غير أن موقف أكثر الناس من ذلك كان اللهو واللعب والغفلة.

المقطع الثاني: الإنذار بالوحي سمة مشتركة بين الرسل عليهم الصلاة والسلام

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾
وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ
وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ
قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا
يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧-١٥].

مناسبة هذا المقطع لما قبله:

لما أنكر المشركون رسالة النبي محمد ﷺ، بدعوى أنه بشر مثلهم، مستبعدين أن يكون ذلك، رد الله تعالى عليهم بأن هذه سنته في جميع الرسالات من قبله، فالأنبياء كلهم من لدن آدم

إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام بشر يوحى إليهم، ومحمد ﷺ لم يكن بدعا من الرسل.

وأخبر عن نصره لرسله، وإهلاكه مكذبيهم، وحكى اعتراضات قريش، وأبان أنها ظاهرة السقوط، لأن شرائط الإعجاز لما تمت في القرآن، ظهر حينئذ لكل عاقل كونه معجزا وعند ذلك ظهر أن اشتغالهم بإيراد تلك الاعتراضات كان لأجل حب الدنيا وحب الرئاسة فيها، وقد بالغ جل وعلا في زجرهم عن ذلك، معرّضا بإنذارهم أن يهلكوا بسبب ظلمهم كما أهلكت الأمم الظالمة من قبلهم [١].

التفسير الإجمالي:

بهذا الحصر الحقيقي افتتح ربنا تبارك وتعالى هذا المقطع المبارك ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾، وقد تكرر هذا اللفظ في الكتاب العزيز، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومنه نعلم أن ليس بين الرسل امرأة[٢]، وقد انعقد الإجماع على هذا، وسر ذلك أنهم أقدر على التبليغ، وأمكن في الأخذ عنهم.

وإذا كان كفار قريش يجهلون هذه الحقيقة فما عليهم إلا أن يسألوا أهل الذكر، وهم علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى[٣]، فإنهم يعلمون ذلك من كلام الله الذي أنزله عليهم في

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٤٥، التحرير والتنوير ١٧/ ٢٤، التفسير المنير ١٧/ ٢٤.

(٢) لكنهم اختلفوا في نبوة مريم ـ عليها السلام ـ وآسية امرأة فرعون، فالجمهور على أنهما لم تكونا نبيتين، وقال القرطبي ٤/ ٨٣: والصحيح أن مريم نبية، لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك، كما أوحى إلى سائر النبيين، وأما آسية فلم يرد ما يدل على نبوتها دلالة واضحة بل على صديقيتها وفضلها.

(٣) هذا هو الراجح، وقالت فرقة هم أهل القرآن، وروي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: أنا من أهل الذكر، ذكر هذا ابن عطية في المحرر الوجيز ١٠/ ١٢٧ وقال: وهذا موضع ينبغي أن يتأمل، وذلك أن الذكر هو كل ما يأتي من تذكير الله عباده، فأهل القرآن أهل ذكر، وهذا أراد علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وأما المحال على سؤالهم في هذه الآية فلا يصح أن يكونوا أهل القرآن في ذلك الوقت، لأنهم كانوا خصومهم.

التوراة والإنجيل.

والرسل في بشريتهم لا يختلفون عن بقية البشر، إنهم ليسوا أجسادا لا حياة فيها، بل هم يأكلون ويشربون، ويحيون ويموتون، غير أن الله تعالى خصهم بكرامته وتأييده، ووعدهم نصره على من كذبهم، وأفادت كلمة ﴿ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ ﴾ أن الله تعالى منجز لهم ذلك لا محالة، وهذا ما حصل، حيث أعز الله تعالى رسله ونصرهم، وأذل مكذّبيهم الذين أفرطوا في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه وخذلهم.

وقد أكرم رسله بوحيه الذي ينير طريقهم، وإذا كانوا يشتركون في هذا الفضل والشرف، فإن محمدا ﷺ، له قصب السبق والقِدْح المعلّى من ذلك، فقد أنزل عليه أشرف كتبه، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي رقيبا على سائر الكتب، يشهد لها بالصحة والثبات[١].

وقد شاء الحكيم جل جلاله أن يكون كتابه بلسان العرب، كما هي سنته مع رسله ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فكان ذلك شرفا للعرب وعزا، يحق لهم أن يستبشروا به، ويفاخروا لو استعملوا عقولهم، وتجردوا من عنادهم وتقليد آبائهم.

وقد شاء الله تعالى أن يجعل القرآن العظيم معجزة مفتوحة للأجيال، وليست كالخوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل.. وما يملك العرب من زاد يقدمونه للبشرية سوى هذا الزاد، وما يملكون من فكرة يقدمونها للإنسانية سوى هذه الفكرة، فإن تقدموا للبشرية بكتابهم ذاك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم، لأنها تجد عندهم ما تنتفع به[٢]، وهذا سر ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ حيث حركهم بذلك

(١) انظر الكشاف ١/ ٦١٨.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٠.

إلى النظر[١].

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى هذا اللفظ الدال على كثرة العدد، بصيغة التكثير ﴿كَمْ﴾ فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾، والقصم هو الكسر الشديد الذي لا يرجى بعده التئام ولا انتفاع، استعير للاستئصال والإهلاك القوي كإهلاك عاد وثمود وسبأ[٢].

وما كان إهلاك القرى الكثيرة، إلا بسبب ظلمهم بالشرك وتكذيب الرسل عليهم الصلاة و السلام، وهذه سنة الله تعالى في خلقه، قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحج: ٤٥]، وبعد إهلاك أولئك الظالمين يخبرنا سبحانه وتعالى أنه أوجد بعدهم قوما آخرين، وفيه تهديد لكفار قريش بأن الله تعالى قد يهلكهم ويستبدل قوما غيرهم.

لقد كان من حال أولئك الظالمين أنهم لما تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة، وعلموا ذلك علم حس ومشاهدة، ابتدروا الهروب من شدة الإحساس بالبأس[٣] مسرعين.

فقيل لهم: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والمعيشة والمساكن الطيبة، لتروا ما جرى عليكم، ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة[٤]، لأن شأن المسافر أن يسأله الذين يقدم إليهم عن حال البلاد التي تركها من خصب ورخاء أو ضد ذلك، وفي هذا تكملة للتهكم، وقال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: استهزاء بهم[٥].

---

(١) انظر المحرر الوجيز ١٠/ ١٢٩.

(٢) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٥.

(٣) وهذا ما يفيده دخول إذا الفجائية في جواب لما. انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٢٦.

(٤) هذا أحد وجوه كثيرة ذكرها الرازي ٢٢/ ١٤٦، لعله أظهرها.

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٠، والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٧.

فما كان منهم إلا أن يقروا بظلمهم متلهفين نادمين، ولات ساعة مندم، فلم يزالوا يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك، إلى أن صيرهم الله تعالى كالحصيد، وهو الزرع المحصود، وكالنار الخامدة، فلم يبق لهم أثر ولا عين، ولا حس ولا حركة.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

* من فضل الله تعالى على عباده، اختيار الرجال لحمل رسالته، لما لهم من قدرات من جهة، ولتيسير الاتصال بهم والأخذ عنهم في كل وقت من جهة أخرى، فلم يكونوا من الملائكة لتعذر الاتصال بهم حسا، ولا من النساء لتعذر ذلك شرعا.
* إن سؤال أهل العلم واجب، فهم أهل الفتيا في الدين، ولا يجوز للعامة ذلك بل يجب عليهم تقليد العلماء[١]، والجاهل لا يعذر بجهله، ما دام يمكنه سؤال أهل العلم، وفي هذا قالوا:

من لم يكن يعلم ذا فليسأل   من لم يجد معلما فليرحل

* لقد تكفل الله تعالى بحفظ رسله عليهم الصلاة والسلام، وحفظ أتباعهم وأعوانهم، حتى يؤدوا رسالته على الوجه الصحيح، وأن يهلك كل من يحاول إعاقة ذلك.
* من لطف الله تعالى بعباده في ترغيبهم في الإيمان، الإتيان بصيغة المستقبل في قوله: ﴿ وَمَن نَّشَآءُ ﴾، أي فأنجيناهم ومن شئنا وننجي رسولنا ومن نشاء منكم، وهو تأميل لهم أن يؤمنوا، ولذلك لم يقل: ونهلك المسرفين، بل عاد إلى صيغة المضي الذي هو حكاية لما حل بالأمم السالفة، وبقي المقصود من ذكر الذين أهلكوا وهو التعريض بالتهديد، والتحذير أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك مع عدم التصريح بالوعيد[٢].
* إن عز العرب وشرفهم، منوط بمدى تمسكهم بالكتاب الذي فيه ذكرهم، فعليهم أن

---

(١) انظر التفسير المنير ١٧/ ٢١.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٢١.

يفقهوا ذلك ويعوه ويفهموه، وما كشفه الواقع في حياتهم عبر القرون لخير دليل على هذا.

* إن إعمال الفكر في كتاب الله تعالى تدبرا وتأملا، يفتح آفاقا من الفهم والمعرفة، تقود بإذن الله إلى العمل والتطبيق، وبذلك يتم الانتفاع الكامل، وتحصل سعادة الدارين.

* في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، دلالة على عناية الإسلام بالعقل، وتحريضه على التفكير والتدبر، والإنكار على من أهمل ذلك ولم يوله عنايته، فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل(١).

* الظلم جرم كبير، وعاقبته وخيمة، وقد حرمه الله تعالى على نفسه، وجعله بين عباده محرما، فعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه عن النبي ـ ﷺ ـ فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)(٢)، ولقبح الظلم وعظيم ضرره فقد توعد الله الظالمين بأفظع أنواع العذاب وأشدها.

* إن الخلق بظلمهم لن يضروا الله شيئا، وهو جل وعلا قادر على أن ينشيء من شاء بدل من شاء، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ سورة [محمد ﷺ: ٣٨].

* لا نجاة بالهرب من عذاب الله، والفرار لا يغني شيئا من ذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد: ١١].

* المتأمل فيما يجري في زماننا، يجد أن سنة الله تعالى ماضية في إهلاك القرى الظالمة، سواء بطريق الزلازل أو الحروب المدمرة، أو الفيضانات الجارية، أو غيرها، وإذا كان بين المهلكين صالحون، فإنهم على نياتهم يبعثون، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٤٥.

(٢) أخرجه مسلم ضمن حديث قدسي طويل برقم ٢٥٧٧ باب تحريم الظلم ٤/ ١٩٩٤.

ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾[الأنفال: ٢٥].

* التهكم بالظالمين من أساليب القرآن، وثمة نماذج كثيرة فيه، ومن ذلك هذه الآية: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾، فأنى لهم العود والرجوع بعد الهلاك، إنْ هو إلا السخرية والاستهزاء.

* الاعتراف بالذنب إنما ينفع صاحبه ما دام في حال صحته وعافيته، وأما عند حلول العذاب فلا، إذ الإيمان يقبل في الاختيار لا في الاضطرار، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[غافر: ٨٤-٨٥]، فلم يزل هؤلاء يدعون على أنفسهم بالويل والثبور، معترفين بشركهم وظلمهم حتى أهلكهم الله، وجعلهم عبرة للمعتبرين.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

إن الرسل ما أرسلوا إلا لتقرير التوحيد، وإنذار المعاندين والمكذبين بيوم الدين، ومحمد ﷺ لم يكن بدعا من الرسل في ذلك، فقد أرسل بما أرسلوا به، فجاء بهذه الآيات التي قابلها المشركون بالرفض فاستحقوا العذاب كما هي سنة الله في أمثالهم من المكذبين.

المقطع الثالث: دلائل الوحدانية والقدرة وتنزيه أفعال الله تعالى عن العبث

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ
وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ
وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ
يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ
عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ
مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ
إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ
﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ
فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ
أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ
وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ
﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٦-٣٣].

مناسبة المقطع لسابقه:

لما ذكر سبحانه وتعالى إهلاك الظالمين، وأنه كان بأشد أنواع العذاب، أبان أن ذلك ما حصل إلا تحقيقا للعدل، وأنه من أفعال الحكمة المنزهة عن اللعب، فما خلق السموات

والأرض وما بينهما إلا لمنافع جليلة دينية ودنيوية(١).

كما ذكر سبحانه وتعالى دلائل قدرته، في إبداع هذا الكون من سمائه وأرضه على أحسن نظام وأتقنه، وما أودع فيه من عجائب المخلوقات وغرائبها، وأن ذلك كله ملك له وحده لا ينازعه فيه أحد، وأتبعه بدلائل التوحيد القاطعة، وبراهينه الساطعة.

وذكر الرازي رحمه الله تعالى أن الكلام من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجوابا، وأما الآيات التي بعدها فإنها في التوحيد، ونفي الأضداد والأنداد(٢).

ولما أقام الله سبحانه وتعالى الأدلة العقلية والنقلية على وحدانيته، ووبخ المشركين الذين اتخذوا آلهة من دونه، أردفه بتوبيخهم على عدم تدبر الآيات الكونية الدالة على وجوده(٣)، إذ لو كان ثمة آلهة، لما كان هذا الكون بهذا النظام، وعلى هذا الوجه من الدقة والإحكام.

وفي ذلك ما فيه من الإنذار والتخويف، وإقامة الحجة كما لا يخفى.

التفسير الإجمالي:

يبين الله تبارك وتعالى في هذا المقطع، حكمة خلق السموات والأرض وما بينهما، وما أودع فيهما من العجائب والغرائب، على نظام جاء غاية في الإتقان والإحكام، وأن ذلك ما جاء عبثا، ولا لهوا ولعبا، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ ﴾ [الحجر: ٨٥].

إنه خلق ذلك ليتفكر فيه المتفكرون، فيعرفون الخالق العظيم ويخشونه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٤٧، نظم الدرر ١٢/ ٣٩٧.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٤٩.

(٣) انظر التفسير الكبير٢٢/ ١٦١، والتفسير المنير ١٧/ ٤٣-٤٤.

فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وبين جل وعلا أنه يتعالى عن اللهو واللعب، وأنه لو أراده لاتخذه من أحسن خلقه(١)، وفي أشرف الأماكن التي خلقها، وهي السموات التي لم يعص فيها قط، وجاء في التفسير: أن المراد بذلك الزوجة والولد، كقوله تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر: ٤].

ثم أضرب تعالى عن اتخاذ اللهو واللعب، منزها ذاته عن ذلك، قال الرازي رحمه الله تعالى: كأنه قال، سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا، وموجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد، وندحض الباطل بالحق، واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرا لإبطاله، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه(٢)، أي: كسره، فمعنى (يدمغه): يصيب دماغه، وذلك مهلك في البشر، فكذلك الحق يهلك الباطل(٣)، وهذا تشبيه جاء على غاية الجمال والإبداع.

وبعد أن نزه جل وعلا نفسه عن اللهو واللعب، أردفه بقوله:﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، فكلهم خلقه وعبيده، فكيف يكون له شريك أو تكون له صاحبة وولد، وهو الغني الذي ليس بحاجة إلى شيء؟!! قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ

---

(١) اختلف في ﴿إِن ﴾ من قوله تعالى ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ على قولين: الأول أنها للنفي، أي: ما كنا فاعلين، والثاني أنها للشرط، أي: إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا، قال الفراء: وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية. انظر فتح القدير ٣/ ٤٠١.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٤٨.

(٣) انظر المحرر الوجيز ١٠/ ١٣٣.

ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم: ٩٢-٩٥].

وأما ملائكته الذين خلقهم من نور العزة، وفطرهم على السمع والطاعة، ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، فإنهم على عبادة مستمرة لا تنقطع ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾، لقد أعطاهم ربهم القدرة على ذلك فهم ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أي: لا يتعبون ولا يعيون.

ثم تهكم بالمشركين بسؤال الاستنكار فقال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾، إذ من شأن الإله أن يكون قادرا على الإعادة قدرته على الإنشاء، وآلهتهم عاجزة عن هذا وذاك، إنها جمادات لا تنشر الأموات من الأرض، فكيف صح أن يعبدوها من دون الإله الحق المبدئ المعيد سبحانه وتعالى، وقد قامت الأدلة العقلية والنقلية على وحدانيته جل في علاه؟!!

فمن الأدلة العقلية، هذا الدليل الساطع، المسمى «برهان التمانع»، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾، إن وجود إلهين في الكون محال، فلو قدرنا ذلك، فدعا عبد ـ مثلا ـ أن يرزق ولدا، فلا يخلو أن يتفقا على إعطائه الولد، أو يختلفا، أو يقدر أحدهما ويعجز الآخر، فإن اتفقا أفضى إلى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال ـ كما يقول الرازي ـ، لأن استناد الفعل إلى الفاعل لإمكانه، فإذا كان كل واحد منهما مستقلا بالإيجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع، فيستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا، فيلزم استغناؤه عنهما جميعا، واحتياجه إليهما معا، وذلك محال، وهذه حجة تامة في مسألة التوحيد[1].

وإن اختلفا ـ وهذا هو المفروض ـ، كان الفساد بينا، قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ

(١) السابق ٢٢/ ١٥١.

﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٢].

وإن قدر أحدهما وعجز الآخر، فالأمر بين في أن العاجز ليس بإله، إذ العجز ينافي الألوهية.

وهذا سر ختم الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي: فسبحوه سبحانه اللائق به، ونزهوه عما يفترون، وفيه تعجيب ممن يشرك مع المعبود الأعظم البارئ لأعظم المكونات وهو العرش غيره ممن لا يقدر على شيء البتة(١) !!

وقد أشار أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى إلى أنه لا أبين من قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ في برهان التوحيد، وقال: فلا مزيد على بيان القرآن(٢).

ثم جاءت الآيات الكريمة تقرر وحدانية الله تعالى بالدليل النقلي، وهو رسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴾، إنها دعوة واحدة، وهذا محور السورة الكريمة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦].

إنها دعوة واحدة، القرآن الذي معي، والكتب السماوية التي مع من سبقني، لا تجدون في شيء منها، دعوة إلى الشرك، فمن أين جاء الشرك إذن؟ وأين برهانكم على ما تزعمون؟

وفي قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ﴾، وتكرير هذه الصيغة، تأكيد حدوث الشرك، وأنه أمر مفتعل حادث طارئ، لم يكن مصاحبا للوجود البشري على الأرض، فالتوحيد هو الأصل

---

(١) انظر محاسن التأويل ١١/ ٢٤٥، وقوله: (فسبحوه سبحانه اللائق به): سبحان مصدر سبح، أي سبحوه تسبيحا يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

(٢) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ص ٨٥.

الثابت الذي يتفق مع صفاء الفطرة الإنسانية، والشرك دخيل طارئ[1]، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وإذا ثبتت وحدانية الله تعالى، بان سخف مقولات مشركي العرب بإثبات بنوة الملائكة لله جل وعلا، إنهم ليسوا بنات الله، بل هم عباد مكرمون، لهم صفات جليلة في الأدب والعبادة، فهم مفطورون على التعظيم والطاعة، لا يقترحون على الله شيئا، لمعرفتهم بجلاله وعظمته، ولا يناقشونه في شيء سبحانه وتعالى، ولا يتدخلون في الشفاعة لأحد، إلا لمن ارتضاه، وهم على طهارتهم وقربهم وعصمتهم خائفون، مشفقون من خشية الله، إنهم عليهم السلام راعوا أدب العبودية في الأقوال والأفعال.

ومع ما لهم من صفات كريمة، وآداب رفيعة، لو أنهم ادعوا ـ جدلا ـ، الألوهية لكان مصيرهم مصير الظالمين جهنم وبئس المصير، وفيه تهديد لكفار قريش في ادعاء الألوهية لأصنامهم.

ثم لفت أنظار من كفر به بهذا الاستفهام الإنكاري إلى دلائل قدرته التي تفرد بها فيما أبدع من خلقه فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ الآية، فما عليهم إلا أن يجولوا ببصائرهم في ملكوت الله، ويتأملوا في هذا الكون الفسيح، ويتدبروا الأدلة المتعددة التي عرضتها الآيات الكريمة التي ترشد المتبصر اليقظ إلى وجود الله تعالى ووحدانيته.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن القرآن الكريم لم يكن دائرة معارف تفصيلية، وليس هو كتاب نظريات علمية، قابلة للتبدل والتغير، إنما هو كتاب هداية يقوم على حقائق علمية راسخة، لا يطرأ عليها التغيير والتبديل.

وأولى هذه الدلائل: توجيه النظر إلى أن السموات والأرض كانتا كتلة واحدة، ملتصقتين،

---

(١) انظر كلمة التوحيد ص٣٠.

ثم فصلهما الله تعالى بقدرته القاهرة فصارتا على ما هي عليه الآن، وهذا ما كشف عنه العلم الحديث في زماننا(١) فكان معجزة لكتاب الله تعالى، الذي أخبر عن ذلك قبل أكثر من أربعمائة عام، من شأنها أن تحمل الكافرين على الإيمان، وهذا سر توجيه الخطاب إليهم، أما المؤمنون فليسوا بحاجة إلى ما يكشفه العلم لأنهم قد استمدوا الاعتقاد بصدق القرآن المطلق في كل ما يقرره من إيمانهم بأنه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له(٢).

وهذا لا يعارض تفسير ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ حيث قال: فتقت السماء بالغيث، وفتقت الأرض بالنبات(٣)، كما هو ظاهر.

---

(١) وهي ما تسمى نظرية «لابلاس» أو نظرية «السديم» عند علماء الفلك، الذي يثبتون أن الشمس والكواكب والأرض كانت قطعة واحدة، وأن الشمس كانت كرة نارية، وفي أثناء سيرها السريع انفصلت عنها أرضنا والكواكب السيارة الأخرى، وهي تسعة مرتبة حسب قربها من الشمس: عطارد والزهرة، والأرض، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأورانوس، ونبتون، وبلوتوه، ولكل منها مدار حسب تأثير الجاذبية، وهي تجري في الفلك، وهي تسعة أفلاك دون السموات المطبقة التي يعيش فيها الملائكة، والفلك استدارة في السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء، أو هو مجراها وسرعة سيرها. انظر التفسير المنير ١٧/ ٤٤، ونحو تفسير موضوعي ص٢٥٣، آيات الخالق الكونية ص ١٠٤.

ويعد «لابلاس» من شيوخ الرياضيين والفلكيين، ومن أكابر الحكماء، وقد أدت نظريته هذه إلى اعترافه مع كثير من الغربيين ـ وخاصة علماء الطبيعة والفلك منهم ـ بوجود خالق عظيم قدير مُنظِّم، على جانب عظيم من العلم والحكمة. انظر آيات الخالق الكونية ص١٠٤ فما بعدها ـ الموازنة في المجموعة الشمسية.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٦.

(٣) أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: قلت طلحة واه (٢/ ٤١٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات والفريابي وعبد بن حميد كما في فتح القدير ٣/ ٤٠٦، وذكره ابن عطية ١٠/ ١٤١ دون أن ينسبه إلى ابن عباس مستشهدا بقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ﴾ الطارق، وقال: وهذا قول حسن، يجمع العبرة وتعديد النعمة، والحجة بمحسوس بين، ويناسب قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾، أي من الماء الذي أوجد الفتق، فيظهر معنى الآية ويتوجه الاعتبار.

وثانيها: تقرير أن الماء أصل الحياة، وأن كل ما فيه حياة فهو من ماء، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [النور: ٤٥]، وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شئ، قال: (كل شيء خلق من ماء) الحديث[١].

بل قال بعض المفسرين: يدخل فيه النبات والشجر لأنه من الماء صار ناميا، وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر، قال الرازي: وهذا القول أليق بالمعنى المقصود، كأنه تعالى قال: ففتقنا السماء لإنزال المطر، وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حيا[٢].

فأين الكفرة عن تدبر هذه الآيات الكونية، التي ما تدبرها عاقل إلا قادته إلى الإيمان؟ ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢].

وثالثها: توازن الأرض وعدم اضطرابها، بما تشاهدونه من جبال شامخات، لولاها لاضطربت بكم الأرض وما استقرت، وما أمكن العيش عليها بالصورة التي هي عليها الآن.

وللجبال فائدة أخرى وهي حفظ النيران المشتعلة في باطن الأرض، من الظهور على سطحها بالبراكين والزلازل، وإذ ذاك ربما تضطرب الأرض اضطرابا شديدا، وتخرج نيرانها الملتهبة من باطنها، وتطغى على سطحها فتهلك الحرث والنسل، وهذه معجزة في الآية، ما كان

---

(١) أخرجه أحمد في مواضع من المسند انظر رقم ٨٢٧٨ (٢/ ٣٣٣) وتمامه: قال قلت: أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة، قال: (أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام)، قال ابن كثير ٣/ ٢٨٤: وهذا إسناد على شرط الصحيحين إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن، واسمه سليم، والترمذي يصحح له، وقد رواه سعيد بن عروبة عن قتادة مرسلا والله أعلم.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٦٤.

محمد ـ ﷺ ـ ولا قومه، ولا الأمم المعاصرون لهم، يعلمون شيئا من هذه الآيات الكونية، التي أيد صحتها تقدم العلوم، والمكتشفات الحديثة[١].

ورابعها: الفجاج في الجبال، وهي الفجوات بين حواجزها العالية، التي جعلها الله تعالى طرقا واضحة غير محجوبة بالضيق إرادة اهتدائهم في سيرهم، فتكون هذه منة أخرى، وهو تدبير الله الأشياء على نحو ما يلائم الإنسان ويصلح أحواله[٢].

وخامسها: إتقان السموات وحفظها، والسماء كل ما علا، ونحن نرى فوقنا ما يشبه السقف، والقرآن يقرر: أن السماء سقف محفوظ، محفوظ من الخلل بالنظام الكوني الدقيق، ومحفوظ من الدنس باعتباره رمزا للعلو الذي تتنزل منه آيات الله[٣]، ومحفوظ من السقوط على الأرض، قال تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج: ٦٥]، ومن تأمل ذلك أدرك أن للكون خالقا مبدعا، فلا يليق بالعاقل أن يعرض عن التدبر والتأمل، وهذا سر ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾، فعلة الكفر هي: الإعراض عن التأمل والغفلة عما في هذا الكون من آيات.

وسادسها: سير الكواكب، وتعاقب الليل والنهار، في نظام كوني دقيق جاء على غاية الإتقان والإحكام، فهي تجري بقدرة بارئها لا يختلط بعضها ببعض، في سرعة فائقة من غير ارتطام واصطدام.

ومن رحمته بعباده تنويع الحياة إلى ليل ونهار، وظلام وضياء، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [غافر: ٦١]، ولا ريب أن التأمل في تعاقب الليل والنهار، وجريان الشمس والقمر، وغيرهما من الكواكب السيارة في هذا الكون الرحيب، دون أن يكون هناك

---

(١) انظر قبس من نور القرآن ص ٣٠.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٦٧.

(٣) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٧.

خلل أو اضطراب، مع تعاقب القرون الطوال، كفيل بأن يهدي القلب إلى المبدع العظيم سبحانه وتعالى.

وهكذا جاءت هذه الآيات والشواهد الكونية التي بثها الله تعالى في كونه العظيم، دلائل بينة للمتبصرين اليقظين تهديهم إلى وحدة المبدع العظيم، وتمنحهم معرفته وخشيته جل في علاه، ومن حكم الشعر:

فيا عجبا كيف يعصى الإلـــه — أم كيف يجحده الجاحـــد

ولله في كل تحريكـــة — وتسكينـــةٍ أبـداً شاهـــد

وفي كـل شـيء لـه آيـةٌ — تـدل على أنـه واحـــد(١)

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* أفعال الله تعالى منزهة عن العبث واللهو واللعب، فما خلق السموات والأرض وما بينهما من شيء إلا لحكمة.

* من نسب إلى الله تعالى الزوجة أو الولد فقد ضل ضلالا بعيدا، وقد ضلت اليهود بقولهم ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾، وضلت النصارى بقولهم ﴿ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة: ٣٠]، وضل المشركون بقولهم الملائكة بنات الله، كما حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل: ٥٧]، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

(١) انظر الأغاني ٤/ ٣٩، تاريخ دمشق ١٣/ ٤٥٣، المستظرف ١/ ١٦.

* في بيان عظمة الله تعالى في خلق السموات والأرض وما بينهما، تنبيه إلى ضرورة عبادته. وتحذير من الإشراك به أحدا من خلقه، وفيه ـ أيضا ـ دعوة إلى التأسي بملائكته في طاعته وتذكير بغناه عن عبادة خلقه، وأن نفع طاعتهم عائد إليهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٨].

* إن للحق صولة، وللباطل جولة، وإن صولة الحق تهلك جولة الباطل، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

* توعد الله تعالى الظالمين بالهلاك والدمار، ومن الظلم أن ينسب إلى الله الولد والصاحبة.

* العقل السليم يرفض أن يكون لله شريك أو صاحبة أو ولد، وكيف يسلم العقل بذلك، والخلق كلهم ملك الله وعبيده؟ ومنهم ملائكته الذين لا يفترون عن عبادته ولا يعصونه طرفة عين، ولا أقل من ذلك.

* الإحياء والإماتة من صفات الألوهية، والصنم المصنوع من الأرض غير قادر على شيء من ذلك، فكيف يتخذ إلها ؟

* العقل الذي منحه الله تعالى الإنسان كفيل بإثبات وجود الله تعالى والإقرار بوحدانيته، ولذا فلا عذر للمشركين والوثنيين، ولا للملاحدة من الشيوعيين والطبائعيين، وغيرهم فيما ذهبوا إليه من الشرك، أو نفي الإله جل في علاه.

* ذكر الله تعالى من التسبيح والتهليل ونحوهما يعطي القلب طمأنينة وسكينة، ويمنحه قوة ثبات على الحق، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، وهو بعد العلم والمعرفة أكثر وقعا في القلوب ونفعا، ولذا أمر الله تعالى به بعد قيام الدليل العقلي القاطع على وحدانيته سبحانه وتعالى.

* الاعتراض على تصرفات المالك القاهر الحكيم في ملكه لا يتجه، والتسليم المطلق له لازم فلا يقال: لم فعل الله كذا؟ ولم ترك كذا؟ فإن بانت الحكمة في الفعل والترك فالحمد لله، وإلا

فليتهم العبد نفسه بالقصور، وليجتهد في البحث عنها فقد يفتح الله عليه ويصل إليها.

* كل دعوى لا برهان عليها باطلة، ومن حكم الشعر:

والدعاوى ما لم يقيموا عليها		بينات أبناؤهـــا أدعيـــاء[(١)]

وبطلان الشرك ظاهر، لا يستطيع أحد إثباته، إذ لا يدل عليه دليل عقلي ولا نقلي.

* طلب العلم فريضة، والجهل داء خطير، قاد الكثيرين إلى الإعراض عن الهدى، وعدم الإذعان للحق.

* أساس دعوة رسل الله جميعا ـ عليهم الصلاة والسلام ـ توحيد الله تعالى وعبادته، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تبين ذلك، ومحور سورة الأنبياء يقوم على هذا.

* الأدب مع الله تعالى مقام رفيع، وقد تجلى في أقوال الملائكة وأفعالهم، فينبغي التأسي بهم في ذلك.

* من عظيم رحمة الله بعباده، ومزيد فضله عليهم، الإذن بالشفاعة لمن ارتضى، وهم الموحدون كما ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أي لمن قال: لا إله إلا الله، وقال الرازي:

واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا في إثبات الشفاعة لأهل الكبائر[(٢)]، يؤيده حديث جابر رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ـ ﷺ ـ تلا قوله تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، قال: (إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[(٣)].

* منازعة الله تعالى في ألوهيته وكبريائه، مآلها القصم والخلود في جهنم، لأنها ظلم، وذلك

---

(١) انظر خلاصة الأثر ١/ ٣٧٨ و ٣/ ٢٨٤.

(٢) انظر التفسير الكبير، وتقريره لذلك ٢٢/ ١٦٠.

(٣) أخرجه الترمذي برقم ٢٤٣٥ وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه ٤/ ٦٢٥، وأبو داود برقم ٤٧٣٩ دون ذكر الآية ٤/ ٢٢٦، والحاكم ـ واللفظ له ـ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ـ كتاب التفسير (٢/ ٣٨٢)، والبيهقي في البعث كما في فتح القدير ٣/ ٤٠٦.

جزاء الظالمين.

* لله الحجة البالغة، فقد أودع في كونه من الآيات ما يدل على وجوده ووحدانيته سبحانه وتعالى، ومنح الإنسان عقلا ـ إن أحسن استعماله ـ هداه إلى ذلك، وحث جل وعلا على النظر والتأمل فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، فما وجه الكفر بعد هذا؟!!

* القرآن معجزة عظمى، تضم معجزات كثيرة، وفي قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إشارة إلى أن الكافرين سيكتشفون هذه الحقائق ويبرهنون عليها[١]، وقد حصل هذا في زماننا، فكأن الآية تتنزل اليوم تخاطب أهل هذا الزمان.

* إنّ تعدد معاني الرتق والفتق في الآية الكريمة، يعدّ معجزة من معجزات القرآن العلمية، حيث قد اشتملت على عبرة تعم كل الناس، وعلى عبرة خاصة بأهل النظر والعلم[٢].

* من تحاليل الكائنات الحية، اتضح أن الماء يكون ٨٠٪ إلى ٩٠٪ من وزنها، فهو لذلك عنصر أساسي في الكائن الحي، ويقرر العلم الحديث: أن جميع المواد الغذائية اللازمة للأحياء على اختلاف أنواعها ناتجة أصلا من النبات، وهذه المواد الغذائية تكونت في النبات من اتحاد كيماوي حيوي بين الماء وثاني أكسيد الكربون. وقد دلت آخر الأبحاث التي تمت بالاستعانة بالعناصر المشعة، أن الأكسجين الذي يدخل في تكوين اللبنة الأولى من المواد الغذائية، وما يترتب عليها من المواد الأخرى التي يتغذى عليها الكائن الحي فتسبب حياته، مصدره الماء وحده، برغم أن الأكسجين الموجود في ثاني أكسيد الكربون ضعف الموجود في الماء، وهذا ما يطابق الآية الكريمة التي نزلت قبل عصر الذرة، والعناصر

(١) انظر الأساس في التفسير ٧/ ٣٤٥٤.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٥٦.

المشعة بعشرات المئات من السنين[(١)]

* تتناول الهداية في قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ معنيين، أحدهما حسي، وهو سيرهم في الأرض بين الجبال بما جعل الله فيها من فجوات، فيسلكون فيها طرقا من بلد إلى بلد، وثانيهما معنوي يرتبط بالعقيدة، فلعلهم يهتدون إلى سبيل يقودهم إلى الإيمان، كما يهتدون في فجاج الجبال[(٢)].

* التأمل مفتاح المعرفة وطريق الإيمان، وكثرة الآيات لا تجدي نفعا، مع الغفلة والإعراض قال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

* الليل والنهار من أجل النعم، لأنهما هما الزمن، الذي هو نعمة كبرى، بل من أجل أصول النعم، قال تعالى مؤكدا هذه المنة العليا: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [النحل: ١٢]، والآيات في هذا كثيرة[(٣)].

* القرآن يحث على التأمل في أسرار الكون، والانتفاع بما أودع الله تعالى فيه، وقد غفل المسلمون في عصرهم المتأخر عن هذا، بينما خاض فيه غيرهم، فملكوا ناصية العلم، ومن ثم تحكموا في شؤون العالم كما نسمع ونرى !! قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: عندما كان سير جينز (جيمس) يقرأ معلوماته عن الفلك على بعض المسلمين ويرتعش من حدة العاطفة التي ملكته وهو يحدث عن الله وعن الإيمان وعظمته لما رأى من عظمة المجرات التي درسها، كان أقرب إلى الإسلام من كثير منا عندما درس السماء، أما نحن

(١) انظر «الله والعلم الحديث» ص ٢٤٨-٢٤٩ باختصار.
(٢) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٧.
(٣) انظر قيمة الزمن عند العلماء ص١٧-١٨.

فنكتفي من قوله تعالى: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل: ١٦]، بأن الله لفتنا إلى أن هناك علامات في الأرض والسماء، ولكن ما هي؟ وماذا صنعنا مع هذه العلامات؟ وما هي الوسائل والمبتكرات التي طورناها في هذا الموضوع؟[1].

* من دلائل القدرة: دقة حركة الأفلاك وجريانها بهذه السرعة الرهيبة، وبهذا الاطراد المستمر، دون خلل أو توقف أو اصطدام، قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

* في هذه الآيات دلالة على المعاد، وأن الله تعالى سيعيد الخلق كما بدأه، فإن القادر على إنشاء هذا الكون العظيم وحفظه وتدبيره، لقادر سبحانه وتعالى على أن يخلق الخلق بعد انعدامه، قال تعالى: ﴿ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ ﴾ [الإسراء: ٩٩][2] وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يقرر هذا المقطع بالدلائل العقلية والنقلية وجود الله تعالى ووحدانيته، بما لا يدع مجالا لجاحد أو متشكك، وبذلك قامت حجة الله تعالى على جميع خلقه، فلم يكن جحود من جحد من الناس بعد هذا إلا لون من ألوان الكبر والعناد.

ويمكن أن نعد هذا المقطع عنصرا أساسيا في تشكيل محور السورة الكريمة، وأنه العمود الفقري لها.

---

(١) انظر كيف نتعامل مع القرآن ص٥٨و٥٩.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٥٥.

المقطع الرابع: المصير المحتوم، وعناية الله بخلقه

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن
يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾
خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ
ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم
بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن
دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ
طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ
أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن
كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٤-٤٧].

مناسبة المقطع لسابقه:

بعد أن ذكر ربنا تبارك وتعالى أنه حق، وأقام الأدلة العقلية والنقلية على وجوده سبحانه وتعالى ووحدانيته، أردف ذلك بأن الموت حق كذلك، وأنه ضربة لازب على كل مخلوق، وأن لقاء الإله الحق لا مناص منه، وفي ذلك تنبيه للعباد للاستعداد ليوم المعاد، وتحذير من مخالفة الرسل الذين جاؤوا بذلك.

وبين سبحانه وتعالى أن الكفرة عاجزون عن كف النار عن وجوههم وظهورهم يوم القيامة، وأنهم في الدنيا كذلك عاجزون عن دفع العذاب عن أنفسهم لولا حفظ الله تعالى لهم، وأن الإعراض عن التأمل ديدنهم، وهو سبب كفرهم وضلالهم ولحوق العذاب بهم.

التفسير الإجمالي:

يبين ربنا تبارك وتعالى في هذا المقطع الكريم، أنه كتب الموت على الخلائق كلها، سنة إلهية لا تتخلف، شاملة للأنبياء والرسل بما فيهم محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١ ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١]، دل على هذا لفظ ﴿كُلُّ ﴾ المضاف إلى نكرة وهي كلمة ﴿ نَفْسٍ ﴾، نظيرها قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، فلا معنى لتمني المشركين موته ﷺ، فإنهم سيذوقون ذلك كما تذوقه كل نفس.

تمنى أنـاس أن أمـوت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فما عيش من يبغي خلافي بضائري ... وما موت من يمضي أمامي بمخلدي

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيا لأخرى مثلها فكأن قد[(١)]

غير أن هذا الموت ليس هو النهاية، بل تعقبه حياة وأي حياة، إنها حياة الآخرة، حياة الحساب والجزاء على ما كان في الحياة الأولى من نتائج التكليف بالابتلاء بالشر وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين، وبالخير وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات[(٢)].

وقد فشل الكفار بالاختبار، فسلكوا مع النبي - ﷺ - مسلك السخرية والاستهزاء، بما كشف عن حمقهم وسفههم وجهالتهم، حيث استنكروا أن يعيب النبي ﷺ آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع، وكفروا بالرحمن الحقيق بالذكر والثناء والتمجيد!! ونظيرها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن

---

(١) قال ابن كثير ٣/ ٢٨٦: وقد روي عن الشافعي رحمه الله أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين، وانظر النجوم الزاهرة ٢/ ١٧٦، والمنتظم ١٠/ ٢٨١.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٦٩.

يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢].

ومن حماقتهم وغفلتهم استعجالهم العذاب، وهم وإن فطروا على العجلة ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[١] إلا أنه كان عليهم أن يلزموا أنفسهم بالتأني، فإن الله تعالى الذي خلق الإنسان من عجل أعطاه القدرة على ضبط نفسه، وذلك حين يتصل بالله خالقه فيثبت ويطمئن، ويكل الأمر له فلا يتعجل قضاءه، والإيمان ثقة وصبر واطمئنان، لكن هؤلاء المشركين كانوا يستعجلون العذاب[٢].

وكما استعجلوا وقوع العذاب، استبعدوا وقوعه، فهم يقولون للنبي ﷺ وللمؤمنين مستهزئين: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، فرد الله تعالى عليهم مبينا حماقتهم بأن لو علموا شيئا من أحوال النار وأهوالها، لما استعجلوا ذلك، فقال تعالى معرضا لونا من ألوان عذاب الآخرة الذي سيصيبهم: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾، فحذف جواب لو ليذهب الذهن في تصوره كل مذهب، إنها النار التي لا تأتيهم إلا فجأة، فإذا هم في حيرة، ليس لهم حيلة في النجاة منها، ولا يقدرون على ردها عنهم بالكلية، ولا يمهلون ليستريحوا طرفة عين[٣].

ونظير هذه الآية في إحاطة العذاب بهم من جميع الجهات، قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ

---

(١) يرى ابن عاشور رحمه الله تعالى أن هذا الاستعجال صادر من المؤمنين، وذلك أن ذكر استهزاء المشركين بالنبي ﷺ يهيج حنق المسلمين عليهم فيودوا أن ينزل بالمكذبين الوعيد عاجلا فخوطبوا بالتريث، وان لا يستعجلوا ربهم لأنه أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيد، وما في تأخير نزوله من المصالح للدين.. إلخ انظر التحرير والتنوير ١٧/ ٦٧، ولعل ما عليه أكثر المفسرين ـ وهو الذي اخترناه ـ أولى لمناسبته للسياق كما لا يخفى، والله تعالى أدرى بأسرار كلامه.

(٢) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٩.

(٣) انظر إرشاد العقل السليم ٦/ ٦٨.

﴿ مِّن ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزمر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأعراف: ٤١]، في آيات أخر بهذا المعنى دائرة في الكتاب العزيز.

ثم سلى نبيه ﷺ ـ كما هي عادة القرآن ـ بأن حماقة الكفار واستهزاءهم لا تضره شيئا، كما لم تضر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبله، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر: ٩٥]، فلقد أحاط بالمستهزئين عقوبة استهزائهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ثم يأمر الله تعالى نبيه ـ ﷺ ـ بأن يقول ـ على سبيل التقريع والتوبيخ[1] ـ لأولئك الغافلين المعرضين عن ذكر ربهم مع توافر الأدلة النقلية والعقلية: من يحفظكم ويحرسكم في ليلكم ونهاركم من عذاب الله وبأسه إن جاءكم؟ ولقد وقع اسم الرحمن موقعا حسنا في السياق الكريم، إذ فيه إشارة إلى أن هذا الحفظ لهم مع ما هم عليه من الكفر والإعراض إنما هو من رحمة الله تعالى وفضله، ونظير هذا آيات كثيرات منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٧].

ومن عجيب أمرهم أن يتعلقوا بآلهة غير قادرة على حفظهم، بل هي أعجز منهم، فهم غير متمكنين من نصر أنفسهم وحمايتها، لأنه لا يصحبهم نصر من الله تعالى، فكيف ينصرون

(١) قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في أضواء البيان ٤/ ٥٧٨: وهو عندي يحتمل الإنكار والتقرير، فوجه كونه إنكاريا أن المعنى: لا كالئ لكم يحفظكم من عذاب الله البتة إلا الله تعالى، أي فكيف تعبدون غيره؟ ووجه كونه تقريريا أنهم إذا قيل لهم: من يكلؤكم؟ اضطروا إلى أن يقروا بأن الذي يكلؤهم هو الله، لأنهم يعلمون أنه لا نافع ولا ضار إلا هو تعالى، ولذلك يخلصون له الدعاء عند الشدائد والكروب، ولا يدعون معه غيره.

غيرهم؟ وكما قالوا: فاقد الشيء لا يعطيه[1]!! ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يس: ٧٤-٧٥]، ثم تكشف الآيات عن سبب غرورهم الذي جرأهم على الاستهزاء، وهو طول العمر ومتع الحياة، من سعة الرزق ورغد العيش، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

ولو تأمل العاقل في تقلبات الزمن وتغير الأحوال، لكانت له من ذلك عظة وعبرة، ولذا فقد دعت الآيات الكريمة إلى هذا التأمل، ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر، والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ يعني: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون[2]، وقد حصل هذا في عهود الإسلام الزاهرة، حيث دخل الناس في دين الله أفواجا، واتسعت رقعة الإسلام ونقصت أراضي الكفر، وما يجري لأمة الإسلام اليوم عرض زائل، وستعود قوة المسلمين وعزتهم عن قريب بإذن الله، ويسعد الناس يومئذ بظل الإسلام كما سعدوا به من قبل.

وتبين الآيات الكريمة مهمة النبي ﷺ وهي الإنذار بالقرآن، فهو المبلغ عن ربه، فمن لم يجب دعوته فلا يضر إلا نفسه، إنهم عمي البصيرة، مثلهم مثل الصم الذين لا يسمعون شيئا أصلا، ولا ينتفعون بنصح وتذكير، قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧١].

ثم بين تعالى أن حالهم سيتغير إلى أن يصيروا بحيث إذا شاهدوا اليسير مما أنذروا به،

---

(١) انظر كلمة التوحيد ص ٥٢.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٨.

فعنده يسمعون ويعتذرون ويعترفون، حين لا ينتفعون، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ الآية[١].

ويختم المقطع الكريم بالحديث عن الآخرة وأنها دار العدل، كما قال تعالى: ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر: ١٧]، في الآخرة تنصب موازين العدل، فلا يترك شيء دون حساب، وإن كان حبة من خردل وهي أصغر ما تراه العيون، وأخفه في الميزان، قال سيد قطب رحمه الله تعالى: فلتنظر نفس ما قدمت لغد، وليصغ قلب إلى النذير، وليبادر الغافلون المعرضون المستهزئون قبل أن يحق النذير في الدنيا أو في الآخرة، فإنهم إن نجوا من عذاب الدنيا فهناك عذاب الآخرة الذي تعد موازينه، فلا تظلم نفس شيئا، ولا يهمل مثقال حبة من خردل.

وهكذا ترتبط موازين الآخرة الدقيقة، بنواميس الكون الدقيقة، بسنن الدعوات، وطبائع الحياة والناس، وتلتقي كلها متناسقة موحدة في يد الإرادة الواحدة، مما يشهد لقضية التوحيد وهي محور السورة الأصيل[٢].

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* الموت حقيقة لا يتنازع فيها عاقلان، وقد احتج به ربنا تبارك وتعالى على الكفار لأنهم لا يستطيعون إنكاره.
* ما من عام إلا وخص، ومنه قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾، فإنه تعالى نفس، لقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: ١١٦]، مع أن الموت لا يجوز عليه، وكذا الجمادات لها نفوس وهي لا تموت، والعام المخصوص حجة فيبقى معمولا به فيما عدا هذه الأشياء[٣]، وما أشبهها كما قيل فيمن يسكن الجنة

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٧٦.
(٢) انظر في ظلال القرآن ١٧/ ٢٣٨٢.
(٣) انظر التفسير المنير ١٧/ ٥٩.

الآن كالحور العين ونحوهم.

* أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مخلوقون لله، وهم من جملة عباده الذين يصيبهم ما أصابهم من الموت وغيره، إلا أنهم أكرم خلقه عليه، فلم يسلمهم لأعدائهم بل تكفل بنصرهم وتأييدهم.

* الابتلاء بالخير أشد وطأة من الابتلاء بالشر، وإن خيل للناس أنه دونه، ذاك لأن الابتلاء بالشر من المرض والضعف والفقر والحرمان مفهوم أمره، وإن كثيرين يصمدون له ويصبرون عليه، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير من الصحة والقدرة والثراء والمتاع، وما تثير من شهوات وأطماع، فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر، والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان[1].

* في ذكر استهزاء المشركين بالنبي ﷺ، على هذه الصورة التي دلت على سفههم وحماقتهم تذكير للدعاة من بعده للتأسي به ﷺ في صبره وثباته، وعدم اكتراثه بحماقاتهم وضلالهم.

* قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى ﴾، أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[2].

* خص الوجوه والظهور بمس العذاب، لأن تأثرها به أعظم موقعا، ولكثرة ما يستعمل

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٨.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٧، وقارن بما نقلناه عن ابن عاشور قبل قليل (ص٣٢)، مع أن ابن كثير يرى أن الآية في المشركين حيث قال بعدها: يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضا بوقوع العذاب بهم.. إلخ.

ذكرهما في دفع المضرة عن النفس(١).

* في قوله تعالى: ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ تذكير لإمهالهم في الدنيا(٢) وفي ذلك من التنبيه وأخذ العظة والعبرة ما فيه.

* الإعراض عن الذكر وترك التأمل ديدن كفار قريش بسبب تصورهم الفاسد عن موضوع الرسالة والرسول ﷺ، فنلاحظ أن هذه هي المرة الثالثة التي تكررت فيها كلمة الإعراض فهم معرضون عن السماع، ومعرضون عن التدبر، ومعرضون عن الإجابة على السؤال المذكر لهم بالله، وقد رد الله تعالى عليهم ذلك كله، بلغة التذكير، فالسورة نموذج على كون هذا القرآن ذكرا(٣).

* حري بمن يستشعر الحاجة إلى النصر والمدد ـ في كبير الأمور وصغيرها ـ أن يطلبه ممن يستطيع تحقيقه، وأن يخلص العبادة له، والآلهة المزعومة عاجزة عن نصر أنفسها، فكيف تنصر غيرها؟ ولذا فإن الله تعالى يرشد عباده أن يتوكلوا عليه لا على غيره فيقول: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ويذكر أن أولئك المشركين لا يفزعون في الشدة إلا إليه، ولكنهم بعد ذلك ينكثون، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

* إن متع الحياة ورغد العيش وتوالي النعم، وحلم الله تعالى وإمهاله وعدم تعجيل العقوبة،

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٧٣.
(٢) انظر إرشاد العقل السليم ٦/ ٦٨.
(٣) انظر الأساس ٧/ ٣٤٦٥.

سبب في اغترار أولئك المشركين وتماديهم، والترف يفسد القلب، ويبلّد الحس، وينتهي إلى ضعف الحساسية بالله، وانطماس البصيرة دون تأمل آياته، وهذا هو الابتلاء بالنعمة حين لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها، ويصلها دائما بالله، فلا تنساه(١).

* رجح الشنقيطي رحمه الله تعالى(٢): أن معنى ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ أي ننقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها، وإظهارهم على أهلها، وردها دار إسلام، مستدلا بأن القرينة الدالة على هذا المعنى هي قوله تعالى: ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾، والاستفهام لإنكار غلبتهم، قال: ومما يدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾ الرعد، وهذا المعنى الذي ذكره الله هنا ذكره في آخر سورة الرعد: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد: ٤١].

أقول: هذا وعد الله تعالى، وقد حققه لرسوله ﷺ ولمن سار على نهجه من صحابة وتابعين، وما نشاهده اليوم من الواقع المرير الذي تعيشه أمة الإسلام، فسببه بين وهو البعد عن ذلك النهج المنير، وما هذا الواقع إلا عرض سيزول، وسيتحقق وعد الله مرة أخرى، يوم يعود المسلمون إلى أيام أسلافهم، وإنهم بإذن الله لعائدون.

* إن الختم على السمع أخطر وأضر على صاحبه من صمم الأذن، وأنى لمن هذه حالته أن ينتفع بالإنذار والتخويف؟! وذكر الصمم هنا جاء مناسبا للوحي الذي هو من المسموعات، والمراد بنفي السماع نفي جدواه(٣).

* الاعتراف بالذنب والإقرار بالخطيئة والندم على التفريط، إنما ينفع ما دام المرء في عالم الغيب، أي: ما دام في هذه الحياة، أما إذا دخل عالم الشهادة فلا ينفع ندم ولا اعتراف، إذ

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨١.

(٢) انظر أضواء البيان ٤/ ٥٨٢.

(٣) انظر البحر المحيط ٦/ ٣١٥.

الجميع حينئذ سيعترفون إذا مسهم أدنى شيء من عذاب الله.

* جمهور العلماء على أن ثمة ميزانا توزن به الأعمال، وقال بعضهم: ذلك على سبيل التمثيل عن المبالغة في العدل التام، وهو قول الضحاك وقتادة قالا: ليس ثم ميزان، ولكنه العدل والقسط مصدر وصفت به الموازين مبالغة(١).

* ذكر العلماء نبات الخردل وما فيه من منافع كثيرة، و فوائد كبيرة، وهو مستخدم في الطب القديم والحديث، كما ذكروا غاز الخردل وما فيه من أضرار فادحة، وغازات متفجرة، ولدى التأمل في المصطلح القرآني لنبات الخردل يرد سؤال مهم ـ كما يقول صاحب كتاب الهندسة الكيمائية ـ وهو: لماذا هذا الاختيار دون غيره؟ أهو تنبيه لاستخدام المتضادات كما هو شأن القرآن الكريم في تبيان قدرة الله تعالى على ضرب المثل بالأضداد، كاستخدام الماء من مركبين حارقين، وكوجود الشحنات النارية في السحب المحملة بالمياه وغير ذلك؟ أم هو تنبيه لمستخدميه بشكله الطبي المعالج، وكذلك بشكله الصناعي القاتل؟ بأن الله تعالى قد وضع الموازين القسط في كل شيء حتى في هذا النبات الصغير والغاز الحقير، فمن يستخدمه للخير يأخذ نصيبه، ومن يستخدمه للشر ينال وزر من قتلهم ظلما وعدوانا، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾(٢) [الزلزلة: ٧-٨].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

الملاحظ أن في هذا المقطع الكريم تقريرا لإثبات الحياة الآخرة، وما سيلاقيه الناس من مصيرهم المحتوم الذي لا مفر منه لمخلوق، وذلك بإثبات الموت والبعث والجزاء، وهو المحور الرئيس الذي تدور عليه السورة الكريمة.

---

(١) السابق ٦/ ٣١٦.

(٢) انظر كتاب الهندسة الكيميائية وهندسة النفط للدكتور خالد العبيدي ص ٢٦-٣١ فقرة «كيمياء الخردل».

المقطع الخامس: القصص التفصيلي في دعوة الأنبياء إلى التوحيد

مناسبة المقطع لسابقه:

لما أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾، أتبعه بأن هذه عادة الله تعالى في الأنبياء قبله، وورود قصص الأنبياء بعد دلائل التوحيد والنبوة والمعاد تسلية للنبي ﷺ فيما يناله من قومه، وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها، وابتدئ بقصة موسى وهارون عليهما السلام مع قومهما، لأن أخبار ذلك مسطورة في كتاب موجود عند أهله يعرفه العرب، ولأن أثر إتيان موسى عليه السلام بالشريعة هو أوسع أثر لإقامة نظام أمة يلي عظمة شريعة الإسلام(١)، فكان الإيماء إلى التوراة تمهيدا للحديث عن القرآن الكريم(٢)، ثم تتابعت القصص: قصة إبراهيم، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون، وزكريا، ويحيى، ومريم، وابنها عيسى ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وعلاقة قصص الأنبياء بمحور السورة وثيقة كما هو ظاهر.

ولنقسم آي هذا المقطع من القصص إلى مجموعات على النحو الآتي:

المجموعة الأولى: قصة موسى وهارون عليهما السلام، وعلاقة التوارة بالقرآن.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٠].

التفسير الإجمالي:

بهذا القسم المؤكد افتتح ربنا تبارك وتعالى هذا المقطع، بأنه أعطى موسى وهارون عليهما السلام، كتابا مشتملا على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٧٨، والتحرير والتنوير ١٧/ ٨٨.

(٢) انظر نحو تفسير موضوعي ص٢٥٥.

والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نورا في القلوب، وهداية وخوفا وإنابة وخشية، وتذكيرا وعظة للمتقين[١]، الذين يخافون ربهم في السر، لا رياء ولا سمعة، ويخافون يوم القيامة وما فيه من عذاب وأهوال، فجعلوا بينهم وبين ذلك وقاية، بامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه.

ولما كان ربنا كثيرا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما، قرن بينهما هنا، فقال تعالى ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾، وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فالكتابان من أعظم كتب الله تعالى في إبراز التوحيد وتقريره، ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ أي أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور[٢] ؟! فهو إنكار لإنكارهم بعد ظهور كون إنزاله كإيتاء التوراة[٣].

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* تقدم ذكر الرسل ودعوتهم إلى التوحيد، وما لاقوه من قومهم من السخرية والاستهزاء بطريق الإجمال، وهذا شروع في التفصيل بذكر عدد منهم، وفي ذلك تسلية للنبي - ﷺ -، وتثبيت لفؤاده، وتعليم للأمة بأن الديانات السماوية تشترك في أصول الدين والأخلاق وأن الاستهزاء بهم سنة ماضية، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٢].

* التقوى جماع كل خير، وهي سبيل النجاة عند كل قوم، وقد خص الله المتقين بالذكر في التوراة تشريفا لهم كما خصهم في القرآن، حيث قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢]، لأنهم هم المنتفعون بما فيهما من أنوار وأسرار.

* لفظ ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ باعتباره وصفا للكتاب العزيز، من الألفاظ الدائرة فيه، قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٠.

(٢) انظر السابق.

(٣) انظر إرشاد العقل السليم ٦/ ٧٢.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام:٩٢] وقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وهي كلمة جامعة تعني: أنه كثير المنافع والفوائد[١]، فبركته شاملة لكل من تعلق به حفظا وتلاوة وفهما وعملا، قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى: (وأنا قد نقلت أنواعا من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم[٢]، أي: التفسير.

أقول: وقد حصلت بركته على أمة الإسلام إبان عهودها الزاهرة، يوم كانت تتخذ من هذا الكتاب منهجا لها في جميع نواحي الحياة، العلمية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، فما أحوجها اليوم وقد تردت حالها في هذه النواحي جميعها إلى الارتباط بكتاب ربها ارتباط أسلافها، لتشهد بركته في أيامها الحالكة هذه كما شهدتها من قبل !!

(١) انظر مدارك التنزيل ٢/ ٢٣.

(٢) انظر التفسير الكبير ١٣/ ٨٥.

المجموعة الثانية: قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ
وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن
تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا
بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ
أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ
الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا
فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ
أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا
عَابِدِينَ (٧٣) ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٣].

التفسير الإجمالي:

أولاً: الحوار العقلي:

بهذا القسم المؤكد افتتح ربنا تبارك وتعالى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، بأنه ألهمه رشده منذ صغره، وذلك لعلمه بأنه أهل لتحمل هذه المسؤولية الكبيرة، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولقد واجه إبراهيم أباه وقومه بهذا السؤال الإنكاري المثير ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾ أي: منكبون على عبادتها، ومتعلقون بها، وهو سؤال يتضمن تحقير الأصنام التي نحتوها بأيديهم، وجعلوها على صورة البشر مثلهم!!

فلم يكن لهم جواب إلا الاعتراف بتقليد الآباء، وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة، في مقابل حرية الإيمان، وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية(١).

فما كان من إبراهيم إلا أن يكشف لهم بصراحة وقسم مؤكد، عن الحقيقة الناصعة بأن الفريقين من المقلِّدين والمقلَّدين كانوا في ضلال قديم موروث قد تمكنوا فيه، غير مستند إلى دليل، وهو ما أفادته {في} الظرفية التي جاءت في السياق الكريم(٢).

ولما رأى القوم شجاعة إبراهيم وصراحته، وجرأته في مجابهتهم بهذا الأمر الخطير الذي لم يجرؤ عليه غيره، قالوا متعجبين: أأنت جاد فيما تقول يا إبراهيم أم أنت ممن يهزأ ويمزح؟ وهنا يصدع إبراهيم الملهم المسدد بما يريد من إظهار الحق والكشف عن الحقيقة، معرضا عن تعجبهم ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾وهذا منطق قوي وشهادة حق، تدل على قوة إيمان إبراهيم وثقته المطلقة بربه جل وعلا، ورب كل شيء بما في ذلك تلك الأصنام المخلوقة المنحوتة.

ثانيا: التنفيذ العملي:

لم يقف إبراهيم عند الدليل القولي، بل أتبعه بما هو أظهر وأقوى في إثبات عجز الأصنام، وبيان أنها لا تنفع ولا تضر، فأقسم بالله الخالق العظيم، أن يحتال لإظهار عجزها، متحينا فرصة تركهم لها بلا حارس يحرسها، وذلك في يوم عيدهم الذي يبتعدون فيه عن آلهتهم بعد أن يدعوا

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٥.

(٢) انظر محاسن التأويل ١٢/ ٢٦٣.

عندها الطعام والشراب، ريثما يعودون إليها بعد فراغ مراسيمهم.

وفي همة عليا بتأييد رباني، كسر إبراهيم الأصنام كلها، وجعلها قطعا متناثرة خلا الصنم الكبير، الذي كانوا يولونه حظا من العبادة والتعظيم، فقد تركه سليما وعلق الفأس في عنقه، لعل ذلك يكون محركا لعقول قومه، ومرتفعا بها عن الجمود والتبلد، إلى التأمل والتبصر فيسألوا ذلك الصنم عن سر سلامته وتحطيم ما سواه !!

لكن التقليد الأعمى حجبهم عن السؤال، وبدل أن يسألوا الصنم ويتعجبوا من عدم قدرة الآلهة عن الدفاع عن نفسها، تساءلوا فيما بينهم عمن تعدى على حرمة الآلهة، فقال الذين لا يعلمون شيئا من أمر إبراهيم ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾، فأجابهم الذين سمعوا توعده ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾، فكرهوا أن يأخذوه بغير بينة[1] دون أن يشهد عليه الناس بما يكون حجة عليه بما فعل[2]، فـ ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾، فكان هذا من نصر الله تعالى لإبراهيم ﷺ، إذ مقصوده الأكبر أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقولهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرا، ولا تملك لها نصرا، فكيف يطلب منها شيء من ذلك[3] ؟

وبعد أن سألوه إن كان هو الذي حطم آلهتهم، أجابهم في تهكم واضح وسخرية مكشوفة ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾!! وقد كان إبراهيم موفقا في هذا الجواب، إذ نفع القوم بعض الشئ، ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ فكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم، وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم

---

(١) أخرجه ابن جرير عن قتادة بإسناد صحيح ١٠/ ٤٠.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ١٨٤ قال: وهذا قول الحسن وقتادة والسدي وعطاء وابن عباس رضي الله عنهم.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٣.

وذلك الظلم الذي هم فيه سادرون، ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[1] !!

ولم يأبه إبراهيم بهذا الانتكاس والارتكاس، المنبئ عن إلغاء العقل، والرجوع إلى التقليد الأعمى، بل دفعه ذلك إلى صولة الحق، فصاح بهم في قوة المؤمن الغيور على توحيد ربه وخالقه، ملزما لهم بما أقروا به من عدم نطقهم، واعترافهم بضعفهم عن نصر أنفسهم، ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ ﴾؟ ثم أعرب عن ضجره القوي وغيظه الشديد لأجل إصرارهم على عبادتها بعد قيام الحجة على عدم استحقاقها، تاركين عبادة المستحق لذلك فقال منكرا فعلهم: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟!!

ثالثا: انتصار إبراهيم ونجاته من النار:

وبعد أن انتصر إبراهيم بحجته، ودمغهم بأدلته الواضحة المقنعة، لم يستسلم قومه للهزيمة، ولم يرضخوا للحق الذي لزمهم، ولكنهم لجأوا إلى استعمال القوة وإلحاق الضرر به، انتصارا لآلهتهم التي عجزت عن الانتصار لأنفسها، ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾، وهذا منطق الجبابرة في كل زمن حين يعجزون عن مقارعة الحجة بالحجة، ولولا حماية الله وحراسته لاحترق إبراهيم بتلك النار التي أججوها بالحطب الكثير، حتى بدت نارا عظيمة لا مثيل لها في نيران الدنيا، لكن الذي وضع في النار الإحراق سلبها إياه، بالكلمة التي يتكوّن بها كل متكوِّن، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢]، وهكذا كان الأمر مع تلك النار المتأججة، ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

لقد كانت النتيجة مذهلة، وعجيبة في مقاييس البشر، فقد سلم إبراهيم من النار، وباء الجبابرة بالخسران، ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٧.

رابعا: هجرة إبراهيم عليه السلام:

بعد تلك النعمة العظمى، والمعجزة الكبرى، قرر إبراهيم أن يترك أرض العراق، التي لم يستجب له أهلها، ويهاجر مع ابن أخيه لوط - عليهما السلام - إلى أرض الشام، تلك الأرض التي خصها الله تعالى بالبركات الحسية والمعنوية، فهي أرض الخصب والرزق، وطيب العيش ورغده، وهي أرض مبعث الرسل، ومهبط الوحي عبر القرون.

لقد كانت العوض المبارك لإبراهيم الذي صبر ووفى، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠]، أجل هو عوض مبارك في الوطن والأهل والولد، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾، بركة لم تقتصر على الولد وإنما شملت الحفيد، فكانت ذرية صالحة، تؤدي حق الله تعالى وحق عباده، وأئمة يقتدى بهم على تعاقب الأجيال ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾.

وهذه المجموعة من هذا المقطع وثيقة الصلة بمحور السورة، لما فيها من دعوة صادقة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، والعمل من أجل تحقيق السعادة في الدارين، وتحقيق المهمة التي أرسل من أجلها الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

لقد احتوت هذه المجموعة الطويلة المفصلة على عدد كبير من الدروس والعبر، منها:

* يعد الحوار من الأساليب المهمة في إيصال كلمة الحق، وعلى من أراد أن يدخل في ذلك أن يكون متمكنا مما هو بصدد الحديث عنه، قوي الحجة فيه، كما نشاهد في إبراهيم عليه السلام، لئلا تأتي الهزيمة من قبله.

* لا مانع من استعمال الغلظة والإنكار القوي في الحوار إذا ما اقتضى المقام ذلك، كما صنع إبراهيم ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.[1]

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٧.

* الكذب مذموم غير أن من ابتلي بمثل موقف إبراهيم عليه السلام، فله فسحة ورخصة في أن يقول مثل ما قال[١]، وتسمية هذا كذبا قد صح عن النبي ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وواحدة في شأن سارة.. الحديث[٢]، وللمفسرين تعليلات وتوجيهات متعددة[٣].

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ١٠٢، والأساس في التفسير ٧/ ٣٤٧٨.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم ٢٢١٧ في كتاب البيوع، باب شراء المملوك ٦/ ٢٦٥، ورقم ٣٣٥٧ و٣٣٥٨ في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ٨/ ١٦٧-١٦٨، ومسلم برقم ٢٣٦٩ في كتاب الفضائل باب من فضائل إبراهيم ﷺ، وتمام الحديث واللفظ لمسلم: (فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة ـ وكانت أحسن الناس ـ فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلم غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، أتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأتي بها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت، فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك ففعلت، فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك ففعلت وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر، قال: فأقبلت تمشي فلما رآها إبراهيم عليه السلام، انصرف فقال لها: مهيم؟ قالت: خيرا كف الله يد الفاجر، وأخدم خادما، قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء). قال النووي رحمه الله تعالى: أي وهبني خادما، وهي هاجر ويقال: آجر بمد الألف، والخادم يقع على الذكر والأنثى، وقوله (مهيم): أي ما شأنك وما خبرك. انظر شرح صحيح مسلم ١٥/ ١٢٥.

(٣) أطنب المفسرون وأفاضوا في الحديث والتعليل عند قوله تعالى فيما حكاه عن إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وحملوه على المعاريض لئلا ينسب الكذب إلى إبراهيم عليه السلام، ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى في الظلال ٤/ ٢٣٨٧: (والتهكم واضح في هذا الجواب الساخر، فلا داعي لتسمية هذه كذبة من إبراهيم عليه السلام، والبحث عن تعليلها بشتى العلل التي اختلف عليها المفسرون، فالأمر أيسر من هذا بكثير)، ثم بين أنه أراد أن يعلمهم بأن هذه التماثيل لا إدراك لها أصلا، وكلام الرازي في مفاتيح الغيب=

* جرت عادة المنهزمين أمام الحجة والبرهان، أن يستعملوا قوتهم في البطش والطغيان، انتقاما وتشفيا، [(١)] وهكذا فعل قوم إبراهيم معه، ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ ﴾، كما أراد فرعون أن يفعل مع موسى عليه السلام ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وكما فعل مع السحرة حين آمنوا ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٩]، وكما فعل المشركون من قريش مع رسول الله ﷺ حين عجزوا عن معارضة القرآن الكريم، وكما يفعل الحكام الظلمة في زماننا مع الدعاة والمصلحين، إنها ذريعة المبطل المهزوم أمام صولة الحق المبين.

* صدق اللجوء إلى الله تعالى سبب مهم من أسباب النجاة والفوز، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾[(٢)] [آل عمران: ١٧٣].

* يعد إبراهيم أول من هاجر في سبيل الله تعالى مع لوط عليهما السلام، وبه يظهر شرف الهجرة وفضلها، وقد تجب إذا لم يتمكن من أداء ما افترض الله تعالى عليه، أو خشي فتنة في دينه، قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: وفي هذه الآية ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا ﴾ دليل على أن الفرار بالدين من دار الكفر إلى بلد يتمكن فيه الفار بدينه من إقامة دينه واجب، وهذا النوع من الهجرة وجوبه باق بلا خلاف بين العلماء في ذلك[(٣)].

* في الهجرة إلى الأرض المباركة إشارة إلى فضيلة بلاد الشام، عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع، فقال رسول الله ﷺ يوما

=٢٢/ ١٨٥-١٨٦ قريب من هذا، فهو إذن مما صورته صورة الكذب.

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ١٠٥، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٧.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٤٥٦٣ في التفسير ـ باب ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ ١٠/ ١١٧.

(٣) انظر أضواء البيان ٤/ ٥٩١.

ونحن عنده: (طوبى للشام، فقلنا: لأيّ ذلك يا رسول الله؟ قال: لئن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليه)(١).

* يخطئ من يتصور أن قضية التوحيد جاءت في مرحلة متأخرة، وأن إبراهيم عليه السلام هو مؤسس الدعوة إلى توحيد الخالق جل وعلا، بل التوحيد قضية من القضايا الفطرية التي فطر الخلق عليها قبل خلق الإنسان، بل قامت عليها السموات والأرض، وهاهم الملائكة قبل أن يخلق آدم ـ كما جاء في القرآن ـ يقولون: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠](٢).

المجموعة الثالثة: قصة لوط عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٤-٧٥].

التفسير الإجمالي:

تتحدث هذه المجموعة المباركة من الآيات عن نبي كريم من أنبياء الله تعالى وهو لوط عليه السلام، الذي سبق ذكره في هجرته مع إبراهيم عليه السلام، حيث إن الله تعالى اصطفاه واختاره رسولا إلى أهل سدوم وما حولها، وكانت سبع قرى أهلها أهل سوء، ابتدعوا فاحشة منكرة ما سبقهم بها أحد من العالمين، ألا وهي إتيان الذكور بدل النساء في قضاء الشهوة، وهو ما يسمى بالشذوذ الجنسي، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا

(١) أخرجه الترمذي برقم ٣٩٥٤ وقال: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث يحيى بن أيوب ٥/ ٧٣٤، وأحمد برقم ٢١٦٤٧ (٥/ ١٨٤)، وابن أبي شيبة برقم ١٩٤٤٨ في فضل الجهاد ٤/ ٢١٨.

(٢) انظر قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية ص١٥٣-١٥٤.

سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]، ولم يكتفوا بهذا الشذوذ بل جمعوا إليه منكرات أخر، قال تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، ومن أخبث جرائمهم تكذيب نبي الله لوط ﷺ، وعزمهم على إخراجه وإخراج من آمن به لا لشيء إلا لأنهم يترفعون عن الوقوع في ما وقعوا فيه من السوء والانحراف، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٢].

لقد آتى الله تعالى لوطا حكما وعلما لصبره وصلاحه، فهو يقضي به على بصيرة، ونجاه سبحانه وتعالى من أهل تلك القرية التي خرجت عن سنن الفطرة في قضاء الشهوة، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٢].

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* إن لوطا ﷺ من أنبياء الله الكرام عليهم الصلاة والسلام، وفي هذه الآيات رد على افتراءات اليهود عليه والقدح في عصمته ﷺ، فقد جاء في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين: أن ابنتي لوط سقتا أبيهما خمرا، فزنى بهما، وحملتا منه، وولدت كل واحدة منهما ولدا، ابن الكبيرة أبو اللوابيين، وابن الصغيرة أبو بني عمون إلى اليوم(١).

* كل ما حرمه الله تعالى على عباده فهو من الخبيث الضار، وقد جرّت الممارسات الجنسية غير الشرعية على البشرية شرا مستطيرا، وما مرض الإيدز(٢) الخطير إلا مثال واضح على

(١) انظر الإسرائيليات في التفسير والحديث للدكتور الذهبي ص٣١.

(٢) الإيدز: وهو مرض فيروسي يصيب الخلايا الليمفاوية المناعية، فيعطل وظيفتها ونشاطها المقاوم لشتى الأمراض الميكروبية والفيروسية الأخرى، مما يجعل الجسم مرتعا خصبا وفريسة سهلة للأمراض الانتهازية والأورام الخبيثة. انظر قصة الإيدز للأستاذ رفعت كمال ص١٣، وقد قتل هذا المرض=

أن الشرائع السماوية إنما جاءت في مصالح العباد.

* العلم النافع شرف عظيم، وما من نبي إلا وقد وهبه الله تعالى من العلم ما يقضي به بين الناس على بصيرة.

* جرت سنة الله تعالى أن يهلك المفسدين، ولذا ورد التحذير بعد إهلاك قوم لوط بقوله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣]، غير أن هذه الأمة قد حماها الله من عذاب الاستئصال.

المجموعة الرابعة: قصة نوح عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

التفسير الإجمالي:

ذكر الله تعالى نوحا بعد ذكر موسى وهارون وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام، حيث لم يرد التسلسل التاريخي في هذا القصص، وإنما أريد أخذ العبرة والعظة، فنوح عليه السلام قبل كل الأنبياء المذكورين في هذه السورة الكريمة، وأطولهم عمرا في الدعوة إلى التوحيد أهم موضوعات هذه السورة وأبرزها، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات: ٧٥-٧٧] وغيرها من الآيات.

لقد أصاب نوحا ما أصابه من الهم والكرب، من جراء تعنت قومه وعدم استجابتهم له،

=الخبيث عدداً كبيراً من الناس، وبلغ عدد المصابين به في العالم إلى هذا العام (٢٠٠٧م) نحو أربعين مليون مصاب!!

مع هذه المدة الطويلة التي استغرقت ألف سنة إلا خمسين عاما، سالكا معهم كل سبل التذكير ووسائل النصح، ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾ [نوح: ٥-٩]، فرحمه الله تعالى فنجاه من ذلك الكرب الشديد، وحماه من أهل السوء، مع أهله والمؤمنين ما خلا زوجته وابنه الذين كانا مع القوم الظالمين، فأغرقهم الله تعالى أجمعين.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* جعل الله تعالى في قصة نوح عظة بالغة، ودرسا مهما في الصبر، وإذا علمنا أن الكرب هو أقصى الغم، علمنا ما كان يعانيه نوح ﷺ من الشدة والبلاء.
* إهلاك المكذبين والمفسدين واستئصال شأفتهم، سنة إلهية في الأمم السابقة، ولولا عصمة هذه الأمة من ذلك لأصابها ما أصاب الأمم من قبل.
* لم يدع نوح على قومه إلا بعد أن أخبره الله تعالى بعدم إيمانهم، قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [هود: ٣٦].
* في هذا النص الكريم إلماحة لرسوله محمد ﷺ، بأنه إذا اشتد عليه أمر كفار قريش ونادى ربه كما نادى نوح ربه، استجاب له ونجاه ونصره(١).

(١) انظر نوح ﷺ وقومه ص ٢٤٦.

المجموعة الخامسة: قصة داود وسليمان عليهما السلام

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ
شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ
وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ
شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ
﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ
﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٨٢].

التفسير الإجمالي:

تتحدث هذه المجموعة المباركة عن النبيين الكريمين الأب داود وابنه سليمان عليهما السلام، وتبين ما أنعم الله تعالى به عليهما من النعم الكثيرة، وأعظمها العلم الذي به تستنبط الأحكام ويعرف الحلال والحرام، وبدأت الآيات بقصة الحرث الذي رعته الغنم، وكيف أن الله تعالى فهم سليمان الحكم الصائب الذي رجع إليه داود(١).

ثم إن النعم على النبيين الكريمين، منها ما هو مشترك بينهما كالنبوة والحكم والعلم ومنها ما هو خاص بأحدهما، حيث خص الله تعالى داود بالصوت الجميل، وسخر له الجبال والطير يرددن معه التسبيح، وعلمه صنعة الدروع، وكانت دروعا متميزة قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ

---

(١) خلاصة هذه القصة كما في مدارك التنزيل ٣/ ٨٥: (أن الغنم رعت الحرث وأفسدته بلا راع ليلا، فتحاكما إلى داود فحكم بالغنم لأهل الحرث، وقد استوت قيمتاهما أي: قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من الحرث، فقال سليمان ـ وهو ابن إحدى عشرة سنة ـ: غير هذا أرفق بالفريقين، فعزم عليه ليحكمن فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، والحرث إلى رب الغنم حتى يصلح الحرث ويعود كهيئته يوم أفسد، ثم يترادان فقال: القضاء ما قضيت، وأمضى الحكم بذلك، وكان ذلك باجتهاد منهما).

﴿ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [سبأ: ١١]، قال قتادة: كانت الدروع قبل داود ثقالا، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفة والحصانة[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ قال: كالعجين[2].

وخص سليمان بتسخير الرياح التي جعلها الله تجري بأمره إلى الأرض المباركة، إن شاء قوية وهو ما ذكرته الآية هنا، وإن شاء فلينة هادئة قال تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص: ٣٦]، كل ذلك بعلم الله المطلق المتعلق بكل شيء، وسخر له الجن الذين يغوصون في قاع البحار، ويعملون أعمالا دون ذلك، سامعين مطيعين يسخرهم كيف يشاء قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ ﴾ [ص: ٣٧-٣٩]، ومع هذا فإن الله تعالى كان حافظا لهم فلا يستطيعون هربا ولا إفسادا.

ولقد كان النبيان الكريمان شاكرين لله تعالى، وذلك من تمام معرفتهما بالله تعالى وتوحيده.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* الابتلاء كما يكون بالنقمة يكون بالنعمة، فهذا سليمان عليه السلام يقول كما حكى الله تعالى عنه: ﴿ لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، ومن حكم الشعر:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت		ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[3]

* بشرية الرسل ثابتة، وحاجتهم إلى معونة الله تعالى وهدايته ظاهرة، يتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ وقوله: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ﴾ وقوله ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ

---

(١) انظر فتح القدير ٤/ ٣١٦.

(٢) أخرجه ابن المنذر كما في المرجع السابق ٤/ ٣١٨.

(٣) انظر الصناعتين ١/ ٢٢٧، وفيات الأعيان ٢/ ٢٥.

لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ ونظائرها، وفيه رد على المشركين في قولهم ما حكاه الله تعالى عنهم في أول السورة: ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾.

* عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ قال: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر)[١]، قال الحسن البصري رحمه الله تعالى بعد أن قرأ هذه الآية ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾: فحمد سليمان ولم يلم داود، ولولا ما ذكر الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة هلكوا، فإنه أثنى على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده[٢].

* جعل الخلاف في فروع العبادات والمعاملات مثار فرقة وهجاء، يغاير منهج القرآن الذي رأيت[٣].

---

(١) أخرجه مسلم برقم ١٧١٦ في كتاب الأقضية ـ باب أجر الحاكم إذا اجتهد ٣/ ١٣٤٢.

(٢) أخرجه البخاري تعليقا في كتاب الأحكام باب: متى يستوجب الرجل القضاء ١٦/ ٥١١. وتعقبه ابن المنير: بأن فيه نقصا لحق داود، قال: والأصح في الواقعة أن داود أصاب الحكم وسليمان أرشد إلى الصلح، غير أن ابن حجر قال: ومن تأمل ما نقل في القصة ظهر له أن الاختلاف بين الحكمين كان في الأولوية لا في العمد والخطأ، ويكون معنى قول الحسن «حمد سليمان» أي لموافقته الطريق الأرجح، «ولم يلم داود» لاقتصاره على الطريق الراجح. انظر فتح الباري ١٦/ ٥١٤.

(٣) انظر نحو تفسير موضوعي ص٢٥٦.

المجموعة السادسة: قصة أيوب عليه السلام

قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

التفسير الإجمالي:

بهذا النداء الذي جاء على غاية الأدب، المنبئ عن الصدق في العبودية، ومعرفة مقام الربوبية، دون شائبة ضجر أو اعتراض، عرض أيوب عليه السلام حالته أمام ربه، وقد وصف نفسه بالضعف والافتقار، وربه بالرحمة المطلقة ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

عن أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعا: أن نبي الله أيوب ابتلي فلبث في بلائه ثماني عشرة سنة.. فوثب ليصلي فلم يقدر على النهوض فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾، إخبارا عن حاله، لا شكوى لبلائه(١).

لقد رحم الله تعالى استعطاف أيوب عليه السلام، فكشف بلاءه وأزال ضره، وآتاه ما سلب منه مضاعفا، مالا أكثر من ماله، وولدا ضعف ولده(٢)، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص: ٤١-٤٤].

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢٣/ ١٦٧، وأبو نعيم ٣/ ٣٧٤-٣٧٥، وابن حبان ٤/ ٢٤٥، والحاكم ٢/ ٥٨١، والبزار٣/ ١٠٧-١٠٨، والضياء المقدسي كما نقله الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٢٥.
وهذا أحسن ما جاء في قصة أيوب عليه السلام، وفيه غنى عن الاسرائيليات الكثيرة التي ينزه عنها نبي الله أيوب عليه السلام.

(٢) أخرج ابن جرير بسند صحيح عن الحسن وقتادة ١٠/ ٧٣ قالا: أحيا الله أهله بأعيانهم، وزاده إليهم مثلهم.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* في قصة أيوب ﷺ ما يفيد أن الابتلاء الذي أصاب الأنبياء على أنواع، فمنه ما كان بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح، ومنه ما كان بالنعمة كما في قصة داود وسليمان، ومنه ما كان بالضر كما في قصة أيوب(١)، وفي كل يفزع الأنبياء عليهم السلام إلى ربهم طالبين منه وحده النصر ورفع البلاء.

* الأنبياء منزهون من الأمراض المنفرة، وما حل بأيوب ليس فيه شيء من ذلك، إنما كان ابتلاء عظيما فوق العادة، فكان أيوب غاية في الصبر، حتى إن المثل ليضرب به في ذلك.

* الدنيا دار ابتلاء، والمؤمن أكثر عرضة لذلك من غيره، فعن النبي ﷺ وقد سئل: أيّ الناس أشدّ بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا، اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض، ما عليه خطيئة)(٢).

* الشكوى إلى الله تعالى لا تقدح في الصبر، قال سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: من شكا إلى الله تعالى فإنه لا يعد ذلك جزعا، إذا كان في شكواه راضيا بقضاء الله تعالى، إذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء، ألم تسمع قول يعقوب ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦](٣).

* في الصحيح عن النبي ﷺ قال: (بينما أيوب يغتسل عريانا، فخرّ عليه جراد من ذهب فجعل يحتثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٢.

(٢) أخرجه الترمذي ـ واللفظ له ـ برقم ٢٣٩٨ في كتاب الزهد ـ باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال: هذا حديث حسن صحيح ٤/ ٥٢٠، وأحمد برقم ٢٧١٢٤ (٦/ ٣٩٦)، والحاكم برقم ١١٩ مطولا وقال: صحيح على شرط مسلم ١/ ٩٩، وابن حبان في صحيحه برقم ٢٩٠٠ (٧/ ١٦٠).

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ٢٠٩، ولم أقف عليه في تفسير ابن عيينة.

غنى بي عن بركتك)(١).

* في قوله تعالى: ﴿ وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴾ دلالة على أنه تعالى فعل ذلك لكي يتفكر فيه فيكون داعية للعابدين في الصبر والاحتساب، وإنما خص العابدين بالذكر، لأنهم يختصون بالانتفاع بذلك(٢).

المجموعة السابعة: قصة إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام.

قال تعالى: ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦].

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله تعالى قصة أيوب عليه السلام، أتبعه بذكر جماعة من الأنبياء صبروا كصبره، وهم إسماعيل، وإدريس، وذو الكفل عليهم السلام، أما إسماعيل فأبرز ما جاء في صبره تسليمه لأبيه الخليل عليه السلام في قصة الذبح، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وأما إدريس فلم نقف على شيء صحيح في صبره، غير أنا نعلم أنه كان من الصابرين على نحو من أنحاء الصبر الذي يستحق التسجيل في كتاب الله الباقي(٣) وقد مدحه الله تعالى بقوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ ﴾ [مريم: ٥٦]، وأما ذو الكفل(٤) ـ الذي قيل إن اسمه إلياس ـ، فمن صبره ما ذكروا من أنه تكفل أن يقوم

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه انظر رقم ٢٧٩ في كتاب الغسل باب من اغتسل عريانا ٢/ ٤٧، وأخرجه الحاكم بنحوه في كتاب التاريخ ـ ذكر أيوب عليه السلام ٢/ ٥٨٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه !!

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ٢١٠.

(٣) انظر الظلال ٤/ ٢٣٩٣.

(٤) الذي اختاره ابن جرير ١٠/ ٧٣: أنه رجل صالح تكفل إما من نبي وإما من ملك من صالحي الملوك =

الليل ويصوم النهار، ولا يغضب في القضاء، فوفى بها تكفل به.

فهؤلاء الثلاثة عليهم السلام، كانوا مثالا يحتذى في الصبر، ولذا استحقوا أن يعطفوا على أيوب عليه السلام، وأن يذكروا في الصالحين.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

إن بعض ما تقدم في قصة أيوب عليه السلام يصلح أن يدرج هنا، ويمكن أن نضيف:

* إن في اقتران الصبر والصلاح تنبيه على أهمية هاتين الصفتين في حياة العابدين، والدعاة والمصلحين.
* من شارك الصالحين في شيء من صفاتهم، ألحق بهم بفضل الله تعالى، وفي هذا حث للتأسي بالصالحين، ومتابعتهم في أعمالهم الصالحة.

المجموعة الثامنة: قصة يونس عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

التفسير الإجمالي:

ذو النون هو يونس بن متى ـ عليه السلام ـ، والنون نسبة إلى الحوت الذي التقمه، في قصته التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٢]، وأحسن ما جاء فيها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: بعثه الله إلى أهل قريته

= بعمل من الأعمال فقام به من بعده، فأثنى الله عليه حسن وفائه بما تكفل به، ثم ساق الآثار الدالة على ذلك.

فردوا عليه ما جاءهم به فامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه أني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا، فاخرج من بين أظهرهم، فأعلم الذي وعده الله من عذابه إياهم، فقالوا: ارمقوه فإن هو خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم، فلما كانت الليلة التي وعدوا العذاب في صبيحتها، أدلج فرآه القوم فحذروا فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم، وفرقوا بين كل دابة وولدها ثم عجوا إلى الله وأنابوا، واستقالوا فأقالهم، وتنظّر يونس الخبر عن القرية وأهلها، حتى مر به مار فقال: ما فعل أهل القرية؟ قال: فعلوا أن نبيهم لما خرج من بين أظهرهم عرفوا أنه قد صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض، ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها، ثم عجوا إلى الله فقبل منهم، وأخر عنهم العذاب[١].

ومن ثم ذهب مغاضبا من أجل ربه، ولم يدر بخلده أن يضيق الله تعالى عليه[٢]، ويقدّر عليه كل ما حلّ به، فقوله تعالى ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي: فظن ألن نقدّر عليه أي نقضي عليه[٣]، فما كان منه وقد رأى نفسه في ظلمات ثلاث ـ ظلمة الليل وظلمة قعر البحر وظلمة بطن الحوت[٤] ـ إلا أن يفزع إلى ربه، ويهتف بقوة وإلحاح بهذا الدعاء الذي تجلى فيه التوحيد والتنزيه والافتقار: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، فما كان من أبواب السماء إلا أن تفتح، ويأتيه الفرج سريعا ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾، وكما

---

(١) انظر رقم ٣٢٧٣ في تفسير سورة يونس ﷺ لابن أبي حاتم الرازي بتحقيقنا ص ٤٢٠-٤٢٣، وهو حسن بشواهده.

(٢) اختاره ابن جرير ١٠/ ٧٨و٧٩ كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ الطلاق/ ٧.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٧ قال: فإن العرب تقول: قدر وقدّر بمعنى واحد قال الشاعر:

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى ... تباركت ما تقدر يكن ذلك الأمر

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ القمر/ ١٢ أي قدّر.

(٤) أخرجه الحاكم وصححه عن ابن مسعود برقم ٣٤٤٥ في تفسير سورة الأنبياء ٢/ ٤١٥، وأخرجه أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا كما في فتح القدير ٣/ ٤٢٤.

كشف الله تعالى عنه الكرب الشديد، فإنه سيكشفه عن جميع الموحدين، المتأسين بيونس في دعائه في السراء والضراء، فيفزعون إلى الله وحده في كل حال، ولا يفزعون إلى أحد سواه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* الصدق في الدعاء سبب النجاة من كل كرب وشدة، وفي دعوة يونس ﷺ إرشاد وتعليم، قال ﷺ: (دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له)(١).

* من ظن أن الله تعالى لن يقدر عليه من القدرة، أي: يعجز تعالى عن ذلك، فقد كفر بالله تعالى، والأنبياء عليهم السلام ينزهون عن هذا، فهو من القدر لا من القدرة.

* الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى صبر وأناة، وجد ومثابرة، وترفع عن الغضب والضجر فمن لا يستجيب اليوم قد يستجيب غدا، والداعية سبب والهادي هو الله جل في علاه.

* الندم والاعتراف بالتقصير ديدن عباد الله الصالحين، متأسين بأبيهم آدم ﷺ، بعيدين عن دأب إبليس في العناد والإصرار.

* دعاء يونس شبيه بدعاء أيوب عليهما السلام، في إظهار كمال الربوبية، وضعف البشرية وهذا القدر يكفي في السؤال على ما قال المتنبي:

وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب(٢)

---

(١) أخرجه أحمد برقم ١٤٦٢(١/ ١٧٠)، والترمذي برقم ٣٥٠٥ باب ٨٢(٥/ ٥٢٩)، والنسائي برقم ١٠٤٩٢ ذكر دعوة ذي النون ٦/ ١٦٨، والحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ـ كتاب التفسير ٢/ ٣٨٣، وقال الذهبي: صحيح، والبيهقي في الشعب برقم ٦٢٠ فصل في إدامة ذكر الله عز وجل ١/ ٤٣٢، وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه، وانظر فتح القدير ٣/ ٤٢٤.

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ٢١٦، وفيه: كلام بدل بيان، وديوان المتنبي ص ٤٨١.

المجموعة التاسعة: قصة زكريا وابنه، ومريم وابنها عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩١].

التفسير الإجمالي:

زكريا نبي كريم من كبار أنبياء بني إسرائيل، تقدمت قصته مفصلة في سورتي آل عمران ومريم، وتشير الآية هنا إلى أنه دعا ربه بإلحاح وضراعة شديدة، دعاء ممتزجا بثناء، بأن لا يجعله فردا بلا أنيس ولا معين، فطلب أن يرزقه ولدا يؤنسه في وحدته، ويعينه في كبره، ويخلفه في عبادة ربه ودعوة الناس إليه.

فآتاه الله سؤله، وأصلح له زوجه، حيث زالت موانع الولادة، وتهيأت للحمل بعد أن كانت عاقرا لاتلد[١]، فأنجبت ولدا صالحا كان قرة عين لوالديه.

وقد مدحه الله تعالى وأهل بيته[٢] بخير ما يمدح به عباده الصادقين، وهو المسارعة في

---

(١) فالواو في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ - كما يقول أهل العربية - لا تفيد الترتيب.

(٢) يرى بعض المفسرين أن المدح هنا لكل الأنبياء السابقين، ولعل ما ذكرناه عن جمهور العلماء أرجح، ومما يؤيده ما أخرجه ابن أبي شيبة برقم ٣٤٤٣١ (٧/ ٩١)، والحاكم مطولا وقال: هذا حديث صحيح الإسناد - كتاب التفسير ٢/ ٣٨٣-٣٨٤ وقال الذهبي: عبد الرحمن بن إسحاق كوفي ضعيف، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب - كما في فتح القدير ٣/ ٤٢٧ - عن عبد الله بن عكيم قال: خطبنا أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، أن تثنوا عليه بما هو له أهل، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾.
أقول: ولو كان يعم الجميع لذكر بعد قصة مريم وابنها عليهما السلام، والله تعالى أعلم.

طاعة الله تعالى، والفزع إليه طمعا في ثوابه، وخوفا من عقابه، مع ما كانوا عليه من الخشوع الذي ملأ قلوبهم، فهو لا يفارقاها أبدا[١].

وبعد قصة زكريا جاءت آية عظيمة مقرونة ومرتبطة بها، تظهر عظيم قدرة الله تعالى في إيجاد ولد من أنثى بدون قربان ذكر، بعد أن ذكر الله تعالى إيجاد ولد من شيخ كبير، وعجوز عقيم، فكانت أعجب منها وأعظم، آية فذة غير مسبوقة ولا ملحوقة[٢] !!

وقصة مريم عليها السلام تقدمت مبسوطة في السورة التي سميت باسمها، وقد أكد النص هنا عفتها، وصيانة فرجها عن الحلال والحرام، وبيان سر النفخ غير محدد الموضع، الذي كان سببا في تحرك الجنين في أحشائها!! فكانت دلالة واضحة على قدرة الله تعالى، وأنه يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد سبحانه وتعالى.

الدروس والعبر من هذه المجموعة:

* جاء دعاء زكريا كدعاء أيوب عليهما السلام على غاية من الأدب، فكأنه يقول: يا رب إن لم ترزقني من يرثني، فلا أبالي فحسبي أنت، فإنك خير وارث، وخير سند[٣].

* سارع الله تعالى في إجابة دعاء زكريا ﷺ، لأنه كان يسارع في ما يرضي الله، وفي ذلك تعليم لمن أراد أن يسارع الله تعالى في إجابة دعائه.

* في قوله تعالى: ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ وقوله في دعاء أيوب ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ استحباب ذكر صفة من صفات الله تعالى عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها[٤].

* لم تذكر مريم باسمها هنا، لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها عليهما السلام، وقد

(١) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ٢١٧، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣١٠.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١٠، وفي ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٥.

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٢/ ٢١٧، وقبس من نور القرآن ص٦٧.

(٤) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ١٣٥.

جاءت هي تبعا له في السياق الكريم[1].

* في قوله تعالى: ﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾، تنزيه لها عن كل ما رماها به اليهود مع يوسف النجار الذي كان معها في خدمة الهيكل[2].
* في قوله تعالى: ﴿ ءَايَةً ﴾ بالإفراد، إشارة إلى أن بين مريم وابنها حالة مشتركة هي آية واحدة، ثم في كل منهما آية أخرى مستقلة باختلاف حال الناظر المتأمل[3].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

يؤكد هذا المقطع الكريم بشرية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن الله تعالى قد ابتلى بعضهم بالسراء فشكروا، وابتلى آخرين بالضراء فصبروا، وأنهم كانوا على درجة عالية في صدق التوجه إلى الله الذي لا رب سواه، وإخلاص الدعاء له سبحانه وتعالى، ونسبة النعم إليه، والتسليم المطلق والرضا التام بقضائه وقدره، لما يعلمون من أن مرجعهم ليس إلا إليه، وما حسابهم إلا عليه، فأصبحوا بذلك قدوة حسنة للخلق في السراء والضراء، وحجة على المكذبين بالمعاد والجزاء.

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٥.
(٢) المرجع السابق.
(٣) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ١٣٩.

المقطع السادس: وحدة الملة وعدل الجزاء

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟
أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ
شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾
إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ
ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ
أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى
كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ
نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا
عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٢-١٠٦].

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

لما ذكر الله تعالى قصص جملة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بما يدل على أن له القدرة الباهرة، والقوة البالغة الشاملة للبعث وغيره، وكان ذلك دالا على التوحيد الذي هو أصل الدين، وأنهم كلهم متفقون عليه، أعقبه بهذا الخطاب الدال على أن دين الإنسانية واحد، وأنه يجب اتباع الأنبياء في ذلك التوحيد(١).

وذكر أيضا أن أمة التوحيد واحدة، وأوجب على عباده اتباع أنبيائه في هذا التوحيد، وبين حال العباد يوم القيامة، وأن لا نجاة إلا لمن التزم المنهج ممن سبقت له السعادة.

---

(١) انظر نظم الدرر بتصرف ١٢/ ٤٧٦-٤٧٧.

التفسير الإجمالي:

هذا المقطع كسابقه وثيق الصلة بمحور السورة، حيث إن الله تعالى يبين فيه أن الدين الحق واحد، وهو قدر مشترك بين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا يختلفون في شيء من أصول التوحيد أو الأخلاق أو العبادات، وإنما يختلفون في الفروع التي جاءت وفق ما يناسب أزمنتهم وأقوامهم، كما قال النبي الخاتم ﷺ: (والأنبياء إخوة لعَلات(١)، أمهاتهم شتى ودينهم واحد) (٢)، يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له، بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة: ٤٨](٣).

وما الاختلاف الحاصل بين الأمم، إلا نتيجة الاختلاف على الرسل، مما أدى إلى التفرق، وما علموا أن مصيرهم وعاقبة أمرهم إنما هو الرجوع إلى الله وحده، وهو الذي يتولى حسابهم وجزاءهم، وفيه وعيد لهؤلاء المتفرقين، ووعد لأولئك الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح على هدي أنبيائهم، فإن الله تعالى لا يبطل ثواب أعمالهم، بل يحصيه لهم كاملا غير منقوص، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠].

والرجوع إلى الله حقيقة لا مناص منها، واستحالة الرجوع إلى الدنيا بعد ذلك فكذلك(٤) وسيظل امتناع رجوعهم إلى الحياة حتى اختلال نظام الحياة، يوم يخرج يأجوج ومأجوج، تلك القبائل المفسدة والموجات البشرية، التي تتدفق من كل مكان مرتفع من الأرض، تسرع في

---

(١) في رواية: أولاد علات، وأولاد العلات ـ بفتح العين ـ: الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد، أراد أن إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة. النهاية ٣/ ٢٩١ مادة: علل.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري واللفظ له برقم ٣٤٤٣ كتاب أحاديث الأنبياء ـ باب ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ ٨/ ٣٠٨، ومسلم برقم ٢٣٦٥ باب فضل النظر إليه ﷺ ٤/ ١٨٢٧.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣١١.

(٤) هذا بناء على أن {لا} هنا زائدة، وذهب بعضهم إلى أنها غير زائدة، والمراد: أنهم لا يتوبون، قال ابن كثير ٣/ ٣١١: والقول الأول أظهر.

النزول، وتكتسح كل شيء أمامها، فلا يمرون بماء إلا شربوه، ولا بشيء إلا أفسدوه(١)، وذلك لدى اقتراب الساعة ونهاية الحياة(٢)، يومئذ يبعث الناس من قبورهم فتتكشف الحقائق، فإذا الذين كفروا من هول الموقف شاخصون بأبصارهم، ينادون بالويل والثبور، معترفين بظلمهم إذ وضعوا العبادة في غير موضعها.

وتأتي حقيقة مآلهم، حيث النار وبئس القرار، ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ أي شجرها الذي توقد به، كما قال تعالى: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم:٧] وإنما حشرت معبوداتهم معهم - وهي لا تعقل - تبكيتا لهم، بأنها لو كانت آلهة صحيحة لما وردت النار ولما دخلتها، وليزدادوا غما وحسرة حيث أصابهم ما أصابهم بسببها(٣).

ولما كان ممن عبد من دون الله من لا يرضى بعبادتهم كالملائكة وعزير وعيسى عليهم السلام، (٤) قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾، فهم في أمان من النار، لا يذوقون عذابها، ولا يسمعون صوت لهيبها، وفي اطمئنان ببشرى الملائكة بالنعيم المقيم. وأنه لا يصيبهم من أهوال يوم القيامة والفزع الأكبر ما يحزنهم، ذلك اليوم الرهيب المذهل، يوم تطوى صفحة الكون كما تطوى صحيفة الكتاب، فهؤلاء الذين سبقت

---

(١) أخرجه الحاكم مطولا في كتاب التفسير - تفسير سورة الأنبياء ٢/ ٣٨٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي صحيح.

(٢) للعلماء كلام طويل عن يأجوج ومأجوج، لا يناسب ذكره في هذا المقام، انظر بسط ذلك ومناقشته في التحرير والتنوير ١٧/١٤٨-١٥١، ومباحث في التفسير الموضوعي ص ٣١٥-٣٢١ فقد رجح أن الذين يخرجون قبيل الساعة هم من نسل يأجوج وماجوج الذين حجزوا خلف سد ذي القرنين، وانظر نحو تفسير موضوعي ص ٢٥٧.

(٣) انظر الكشاف ٢/ ٥٨٤، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣١٥.

(٤) انظر في سبب النزول ما أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ١/ ٤٣١، والطبراني في الكبير ١٢/ ١٥٣، قال في الصحيح المسند ص١٣٧: صحيح لغيره، وأخرجه الحاكم في تفسير سورة الأنبياء ٢/ ٣٨٥ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح.

لهم الحسنى هم المراد من الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [النمل: ٨٧][(١)].

وإعادة الخلق كما بدئ أمر كائن لا محالة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وذلك للجزاء العادل، قال تعالى: ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٨-٤٩].

ثم بين الله تعالى سنته في وراثة الأرض، بهذا السياق المؤكد المكتوب في كتبه السابقة من التوراة والزبور، بأن هذه الأرض[(٢)] لا تكون عاقبة ميراثها إلا لعباد الله الصالحين، الذي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ومنه عمارة الأرض وإصلاحها، قال سيد قطب رحمه الله تعالى: (وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة، وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالا ماديا، ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق، والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين، الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح، فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم)[(٣)].

ويختم هذا المقطع الكريم بذكر عباد الله الصالحين الذين عبدوا الله تعالى بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعته سبحانه وتعالى على طاعة الشيطان، وشهوات أنفسهم، فكان في هذا القرآن منفعة لهم وكفاية [(٤)].

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧/ ١٥٧.

(٢) مشينا في هذا على قول من يقول: إن المراد بالأرض أرض الدنيا، ولعله هو الراجح لمناسبته للسياق، وهناك من يقول: إن المراد بها أرض الجنة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ الزمر/ ٧٤، وانظر نحو تفسير موضوعي ص ٢٥٧.

(٣) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٠.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢١.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* وحدة الأمة إنما تقوم على التوحيد، وبدونه ينشأ الاختلاف والتفرق.
* إن دين الإسلام هو الدين الوحيد الذي يجمع كل الشرائع، فيجب أن يتمسك به جميع الناس.
* الإيمان والعمل الصالح مقترنان، وبهما تتحقق سعادة الأبد.
* من مقتضيات الإيمان، التصديق بما جاء به محمد ﷺ، لأنه هو الذي بين للناس كيفية الاستسلام لكلمة التوحيد والعمل بها(١).
* المقصد الأعظم من بعثة الرسل، هو تحقيق توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له والإسلام بمعناه العام دين جميع الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.
* الاختلاف في أمر الدين سبب الهلاك والخسران.
* في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ تمثيل بديع، فقد مثل لاختلاف الأمم في الدين، وتفرقهم فيه إلى شيع وأحزاب بجماعة تنازعوا ثوبا، فاقتطع كل واحد منهم قطعة، فأصبح مزقا بالية، وهكذا حال الأمم جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا، حسب الأهواء والمشتهيات، وهذا من لطيف الاستعارة(٢).
* المقارنة بين المؤمنين والكفار وما أعد الله لكل منهما، من عادة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، وفيه إشارة إلى أن في الآخرة دارين لا ثالث لهما.

هما محلان ما للمرء غيرهما ... فاختر لنفسك أيّ الدار تختار(٣)

---

(١) انظر كلمة التوحيد ص ١٠٤.

(٢) انظر قبس من نور القرآن ص ٧١ هامش١.

(٣) هذا البيت مذكور في ديوان صالح عبد القدوس، وهناك بيتان لأبي العتاهية، كما في ديوانه ص ١٦، مرتبطان به، وهما: =

* الأرض وما فيها ملك للمسلمين الموحدين، وما غلبة الكفار عليها في وقت من الأوقات إلا اغتصاب للحق، يقتضي أن تتضافر الجهود لاستنقاذه واسترجاعه، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[النور: ٥٥][١].

* ليست عمارة الأرض واستغلال ثرواتها هو وحده المقصود، ولكن المقصود هو هذا مع العناية بضمير الإنسان، ليبلغ الإنسان كماله المقدر له في هذه الحياة، فلا ينتكس حيوانا في وسط الحضارة المادية الزاهرة[٢].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

في هذا المقطع دعوة صريحة إلى عبادة الله وحده سبحانه وتعالى، وبيان صريح في وجود الحياة الآخرة، وأن الجزاء العادل حاصل لا محالة، وأن أهل الخير وأهل الشر في ذلك على حد سواء، فهذا المقطع كما قلنا وثيق الصلة بمحور السورة الكريمة.

=

المـوت بـاب وكـل الـنـاس داخـلـه		يا ليت شعريَ بعد الباب ما الـدار؟

الـدار جـنـة خـلـد إن عـمـلـت بمـا		يـرضي الإلـه وإن قـصّرت فالنار

قال الأستاذ جعفر خريباتي في كتابه: أبو العتاهية حياته وشعره ص ٧٥-٧٦: (وقيل اجتمع الخلفاء الراشدون ـ رضي الله تعالى عنهم ـ فقال أبو بكر من نوع الإجازة: الموت باب (البيت الأول)، فأجازه عمر بن الخطاب بقوله: الدار جنة خلد (البيت الثاني)، فأجازه عثمان: هما محلان (البيت الثالث)، فأجازه علي بن أبي طالب:

مـا للعباد سـوى الـفـردوس منزلة		وإن هـفـوا هـفـوة فـالـربّ غـفـار

ولم ينسبها إلى مرجع.

(١) انظر المرجع السابق ص ٧٦.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٠.

المقطع السابع: ختام سلسلة الأنبياء رحمة مهداة.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ
إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ
أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ
﴿١١٠﴾ وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ
مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠-١١٢].

مناسبة المقطع لسابقه:

بعد أن بين سبحانه وتعالى حال الناس يوم القيامة، وأن لا نجاة إلا لمن التزم منهج التوحيد الذي جاء به الأنبياء، بين هنا أن النبي الخاتم صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين ما أرسل إلا بذلك المنهج السديد، الذي يحقق السعادة لمن التزمه، وخصه ﷺ بأن جعله رحمة شاملة للعالمين.

التفسير الإجمالي:

بهذه الآية الكريمة التي تتحدث عن مسك الختام في سلسلة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، افتتح ربنا تبارك وتعالى هذا المقطع الكريم، مشيرا إلى خصوصية عموم الرسالة التي امتاز بها النبي الخاتم ﷺ، فهو الرحمة المهداة للعالم كله أنسه وجنه، دنياه وآخرته، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وكما قال ﷺ: (إنما أنا رحمة مهداة)[1] وقوله أيضا صلوات الله وسلامه عليه: (إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة)[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة برقم ٣١٧٨٢ (٦/ ٣٢٥)، والدارمي برقم ١٥ (١/ ٢١)، والحاكم برقم ١٠٠ وقال صحيح على شرطهما ١/ ٩١.

(٢) أخرجه مسلم برقم ٢٥٩٩ باب النهي عن لعن الدواب وغيرها ٤/ ٢٠٠٦ وأوله: (عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين قال:...).

ثم يسطع التوحيد محور هذه السورة، في أمر الله تعالى نبيه ﷺ ليعلم الكافرين بالحقيقة الموحى بها إليه من الله تعالى، ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾، فمن أعرض وأصر على الكفر والشرك، فإني بريئ منه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [يونس: ٤١]، وأن عاقبته الهلاك والخسران في الوقت الذي يعلمه الله وحده، ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ سبحانه وتعالى، فلعل في تأخير العذاب ابتلاء لكم، وتمتيعا بلذائذ الحياة إلى أجل مسمى لتزداد ذنوبكم، حين تنسيكم النعم شكر مسديها، فيأخذكم في الوقت الذي قدره أخذ عزيز مقتدر.

ثم يختم المقطع والسورة كلها، بدعاء النبي الخاتم، المشابه لما تقدم من دعوات الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ أي تصفون وتفترون من الكذب، وتتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، مما هو ناشيء عن غفلتكم الناشئة عن إعراضكم عن هذا الذكر من الاستهزاء والقذف بالسحر وغيره، والمناصبة بالعداوة والتوعد بكل شر، والله المستعان عليكم في ذلك.

ويلاحظ أنه قد انطبق آخر السورة على أولها، بذكر الساعة ردا على قوله: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾، والدعوة إلى التوحيد، والاستعداد للآخرة، وذكر القرآن الذي هو البلاغ، وذكر الرسالة بالرحمة لمن نسبوه إلى السحر وغيره، وتفصيل ما استعجلوا به من آيات الأولين وغير ذلك[1].

وهكذا يتجلى التوحيد في هذه السورة الكريمة على غاية من الوضوح والبيان، حتى لو اختير لها اسم اجتهادي لكان « التوحيد».

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* الإيمان بمحمد ﷺ فرض على كل من أدركه، أو بلغته دعوته من الإنس والجن، ففي الصحيح أنه ﷺ قال: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٤، ونظم الدرر ١٢/ ٥١٥، ونحو تفسير موضوعي ص ٢٥٨.

نصراني ثم لا يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار)[(١)].

* متاع الدنيا قليل، وأيامها إلى انقضاء، فلا يصح للعاقل أن تشغله بلذائذها عن طاعة مولاه قال تعالى: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].

* في نسبة الرب إليه في أول الدعاء ﴿ قَٰلَ رَبِّ ﴾ عرفان بمقام الربوبية، وفي نسبته إلى الجميع ﴿ وَرَبُّنَا ﴾ تعريض بالمشركين الجاحدين فضل الله عليهم بالتربية والإنعام، وقال البقاعي رحمه الله تعالى: إنه لما سأل الحق المراد به الهلاك للعدو والنجاة للولي، أفرد الإضافة إشارة إلى تخيصصه بالفضل، وإفرادهم بالعدل، ولما سأل العون عمّ الإضافة والصفة قنوعا بترجيح جانبه بالعون وإن شملتهم الرحمة[(٢)].

* لقد وقع اسم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ في هذا الدعاء موقعه الحسن، فصفة الرحمة الكبيرة هنا ذات مدلول، فهو الذي أرسله رحمة للعالمين، فكذب به المكذبون، واستهزأ المستهزئون، وهو الكفيل بأن يرحم رسوله ﷺ ويعينه على ما يصفون[(٣)].

* وهو رحمن، ومن رحمته إيجاد يوم الدين، ليجازي به المحسن بإحسانه، والمسيء بكفرانه وفي ذلك أعظم ترهيب[(٤)] وترغيب.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

نلاحظ في هذا المقطع الكريم دعوة صريحة إلى توحيد الله تعالى، وإنذار من تولى وأعرض، وأن مرد وقت العذاب الذي يحيق بالمكذبين إلى الله تعالى، وبيان أن مهمة النبي ﷺ إنما هي البلاغ المبين.

ولا يخفى أن مناسبة هذا المقطع لمحور السورة ظاهرة، والله تعالى أدرى بأسرار كلامه.

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٤٠ في كتاب الإيمان باب: وجوب الإيمان برسالة النبي ﷺ ١/ ١٣٤

(٢) انظر نظم الدرر ١٢/ ٥١٥.

(٣) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٣.

(٤) انظر نظم الدرر ١٢/ ٥١٥-٥١٦.

سورة الحج

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة.

سميت بسورة الحج؛ لذكر فريضة الحج على لسان إبراهيم الخليل ﷺ بعد بناء البيت العتيق ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾، فبلغ صوته أنحاء الأرض، وأسمع النطف في الأصلاب والأجنة في الأرحام، فلبوا النداء: لبيك اللهم لبيك، « وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران»[١] وليس لهذه السورة اسم غير هذا.

ب - فضائل سورة الحج.

جاء في فضلها: «عن عقبة بن عامر قال قلت: يا رسول الله فضلت سورة الحج بأن فيها سجدتين ؟ قال: نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما» [٢].

ج - سبب نزول السورة:

وأما سبب نزولها فشأنها شأن السور المكية التي تناولت مسألة التوحيد، وشأن السور المدنية التي تناولت: شعيرة الحج، وبعض التشريعات.

د - مكية السورة أو مدنيتها:

هذه السورة مشتركة بين مكية ومدنية كما يبدو من دلالة آياتها. وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال. وآيات العقاب بالمثل. فهي مدنية قطعاً. فالمسلمون لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة. وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١ / ٢٧٥٢ .

(٢) رواه أبو داود و الدارقطني والترمذي وقال: هذا حديث حسن ليس إسناده بالقوي.

« اختلف في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية ؟ أو أكثرها مكي أم مدني ؟ فعن ابن عباس من رواية مجاهد وعطاء: هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ﴾ إلى ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾. قال ابن عطية: وعد النقاش ما نزل منها بالمدينة عشر آيات وعن ابن عباس من رواية والضحاك وقتادة والحسن: هي مدنية إلا آيات ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ فهن مكيات. وهي من أعاجيب سور القرآن لأن فيها مكية ومدنيا وحضريا وسفريا وحربيا وسلميا وليليا ونهاريا وناسخا ومنسوخا: فأما المكي: فمن رأس الثلاثين منها الى آخرها وأما المدني: فمن رأس خمس وعشرين الى رأس ثلاثين، وأما الليلي: فمن أولها الى آخر خمس آيات وأما النهاري: فمن رأس خمس آيات الى رأس تسع وأما السفري: فمن رأس تسع الى اثنتي عشرة وأما الحضري: فمن رأس العشرين منها نسب الى المدينة لقرب مدته»(١).

هـ - عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العد وسببه.

عدد آيات السورة: ثمان وسبعون آية، ولم أقف خلاف في ذلك بين القرآء.

و - محور السورة:

سورة الحج من السور المشتركة بين المدني والمكي كما تقدم، فموضوع الإيمان، والتوحيد والإنذار والتخويف، وموضوع البعث والجزاء، ومشاهد القيامة وأهوالها، هو البارز في السورة الكريمة، حتى ليكاد يحسب القارئ أنها من السور المكية، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية من الإذن بالقتال، وأحكام الحج والهدي، والأمر بالجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من المواضيع التي هي من خصائص السور المدنية، وسيتم ربط المواضيع المكية والمدنية بهذا المحور من خلال مقاطع السورة.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، الجوزي، ٥ / ٤٠ .

ز. المناسبات في السورة:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

محور السورة الأمر بالتقوى، والتوحيد، والحديث عن الساعة، والتخويف من هولها والاستعداد لها، بالإضافة إلى ذكر شعيرة الحج؛ فيوجد ارتباط بين المحور والتسمية؛ إذ الحاج يستعد للحج بالنفقة الحلال والتجرد من الثياب وهو رمز للتجرد من الدنيا، ثم التجمع الكبير في عرفة والمزدلفة ومنى وحول الكعبة بلباس واحد وهتاف واحد لبيك اللهم لبيك، الكل ينشد ربه القبول والمغفرة والنجاة من زلزلة الساعة.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

افتتحت السورة بالأمر بالتقوى وبالحديث عن زلزلة الساعة وأهوال يوم القيامة، ولما كانت أهوال الساعة شديدة توجب الاستعداد بالتقوى والصلاة والركوع والسجود، وطاعة الرسول ﷺ والجهاد أمر الله في آخر السورة بذلك فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ ﴾.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

ورد الحديث عن يوم القيامة في آخر سورة الأنبياء وأول سورة الحج تحدّث " لما ذكر الله الإعادة وما قبلها وما بعدها قي ختام سورة الأنبياء، بدأ سبحانه في هذه السورة بذكر يوم القيامة وأهوالها، حثاً على التقوى، ولفظ الناس يشمل جميع المكلفين من الموجودين ومن سيوجد "(١).

٤ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

ورد الحديث في سورة النبياء عن الساعة في أكثر من موضع « افتتحت سورة الأنبياء

(١) فتح القدير، للشوكاني، ٣/ ٦٢١.

بقوله تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ ﴾ وكان وارداً في معرض التهديد، وتكرر في مواضع منها الآيات رقم: {٣٥}، {٣٧}، {٣٩]، {٤٦}، { ٤٧}، { ٤٩}، {٩٣}، { ٩٧ }، وغيرها، إلى ما تخلل هذه الآي من التهديد، وشديد الوعيد، وبالمقارنة مع مضمون سورة الحج تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار بها في الساعة وما بعدها وما بين يديها، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ ﴾ - إلى قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ثم اتبع ببسط الدلالات على البعث الأخير وإقامة البرهان»[١].

المقطع الأول: الأمر بالتقوى والإيمان بالساعة وأهوالها، الآيات: (١ – ٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾.

التفسير الإجمالي للمقطع الأول:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ ﴾ خطاب لجميع البشر أي خافوا عذاب الله وأطيعوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وجماع القول في التقوى هو: طاعةُ الله واجتناب محارمه بمعنى: أن لا يراك حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك.

﴿ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾ تعليلٌ للأمر بالتقوى، أي: إن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله؛ فالزلزلة: شدة التحريك وهي الزلزلة المذكورة في قوله: ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾[الزلزلة: ١].

« وروي: أن هاتين الآيتين نزلتا ليلا في غزوة بني المصطلق فقرأهما رسول الله ﷺ فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، ٢ / ٦٠.

النزول ولم يطبخوا قدرا وكانوا ما بين حزين وباك ومفكر»[١].

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ في ذلك اليوم العصيب الذي تشاهدونه فيه تلك الزلزلة وترون هول مطلعها، « وقيل: تكون مع النفخة الأولى وقيل:تكون مع قيام الساعة حتى يتحرك الناس من قبورهم في النفخة الثانية ويحتمل أن تكون الزلزلة في الآية عبارة عن أهوال يوم القيامة»[٢].

﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ تغفل وتذهل - مع الدهشة وشدة الفزع - كل أنثى مرضعة عن رضيعها، إذ تنزع ثديها من فم طفلها وتنشغل - لهول ما ترى - عن أحب الناس إليها وهو طفلها الرضيع. « ذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام وهذا يدل على أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حمل «ومن قال: تكون في القيامة قال هذا على وجه تعظيم الأمر لا على حقيقته كقولهم: أصابنا أمر يشيب فيه الوليد يريد شدته»[٣] .

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ تراهم كأنهم سكارى يترنحون ترنح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ وما هم على الحقيقة بسكارى من الخمر ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ استدراك لما دهاهم أي ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم فهم من خوف عذاب الله مشفقون.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول:

* بدأت الآيات بنداء الناس جميعا إلى تقوى الله، لأن التقوى هي أساس الخوف من الله والباعث الأساس إلى عبادته والالتزام بطاعته، واجتناب معاصيه، وبدون التقوى لا يمكن لأحد النجاة من عذاب الله، ولا الفوز برضوانه وجناته.
* أسلوب الدعوة إلى الله ينبغي أن يكون بالترهيب كما يكون بالترغيب؛ فالآيات في هذا

(١) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٧٩٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي، ١٢/ ٨ .
(٣) معالم التنزيل، البغوي، ١ / ٣٦٣.

الموضع فيها ترهيب وتخويف من زلزلة الساعة، ووصفت الأهوال المصاحبة لها، وهو هول عنيف مرهوب، وذلك لأن «زلزل» مضاعف زل - إذا زال عن مقره بسرعة ضوعف لفظه لتضاعف معناه فإذا هو أشد رهبة من التهويل.

* من أسلوب الدعوة الاستدلال بالحس المشاهد على الغائب كتصوير شدة الهول كحال ذهول المرضعة عن رضيعها، وسقوط الحمل قبل أوانه، وحالة السكران بغير سكر. وإن كانت تلك الأهوال لا تقاس بالحجم والضخامة، إلا أن لها دلالة في النفوس خاصة النفوس الجامحة التي لا تردع عن معصية، فيدفعها إلى الاستعداد والتقوى.
* الزلزلة تكون في الدنيا؛ لأنها تباغت الناس وهم على حالهم؛ والمشاهد المذكورة من رضاعة وحمل وسكر هي في الدنيا، وأما نسبتها للآخرة فهو على سبيل التعظيم.

المناسبة بين المقطع الأول ومحور السورة:

لما أمر الله بالتقوى استعداداً ليوم القيامة وهو المحور الأساس في السورة علل ذلك مرهباً لهم بقوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ وهذا ما يوجب الحذر والتقوى.

المقطع الثاني: المجادلة بغيرعلم

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾

سبب النزول:

«نزلت في النضر بن الحارث وجماعته ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قالوا: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين وأنكروا البعث وإحياء من صار ترابا»[1].

(١) تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي والسيوطي، ١ / ٤٣٣ .

التفسير الإجمالي للمقطع الثاني:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ ﴾من الناس من يخاصم وينازع في قدرة الله وصفاته، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾بغير دليل ولا برهان ويقول ما لا خير فيه من الأباطيل كقولهم :الملائكة بناتُ الله ،والقرآن أساطير الأولين ،ولا بعث بعد الموت .فيزعم أن الله غير قادر على إحياء من قد بلي وصار ترابا بغير علم يعلمه بل بجهل منه بما يقول»[١] .

﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴾ أي يطيع ويقتدي بكل عاتٍ متمرد كرؤساء الكفر الصادّين عن الحق ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ ﴾ أي حكم الله وقضى أنه من تولى الشيطان واتخذه ولياً فأنه يغويه ويسوقه إلى عذاب جهنم، وعبر بلفظ﴿ وَيَهْدِيهِ ﴾على سبيل التهكم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني:

* نهت الآيات عن إتباع كل شيطان محتوم على من يتبعه الضلال ويجعله يتطاول فيكفر بالله، ولا يستشعر تقواه، ولا يؤمن بالساعة فضلاً عن أن يستعد لها.
* والجدال في ظل ذلك الهول الذي ينتظر الناس جميعا، والذي لا نجاة منه إلا بتقوى الله وبرضاه، يبدو عجيبا من ذي عقل و قلب، سواء في وجود الله تعالى، أو في وحدانيته، أو في قدرته، أو في علمه، أو في صفة ما من صفاته.
* هذا النوع من الجدال بعيد عن كل علم ومعرفة ويقين؛ فهذا الصنف من الناس يجادل في الله بالهوى فهو حتم مقدور يقوده إلى عذاب السعير. وأما الجدال بالأدلة لغرض الوصول للحق، المبني على الدليل الساطع والبراهين الواضحة فهو مطلوب.

وسيرد تفصيله في الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع.

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري، ٩ / ١٠٩ .

المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة:

نهت الآيات عن إتباع الشياطين لأنها توقع الإنسان في غفلة عن التقوى والاستعداد للآخرة، وهذا يتفق مع محور السورة.

المقطع الثالث: الأدلة على البعث. الآيات (٥ - ٧)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثالث والثاني:

لما ذكر الله تعالى في المقطع الثاني المجادلين في قدرته، المنكرين للبعث والنشور ذكر في المقطع الثالث دليلين واضحين على إمكان البعث أحدهما في الإنسان، والثاني في النبات.

التفسير الإجمالي للمقطع الثالث:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ إن شككتم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم فانظروا في أصل خلقكم ليزول ريبكم فقد خلقنا أصلكم «آدم» من التراب، ومن قدر على خلقكم أول مرة قادر على أن يعيدكم مرة ثانية، والذي قدر على إخراج النبات من الأرض، بعد موتها قادر على أن يخرجكم من قبوركم ﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ثم جعلنا نسله من المني ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ وهو الدم الجامد الذي يشبه العلقة التي تظهر حول الأحواض والمياه ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ ﴾ من قطعة من لحم مقدار ما يمضغ ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ

مُخَلَّقَةٍ ﴾ واضحة الخلق مصورة وغير مصورة، والمخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين، وغير مخلقة التي لم يخلق فيها شيء ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ خلقناكم على هذا النموذج البديع لنبين لكم أسرار قدرتنا وحكمتنا، فمن قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً، ولا تناسب بين التراب والماء، وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاماً، قادر على إعادة ما بدأه، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس ﴿ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ ﴾ ونثبت من الحمل في أرحام الأمهات من أردنا أن نُقرَّه فيها حتى يتكامل خلقه ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ إلى زمن معين هو وقت الوضع ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ ثم نخرج هذا الجنين طفلاً ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه، ثم نعطيه القوة شيئاً فشيئاً ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ كمال قوتكم وعقلكم ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ﴾ ومنكم من يموت في ريعان شبابه ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ أومنكم من يعمر حتى يصل إلى الشيخوخة والهرم وضعف القوة والخرف ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفولة من ضعف البينة، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه وينكر ما عرفه ويعجز عما قدر عليه ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ هذه هي الحجة الثانية على إمكان البعث أي: وترى أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسةً ميتة لا نبات فيها «ذكر دلالة أقوى على البعث فقال في الأول: ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ فخاطب جمعا وقال في الثاني: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ ﴾ فخاطب واحدا فانفصل اللفظ عن اللفظ ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكري البعث»(١) ﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحييت بعد موتها ﴿ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ وأخرجت من كل صنفٍ عجيب ما يسر الناظر ببهائه ورونقه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ذلك المذكور من خلق الإنسان والنبات لتعلموا أن الله هو الخالق المدبر وأن ما في الكون من آثار قدرته شاهد بأن الله هو الحق ﴿ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وبأنه القادر على إحياء الموتى كما أحيا

---

(١) تفسير القرطبي ١٢ / ٩ .

الأرض الميتة بالنبات ﴿ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وبأنه قادر على ما أراد ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ يحيي الأموات ويعيدهم بعد ما صاروا رميماً، ويبعثهم أحياء إلى موقف الحساب.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثالث:

* ذكر الله في هذه الآيات الكريمة من الأدلة الدامغة والبراهين الساطعة ما لا يستطيع أحد ردّها، ولا يملك العاقل إلا التسليم والإيمان كدلائل البعث من أطوار الحياة في جنين الإنسان، وحياة النبات؛ فلينظروا في أنفسهم، وفي الأرض من حولهم.

* وجه الدلالة في هذه الآيات على البعث دلالة مزدوجة؛ فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على خلق الإنشاء قادر على إعادتها. «وهكذا تلتقي نواميس الخلق والإعادة، ونواميس الحياة والبعث، ونواميس الحساب والجزاء وتشهد كلها بوجود الخالق المدبر القادر»(١).

* لا ينبغي للمسلم أن يغفل عن أهمية الاستدلال بالأدلة الحسية المشاهدة؛ لأن الكفار لا يؤمنون بالقرآن ولا السنة فلا بد من مناقشتهم عقلياً وهذا ما اهتم به القرآن فلينتبه إليه الدعاة إلى الله.

المناسبة بين المقطع الثالث ومحور السورة:

الحديث في هذا المقطع عن أدلة وقوع الساعة ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ وهذا يتفق مع محور السورة التي أمرت بالتقوى وحذّرت من أهوال الساعة.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٤٠٨.

المقطع الرابع: تابع المقطع الثاني: المجادلة بغير علم، الآيات (٨ – ١٦)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ
لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ
ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا
لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ
ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ
إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ
ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦ ﴾.

المناسبة بين المقطع الرابع والثالث:

بعد ذكر الدلائل المستقرة في صلب الكون وفي نظام الوجود في المقطع الثالث، ناسب في ذكر من يجادلون في الله بغير علم ولا دليل ويبنون عقيدتهم على معيار النفع والضر واليأس من نصر الله. وقد أشار إليهم في المقطع الثاني ثم ذكر بعض الأدلة على وجوده سبحانه، ثم عاد في هذا المقطع الرابع: ليصف حالهم ويبين بطلان معتقدهم.

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ﴾ نزلت في أبي جهل أنذره الله بالخزي والهوان في الدنيا، فقتل يوم بدر، وقيل في النضر بن الحارث ومعظم المفسرين على هذا، يجادل في وجود الله تعالى، أو أسمائه وصفاته، من غير علم صحيح يهدي إلى المعرفة ولا كتاب نير بيّن الحجة بل بمجرد الرأي والهوى،

« كرر هذه على وجه التوبيخ فكأنه يقول: هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ومن الناس

مع ذلك من يجادل في الله بغير دليل ولا برهان»[1] ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ ﴾ معرضاً عن الحق لاوياً عنقه كفراً مستكبراً عن الحق إذا دُعي إليه، فهو كتصعير الخد ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ليصُدَّ الناس عن دين الله وشرعه. ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ « فمن كبره إذا دعي إلى الله أعرض عن داعيه، ولوى عنقه عنه ولم يسمع ما يقال له استكباراً»[2]، ﴿ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ له هوان وذل في الحياة الدنيا ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ونذيقه في الآخرة النار المحرقة ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ والله لا يظلم أحداً من خلقه.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ سبب نزول هذه الآية: «عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قدم المدينة وهي أرض وبيئة فإن صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما رضي به واطمأن إليه وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيرا ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ والفتنة البلاء أي وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرا وذلك الفتنة»[3].

﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ فإن ناله خير في حياته من صحةٍ ورخاء أقام على دينه {وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ} وإن ناله شيء يفتتن به من مكروه وبلاء ارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ﴾ أضاع دنياه وآخرته فشقي الشقاوة الأبدية ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ ذلك هو الخسران الواضح الذي لا خسران مثله من الناس من يعبد الله على جانب وطرفٍ من الدين، وهذا تمثيل للمذبذبين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب كالذي يكون على طرف من الجيش فان أحسَّ بظفر أو غنيمة استقر وإلا فرّ ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ ذلك هو نهاية الضلال الذي لا ضلال بعده، شبه حالهم بحال من أبعد

(١) تفسير الطبري، الإمام الطبري، ٩ / ١١٣ .

(٢) تفسير الطبري، الطبري، ٩ / ١١٣.

(٣) المرجع السابق.

في التيه ضالاً عن الطريق ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ يعبد وثناً أو صنماً ضره في الدنيا بالخزي والذل أسرع من نفعه الذي يتوقعه بعبادته وهو الشفاعة له يوم القيامة، وقيل: الآية على الفرض والتقدير: لو سلمنا نفعه أو ضره لكان ضره أكثر من نفعه، والآية سيقت تسفيهاً وتجهيلاً لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفع بها ﴿ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ بئس الناصر وبئس القريب والصاحب﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ جزاء المؤمنين به، جنّات النعيم تجري من تحتهم أنهار الخمر والعسل واللبن.. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ يثيب من يشاء ويعذب من يشاء لا معقب لحكمه، فللمؤمنين الجنة بفضله، وللكافرين النار بعدله. فيتلقى جزاءه عدلاً، ولا ظلم في الحساب.

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ ﴾ من كان يظن أن الله لن ينصر رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ فليمدد بحبل إلى السقف ثم ليقطع عنقه وليختنق به ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ؟ (١) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ ومثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحكم البالغة أنزلنا القرآن الكريم كله آيات واضحات الدلالة على معانيها الرائقة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴾ وأن الله هو الهادي لا هادي سواه يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع:

* ذكرت الآيات الأدلة الساطعة على وجوده سبحانه، إلا أنه يوجد من يجادل في الله: كالنضر بن الحارث حيث ذكرت الآية رقم «٢» أنه كان يريد إنكار البعث، وفي الآية رقم «٨» أراد إنكار النبوة ونزول القرآن ووصف بأنه أعرض عن القول الحق ولوّى عنقه تكبراً ليضل عن سبيل الله، فحق عليه الهوان والذل في الدنيا والآخرة، وهو عاقبة كل متكبر، منكر للحق.

والجدال في الله بعد تلك الدلائل يبدو غريبا مستنكرا غير مقبول. فكيف إذا كان جدالا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٨٣.

بغير علم، لا يستند إلى دليل، ولا يقوم على حجة ومعرفة، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل، ويوضح الحق، ويهدي إلى اليقين، فيعوض عن هذا بالكبر ليضل عن سبيل الله فلا يكتفي بأن يضل، إنما يحمل غيره على الضلال.

* الله سبحانه لا يدع المتكبرين، إنما يمهلهم أحيانا ليكون الخزي أعظم، والتحقير أوقع، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأوجع، والله ليس بظلام للعبيد.

* بينت الآيات المصير البائس لمن يعبد الله على حرف؛ فهم صنف من الناس يجعل العقيدة صفقة في سوق التجارة: فإن أصابه خير اطمأنّ به وقال: إن الإيمان خير وإن أصابه سوء عاد للكفر والضلال، وأما المؤمن فإنه يعبد ربه شاكراً له في الرخاء وصابراً على البلاء لا يفتتن في دينه.

* من مسه الضر في فتنة من الفتن، وفي ابتلاء من الابتلاءات، فليثبت ولا يتزعزع، وليزيد من ثقته برحمة الله وعونه، وقدرته على كشف الضر عنه فإن الله ناصره كما وعد الله رسوله ﷺ بالنصر فنصره وأما من يفقد ثقته في نصر الله في الدنيا والآخرة، ويقنط من عون الله له حين تشتد المحنة، فليفعل بنفسه ما يشاء، وليذهب بنفسه كل مذهب، فما شيء من ذلك بمبدل ما به من البلاء.

المناسبة بين المقطع الرابع ومحور السورة:

ذكر الله مِن عباده مَن يعبدونه على حرف، قلوبهم غير مطمئنة بالإيمان إن حظوا بخير ثبتوا على إيمانهم، وإن أصابهم مكروه عادوا للضلال والكفر، ونسوا أهوال الساعة، فلا زاد لهم يدرؤون به عن أنفسهم العذاب، ومحور السورة ركّز على زاد التقوى، فالمؤمن التقي يصبر عند البلاء ويشكر وقت الرخاء.

المقطع الخامس: الفصل بين الأمم والاعتبار بهم. الآيات (١٧ – ٢٤)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ
يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ
عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨) ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ
ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ (١٩)
يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا
مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا
حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ (٢٤) ﴾ .

المناسبة بين المقطع الخامس والرابع:

بعد ان ذكر الله أحوال المشركين والمنافقين والمؤمنين، بين في هذا المقطع أن الله يقضي بينهم جميعاً، ليبين المحق من المبطل، ومن يهديه ومن لا يهديه، وبين أنه ما كان لهم ان يختلفوا لأن الكون كله خاضع لسلطانه طوعاً أو كرهاً.

التفسير الإجمالي للمقطع الخامس:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ صدقوا الله ورسوله وهم أتباع محمد ﷺ ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ اليهود وهم المنتسبون إلى موسى عليه السلام ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ هم قوم يعبدون النجوم ﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ هم المنتسبون إلى موسى عليه السلام ﴿ وَٱلْمَجُوسَ ﴾ هم: عبدة النيران ﴿ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ ﴾ هم:العرب عبدة الأوثان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يقضي بين المؤمنين وبين الفرق الضالة فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ شاهد على أعمال خلقه عالم بكل ما يعملون ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يسجد لعظمته

كل شيء طوعاً وكرهاً، الملائكة في أقطار السماوات، والإنس والجن وسائر المخلوقات في العالم الأرضي ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ وهذه الأجرام العظمى مع سائر الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته سجود انقياد وخضوع،: « وخص الشمس والقمر والنجوم بالذكر لأنها قد عبدت من دون الله، فبيّن أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة. والغرض من الآية: بيان عظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته بانقياد هذه العوالم العظمى له وجريها على وفق أمره وتدبيره»[1] ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ وكثير من الناس وجب له العذاب بكفره واستعصائه ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ من أهانه الله بالشقاء والكفر فلا يقدر أحد على دفع الهوان عنه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ يعذب ويرحم، ويعز ويذل، ويُغني ويُفقِر، ولا اعتراض لأحد عليه. ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ ﴾ يهنه الله ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ من يذله الله فلا يكرمه أحد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ يكرم ويهين فالسعادة والشقاوة بإرادته ومشيئته»[2].

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ﴾ سبب نزول هذه الآية: «عن قيس بن عباد قال سمعت أبا ذر يقسم بالله لنزلت هذه الآية في ستة من قريش حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد ابن عتبة هذان خاصمان اختصموا في ربهم الى آخر الآية ١٩ »[3]، وقيل المراد بالخصمين الجنة والنار قالت الجنة: خلقني لرحمته وقالت النار: خلقني لعقوبته»[4] والأول أظهر لذكره سبحانه ثواب المؤمنين وعقاب الكافرين، والمعنى عام يشمل كل مؤمن وكل كافر. ﴿ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ اختلفوا وتنازعوا من أجل الله ودينه؛ فالمؤمنون يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الله ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٨٣.

(٢) تفسير البغوي، ١/ ٣٧١ .

(٣) تفسير الثوري، ١/ ٢٠٩ .

(٤) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٦٣٥.

﴿ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ فصلت لهم ثيابٌ من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار قال القرطبي: شبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ومعنى ﴿قُطِّعَتْ﴾ خيطت وسويت، وذكر بلفظ الماضي؛ لأن الموعود منه كالواقع المحقق ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ يصب على رؤوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ يذاب به ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء مع الجلود قال ابن عباس: لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها وفي الحديث (إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر، ثم يعاد كما كان) « والغرض أن الحميم إذا صب على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم [1]، ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أي ولهم مطارق وسياط من الحديد يضربون بها ويدفعون. ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ كلما أراد أهل النار الخروج من النار من شدة غمها ردوا إلى أماكنهم فيها ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ يقال لهم: ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي كنتم به تكذبون، ولما ذكر تعالى ما أعد للكفار من العذاب والدمار، ذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب والنعيم فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ﴾ يدخل المؤمنين الصالحين في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ تلبسهم الملائكة في الجنة الأساور الذهبية كحلية وزينة يتزينون بها ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراماً من الله لهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ولباسهم في الجنة الحرير، ولكنه أعلى وأرفع مما في الدنيا بكثير ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أرشدوا إلى الكلام الطيب والقول النافع إذ ليس في الجنة لغوٌ ولا كذب ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْحَمِيدِ﴾ إلى صراط الله وهو الجنة دار المتقين.

(١) التفسير الكبير / الفخر الرازي ٣ / ٣٠.

الهدايات المستنبطة من المقطع الخامس:

* قسمت الآيات الناس إلى قسمين مؤمن وكافر، فالمؤمن استجاب لربه وسجد له مع سائر المخلوقات التي خلقها الله في السموات والأرض من جبال وشجر وشمس وقمر.. الخ ونعم الساجدين، فله جنات الخلود، والكافر شذّ عن سنن الله ومنهجه وتمرد عليه، سجد لغيره فله عذاب السعير. وهذا يتفق مع عدل الله سبحانه.
* رهّب الله سبحانه الكافرين من عذابه الأليم بتصوير مشاهد وأهوال يوم البعث؛ فهو يوم مزلزل عنيف رهيب: كما ورد في المقطع الأول. وكذلك رهّب في هذا المقطع فذكر صورة العذاب: للكافرين فثيابهم من نار، يصب من فوق رؤوسهم الماء المغلي الحار، يذيب ما في بطونهم وجلودهم، ولهم مقامع من حديد، لا يستطيعون الخروج من حريقها ولهيبها؛ فأيُّ عاقل لا يعتبر ويفيء إلى ربه، اللهم إلا الذين كفروا.
* رغّب الله المؤمنين، فوعدهم بدخول جنات تجري من تحتها الأنهار ويلبسه من اللؤلؤ والحرير، لأن من يحذر من الترهيب، ويخشى الله ويتقه فمن حقه أن يطمع في رحمة الله وكرمه، والله سبحانه لا يضيع جزاء المحسنين.
* يستفاد من أهمية أسلوب الترغيب والترهيب في الدعوة ،وسبق ذكره.

المناسبة بين المقطع الخامس ومحور السورة:

المتقون يكونون بين الخوف والرجاء ،والترغيب والترهيب ،فيحرصون على السجود لله وهو ما يدل على الطاعة والتقوى والخشية من الله والاستعداد للقائه ،والطمع في رحمته ،وهو محور السورة.

المقطع السادس: الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام. الآيات(٢٥ - ٣٧)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ
سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا
لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ
فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم
مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا
نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ
رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ
وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ
فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن
تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ
أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ
وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ
فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا
لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ
سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾.

المناسبة بين المقطع السادس والخامس:

لما ذكر تعالى أهل السعادة وأهل الشقاوة، وذكر ما دار بينهم من الخصومة في دينه وعبادته، ناسب أن يذكر فرقاً بينهم، كعدم تعظيم الكافر لشعائر الله والصد عن المسجد الحرام، بينما المؤمن يعظم الله وشعائره لأنها من تقوى القلوب.

التفسير الإجمالي للمقطع السادس:

عدّد تعالى بعض جرائم الكافرين ،فقال﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾جحدوا بما جاء به محمد ﷺ ويمنعون المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام لأداء المناسك فيه «لا يريد به حالا ولا استقبالا وإنما يريد به استمرار الصد منهم كقولهم :فلان يعطي ويمنع ولذلك حين عطفه على الماضي وقيل هو حال من فاعل ﴿كَفَرُواْ ﴾ وخبر ﴿ إِنَّ ﴾ محذوف دل عليه آخر الآية أي معذبون[1] » وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية، وحاولوا صدّ المؤمنين مرات عديدة ﴿ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ﴾ الذي جعلناه منسكاً ومتعبداً للناس جميعاً سواء فيه المقيم الحاضر، والذي يأتيه من خارج البلاد ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ ﴾ ومن يرد فيه سوءاً أو ميلاً عن القصد أو يهم فيه بمعصية ﴿ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ نذقه أشد أنواع العذاب الموجع « قال ابن مسعود: لو أن رجلاً بِعدَنَ همَّ بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً وقال مجاهد: تُضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات». [2] ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ واذكر حين أرشدنا إبراهيم وألهمناه مكان البيت ﴿ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا ﴾ أمرناه ببناء البيت العتيق خالصاً لله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ طهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يعبد الله فيه بالطواف والصلاة والقائمون هم المصلون، ذكر تعالى من أركان الصلاة وأعظمها وهو القيام والركوع والسجود ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ ونادِ في الناس داعياً لهم لحج بيت الله العتيق «ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له: أذن في الناس بالحج، قال يا رب: وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعلي الإبلاغ فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس وصاح: يا أيها الناس إنّ الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار فحجوا، فأجابه من

(١) تفسير البيضاوي، ١ / ١٢٢.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ٤٢٠.

كان في أصلاب الرجال، وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك»[١] ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ يأتوك مشاة على أقدامهم أو ركباناً على كل جمل هزيل قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ أي تأتي الإبل الضامرة من كل طريق بعيد ورد الضمير إلى الإبل ﴿يَأْتِينَ ﴾ تكرمةً لها لقصدها الحج مع أربابها كما قال ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ ﴾[العاديات: ١] في خيل الجهاد تكرمةً لها حين سعت في سبيل الله ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ ليحضروا منافع لهم كثيرة دينية ودنيوية: «وإنما نكَّر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات»[٢] ﴿ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ ويذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله في أيام النحر شكراً لله على نعمائه وعلى ما رزقهم وملكهم من الأنعام وهي: الإبل والبقر والغنم والمعز ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا ﴾ أي كلوا من لحوم الأضاحي ﴿ وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ أطعموا منها البائس الذي أصابه بؤس وشدة، والفقير الذي أضعفه الإعسار، والبائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه والفقير الذي لا يكون كذلك، ثيابه نقية ووجهه وجه غني ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ ﴾ ثم بعد الذبح ليزيلوا وسخهم الذي أصابهم بالإحرام وذلك بالحلق والتقصير وإزالة الشعث وقص الشارب والأظافر ﴿ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ ﴾ ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعةً لله ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ ليطوفوا حول البيت العتيق طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي به تمام التحلل، والعتيق: القديم الذي سمي به لأنه بيت وضع للناس. ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ ﴾ من يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين ويجتنب المعاصي والمحارم، ﴿ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ هي ما لا يحل انتهاكه ﴿ فَهُوَ ﴾ أي تعظيمها ﴿ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ في الآخرة ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ أكلا بعد الذبح ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ تحريمه في ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ الآية فالاستثناء منقطع ويجوز أن يكون متصلا والتحريم لما عرض من الموت ونحوه

(١) الجامع للقرطبي، ١٢/ ٣٨.
(٢) التفسير الكبير، الرازي ٣/ ٤٠.

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ من للبيان أي الذي هو الأوثان ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ أي الشرك بالله في تلبيتكم أو شهادة الزور»[١].

﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ أي مائلين إلى الحق مسلمين لله غير مشركين به أحداً ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ تمثيل للمشرك في ضلاله وهلاكه أي ومن أشرك بالله فكأنما سقط من السماء فتخطفه الطير وتمزقه كل ممزق ﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ ذلك ما وضحه الله لكم من الأحكام والأمثال ومن يعظم أمور الدين ومنها أعمالُ الحج والأضاحي والهدايا ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله، ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لكم في الهدايا منافع كثيرة من الدر والنسل والركوب إلى وقت نحرها ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ ثم مكان ذبحها في الحرم بمكة أو منى، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم كقوله تعالى ﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ شرعنا لكل أُمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكاناً للذبح تقرباً لله: وهو مشروع في جميع الملل ﴿ لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ﴾ أمرناهم عند الذبح أن يذكروا اسم الله وأن يذبحوا لوجهه تعالى ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ شكراً لله على ما أنعم به عليهم من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم،﴿ لِّيَشْهَدُوا ﴾ ليحضروا منافع لهم من أمر الدنيا والآخرة ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام يعني: التسمية على ما ينحر في يوم النحر وأيام التشريق ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أمر إباحة «وكان أهل الجاهلية لا يأكلون من نسائكهم فأُمر المسلمون أن يأكلوا ﴿ وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ الشديد الفقر»[٢] ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فربكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد لا شريك له ﴿ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾ فأخلصوا له العبادة واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ بشر المطيعين المتواضعين

(١) تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي و جلال الدين السيوطي، ١ / ٤٣٧ .

(٢) الوجيز، الواحدي، ١ / ٧٣٢ .

الخاشعين بجنات النعيم، تخبت له قلوبهم تخضع وتطمئن، و«المخبت الخاضع المطمئن إلى ما دعى إليه»(١)، ووصفهم بأربع صفات فقال﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إذا ذكر الله خافت وارتعشت لذكره قلوبهم لإشراق أشعة جلاله عليهم فكأنهم بين يديه واقفون ،ولجلاله وعظمته مشاهدون﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ يصبرون في السراء والضراء على الأمراض والمصائب والمحن وسائر المكاره ﴿ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الذين يؤدونها في أوقاتها مستقيمة كاملة مع الخشوع والخضوع﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ومن بعض الذي رزقناهم من فضلنا ينفقون في وجوه الخيرات ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ ﴾ والإبل السمينة - سميت بدناً لبدانتها وضخامة أجسامها - جعلناها من أعلام الشريعة التي شرعها الله لعباده وكونها من شعائر الدين أنها تُهدى إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدى ،وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجل القربات وأن يختارها حسانا سمانا غالية الأثمان روي أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب وأن عمر ﷺ أهدى نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار فإنها أي فإن تعظيمها من تقوى القلوب أي من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات والعائد إلى من أو فإن تعظيمها ناشئ من تقوى القلوب وتخصيصها بالإضافة لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء ﴿ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ نفعٌ في الدنيا وأجرٌ في الآخرة ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾ أاذكروا عند ذبحها اسم الله الجليل عليها حال كونها صواف أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ أي فإذا سقطت على الأرض بعد نحرها، وهو كنايةُ عن الموت ﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ﴾ كلوا من هذه الهدايا وأطعموا القانع أي المتعفف والمعتر أي السائل، « الأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح، والمعتر هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال»(٢) ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ مثل ذلك التسخير البديع جعلناها منقادة لكم مع ضخامة

---

(١) التبيان تفسير غريب القرآن، شهاب الدين أحمد المصري، ١/ ٣٠٤.

(٢) التفسير الكبير، الرازي، ٣/ ٤٥.

أجسامها لكي تشكروا الله على إنعامه ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾ لن يصل إليه تعالى شيء من لحومها ولا دمائها، وسبب نزولها: « كان أهل الجاهلية يضمخون البيت بلجوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب الرسول ﷺ: نحن أحق أن ننضخ، فنزلت»[1]، ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ولكن يصل إليه التقوى منكم بامتثالكم أوامره وطلبكم رضوانه ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ كرره للتأكيد أي كذلك ذللها لكم وجعلها منقادة لرغبتكم لتكبروا الله على ما أرشدكم إليه من أحكام دينه ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ بشر المحسنين في أعمالهم بالسعادة والفوز بدار النعيم.

الهدايات المستنبطة من المقطع السادس:

* أمر الله إبراهيم – عليه السلام – أن يقيم الكعبة على التوحيد، وأن يطهرها من رجس الشرك؛ لكي لا يكون معبوداً في الأرض إلا الله وحده.
* يجب أن تكون حرية العبادة في الحرم المكي لجميع الناس ،من أهل مكة وغيرهم ،ولا يجوز لأحد أن يهم فيه بمعصية؛ فمن فعل قاصداً عامداً فله عذاب أليم.
* تبين الآيات مدى محاولات الكفار للصد عن سبيله، ويستنكر الصد عن المسجد الحرام، وليس المسجد الحرام فحسب بل المقصود كل أماكن العبادة، خاصة المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، لا يجوز الاعتداء عليها وهذا ما أمر به الرسول ﷺ وأمراء الجيوش من الصحابة رضي الله عنهم، خاصة عند الغزو والفتوحات سواء كانت في بلاد المسلمين أم الكفار. ومن صدهم عن سبيل الله، محاولتهم الآن هدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان المزعوم مكانه، ومنع المسلمين من الصلاة فيه.
* شرّع الله تقديم الذبائح في جميع الشرائع والملل و تقديم الذبائح لله دليل شكر له على نعمة الهداية؛ لذا يجب أن يكون الذبح خالصاً لوجهه الكريم، وأن يذكر اسمه تعالى عند الذبح

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبه الزحيلي، ١٧ / ٢١٧.

لمخالفة المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان التي لا تخلق شيئاً، والله هو الخالق الرازق المستحق الطاعة.

* ذكرت الآيات بعض شعائر الحج وما وراءها من أجل تحريك مشاعر التقوى في القلوب، فالله لا يحتاج للهدي بل الناس يحتاجون لتنفيذ أوامر الله ليحظوا بالتقوى، وأضاف التقوى إلى القلوب؛ لأن حقيقة التقوى في القلب، ينبغي أن يقدم الحاج أفضل ما يستطيع من الهدي، لأن الرسول ﷺ فعل ذلك كما تقدم في التفسير الإجمالي للآيات.
* ركّز الله على إطعام الفقراء، القانع و المعتر وفي هذا إشارة إلى أهمية تحقيق التكافل الاجتماعي والتعاون في المجتمع وهومن دروس وفوائد الحج.
* لا يجوز لمؤمن مستطيع، يملك الزاد والراحلة، أن يؤخر الحج، فإن مات فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً كما أشار الحديث.

المناسبة بين المقطع السادس ومحور السورة:

لما كان تعظيم شعائر الله وحرماته ومقدساته والدفاع عنها من التقوى البالغة، بين الله أهمية تعظيم شعائره، فإنها من تقوى القلوب، وهذا هو محور السورة.

المقطع السابع: الإذن بالقتال والدفاع عن المؤمنين. الآيات (٣٨ - ٤١)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع السابع والسادس:

لما بيَّن تعالى مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، وذكر أن الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة، ناسب في هذا المقطع أن يبيَن: أنه يدافع عن المؤمنين، وذكر الحكمة من مشروعية القتال، ومنها الدفاع عن المقدسات، ومنع الصد عن سبيل الله والمساجد، وحماية المستضعفين، وتمكين المؤمنين من عبادة الله تعالى.

التفسير الإجمالي للمقطع السابع:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ ﴾ ينصر المؤمنين ويدفع عنهم بأس المشركين، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكفِّ كيدهم عنهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ إنه تعالى يبغض كل خائنٍ للأمانة جاحدٍ نعمة الله ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ ﴾ فيه محذوف تقديره: أُذن لهم في القتال بسبب أنهم ظُلموا، وورد في سبب نزول هذه الآية أكثر من رواية وكلها بنفس المعنى منها: « أخرج ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير:أن أول آية أنزلت في القتال حين ابتلى المسلمون بمكة وسطت بهم عشائرهم ليفتنوهم عن الإسلام وأخرجوهم من ديارهم وتظاهروا عليهم فأنزل الله أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا الآية» (١)، وهي أول

(١) الدر المنثور، السيوطي، ٦ / ٥٧ .

آية أُذن فيها بالقتال بعدما نهي عنه في أكثر من سبعين آية ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾ هو تعالى قادر على نصر عباده من غير قتال ولكنه يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته لينالوا أجر الشهداء ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ ﴾ يعني محمداً وأصحابه أُخرجوا من مكة إلى المدينة ظلماً وعدواناً بغير سبب موجب للإخراج: ﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾ ما كان لهم إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحدوا الله ولم يشركوا به أحداً ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ ﴾ لولا ما شرعه الله من الجهاد وقتال الأعداء لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وتعطلت الشعائر ولكنه تعالى دفع شرهم بأن أمر بقتالهم ﴿ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ ﴾ أي لتهدمت معابد الرهبان وكنائس النصارى ﴿ وَصَلَوَٰتٌ ﴾ أي كنائس اليهود ﴿ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ ﴾ ومساجد المسلمين التي يعبد فيها الله بكرة وأصيلاً، ومعنى الآية أنه لولا كفُّه تعالى المشركين بالمسلمين، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم فهدموا موضع عباداتهم، ولم يتركوا للنصارى بيعاً، ولا لرهبانهم صوامع، ولا لليهود كنائس، ولا للمسلمين مساجد، ولغلب المشركون أهل الأديان، وإنما ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ ﴾ « قسمٌ أي: والله سينصر الله من ينصر دينه ورسوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أنه تعالى قادر لا يعجزه شيء، عزيزٌ لا يُقهر ولا يغلب ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان، هم أمة محمد ﷺ ولله عاقبة الأمور أي مرجعها إلى حكمه وتقديره وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم»(١) والمعنى: هؤلاء الذين يستحقون نصرة الله هم الذين إن جعلنا لهم سلطاناً في الأرض وتملكاً واستعلاء عبدوا الله وحافظوا على الصلاة وأداء الزكاة ﴿ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ دعوا إلى الخير ونهوا عن الشر ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ مرجع الأمور إلى حكمه تعالى وتقديره.

---

(١) تفسير النسفي، ٣/ ١٠٦ .

الهدايات المستنبطة من المقطع السابع:

* هذه الآيات الكريمة هي أول آيات الإذن بالقتال، بعد أن أمروا بالصبر في مكة فلم يؤذن لهم بسبب قلة عددهم، وخشية الفتنة في الدين ولكن بعد أن قويت شوكة المسلمين وتحولوا للمدينة، أصبح بمقدورهم الدفاع عن أنفسهم ودينهم.
* أهداف مشروعية القتال في الإسلام أهداف سامية؛ لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذي يقع على المؤمنين ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا:ربنا الله، وليس المقصود التدمير والفساد في الأرض وظلم الناس وحملهم على الدخول في الدين فلا إكراه في الدين، لذا كانت أهداف القتال في الإسلام متميزة عن أهداف الدول الباغية والمعتدية وإن رفعت شعارات الحضارة والإصلاح والتطوير والحرية.
* الهدف الأساس من نصر الله لعباده وتمكينهم في الأرض أن يقيموا شرع الله، وفعل ما أمر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما فعل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده؛ لأن الله عز وجل أعطاهم التمكين ونفاذ الأمر، ولن يضيع الله رجلا قط حفظ له دينه.
* خص المساجد دون غيرها من أماكن العبادة بقوله: ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ تعظيماً لها وتشريفاً لأنها أماكن العبادة الحقيقية، فلم يذكر هذا الوصف في أماكن العبادات الأخرى مثل الكنائس والصوامع والدير... الخ.
* وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب، وهذا فيه تأكيد للمؤمنين أنه سبحانه قادر على نصرهم إذا نصروا دين الله مهما بلغت قوة الكفار.

المناسبة بين المقطع السابع ومحور السورة:

وعد الله المؤمنين بالنصر، والتمكين لهم في الأرض، وتكليفهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك للقضاء على الشرك والدعوة للتوحيد وهذه الأوامر هي التي تمكن الموحدين من التقوى والاستعداد لزلزلة الساعة.

المقطع الثامن: الاعتبار بهلاك الأمم السابقة: الآيات (٤٢- ٤٨)

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع الثامن والسابع.

في المقطع السابع وعد الله المؤمنين بالنصر والتمكين في الأرض وناسب في هذا المقطع ذكر نموذج من نصر الله لرسله السابقين على الأمم البائدة كعاد وثمود وغيرهم، وهو تسلية للرسول ﷺ والمؤمنين ليصبروا على ما وجدوه من أذى من الكفار، فإن الله مهلكهم كما أهلك الأمم الغابرة.

التفسير الإجمالي للمقطع الثامن:

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ ﴾ تسلية للرسول ﷺ ووعيد للمشركين أي إن كذبك أهل مكة فاعلم أنك لست أول رسول يكذبه قومه فقد كان قبلك أنبياء كُذبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين، فاقتد بهم واصبر ﴿ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ﴾ وكذب كذلك قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ﴾ وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته، وعظم معجزاته، ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أمهلتهم ثم أخذتهم بالعقوبة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ استفهام تقريري أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب ألم يكن أليماً؟ ألم أبدّلهم بالنعمة نقمة، وبالكثرة قلة، وبالعمارة خراباً؟ فكذلك

أفعل بالمكذبين من أهل مكة ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ كم من قرية أهلكنا أهلها بالعذاب الشامل ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ وهي مشركة كافرة ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف فهي مخربة مهدمة ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ وكم من بئر عطلت فتركت لا يستقى منها لهلاك أهلها ﴿ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ أي وكم من قصر مرفوع البنيان أصبح خالياً بلا ساكن، أليس في ذلك عبرة للمعتبر؟(١) وقيل المراد بالبئر: بئر بسفح جبل بحضرموت وبالقصر قصر مشرف على تلة كانا لقوم حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما(٢)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ أفلم يسافر أهل مكة ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتبروا بما حل بهم من النكال والدمار!! وهلاّ عقلوا ما يجب أن يُعقل من الإيمان والتوحيد! ﴿ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أو تكون لهم آذانٌ يسمعون بها المواعظ ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ليس العمى على الحقيقة عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة فمن كان أعمى القلب لا يعتبر ولا يتدبر، وذِكرُ الصدور للتأكيد ونفي توهم المجاز، ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ ويستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بالعذاب استهزاءً، وإن ذلك واقع لا محالة، لكن لوقوعه أجل لا يتعداه لأنه تعالى لا يخلف الميعاد ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ هو تعالى حليم لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه فلِم إذاً يستبعدونه ويستعجلون العذاب؟ ولهذا قال بعد ذلك ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ وكثير من أهل قرية أخرت إهلاكهم وأمهلتهم مع استمرارهم على الظلم فاغتروا بذلك التأخير ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ ثم أخذتهم بالعذاب بعد طول الإمهال وإليّ المرجع والمآب قال أبو حيّان: لما كان تعالى قد أمهل قريشاً حتى استعجلت بالعذاب ذكر الآية تنبيهاً على أن السابقين أُمهلوا

(١) تفسير أبي السعود، ٦ / ١١١ .

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ٤٣٧.

ثم أُهلكوا وأن قريشاً وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم فإنه لا بد من عذابهم فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم.[(١)]

الهدايات المستنبطة من المقطع الثامن:

* عرضت الآيات نماذج من مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين. وذلك لبيان سنة الله في الدعوات، وتسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من صد وإعراض، وتطمئن المسلمين، بالنصر والفوز!

* ذكرت الآيات أهمية وعي القلوب التي في الصدور، فمن لايفقه بقلبه ويستقيم فهو الأعمى الحقيقي لذا قال سبحانه « فإنها لا تعمى الأبصار « لفظ مبالغة كأنه قال ليس العمى عمى العين وإنما العمى كل العمى عمى القلب. من أجل هذا كانت منافذ الإدراك مهمة من يوظفها بحقها فإنه يزداد تقرباً من الله قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[ق: ٣٧] .

* وعد الله بنصرة من يقع عليه البغي وهو يدفع عنه العدوان ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة في صفحات الكون، وإلى جوارها يعرض صورة مزرية لضعف الآلهة التي يركن إليها المشركون، وهي لا تملك لهم نصراً.

* نهت الآيات عن استعجال عذاب الله جلّ جلاله وقوله سبحانه ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ لطول العذاب وبؤسه السنين فما أجهل من يستعجل هذا.

* وكرر قوله: ﴿ وَكَأَيِّن ﴾؛ لأنه جلب معنى آخر، فذكر أولا القرى المهلكة دون إملاء بل بعقب التكذيب ثم ثنى سبحانه بالمهلة ليلا يفرح هؤلاء بتأخير العذاب عنهم، فوعد الله لا يتخلف.

---

(١) روح المعاني، الألوسي، ١٧ / ١٦٩.

المناسبة بين المقطع الثامن ومحور السورة.

من لم يحافظ على التقوى ويتبع منهج الإسلام ويستعد لليوم الآخر، فسيكون مصيره كمصير الأمم السابقة من الهلاك في الدنيا والآخرة. لأنه لم يمت على التوحيد.

المقطع التاسع: إحكام الوحي للنبي ﷺ الآيات(٤٩ - ٦٠)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن
قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ
يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ
عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ
عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع التاسع والثامن:

لما ذكر الله مصير الأمم الهالكة بين في هذا المقطع سبب هلاكهم وهو عدم إتباعهم لدعوة رسلهم، مدح الله المؤمنين المصدقين برسالة رسوله والمهاجرين لنصرة دين الله ورسوله وبين ما أعد لهم من الجزاء وذم الكافرين وتوعدهم بسوء العقاب.

التفسير الإجمالي للمقطع التاسع:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ يوجه الله رسوله ليعلن للناس: « إنما أرسلني الله إليكم نذيرا لكم بين يدي عذاب شديد وليس إلي من حسابكم من شيء أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب وإن شاء أخره عنكم وإن شاء تاب على من يتوب إليه وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة وهو الفعال لما يشاء ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾»[1].

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ فالمؤمنون الصادقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لهم عند ربهم مغفرة ورزق كريم في جنان النعيم ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ ﴾ كذبوا بآياتنا وسعوا في إبطالها مغالبين مشاقين يريدون إطفاء نور الله ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فأولئك هم أصحاب النار، الشديد عذابها ونكالها شبههم من حيث الدوام بالصاحب ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ نداءً لهم، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة لغيظهم وإيذائهم. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ وما أرسلنا رسولاً ولا نبياً فحدث نفسه بشيء وتمنى لأمته الهداية والإيمان إلا ألقى الشيطان الوسواس والعقبات في طريقه بتزيين الكفر لقومه وإلقائه في نفوسهم مخالفةً لأمر الرسول وكأنَّ الآية تسلية للرسول ﷺ تقول له: لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين. هذا أصح ما قيل في تفسير الآية وهو اختيار المحققين من المفسرين، وأما قصة الغرانيق التي أولع بذكرها بعض المفسرين فهي باطلة مردودة، وهي أن الرسول ﷺ قرأ سورة ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ﴾ بمحضر من المشركين والمسلمين فلما بلغ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ ألقى الشيطان على لسانه «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى» ففرح بذلك المشركون ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون إلخ « ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق وهي روايات مرسلات ومنقطعات لا تصح. ومما يدل على

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٣٠٦.

بطلان القصة قوله تعالى في نفس السورة ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذي يزعمونه! سبحانك هذا بهتان عظيم»[1].

﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ يزيل ويبطل الله ما يلقيه الشيطان من الوساوس والأوهام ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ يثبت في نفس الرسول آياته الدالة على الوحدانية والرسالة ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ مبالغٌ في العلم حكيم يضع الأشياء في مواضعها « وإن الله لهاد الذين ءامنوا إلى أن يتأولوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبوا لما أشكل منه المجمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة والقوانين الممهدة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعريهم شبهة ولا تزل أقدامهم»[2]. ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ ليجعل تلك الشبه والوساوس التي يلقيها الشيطان ﴿ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ فتنة للمنافقين الذين في قلوبهم شك وارتياب ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وفتنةً للكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله، وهم خواص من الكفار عتاةٌ كأبي جهل، والنضر، وعتبة ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ وإن هؤلاء المذكورين من المنافقين والمشركين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله، ووصف الشقاق بلفظ ﴿ بَعِيدٍ ﴾ لأنه في غاية الضلال والبعدِ عن الخير ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق النازل من عند الله تعالى ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ يؤمنوا بهذا القرآن ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ تخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف مَنْ في قلبه مرض ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ومنقذهم من الضلالة والغواية ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ ولا يزال هؤلاء المشركون في شك وريب من هذا القرآن ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ أي حتى تأتيهم الساعة فجأة دون أن يشعروا ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ أو يأتيهم عذاب يوم القيامة وسمي عقيماً لأنه لا يوم بعده كأنَّ كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيماً، والمراد به الساعة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٣٠٨.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٨٠٧.

أيضاً كأنه قيل: أو يأتيهم عذابها، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل وقيل اليوم العقيم هو يوم بدر « في قوله عذاب يوم عقيم يوم بدر الآية» (١) ووصف يوم الحرب بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن أو لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز. ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ الملك يوم القيامة لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع ﴿ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ يفصل بين عباده بالعدل، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ولهذا قال ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ فالذين صدقوا الله ورسوله وفعلوا صالح الأعمال لهم النعيم المقيم في جنات الخلد ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله لهم العذاب المخزي مع الإهانة والتحقير في دار الجحيم. ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ تركوا الأوطان والديار ابتغاء مرضاة الله وجاهدوا لإعلاء كلمة الله ﴿ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ ﴾ قتلوا في الجهاد أو ماتوا على فرشهم ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ ﴾ ليعطينهم نعيماً خالداً لا ينقطع أبداً وهو نعيم الجنة ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ هو تعالى خير من أعطى فإنه يرزق بغير حساب ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ﴾ ليدخلنهم مكاناً يرضونه وهو الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ عليم بدرجات العاملين حليم عن عقابهم ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ﴾ جازى الظالم بمثل ما ظلمه ﴿ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۚ ﴾ ثم اعتدى الظالم عليه ثانياً لينصرن الله ذلك المظلوم «بمعنى المماثلة في الجنس فإن المشركين آذوا المسلمين وأرغموهم على مغادرة موطنهم فيكون عقابهم على ذلك بإخراج من يمكنهم أن يخرجوه من ذلك الوطن ولا يستطيعون ذلك إلا بالجهاد لأن المشركين كانوا أهل كثرة وكانوا مستعصمين ببلدهم فإلجاء من يمكن إلجاؤه إلى مفارقة وطنه إما بالقتال فهو إخراج كامل أو

(١) تفسير الثوري، ٢١٥ .

بالأسر»[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ مبالغ في العفو والغفران، وفيه تعريض بالحث على العفو والصفح، فإنه تعالى مع قدرته على الانتقام يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك.

الهدايات المستنبطة من المقطع التاسع:

* وظيفة الرسول ﷺ هي الإنذار بالنار، والتبشير بالجنة، قدّم الله الإنذار على البشارة فإن قيل: إنه ﷺ بشر المؤمنين أولاً، وأنذر الكافرين ثانياً في هذه الآية فكان القياس أن يقال {إنما أنا لكم بشير ونذير} والجواب أن الكلام مسوق إلى المشركين وهم الذين استعجلوا العذاب، وهذا من باب مراعاة الخطاب لمقتضى الحال حبّذا يستفيد منه الدعاة.
* بين سبحانه أن من جمع بين الإيمان والعمل الصالح فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم وهو الجنة.
* تسلية جديدة للرسول لما يردده الكفار على لسان الشياطين فقد أصاب الرسل السابقين.
* السهو من الأنبياء عليهم السلام، وتطرق الوسوسة إليهم في أمور الدنيا جائز؛ لأنهم بشر، ولكن الله عصمهم من الخطأ في تبليغ الرسالات وهو فتنة. وهي تدل على إحكام الوحي.
* حذّر الله من الساعة مرة ثانية وهو دليل على خطورتها، وضرورة الاستعداد لها.
* ذكر الله فضل المهاجرين في سبيله ووعدهم بالرحمة والمغفرة والرزق الحسن، ففيه دلالة على فضل الهجرة والبحث عن مكان يتمكن المسلم من طاعة ربه فيه.
* سمي اعتداء المشركين على المؤمنين عقابا في قوله تعالى ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ﴾ لأن الذي دفع المعتدين إلى الاعتداء هو قصد العقاب على خروج المؤمنين عن دين الشرك ونبذ عبادة أصنامهم، وهو عقاب ظلم.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٧٩٩.

المناسبة بين المقطع التاسع ومحور السورة:

التركيز على مهمة الرسول ﷺ منذراً ومبشراً، وعصمة الله له من فتنة الشياطين، ثم بيان فضل المهاجرين الذين نصروا الله ورسوله، يتفق مع محور السورة.

المقطع العاشر: تابع المقطع الثالث مزيد من دلائل قدرة الله تعالى

الآيات (٦١- ٦٦)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع العاشر والتاسع:

لمّا ذكر تعالى ما دّل على قدرته الباهرة في المقاطع السابقة من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ونبه به على نعمه، أتبعه هنا بأنواع أخرى من الدلائل على قدرته وحكمته، وجعلها كالمقدمة لإثبات البعث والمعاد، وختم السورة بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله الواحد الأحد.

التفسير الإجمالي للمقطع العاشر:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ ذلك النصر بسبب أن الله قادر، ومن آيات قدرته إيلاج الليل في النهار، يدخل كلاً منهما في الآخر. بأن ينقص من الليل فيزيد في النهار وبالعكس وهذا مشاهد ملموس في الصيف والشتاء، ﴿ وَأَنَّ

ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ سميع لأقوال عباده بصير بأحوالهم لا تخفى عليه خافية ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ذلك بأن الله هو الإله الحق﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ وأن الذي يدعوه المشركون من الأصنام والأوثان هو الباطل الذي لا يقدر على شيء ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ هو العالي على كل شيء ذو العظمة والكبرياء فلا أعلى منه ولا أكبر. ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ استفهام تقريري أي ألم تعلم أيها السامع أن الله بقدرته أنزل من السحاب المطر؟ ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾« فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد يبسها ومحولها، وجاء بصيغة المضارع ﴿ فَتُصْبِحُ ﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن»[1]﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط، والغرض من الآية إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ جميع ما في الكون ملكه جل وعلا، خلقاً وملكاً وتصرفاً، والكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ هو تعالى غني عن الأشياء كلها لا يحتاج لأحد، وهو المحمود في كل حال ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تذكير بنعمة أخرى أي ألم تر أيها العاقل أن الله سخر لعباده جميع ما يحتاجون إليه من الحيوانات والأشجار والأنهار والمعادن﴿ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ وسخر السفن العظيمة المثقلة بالأحمال والرجال تسير في البحر لمصالحكم بقدرته ومشيئته ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ ويمسك بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ أي إذا شاء وذلك عند قيام الساعة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وذلك من لطفه بكم ورحمته لكم حيث هيأ لكم أسباب المعاش فاشكروا آلاءه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ﴾ أي أحياكم بعد أن كنتم عدماً ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ يميتكم عند انتهاء آجالكم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ بعد موتك للحساب والثواب والعقاب ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ مبالغ في الجحود لنعم الله، المراد بالإنسان الكافر.

(١) التفسير الكبير، الرازي، ٣/ ٦٠.

الهدايات المستنبطة من المقطع العاشر:

* ذكرت الآيات مزيداً من أدلة قدرته تتمة للمقاطع السابقة، وفيها تأكيد على نصره للمؤمنين، وقدرته على إهلاك الكافرين؛ فهو يولج الليل في النهار، والنهار في الليل وينزل المطر من السماء فتصبح الأرض مخضرة، مقدراً فيها أرزاق العباد، فهو لطيف بهم، ويمسك السماء أن تقع على الأرض، فهو رحيم ورءوف بهم، ثم بعد ذلك يجعلون له أنداداً، أفلا يعقلون ؟ فتعساً لهم، وهنيئاً للموحدين.
* على الرغم من ذكر الدلائل الباهرة القوية الدالة على قدرة الله وعظمته وما لها من رهبة إلا أنه وردت فيها إشارات تطمئن المؤمنين برحمته كقوله تعالى:﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فليحمدوه ويوحدوه ولا يشركوا به ولا ينكروا نعمه لئلا ينطبق عليه قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾. والغرض من الآيات توبيخ المشركين كأنه يقول: كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره ؟ وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف!!

المناسبة بين المقطع العاشر ومحور السورة:

نفس المناسبة التي ذكرت في المقطع الثالث حيث الغرض من ذكر هذه الأدلة لإثبات أن الله واحد، ولا معبود سواه فليحذر العاقل من عذابه ومن أهوال الساعة، ويستعد للقائه.

المقطع الحادي عشر: بطلان شريعة ومنهاج المشركين الآيات (٦٧ - ٧٦)

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ
هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ
إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا
لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ
يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ
مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾
ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ
أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

المناسبة بين المقطع الحادي عشر والعاشر:

في المقطع السابق ذكر مزيداً من دلائل قدرته سبحانه؛ فذكر في هذا المقطع موقف الناس من تلك الدلائل بين مؤمن وكافر، فهو تأكيد للمقاطع السابقة بأن الله سبحانه يفصل بين المكذبين والصادقين فهو أعلم بما فيه يختلفون.

التفسير الإجمالي للمقطع الحادي عشر:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا﴾ لكل نبي من الأنبياء وأمة من الأمم السابقين وضعنا لهم شريعة ومتعبداً ومنهاجاً ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ هم عاملون به أي: بذلك الشرع، وسبب نزولها: «قال كفار خزاعة للمسلمين تأكلون من ذبائحكم التي تذبحونها، ولا تأكلون من الميتة التي

يذبحها الله، فنزلت»[(١)].

﴿ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ ﴾ لا ينازعك أحدٌ من المشركين فيما شرعتُ لك ولأمتك فقد كانت الشرائع في كل عصر وزمان، وهو نهيٌ يراد به النفي أي لا ينبغي منازعةُ النبي ﷺ لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه ﴿ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ ﴾ أدعُ الناس إلى عبادة ربك وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ فإنك على طريق واضحٍ مستقيم، موصل إلى جنات النعيم ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ وإن خاصموك بعد ظهور الحق وقيام الحجة عليهم فقل لهم: الله أعلم بأعمالكم القبيحة وبما تستحقون عليها من الجزاء، وهذا وعيد وإنذار ﴿ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ الله يفصل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين فيما كانوا فيه يختلفون في أمر الدين، فيعرفون حينئذٍ الحق من الباطل ﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ الاستفهام تقريري أي لقد علمت يا محمد أنَّ الله أحاط علمه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ ﴾ إن ذلك كله مسطر في اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ أي إن حصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته سهلُ عليه يسيرٌ لديه.

ثم بيَّن سبحانه ما يقدم عليه الكفار مع عظيم نعمه، ووضوح دلائله فقال ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ويعبد كفار قريش غير الله تعالى أصناماً لا تنفع ولا تسمع ﴿ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا ﴾ ما لم يرد به حجة ولا برهان من جهة الوحي والشرع ﴿ وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ ﴾ وما ليس عندهم به علم من جهة العقل وإنما هو مجرد التقليد الأعمى للآباء ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴾ ليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ ﴾ وإذا تليت على هؤلاء المشركين ءايات القرآن الواضحة الساطعة وما فيها من الحجج القاطعة على وحدانية الله ﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ ﴾ ترى في وجوه الكفار الإنكار بالعبوس والكراهة ﴿ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ ﴾ يكادون يبطشون بالمؤمنين

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، ١٧ / ٢٦٩.

الذين يتلون عليهم القرآن ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ ﴾ قل لهم: هل أخبركم بما هو أسوأ أو أشنع من تخويفكم للمؤمنين وبطشكم بهم؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها ﴿ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ ﴾ وعدها الله للكافرين المكذبين بآياته ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ بئس الموضع الذي يصيرون إليه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ ﴾ يا معشر المشركين ضرب الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ ﴾ إنَّ هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وإن اجتمعت على ذلك، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله! ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ﴾ « لو اختطف الذباب وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم والمطلوب الذي هو الصنم، فكل منهما حقير ضعيف»[(١)] ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا الأصنام - على حقارتها - شركاء للقوي العزيز ولهذا قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ هو تعالى قادر لا يعجزه شيء، غالب لا يغلب، فكيف يسوون بين القوي العزيز والعاجز الحقير؟! ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ ﴾ الله يختار رسلاً من الملائكة ليكونوا وسطاء لتبليغ الوحي إلى أنبيائه، ويختار رسلاً من البشر لتبليغ شرائع الدين لعباده، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ ﴾ يعلم ما قدموا وما أخَّروا من الأفعال والأقوال والأعمال ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ إليه وحده جل وعلا ترد أمور العباد فيجازيهم عليها.

الهدايات المستنبطة من المقطع الحادي عشر:

* تؤكد الآيات على أن الله جعل لكل أمة منهجا ومسلكا من الشرائع، والله جعل للمسلمين منسكاً لا يجوز مخالفته؛ لأن الحق ظهر ورسالة الإسلام هي الخاتمة التي يجب إتباعها

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ٤١٥.

والالتزام بها.

* الآيات تعلمنا الأدب فإذا خاصم الناس بالباطل، فلنقل لهم: «الله أعلم بما تعملون».

* إن عبدة الأوثان ليس لهم دليل سمعي نقلي أو عقلي، فهم يستمدون شرعهم من أهوائهم وأمزجتهم، الله جلّ وعلا محيط بأفعال وأقوال عباده يحاسبهم عليها يوم القيامة.

* ضرب الله مثلاً لتقريب الأفهام، بيّن فيه ضعف من يطلب أو يرجو غيره بمخلوق ضعيف وهو الذباب، إذا أخذ شيئاً من طعامهم فإنهم لا يستطيعون طلبه؛ فهذه المعبودات أعجز وأحقر من أن تخلق ذبابة فضلاً عن أن تخلق إنساناً سميعاً بصيراً « وخص الذباب لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، ولاستقذاره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأرباباً مطاعين؟ وهذا من أقوى الحجة وأوضح البرهان»[1].

* الاختيار المطلق لله في اصطفاء الملائكة والرسل من الناس ،فلا يحق الاعتراض.

المناسبة بين المقطع الحادي عشر ومحور السورة:

بعد أن تكلم عن الإلهيات والنبوات أتبعه بالشرائع والأحكام تؤكد الآيات في هذا المقطع على ضرورة إتباع منهج الرسول ﷺ وعدم الخروج عنه ،لأن طاعة غير الله لا فائدة منها، فغيره لا يستطيع أن يخلق ذبابا ،ولا استرداد ما أخذه الذباب ،لذلك يجب أن يكون التوحيد الخالص لله وحده.

(١) الجامع لتفسير القرآن، القرطبي، ١٢ / ٨٩.

المقطع الثاني عشر: أوامر الله للمؤمنين الآيتان (٧٧ – ٧٨)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع الثاني عشر الحادي عشر:

ذكر الله في المقطع السابق ضعف المدعوين من دونه وأنهم لا يملكون شيئاً ولا يخلقون شيئاً وأن الطاعة له وحده بيّن لهم في هذا المقطع بعض التكليفات كالصلاة والزكاة والحج والجهاد والاعتصام بالله، وهي التي تمت الإشارة لها في المقطع السادس.

التفسير الإجمالي للمقطع الحادي عشر:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ ﴾ صلوا لربكم خاشعين، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنهما أشرف أركان الصلاة ﴿ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره ﴿ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ ﴾ افعلوا ما يقربكم من الله من أنواع الخيرات كصلة الأرحام ومواساة الأيتام، والصلاة بالليل والناس نيام ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة ﴿ وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ ﴾ جاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله حقَّ الجهاد باستفراغ الوسع والطاقة ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾ هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه، وخصكم بأكمل شرع وأكرم رسول ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾ وما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة، ولا كلفكم ما لا تطيقون بل هي الحنيفية السمحة ولهذا قال﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ ﴾ دينكم الذي لا حرج فيه هو دين إبراهيم فالزموه؛ لأنه الدين القيم ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا ﴾ الله سماكم المسلمين في الكتب المتقدمة وفي

هذا القرآن، ورضي لكم الإسلام ديناً « المعنى أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن وفي القرآن أيضاً بيّن فضلكم على الأمم وسمّاكم بهذا الاسم الأكرم، لأجل الشهادة المذكورة، فلما خصكم بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه»[١] ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ ليشهد عليكم الرسول بتبليغه الرسالة لكم وتشهدوا أنتم على الخلائق أنَّ رسلهم قد بلَّغتهم ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وإذْ قد اختاركم الله لهذه المرتبة الجليلة فاشكروا الله على نعمته بأداء الصلاة ودفع الزكاة ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ استمسكوا بحبله المتين واثقوا واستعينوا بالله في جميع أموركم ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ فتمام الفضل والمنّة أن يكون الله تعالى معيناً لكم وناصركم في جميع أموركم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الحادي عشر:

* كلف الله المؤمنين بأوامر؛ لأن فيها فلاحهم وفوزهم إذ علق به الفلاح بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة خصهما بالذكر، وأجمل سائر التكليفات بقوله ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ ليشمل كل الخيرات ويتنافس فيه المتنافسون.
* الأمر بالسجود فيه دلالة على الخضوع الكامل لله وقد سبق في المقطع الرابع بيان أن المخلوقات جميعاً تسجد لله ما عدا أكثر الناس، لذلك دعاهم إلى السجود مرة ثانية وإن ورد بعض الخلاف في هذه السجدة الثانية على النحو الآتي: « واختلف العلماء في عدد سجود القرآن فروي عن أحمد روايتان إحداهما: أنها أربع عشرة سجدة وبه قال الشافعي وأبو حنيفة هي أربع عشرة فأخرج التي في آخر الحج، والثانية:أنها خمس عشرة فزاد سجده»[٢].
* قيّد الجهاد بقوله ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ بذل كل طاقة وجهد وغاية ما في الوسع للدفاع عن

---

(١) التفسير الكبير، الرازي، ٣/ ٧٨.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥/ ١٥٦.

العقيدة والعرض والممتلكات، ورفع راية الإسلام خفّاقة عالية، فعلى كل مسلم بذل ما يستطيع من نفسه أو ماله أو غير ذلك ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

* يذكر الله عباده برحمته حيث يسر لهم فلم يكلفهم ما لا يطيقون، ورفع عنهم كل حرج، فهو دين الحنيفية السمحاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ والتي كان عليها إبراهيم عليه السلام فهو سمّانا مسلمين من قبل، فهّلا استسلمنا وانقدنا لله وحده ولازمنا الشكر والثناء الحسن وعبدناه حق عبادته.

* ميّز الله هذه الأمة فأكرمها بأن جعلها شاهدة على الأمم يوم القيامة بأن رسلهم بلغتهم مع شهادة الرسول ﷺ وهذا له يقتضي الشكر والحمد.

* اللجوء والاعتصام لا يجوز أن يكون إلا بالله وحده، فهو نعم المولى ونعم النصير

المناسبة بين المقطع الثاني عشر ومحور السورة:

ما ورد في هذا المقطع من أوامر وتكليفات؛ تقوى الله حق تقاته، والصلاة والزكاة والجهاد وطاعة الرسول ﷺ به تتحقق الوحدانية والتقوي والخشية والاستعداد للقاء الله.

سورة المؤمنون

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة:

سميت بسورة «المؤمنون»؛ لذكر صفات المؤمنين فيها، أو هي سورة الإيمان، بكل قضاياه ودلائله وصفاته التي تميّز شخصية المؤمن. " وقد وردت تسمية هذه السورة في السنة عن عبد الله بن السائب قال: صلى بنا رسول الله الصبح بمكة فاستفتح سورة المؤمنين حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أو ذكر موسى وعيسى أخذت النبي سعلة فركع "، ومما جرى على الألسنة أن يسموها سورة ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ﴾، ويسمونها أيضا سورة الفلاح». [(١)]

ب - فضائل سورة المؤمنون:

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: « كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه دويّ كدويّ النحل، وأنزل عليه يوما فمكثنا ساعة فسري عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا - ثم قال - أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة - ثم قرأ - ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ﴾ حتى ختم عشر آيات». [(٢)]

ج - سبب نزول السورة:

وأما سبب نزولها فشأنها شأن السور المكية التي تناولت قضية التوحيد والإيمان.

د - مكية السورة أو مدنيتها:

سورة المؤمنون مكية بالاتفاق « ولا اعتداد بتوقف من توقف في ذلك بأن الآية التي ذكرت

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١ / ٢٨١٤.

(٢) الجامع القرطبي، ١٢ / ٩٤ والحديث رواه الترمذي في سننه، رقم ٣٠٩٧.

فيها الزكاة وهي قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ تعين أنها مدنية لأن الزكاة فرضت في المدينة؛ فالزكاة المذكورة فيها هي الصدقة لا زكاة النصب المعينة في الأموال، وإطلاق الزكاة على الصدقة مشهور في القرآن، قال تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت: ٦-٧]، وفصلت سورة مكية بالاتفاق، وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [مريم: ٥٥]، ولم تكن زكاة النصب مشروعة في زمن إسماعيل»[1].

أقول: وعلى فرض وجود آية أو بعض آيات مدنية، فهذا لا يخرجها عن كونها مكية.

هـ - عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العد وسببه:

وهي السورة السادسة والسبعون في عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة الطور وقيل: الملك، وآياتها مائة وسبع عشرة في عد الجمهور.

وعدها أهل الكوفة مائة وثمان عشرة فالجمهور عدوا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ آية، وأهل الكوفة عدوا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ آية وما بعدها آية أخرى»[2].

و - محور السورة:

هذه السورة تدور آياتها تتحدث عن الوحدانية، وإبطال الشرك ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه، فصفات المؤمنين، ودلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، وإرسال الرسل تترا وموقف أقوامهم منهم، والتوجيهات الربانية لرسوله ﷺ، وما ذكر من بعض اللقطات من مشاهد يوم القيامة، كل ذلك يثبت وحدانية الله، ويبطل الشرك؛ لذا عقّب في نهاية السورة بتقرير التوحيد المطلق والتوجه إلى الله وحده بطلب المغفرة والرحمة.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١ / ٢٨١٤.

(٢) المرجع السابق.

ز. المناسبات في السورة:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

اسم السورة المؤمنون، أو الإيمان - كما تقدم - وهو يرتبط بمحورها ارتباطاً وثيقاً فالاسم مشتق من موضوع السورة ومحورها.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

افتتحت السورة وختمت بالحديث عن الفلاح، فأثبتت الفلاح للمؤمنين في مطلعها ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، ونفته عن الكافرين في ختامها ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وهذا ربط واضح واتساق قوي بين المطلع والختام، فلما ذكر الفلاح للمؤمنين في مطلعها، قد يتوهم البعض باحتمال الفلاح لغيرهم فنفى ذلك الوهم في ختام السورة.

وقد اتسم مطلع السورة بأسلوب الترغيب في التوحيد والإيمان، وبأسلوب الترهيب من الشرك في آخرها، للجمع بين الترغيب والترهيب، باتساق مطلع السورة وختامها.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها

ختمت سورة الحج التي سبقت سورة المؤمنون بتوجيه المؤمنين إلى إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والجهاد في سبيل الله، وفعل الخيرات، فلما كان لابد من معرفة جزاء وثواب من يلتزم بهذه الصفات، كان الافتتاح به في سورة المؤمنون، فوعدت بالفلاح، والفردوس الأعلى في جنّات النعيم، وهذا هو الكرم الرباني والثواب العظيم.

٤ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

مضمون سورة المؤمنون يشبه مضمون سورة الحج، ففي سورة الحج: الخشية من الساعة وذكر دلائل قدرة الله قي خلق الإنسان وفي الكون، وفصلت موقف الأمم من الرسل، وجزاء المؤمنين، وسوء عاقبة الكفار، والتوجيه لفعل الخير والطاعات، وهي نفس المواضيع التي تناولتها سورة المؤمنون.

المقطع الأول: صفات المؤمنين (١ – ١١)

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ
۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا
مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ
لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠
ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ ﴾

التفسير الإجمالي للمقطع الأول:

يبشر الله المؤمنين بالفلاح ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ﴾ فازوا وسعدوا، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم: ﴿ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ والخشوع في اللغة الخضوع والتواضع، والخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أولها إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، لا قيمة لها، وإن كانت مجزئة مثابا عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها.

سبب نزول الآية:

« قيل: إنها نزلت من أجل أن القوم كانوا يرفعون أبصارهم فيها إلى السماء قبل نزولها فنهوا بهذه الآية عن ذلك»[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، ﴿ مُّعۡرِضُونَ ﴾ تاركوه، ترفعا عنه، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى، وحفظ اللسان حفظ لجميع الأعضاء، لذا قال النبي ـ ﷺ ـ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟» قلت : بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «كف عليك هذا،

(١) الجامع، الطبري، ٩ / ١٩٦.

قال وهل نحن مؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله، قال ثكلتك أمك وهل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد السنتهم » [1] فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة، كف ألسنتهم عن اللغو والمحرمات، والحرص على أداء الزكاة:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ مؤدون لزكاة أموالهم، طهرة لأنفسهم وأموالهم ومجتمعهم، فأحسنوا في طاعة الله، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ ﴾ عن الزنا، ومقدماته، كالنظر واللمس ونحوهما ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ الزوجة الشرعية، والأمة من الإماء المملوكات ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ بقربهما؛ لأن الله تعالى أحلهما ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾ غير الزوجة والأمة المملوكة، وهؤلاء حكم الله عليهم بالغفلة ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرئون على محارم الله. وعموم هذه الآية، يدل على تحريم كل نكاح ليس شرعياً، كنكاح المتعة، وغيره ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ﴾ الإيماء، أسيرات الحرب.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ مراعون لها، حريصون على أدائها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين ، وكذلك العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود، التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ يداومون عليها بخشوع تام، في أوقاتها وحدودها وشروطها وأركانها، كاملة غير منقوصة.

ثم تذكر الآيات جزاء من يتصف بتلك الصفات ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ﴾، ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ لهم الفردوس الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين، على درجاتهم ومراتبهم كل بحسب حاله،

(١) مسند الإمام أحمد، رقم ٢١٠٠٨.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لا يبغون عنها حولا لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وليس بعده نعيم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول:

* وعد الله المؤمنين بالفلاح، الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة فلاح الفرد والجماعة، وعد الله لا يخلف الله وعده، فلاح فوق التصور والإدراك.

والتعبير بـ قد يجوز أن يكون تأكيدا لفلاح المؤمنين، ويجوز أن يكون تقريبا للماضي من الحال؛ لأن قد تقرب الماضي من الحال حتى تلحقه بحكمه كقول: قد قامت الصلاة قبل حال قيامها؛ فيكون المعنى: إن الفلاح قد حصل لهم وإنهم عليه في الحال.

* وصف الله عباده المؤمنين المستحقين للفلاح والفوز بصفات، وأوجب عليهم أن يتصفوا بها، فلا فلاح بدونها؛ لأنها صفات تميز حياة الإنسان عن حياة الحيوان.

* يخشعون في صلاتهم؛ فتخشع جوارحهم وأرواحهم، فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص.

* ويعرضون عن اللغو، ليتفرغوا لذكر الله وطاعته، ويجوز للمؤمن أن يروح عن نفسه بين الحين والحين، ولكن هذا شيء آخر غير الهذر واللغو.

* ويؤتون الزكاة، طهارة للقلب والمال، فهي تأمين اجتماعي للأفراد، ووقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال.

* تحريم الزنا طهارة للروح والبيت والجماعة، ووقاية النفس والأسرة والمجتمع، والجماعة التي تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قذرة هابطة في سلم البشرية، ويحرم نكاح المتعة، وكل نكاح غير شرعي.

* النسوة اللواتي يجئن إلى المعسكر الإسلامي أسيرات، تقضي قاعدة التعامل بالمثل

باسترقاقهن، إلا أن يتحررن لسبب من الأسباب الكثيرة التي جعلها الإسلام سبلا لتحرير الرقيق، ولعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن، كي لا يشبعنها عن طريق الفوضى القذرة في المخالطة الجنسية كما يقع في زماننا هذا مع أسيرات الحرب - وهذا ما حرمه الإسلام ! وذلك حتى يأذن الله فيرتفعن إلى مرتبة الحرية.

ويشترط في حل المملوكة أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

* أداء الأمانات إلى أهلها؛ فهي صفة دائمة لهم في كل حين، وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات، وترعى فيها العهود، والأمانات والعهود تشمل كل ما بين العبد وخالقه، وما بين العبد والمخلوقين.
* وكرر الصلاة مرة أخرى لأهميتها، فلا يفوتونها كسلا، ولا يضيعونها إهمالا، ولا يقصرون في إقامتها كما ينبغي أن تقام، إنما يؤدونها في أوقاتها كاملة الفرائض والسنن، ولقد بدأت صفات المؤمنين بالصلاة، وختمت بالصلاة؛ للدلالة على عظيم مكانتها في بناء الإيمان بوصفها أكمل صورة من صور العبادة والتوجه إلى الله.
* جعل الله ثواباً لمن يتصف بتلك الصفات أن يدخله الفردوس الأعلى، وتلك غاية الفلاح الذي كتبه الله للمؤمنين.

المناسبة بين المقطع الأول ومحور السورة:

محور السورة يتحدث عن التوحيد والإيمان بالله، فلما ذكر الله صفات المؤمنين الموحدين ذكر نتيجة توحيدهم وهو الفلاح والنجاح في الفردوس الأعلى.

المقطع الثاني: أدلة وحدانية الله الآيات (١٢ - ٢٢)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا
ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ
أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ
لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾
وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثاني والأول:

لما ذكر الله صفات المؤمنين الفالحين في المقطع الأول، ثني بذكر دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، كما أن في عرض تلك الأطوار الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى إلى نهايتها في الحياة والدلائل الكونية: في خلق المخلوقات بهذا التتابع الدقيق المطرد، ما يشير إلى أن الإيمان بالخالق المدبر، والاتصاف بصفات المؤمنين التي ذكرت في المقطع السابق، هو وحده الطريق إلى بلوغ الكمال، في الحياتين: الدنيا والآخرة. وهذا هو المحور الذي يجمع بين المقطعين في سياق السورة.

التفسير الإجمالي للمقطع الثاني:

ذكر الله في هذه الآيات أطوار الآدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه فذكر ابتداء خلق آدم عليه السلام، وأنه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ قد سلت وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك، ثم يستطرد قي ذكر بقية المراحل:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ ﴾ جنس الآدميين ﴿ نُطْفَةً ﴾ تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر ﴿ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ وهو الرحم، القرار المكين.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ ﴾ التي قد استقرت قبل ﴿ عَلَقَةً ﴾ دما أحمر، بعد مضي أربعين يوما من النطفة، ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ ﴾ بعد أربعين يوما ﴿ مُضْغَةً ﴾ قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمضغ من صغرها. ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴾ صلبة، قد تخللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها، ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ جعلنا اللحم، كسوة للعظام، كما جعلنا العظام، عمادا للحم، وذلك في الأربعين الثالثة، ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جماداً، إلى أن صار حيواناً، وفي الحديث الصحيح: « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح» [1] الحديث فإذا نفخ فيه الروح فقد تهيأ للحياة والنماء وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ لأن الخلق المذكور قبله كان دون حياة ثم نشأ فيه خلق الحياة»[2] وأثنى الله على نفسه، وهو المستحق سبحانه للثناء والمجد ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾ تعالى وتعاظم وكثر خيره ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ فخلقه كله حسن، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين: ٤]، ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ الخلق، ونفخ الروح ﴿ لَمَيِّتُونَ ﴾ في أحد أطواركم وتنقلاتكم ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ فتجازون بأعمالكم، حسنها وسيئها.

لما ذكر تعالى خلق الآدمي، ذكر سكنه، وتوفر النعم عليه من كل وجه فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴾ سقفا للبلاد، ومصلحة للعباد ﴿ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ سبع سماوات طباقا، كل طبقة

(١) صحيح البخاري، حديث رقم/ ٣٠٨٥.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١ / ٢٨٢٢.

فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق، فعلمنا أيضا محيط بما خلقنا، فلا نغفل مخلوقا ولا ننساه، ولا نخلق خلقا فنضيعه، وكثيرا ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه؛ لأن خلق المخلوقات، من أقوى الأدلة العقلية، على علم خالقها وحكمته.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ ﴾ يكون رزقا لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم، فلا ينقص فتختل الحياة، ولا يزيده زيادة لا تحتمل، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله ثم صرفه عند التضرر من دوامه، ﴿ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرة منزله، جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضا معدا في خزائن الأرض، بحيث لم يذهب نازلا، حتى لا يوصل إليه، ولا يبلغ قعره، ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ إما بأن لا ننزله، أو ننزله، فيذهب في أغوار الأرض لا يوصل إليه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته، ويقدروا عدمها، ماذا يحصل به من الضرر.

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ ﴾ بذلك الماء ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ بساتين ﴿ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾ خص الله تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشئ منه غيرهما، لفضلهما ومنافعهما، التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: ﴿ لَّكُمْ فِيهَا ﴾ في تلك الجنات ﴿ فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ متعددة وكثيرة، ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ ﴾ وهي شجرة الزيتون، أي: جنسها، خصت بالذكر؛ لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها، التي ذكر بعضها في قوله: ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾ فيها الزيت، الذي هو دهن، يستعمل استعماله من الاستصباح به، واصطباغ الآكلين، أي: يجعل إداماً للآكلين، وغير ذلك من المنافع.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم الأنعام، الإبل والبقر والغنم، فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمنتفعين ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا ﴾ من لبن، يخرج من بين فرث ودم، خالص سائغ للشاربين، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ ﴾ من أصوافها، وأوبارها وأشعارها، وجلودها ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أفضل المآكل من لحم وشحم، ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ

﴿تُحۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ جعلها سفنا لكم في البر، كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم، وتحمل متاعكم، قليلا كان أو كثيرا، فالذي أنعم بهذه النعم، هو الذي يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، وتوحيده، والاجتهاد في عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني:

* ذكر الله في هذه الآيات أدلة واضحة بينة، تدل بكل وضوح على وحدانيته سبحانه، وقدرته العظيمة، لا يغفل عنها إلا هالك، ولا ينكرها إلا جاحد.
* التفكير فيما خلق الله عبادة يؤجر عليها، وطريق يزيد الإيمان ويثبته، فمن عظيم قدرته مراحل خلق الإنسان، من البداية إلى النهاية، وهذا ما يثبت وجود الخالق.
* عندما يتوصل العلماء إلى صنع جهاز، يعجب الناس ويدهشوا، فأين هذا من سير الجنين في مراحله تلك وأطواره وتحولاته، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾
* الآيات تدل على البعث؛ فالإيمان به واجب، والله القادر على خلق الإنسان أول مرة قادر على خلقه مرة أخرى.
* العاقل ينتفع بدلائل الإيمان الموجودة في الأنفس وفي الآفاق، المذكورة في هذه الآيات، ولا يغفل عنها، والربط بين هذه الدلائل الكونية وبين أطوار النشأة الإنسانية في سياق السورة.، ليعطي مساحة واسعة من التفكير والتأمل.
* خلق سبع سموات مستواها أعلى من مستوى الأرض في هذا الفضاء - خلقها الله بتدبير وحكمة، وفيهما دليل القدرة الربانية.
* نزول المطر من السماء نعمة عظيمة، وهو ينزل بقدر؛ بحكمة وتدبير، لا أكثر فيغرق ويفسد ولا أقل فيكون الجدب والمحل، ولا في غير أوانه فيذهب بددا بلا فائدة، وما أشبهه وهو مستقر في الأرض بماء النطفة وهو مستقر في الرحم، بتدبير الله لتنشأ عنه الحياة.
* أنشأ الله بالماء جنّات من النخيل والأعناب نموذجان من الحياة في عالم النبات - كما ينشأ

الناس من ماء النطفة في عالم الإنسان - نموذجان قريبان لتصور المخاطبين إذ ذاك بالقرآن يشيران إلى نظائرهما الكثيرة التي تحيا بالماء.

وخصص من الأنواع الأخرى شجرة الزيتون المباركة، وهي من أكثر الشجر فائدة بزيتها وطعامها وخشبها، وأقرب منابتها من بلاد العرب طور سيناء، عند الوادي المقدس المذكور في القرآن، لهذا ذكر هذا المنبت على وجه خاص.

* سخّر الله بقدرته للإنسان مخلوقات ينتفع بها، فيها عبرة لمن يعتبر، فذكر منها اللبن السائغ اللطيف الذي يشربه الناس منها خارج من بطونها، فهو مستخلص من الغذاء الذي تهضمه وتمثله، فتحوله غدد اللبن إلى هذا السائل السائغ اللطيف، وهذه معجزة إلهية، وأباح أكل لحوم الإبل والبقر والضأن والمعز، ولم يحل له تعذيبها ولا التمثيل بها، لأن الأكل يحقق فائدة ضرورية في نظام الحياة.

* ربطت الآيات بين حمل الإنسان على الأنعام وحمله على الفلك، بوصفهما مسخرين بنظام الله الكوني، الذي ينظم وظائف الخلائق جميعا، والكون كله مستسلم لله، يسير وفق سننه وإرادته.

المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة

من يتدبر دلائل الإيمان في الإنسان والكون، تدبر الفهم والإدراك، فإنه لا يملك إلا أن يوحد الله، ويخضع له، ولا يعرض عن تلك الدلائل والآيات العظيمة إلا غافل، أو جاحد، وكل هذا ذو صلة بمحور السورة.

المقطع الثالث: الإيمان بالرسل وموقف أقوامهم منهم: الآيات (٢٣ – ٥٢)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣)
فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ
مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)
قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا
وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا
تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى
نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا
لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ
إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ
لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ
نَٰدِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا
مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا
جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ
(٤٦) فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ (٥٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ (٥٢) ﴾

المناسبة بين المقطع الثالث والثاني:

بعد أن ذكر الله الأدلة على وجوده وقدرته، في الأنفس والآفاق، التي توجب الإيمان به في المقطع الثاني، وربما لا ينتبه لها الغافلون، ولا يستدلوا بها على وحدانية الله؛ لذا ناسب في هذا المقطع أن يتحدث عن حكمته من إرسال الرسل، ليبلغوا الناس ويرشدوهم لعبادة الله وحده ونبذ ما سواه، وبين سبحانه حال الأمم الذين كذبوا رسلهم، وسوء عاقبتهم، ليحذر العاقل كي يأخذ بالعبرة والموعظة، ويقبل على طاعة الله وتوحيده، ويبتعد عن الشرك والضلال.

التفسير الإجمالي للمقطع الثالث:

ذكر الله في هذه الآيات الكريمات قصة نوح مع قومه بشيء من التفصيل، وقصة الرسل دون تفصيل، وختم بنبينا الكريم صلى اله عليه وسلم:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ دعاهم إلى طاعتنا وتوحيدنا، والبراءة من كل شرك ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم نوح: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أطيعوا الله ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ ما لكم من معبود غيره يجوز لكم أن تعبدوه ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾أفلا تخشون بعبادتكم غيره عقابه أن يحل بكم ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فقال الأشراف من قومه: ما نوح أيها القوم إلا بشر مثلكم إنما هو إنسان مثلكم ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ « يريد أن يصير له الفضل عليكم فيكون متبوعا وأنتم له تبع ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ ولو شاء الله أن لا نعبد شيئا سواه لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدي إليكم رسالته.

﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا ﴾ الذي يدعونا إليه نوح من أنه لا إله لنا غير الله في القرون الماضية وهي آباؤهم الأولون"[1]

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ اتهموه بالجنون﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ دعا نوح ربه ليستنصره على قومه ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا

(١) تفسير الطبري، ٩/ ٢٠٩.

وَوَحْيِنَا ﴾ فأمره الله تعالى بصناعة السفينة، وإحكامها وإتقانها ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ من سبق عليه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته والله أعلم ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذك رأفة بقومك وشفقة عليهم وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ وقد امتثل نوح عليه السلام فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، فدعا ربه ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وهو من الدعاء المسنون عند النزول، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ « إن في هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين دلالة واضحة على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء، عليم بكل شيء ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين»(١).

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ثم أنشأ الله بعد قوم نوح قوماً آخرين، قيل: المراد بهم عاد فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم وقيل: المراد بهؤلاء ثمود لقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ فهم الذين عذبوا بالصيحة، ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ هود أرسل لقوم عاد، وصالح لثمود، وكل كذبوا الرسل فاستحقوا الهلاك، وفي هذا عبرة لكل معتبر.

ثم تحدث الآيات عن دور الملأ وموقفهم المعادي من الدعوة ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ﴾ وصف أشرافهم وقادتهم بالكفر والتكذيب ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ كذبوا بما في الآخرة من الحساب والعقاب أو كذبوا بالبعث ﴿ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ ﴾ وسعنا لهم نعم الدنيا فبطروا بسبب ما صاروا فيه ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ من كثرة الأموال ورفاهة العيش ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣ / ٣٢٧- ٣٢٨.

مِّثْلُكُمْ ﴾ قال الملأ لقومهم واصفين الرسول بأنه يساويهم في البشرية وفي الأكل ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ والشرب مما تشربون منه وذلك يستلزم عندهم أنه لا فضل له ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ ﴾ فيما ذكر من الأوصاف ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ مغبونون بترككم آلهتكم وإتباعكم إيّاه، من غير فضيلة له عليكم.

ثم صرحوا بنفي البعث وأنه افتراء على الله ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ تعودون للحياة بعد الموت﴿ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ بعد ما توعدون أو بعيد ما توعدون،﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ما الحياة إلا حياتنا الدنيا لا الحياة الآخرة التي تعدنا بها ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ ما هو فيما يدعيه إلا مفتر للكذب على الله ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بمصدقين له فيما يقوله ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي ﴾ قال نبيهم لما علم بأنهم لا يصدقونه البتة: رب انصرني عليهم وانتقم لي منهم بسبب تكذيبهم إيّاي ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ قال الله سبحانه مجيبا لدعائه واعدا له بالقبول لما دعا به: عما قليل من الزمان ليصبحن نادمين على ما وقع منهم من التكذيب والعناد والإصرار على الكفر ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ ﴾ وحاق بهم عذابه ونزل عليهم سخطه، وورد أنه " صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح التي أهلكهم الله بها فماتوا جميعا وقيل الصيحة: هي نفس العذاب الذي نزل بهم.

ثم أخبر سبحانه عما صاروا إليه بعد العذاب النازل بهم فقال: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ صرعى هلكى كغثاء السيل وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم"[(١)]

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد إهلاكهم ﴿ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ « قيل: هم قوم صالح ولوط وشعيب كما وردت قصتهم على هذا الترتيب في سور القرآن كالأعراف وهود، وقيل:هم

(١) جامع القرطبي، ١٢ / ١١١.

بنو إسرائيل، والقرون الأمم ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ ما تتقدم كل طائفة مجتمعة في قرن آجالها المكتوبة لها في الهلاك ولا تتأخر عنها»(١).

وسلسة الرسل متصلة ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ مترادفين يتبع بعضهم بعضا غير متواصلين لأن بين كل نبيين زمانا طويلا ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا ﴾ بالهلاك أهلكنا بعضهم في إثر بعض ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾ سمراً وقصصا يتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم وهي جمع أحدوثة.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ بحجة بينة من اليد والعصا وغيرهما﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾ تعظموا عن الإيمان﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴾ متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم ﴿ فَقَالُوٓا۟ ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ يعني: موسى وهارون ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴾ مطيعون متذللون والعرب تسمي كل من دان للملك: عابدا له، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ التوراة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ لكي يهتدي به قومه، ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ « دلالة على قدرتنا ولم يقل آيتين قيل: معناه شأنهما آية وقيل: معناه جعلنا كل واحد منهما آية، ﴿ وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ الربوة: المكان المرتفع من الأرض ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ مستوية منبسطة وواسعة يستقر عليها ساكنوها ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ فالمعين الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون مفعول من عانه يعينه إذا أدركه البصر". (٢)

ثم يوجه الله رسله للأكل من الطيبات، وعمل الصالحات﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ نداء وخطاب لجميع الأنبياء، على معنى أن كلا منهم خوطب به في زمانه فيدخل تحته عيسى دخولا أوليا ويكون ابتداء الكلام تنبيها على أن تهيئة أسباب التنعم لم تكن له خاصة وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم، واحتجاجا على الرهبانية في رفض الطيبات أو حكاية لما ذكر لعيسى وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل في تناول ما رزقا، والطيبات ما يستلذ

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٦٩٢-٦٩٤.

(٢) تفسير البغوي، ١ / ٤١٨.

به من المباحات، وقيل: الحلال الصافي القوام؛ فالحلال ما لا يعصى الله فيه والصافي ما لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل ﴿ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ ﴾ فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم ﴿ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ فأجازيكم عليه ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ ملتكم ملة واحدة أي متحدة في الاعتقاد وأصول الشرائع أو جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ ليس لكم رب سواي تعبدونه وتتقوه.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثالث

* تؤكد الآيات حقيقة الإيمان التي جاء بها الرسل جميعا، ويبين كيف كان استقبال الناس لهذه الحقيقة الواحدة التي لا تتبدل على مدار الزمان، وتعدد الرسالات. فبدأ بذكر نوح - عليه السلام - ليحدد نقطة البدء، وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة قبل الرسالة الأخيرة، ولم يذكر الأسماء في وسط السلسلة الطويلة، كي يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية، ولتقرير كلمة التوحيد التي جاء بها الجميع، والاستقبال نفسه الذي لقوه من الجميع، فإذا الكلمة التي قالها نوح - عليه السلام - هي ذاتها بنصها يقولها كل من جاء بعده من المرسلين، فتجيب البشرية جوابا واحدا، تكاد ألفاظه تتحد على مر الأزمان.

* شاءت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر للاقتداء بهم والكفار يستكثرون أن يرسل الله رسولا من البشر، والاعتراض على بشرية الرسول اعتراض مكرور في كل زمان، تعرض له كل رسول، فهو اعتراض لا وجه له؛ لأن الملائكة لا يمكن الاقتداء بهم لاختلاف صفاتهم عن البشر، فاقتضى أن يكون الرسول من البشر.

* أعداء الإسلام يتهمون الرسل والدعاة بأنهم طلاب الدنيا والمناصب، وهذا مردود عليهم لأن الرسل جميعاً لم يطلبوا أجراً ولا سيادة على دعوتهم، ورسولنا الكريم ﷺ عرض عليه كل العروض الدنيوية، من منصب وجاه وسيادة ومال ونساء فأبى ترك هذه الدعوة.

* من أساليب أعداء الإسلام، إطلاق الشائعات ضد الرسل والدعاة واتهامهم بالكذب والافتراء، كاتهامهم بالجنون والسحر وغير ذلك، فمن يتعرض من الدعاة لمثل هذا، عليه

أن يصبر ويحتسب أجره على الله، ويستمر في دعوته.

* وعد الله عباده المؤمنين بالنصر، وتوعد الظالمين بالهلاك، فاستجاب سبحانه لنوح ﷺ، فأرسل الطوفان، الذي يجرف كل شيء، ويطهر الأرض من رجس الشرك، فتنشأ على نظافة وطهارة الإيمان والتوحيد.

* أمر الله لنوح ﷺ بصناعة السفينة، دليل وجوب الأخذ بالأسباب؛ فالمدد والعون الرباني لا يأتي للقاعدين المستريحين المسترخين، الذين ينتظرون ولا يزيدون شيئا على الانتظار لذا ضرب عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلين، جلسا بباب المسجد لا يعملان بالدرة وقال إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

* يحرص المسلم على دعاء الركوب والسفر فهكذا يحمد الله، وهكذا يتوجه إليه، والدعاء دليل على تأكيد العبد لحاجته لربه واللجوء إليه في السراء والضراء.

* من سنن الله الابتلاء، ابتلاء للصبر وابتلاء للشكر وابتلاء للأجر وابتلاء للتوجيه وابتلاء للتأديب وابتلاء للتمحيص وابتلاء للتقويم وفي قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولأبنائه القادمين.

* الترف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب، ومن هنا يحارب الإسلام الترف، ويقيم نظمه الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة، والمترفون هم من أشد الناس إنكاراً للبعث بعد الموت، ويعجبون من هذا الرسول الذي ينبئهم بهذا الأمر الغريب، واستعمال لفظ هيهات هيهات دليل شدة الإمعان في إنكار البعث الذي يعدهم به.

* التعبير بالغثاء وهو ما يجرفه السيل من حشائش وأعشاب وأشياء مبعثرة لا خير فيها، ولا قيمة لها، ولا رابط بينها، لم يبق فيهم ما يستحق التكريم ; فإذا هم غثاء كغثاء السيل، ملقى بلا احتفال ولا اهتمام وهو دليل على الطرد من رحمة الله. وهذا مصير كل فرد وكل مجتمع

يبتعد عن منهج الله.

* أسلوب الاختصار مع التركيز على الموضوع المهم، أسلوب قرآني يحسن مراعاته في كلامنا وتعبيرنا، فهذه آيات قصيرة لخص الله بها تاريخ الدعوة في الأمد الطويل بين نوح وهود في أول السلسلة، وموسى وعيسى في أواخرها، إلى خاتم المرسلين، عليهم السلام، كل قرن يستوفي أجله ويمضي، وكلهم يكذبون، وكلما كذب المكذبون أخذتهم سنة الله، وبقيت العبرة ماثلة في مصارعهم لمن يعتبرون.

* إنه نداء للرسل ليمارسوا طبيعتهم البشرية التي ينكرها عليهم الغافلون، فالأكل من مقتضيات البشرية عامة، أما الأكل من الطيبات خاصة فهو الذي يرفع هذه البشرية ويزكيها ويصلها بالملأ الأعلى، وهو سبب في استجابة الدعاء خاصة وقت الشدة.

* نداء للرسل، ليصلحوا في هذه الأرض؛ فالعمل هو مهمة البشرية لتعمير الأرض، وعدم الإفساد فيها، والعمل الصالح هو الذي يميز الصالحين المختارين، فيجعل لعملهم ضابطا وهدفا، وغاية موصولة بالملأ الأعلى.

* وحدة الرسالة والرسل يعني وحدة الأمم، فتتلاشى آماد الزمان، وأبعاد المكان، أمام وحدة الحقيقة التي جاء بها الرسل، ووحدة الطبيعة التي تميزهم. ووحدة الخالق الذي أرسلهم، ووحدة الاتجاه الذي يتجهون أجمعين.

المناسبة بين المقطع الثالث ومحور السورة:

تحدث الله سبحانه عن حكمته في هذا المقطع من إرسال الرسل، ليبلغوا الناس ويرشدوهم لعبادة الله وحده، ونبذ ما سواه، وتكررت دعوة كل رسول بالوحدانية بنفس الألفاظ، وبينت الآيات جزاء كل من المصدقين والمكذبين، فالرسل الذين دعوا للوحدانية هم، مبشرون بالجنة، ومنذرون من النار، وهذا هو محور السورة.

المقطع الرابع: تفرق الأمم بعد رسلهم الآيات (٥٣ – ٧٨)

﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ
(٥٤) أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ (٥٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ
خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ (٥٧) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ (٥٨) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ (٥٩)
وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ (٦٠) أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ
(٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (٦٢) بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ
هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ (٦٤)
لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ (٦٦)
مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٦٨) أَمۡ لَمۡ
يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ (٧٠)
وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ
عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ (٧١) أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ
إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٧٣) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ (٧٤) ۞ وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ
وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ
وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ
لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ (٧٨) ﴾

المناسبة بين المقطع الرابع والثالث:

لما ذكر في المقطع السابق دعوة الرسل للتوحيد ختمت في هذا المقطع بذكر موقف الأمم وتفرقهم، وتلك الحال التي جاء خاتم المرسلين ﷺ فوجدهم عليها، مختلفين متنازعين حول الحقيقة الواحدة التي جاءهم بها الرسل من قبل جميعا، فكانت رحمة الله برسوله بالتوجيه له وتسليته عما يلاقيه من قومه في هذا المقطع.

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع:

يخبر الله عن حال الأمم كيف تفرقوا واختلفوا من بعد رسلهم ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ « فتقطعوا أمر دينهم جعلوه أديانا مختلفة أو فتفرقوا وتحزبوا ﴿ زُبُرٗا ﴾ قطعا، جمع زبور الذي بمعنى الفرقة ﴿ كُلُّ حِزۡبِۢ ﴾ من المتحزبين ﴿ بِمَا لَدَيۡهِمۡ ﴾ من الدين ﴿ فَرِحُونَ ﴾ معجبون معتقدون أنهم على الحق". [1]

ثم يوجه الله رسوله ﷺ، ﴿ فَذَرۡهُمۡ ﴾ اترك كفار مكة ﴿ فِي غَمۡرَتِهِمۡ ﴾ ضلالتهم ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إلى حين موتهم ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ ﴾ نعطيهم ﴿ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴾ في الدنيا ﴿ نُسَارِعُ ﴾ نعجل ﴿ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ لا ﴿ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾ أن ذلك استدراج لهم.

«ثم يبين صفات عباده المؤمنين، وهب تتمة للصفات الواردة في مطلع السورة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم ﴾ خوفهم منه ﴿ مُّشۡفِقُونَ ﴾ خائفون من عذابه﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ القرآن ﴿ يُؤۡمِنُونَ ﴾ يصدقون﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ معه غيره﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ ﴾ يعطون ﴿ مَآ ءَاتَواْ ﴾ أعطوا من الصدقة والأعمال الصالحة ﴿ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾ خائفة أن لا تقبل منهم ﴿ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾ معتقدون باليوم الآخر، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ في علم الله»[2].

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ ﴾ لا يحمّل الله نفساً فوق طاقتها، ﴿ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ ﴾ يعني: اللوح المحفوظ﴿ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ ﴾ يبين بالصدق ﴿ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ لا ينقصون من ثواب أعمالهم.

ثم عاد إلى ذكر المشركين﴿ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ ﴾ في جهالة وغفلة ﴿ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ الكتاب الذي ينطق بالحق ﴿ وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ وللمشركين أعمال خبيثة دون أعمال المؤمنين يفعلونها، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم ﴾ رؤساءهم وأغنياءهم ﴿ بِٱلۡعَذَابِ ﴾ بالقحط

---

(١) تفسير البيضاوي، ١ / ١٥٨.

(٢) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي، ١ / ٤٥١.

والجوع سبع سنين ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ يضجون ويجزعون﴿ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ لا تمنعون ولا ينفعكم جزعكم، ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني: القرآن ﴿ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ على أدياركم ﴿تَنكِصُونَ﴾ ترجعون القهقرى مكذبين به﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ ﴾ بالحرم تقولون: لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم ﴿ سَٰمِرًا ﴾ سماراً بالليل﴿ تَهْجُرُونَ ﴾ تهذون وتقولون: الهجر من سب النبي ﷺ.(١)

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

سبب نزول هذه الآية:

«عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ مستكبرين به سامرا تهجرون قال: كان المشركون يهجرون رسول الله ﷺ في القول في سمرهم»(٢).

ثم يوبخهم الله على تنكرهم للرسول، الصادق الأمين، الذي يعرفوا سيرته وأمانته ومكانته عندهم، زاعمين محافظتهم على ما تركه عليهم آباؤهم ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ أو منعهم من الإيمان، أنه جاءهم رسول وكتاب، ما جاء آبائهم الأولين، فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ أومنعهم من اتباع الحق، أن رسولهم محمداً - ﷺ - غير معروف عندهم، فهم منكرون له ؟ يقولون: لا نعرفه، ولا نعرف صدقه، دعونا حتى ننظر حاله ونسأل عنه من له به خبرة، في حين أنهم يعرفون الرسول - ﷺ - معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة -الأمين- فلم لا يصدقونه، حين جاءهم بالحق العظيم، والصدق المبين؟.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ جنون، فلهذا قال ما قال، والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة

---

(١) الوجيز، الواحدي، ٧٥٠.

(٢) الدر المنثور، السيوطي، ٦/ ١١٠ - ١١١.

بكلامه، لأنه يهذي بالباطل والكلام السخيف.

وردَّ الله عليهم﴿ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ ﴾ بالأمر الثابت، الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه ولا تناقض، فكيف يكون به جنون ؟! بل هو في أعلى درج الكمال، من العلم والعقل ومكارم الأخلاق. ولكن الحقيقة التي منعتهم من الإيمان أنه جاءهم بالحق ﴿ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ وأعظم الحق الذي جاءهم به إخلاص العبادة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله وقد علم كراهتهم لهذا الأمر وتعجبهم منه، فكون الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق لا شكا ولا تكذيبا للرسول، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ فإن قيل: لم لم يكن الحق موافقا لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا ويسرعوا الانقياد؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾لأن الأهواء تفسد كل نظام.

ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل، فالسموات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل ﴿ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ ﴾ بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم، حين يقومون به، ويكونون به سادة الناس. ﴿ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴾ شقاوة منهم، وعدم توفيق ، نسوا الله فنسيهم فالقرآن ومن جاء به، أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض، فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟ وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران ؟.

ويستمر تبكيتهم وتوبيخهم﴿ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾، أو منعهم من إتباعك يا محمد، أنك تسألهم على الإجابة أجرا، يتكلفون من إتباعك، بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك﴿ فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ وهذا كما قال الأنبياء لأممهم، ليسوا يدعون الخلق طمعا فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعون نصحا لهم، وتحصيلا لمصالحهم، بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم، فجزاهم الله عن

أمهم خير الجزاء، وهذا على سبيل التنبيه لهم أنه لم يسألهم أجرا لا أنه قد سألهم".[١]

والآيات تركز على وظيفة الرسول ﷺ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ ﴾ وأن الذي يدعوهم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود، حنفية سمحة، حنفية في التوحيد، سمحة في العمل، فدعوتك إيّاهم إلى الصراط المستقيم، موجب لمن يريد الحق أن يتبعك، لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه، وموافقته للمصالح، فأين يذهبون إن لم يتابعوك ؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك، لأنهم ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ منحرفون، عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات. وهكذا كل من خالف الحق، لا بد أن يكون منحرفا في جميع أموره.

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ ﴾ الجوع، وسبب نزول الآية: عن ابن عباس قال: «جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز - يعني الوبر - بالدم»[٢].

ثم يبين الله أنهم لا يعتبرون، حتى بعد نزول العذاب بهم ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ ﴾ الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم بذلك، ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد، ﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ ﴾ ما خضعوا وما ذلوا﴿ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ إليه ويفتقرون، بل مر عليهم ذلك ثم زال، كأنه لم يصبهم، لم يزالوا في غيهم وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ كالقتل يوم بدر وغيره، «وقبل فيه ثلاثة أقوال:أحدها: أنه يوم بدر رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، والثاني: أنه الجوع الذي أصابهم قاله مقاتل، والثالث: باب من عذاب جهنم في الآخرة»[٣].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٢) الدر المنثور، السيوطي، ٦ / ١١١ - ١١٢.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ٤٨٥ - ٤٨٦.

﴿ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ آيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فليحذروا قبل نزول عذاب الله الشديد، الذي لا يرد، بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما أقلع عنهم، كالعقوبات الدنيوية، التي يؤدب الله بها عباده.

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع:

* بيّنت الآيات أن الرسل صلوات الله عليهم، أمة واحدة، ذات كلمة واحدة، وهي كلمة التوحيد ولكن الناس تفرقوا من بعد الرسل، أحزاباً متنازعة لا تلتقي على منهج ولا طريق؛ لأن اتباع غير منهج الله يؤدي إلى التفرق والضلال.

* استعمل القرآن أسلوب التهكم عليهم والسخرية من غفلتهم، إذ يحسبون أن الإملاء لهم بعض الوقت، وإمدادهم بالأموال والبنين في فترة الاختبار، مقصود به المسارعة لهم في الخيرات وإيثارهم بالنعمة والعطاء، وإنما هي الفتنة، وإنما هو الاستدراج، وهو نوع من الابتلاء بالخير.

* لا يجوز لأحد أن يغتر بكثرة طاعته وعبادته، بل عليه الإخلاص في العمل ويرجو ربه قبوله؛ فمن صفات المؤمنين أن قلوبهم وجلة، ومن هنا يبدو أثر الإيمان في القلب، فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى ; وهم يؤمنون بآياته، ولا يشركون به. وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم. وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا، ولكنهم بعد هذا كله يؤتون وهم خائفون لإحساسهم بالتقصير في جانب الله، بعد أن بذلوا ما في طوقهم، وهو في نظرهم قليل.

عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت:يا رسول الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل»(١) .

---

(١) جامع الترمذي، رقم/ ٣٠٩٩.

* من صفات المؤمنين أنهم يسارعون في الخيرات، وهذا واجب كل مسلم، التنافس في فعل الخيرات، والبعد عن العجز والغفلة.
* تضرع الكفار عند العذاب والشدة، ونسيان الطاعة وقت الرخاء، والواجب طاعة الله وشكره في السراء والضراء.
* شريعة الإسلام يسيرة، سمحة، خالية من التعقيد، والله جعل التكاليف في حدود الطاقة، فلا عذر لأحد في ترك طاعة الله. وتمرد أهل المعاصي، ليس في تكليفهم فوق طاقتهم؛ إنما العلة أن قلوبهم في غمرة، لا ترى الحق الذي جاء به القرآن، ويتبعون منهجاً آخر.
* المترفون أشد الناس استغراقا في المتاع والانحراف والذهول عن المصير، وهم أشد عداوة للرسل والدعاة.
* موقف المشركين من القرآن والرسل والدعاة يتكرر في كل زمان ومكان، في تهجمهم في نواديهم وفي سمرهم، فتتخذ منه مادة للسخرية والهزء والاتهام. ومثل هؤلاء في كل زمان وليست جاهلية العرب إلا نموذجا لجاهليات كثيرة خلت في الزمان، وما تزال تظهر الآن وبعد الآن !
* فنّد القرآن الشبهات التي تصرفهم عن الإيمان، شبهة، شبهة، وهذا أسلوب جيد في الرد على الخصوم، للدعاة أن ينتفعوا به.
* الحق لا يمكن أن يدور مع الهوى، وبالحق تقوم السماوات والأرض، وبالحق يستقيم الكون كله، فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة.
* هذه الأمة التي جاء لها الإسلام كانت أولى الأمم باتباع الحق الذي يتمثل فيه، وما كان لها من ذكر لولا الله في العالمين: وقد تضاءل ذكرها عندما تخلت عنه، فلم تعد في العير ولا في النفير، ولن يقوم لها ذكر إلا يوم أن تفيء إلى ربها.
* لا يجوز للدعاة طلب شيئاً من الناس على دعوتهم، فهم يفرون مما تسألهم من أجر على

الهداية، فما عند ربك خير مما عندهم، وهذا هو منهج الرسل عليهم الصلاة والسلام، لم يسألوا أقوامهم على دعوتهم أجراً.

* الابتلاء بالشدة أو الرخاء، سنة من سنن الله، ينتفع بها المؤمنون، والذين لا يؤمنون بالآخرة، لا يفيدهم الابتلاء بالنعمة، ولا الابتلاء بالنقمة. فإن أصابتهم النعمة حسبوا أن الله يسارع لهم في الخيرات، وإن أصابتهم النقمة لم تلن قلوبهم، ولم تستيقظ ضمائرهم، ولم يرجعوا إلى الله يتضرعون له ليكشف عنهم الضر.

المناسبة بين المقطع الرابع ومحور السورة:

الكلام في المقطع الرابع دار حول رسالة الرسل عليهم السلام، وتبليغهم دعوة الله للبشرية وتم في هذا المقطع تركيز الرسل على الوحدانية، وموقف أقوامهم من قضية التوحيد، وهذا هو محور السورة.

المقطع الخامس: مزيد من أدلة إثبات وحدانية الله وقدرته

الآيات: (٧٩ – ٩٨) تابع للمقطع الثاني

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨٣)
قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ
مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ
مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ
لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٩٠) مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ
مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)
عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢) قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ
فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ (٩٥) ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ
أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ
رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾

المناسبة بين المقطع الخامس والمقطع الرابع:

لما ذكر في المقطع الرابع حال الأمم، وتقطعهم زبراً بعد رسلهم، ناسب أن يذكر في هذا المقطع مزيداً من الأدلة تتمة للأدلة الواردة في المقطع الثاني، الدالة على قدرة الله، ليزداد المشركون علماً بأنهم لن يفلتوا من عقاب الله إذا استمروا في مواجهتهم ضد دعوة الله، وتحديهم لوحدانيته.

التفسير الإجمالي للمقطع الخامس:

من رحمة الله بالإنسان أن جعل له وسائل يهتدي بها إلى طريق الحق ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ ﴾ لتدركوا به المسموعات، فتنتفعوا في دينكم ودنياكم، ﴿ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ لتدركوا بها

المبصرات، فتنتفعوا بها في مصالحكم. ﴿ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ ﴾ العقول التي تدركوا بها الأشياء وتتميزون بها عن البهائم، فلو أخذ الله سمعكم، وأبصاركم، وعقولكم، بأن كنتم صما عميا بكما ماذا تكون حالكم ؟ أفلا تشكرون الذي من عليكم بهذه النعم، فتوحدوه وتطيعوه ؟ ولكنكم، قليل شكركم، مع توالي النعم عليكم. ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ يريد أنهم لا يشكرون أصلا، وإن شكروا فشكرهم قليل.

والله هو الذي أنعم علينا بنعمة الوجود ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ بثكم في أقطارها، وجهاتها، وسخر لكم ما في ظاهرها وباطنها، وجعلها كافية لمعايشكم ومساكنكم، ﴿ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ بعد موتكم، فيجازيكم بما عملتم في الأرض، من خير وشر، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ المتصرف في الحياة والموت، هو الله وحده، ، ثم يلفت الأنظار إلى تعاقب الليل والنهار﴿ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ ﴾ تعاقبهما وتناوبهما. آية لكل معتبر.

ولهذا قال هنا: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم، السمع والأبصار، والأفئدة، والذي نشركم في الأرض وحده، والذي يحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده، أن ذلك موجب لكم، أن تخلصوا له العبادة وحده لا شريك له وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه، فلو كان لكم عقل لم تعبدوا غيره.

وموقف الكفار من الرسل والدعاة لا يتغير﴿ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ بل سلك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدوه غاية الاستبعاد وقالوا: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ هذا لا يتخيل وقوعه ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ ﴾ ما زلنا نوعد بأن البعث كائن، نحن وآباؤنا، ولم يأت بعد ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ قصصهم وأسمارهم، التي يتحدث بها وتلهى، وإلا فليس لها حقيقة. وأنكروا البعث، رغم الأدلة التي ساقها لهم ومنها: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره، محتجا عليهم بما أثبتوه، وأقروا به، من توحيد الربوبية

وانفراد الله بها، على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة، على ما أنكروه من إعادة الموتى، الذي هو أسهل من ذلك. من هو الخالق للأرض ومن عليها، من حيوان، ونبات وجماد وبحار وأنهار وجبال، المالك لذلك، المدبر له ؟ وإذا سألتهم عن ذلك، قالوا : الله وحده. فقل لهم ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، مما هو معلوم عندكم، مستقر في فطركم، قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات.

والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم بمجرد التأمل، علمتم أن مالك ذلك، هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل.

ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ ﴾ وما فيها من النيرات، والكواكب السيارات، والثوابت ﴿ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ سيقّرون بأن الله رب ذلك كله ، قل لهم حين يقرون بذلك:﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ تخافون الله وتوحدوه، وفي هذا من لطف الخطاب، من قوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله، واسألهم ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ملك كل شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نبصره، وما لا نبصره ؟. و" الملكوت " صيغة مبالغة بمعنى الملك . ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ ﴾ عباده من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم، ﴿ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ لا يقدر أحد أن يجير على الله. ولا يدفع الشر الذي قدره الله، بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير، الذي لا يجار عليه. ﴿ قُلْ ﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزما لهم، ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ فأين تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور، فالعقول التي دلتكم على هذا، لا تكون إلا مسحورة، وهي قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحر

عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق، وهو الصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع ؟ وليس عندهم ما يعوضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾، فإذا كان الله وحده صنع ذلك، فلا ينبغي أن يكون له شريك، ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ ممتنع عنه الشريك والولد ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي، على امتناع وجود إلهين فقال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٤] لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته، واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبته، ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ فالغالب يكون هو الإله، وإلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، فالكون منذ وجد وهو يسير وفق سنن الله ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ المدبر إله واحد كامل الأسماء والصفات ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط، فقال: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، من الواجبات والمستحيلات والممكنات، ﴿ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿ فَتَعَٰلَىٰ ﴾ ارتفع وعظم، ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به، من لا علم عنده، إلا ما علمه الله ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة فلم يلتفتوا لها، ولم يذعنوا لها، حق عليهم العذاب، ووعدوا بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ وقت أريتني عذابهم، وأحضرتني ذلك ﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ اعصمني وارحمني، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحمني أيضا من العذاب الذي ينزل بهم، لأن العقوبة العامة إذا نزلت فإنها تعم العاصي وغيره، قال الله في تقريب عذابهم ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ ولكن إن أخرناه فلحكمة، وإلا فنحن قادرون على إيقاعه فيهم.

ومن مكارم الأخلاق، التي أمر الله رسوله بها فقال: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾

إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن فوائد ذلك، أنه تخف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى للتأثير المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل.

ويوصي الله رسوله ﷺ للصبر والحلم ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم، وأمهلناهم وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا، فاصبر على ما يقولون، وقابلهم بالإحسان، هذه وظيفة الداعية في مقابلة المسيء من البشر، وأما المسيء من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير، فالوظيفة في مقابلته، أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ ﴾ اعتصم بحولك وقوتك متبرئا من حولي وقوتي ﴿ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومسهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها، الاستعاذة من جميع نزعات الشيطان، ومن مسه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير.

ويستمر التوجيه للرسول ﷺ ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾ «فيه أربعة أقوال أحدها:ادفع إساءة المسيء بالصفح قاله الحسن والثاني:أدفع الفحش بالسلام قاله عطاء والضحاك والثالث: ادفع الشرك بالتوحيد قاله ابن السائب والرابع:ادفع المنكر بالموعظة حكاه الماوردي وذكر بعض المفسرين أن هذا منسوخ بأية السيف».(١)

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ بما يقولون من الشرك والتكذيب والمعنى إنا نجازيهم على ذلك ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ ﴾ ألجأ وامتنع بك ﴿ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ وهمزات الشياطين دفعهم

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ٤٨٩.

بالإغواء الى المعاصي﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ أن يصيبوني بسوء لأن الشيطان لا يحضر ابن آدم إلا بسوء لهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الخامس:

* الآيات لفتت أنظار الكفار إلى الدلائل الكونية؛ علها توقظ وجدانهم إلى توحيد الله وحده، ولو تدبر الإنسان خلقه وهيئته، وما زود به من الحواس والجوارح، وما وهبه من الطاقات والمدارك لوجد الله، ولاهتدى إليه بهذه الخوارق الدالة على أنه الخالق الواحد، فما أحد غير الله بقادر على إبداع هذه الخلقة المعجزة في الصغير منها وفي الكبير.

إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها، يعد كشفا معجزا في عالم البشر. فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذي يعيش فيه الإنسان، فهذه نعم تستوجب الشكر، والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة، وتمجيده بصفاته، ثم عبادته وحده.

* الحياة والموت حادثان يقعان في كل لحظة، وليس إلا الله يملك الموت والحياة؛ فالذي يهب الحياة هو الذي يعرف سرها، ويملك أن يهبها ويستردها، والبشر قد يكونون سببا وأداة لإزهاق الحياة، ولكنهم هم ليسوا الذين يسلبون حياة الحي على وجه الحقيقة، إنما الله هو الذي يحيي ويميت، وحده دون سواه، لذا ما نراه من جهود لمحاولات الاستنساخ لا تعني أن البشر قادرون على الإحياء، بل هي أسباب والمحيي والمميت الحقيقي هو الله وحده.

* البعث حق يجب الإيمان به، ولا يجوز إنكاره كما أنكره الكفار، وقصرت مداركهم عن إدراك حكمة الله، وقدرته على البعث، وسخروا مما يوعدون من البعث والجزاء بحجة أن هذا الوعد قد قيل لهم ولآبائهم من قبل، ولم يقع بعد! والبعث جعل الله له موعداً، وفق تدبيره وحكمته، لا يستقدم ولا يستأخر، تلبية لطلب جيل من أجيال الناس، أو استهزاء جماعة من الغافلين.

* وهب الله الإنسان السمع والبصر والفؤاد ليكون مسؤولا عن نشاطه وعمله، مجزيا على صلاحه وفساده ;.والحساب والجزاء يكونان في الآخرة، فالمشهود في هذه الأرض أن الجزاء قد لا يقع؛ لأنه متروك إلى موعده في الآخرة، وتأخير العذاب عن هذه الأمة إلى الآخرة، إنما ذلك يعد إكراماً للنبي ﷺ.

* الآيات تثبت العقيدة الصحيحة، وترد على المشركين؛ ليصحح فساد معتقداتهم، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقود إليه مسلماتهم، لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون: فيسألهم عن الربوبية المدبرة، المصرفة للسماوات السبع والعرش العظيم؛ فمن هو رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ؟ والدعوة إلى التأمل والتفكير في هذه المخلوقات عبادة، ودعوة.

* توظيف الأدلة العقلية توظيف مهم لإقامة الحجة على الجاحدين، وهذا ما تم الرد به على الكافرين المعاندين، كنفي الشريك عن الله، تقرير حقيقة ما جاءهم به الرسول ﷺ من التوحيد، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك، فالآيات ناقشت المسألة بدليل عقلي مقنع، فلو كان للكون إلهين ؟ لآل الملك لواحد منهما بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذي لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد، وتصريف واحد، وتدبير واحد.

* توجيهات للرسول ﷺ، للمفاصلة والإستعاذة من الشيطان، والصبر على ما يقولون، وطلب الرسول الله ﷺ أن لا يجعله الله مع القوم الظالمين حين يحل بهم العذاب الأليم ويتحقق ما يوعدون، ما هو إلا طلب لزيادة في التوقي، وتعليم لمن بعده ألا يأمنوا مكر الله، وأن يظلوا أبدا أيقاظا، وأن يلوذوا دائما بحماه. ولقد أراه بعض ما وعدهم في غزوة بدر، ثم في الفتح العظيم. فأما حين نزول هذه السورة - وهي مكية - فكان منهج الدعوة دفع السيئة بالتي هي أحسن والصبر حتى يأتي أمر الله، وتفويض الأمر لله بعد الأخذ بالأسباب.

* استعاذة الرسول ﷺ من همزات الشياطين ودفعاتهم - وهو معصوم منها - زيادة

كذلك في التوقي، وزيادة في الالتجاء إلى الله، وتعليم لأمته وهو قدوتها وأسوتها، أن يتحصنوا بالله من همزات الشياطين في كل حين، بل إن الرسول ليوجه إلى الاستعاذة بالله من مجرد قرب الشياطين، لا من همزاتهم ودفعاتهم.

المناسبة بين المقطع الخامس والمحور:

المقطع الخامس اشتمل على أدلة عديدة أقامت الحجة على المشركين، وأثبتت التوحيد الخالص لله ولو فكر هؤلاء بأدنى تفكير في مخلوقات الله فإنه لا يملك إلا التسليم، والطاعة لله واتصفوا بالصفات الواردة في مطلع السورة والتي ذكرت في المقطع الأول وحده وهذا هو المحور الأساس في السورة.

المقطع السادس: من مشاهد يوم القيامة الآيات (٩٩ – ١١٨)

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا
كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ
يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ (١٠٤)
أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا
ضَآلِّينَ (١٠٦) رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (١٠٧) قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)
إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٠٩) فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ
ٱلْفَآئِزُونَ (١١١) قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ
(١١٣) قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن
يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (١١٧) وَقُل
رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١١٨) ﴾

المناسبة بين المقطع السادس والخامس:

لما ذكر الله مزيداً من الأدلة الدالة على وحدانيته، في المقطع الخامس، فربما كثير من الكفار والمشركين، لا ينتفعون بها، ولا ينتفعون بما وهبهم الله من نعمة السمع والبصر والفؤاد، ناسب في هذا المقطع أن يذكرهم بنهاية آجالهم وبالعذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة، فلا تغرنّهم هذه الحياة الدنيا، ولا يملكون وسيلة للعودة للحياة ثانية ليصلحوا ما أفسدوه من قبل.

التفسير الإجمالي للمقطع السادس:

يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ

﴿ ٩٩ ﴾ من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك يقول: ﴿ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله. ﴿كَلَّآۚ ﴾ لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون، ﴿إِنَّهَا ﴾ مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ ﴾ مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضا غير صادق في ذلك، فإنه لو رد لعاد لما نهي عنه. ثم أخبر أن هؤلاء الكفار المنكرين للبعث يسألون الرجعة الى الدنيا عند الموت "فان قيل كيف قال ارجعون وهو يريد أرجعني؛ فالجواب أن هذا اللفظ تعرفه العرب للعظيم الشأن وذلك أنه يخبر عن نفسه فيه بما تخبر به الجماعة كقوله ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ ق / ٤٣، فجاء خطابه كإخباره عن نفسه "[1].

﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيئين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، فليعدوا له عدته، وليأخذوا له أهبته.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ ﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم، من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث فحشر الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحدا عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها ؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها ؟ وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه، حتى ما كان مثقال ذرة، من الخير والشر، ﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل، ﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته،

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٥ / ٤٨٩.

وأحاطت به خطيئته ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ خسارة لا تعدلها خسارة، حسبهم ما سيؤولن إليه ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين، ولكن من مات من أهل المعاصي من غير المشركين والكافرين، فإنه وإن دخل النار لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى سوء مصير الكافرين فقال: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة، ويتقطع لهبها عن وجوههم، ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ قد عبست وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه، فيقال لهم ـ توبيخاً ولوماً ـ: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ تدعون بها، لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتنظروا، ﴿ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ظلما منكم وعنادا، وهي آيات بينات، دالات على الحق والباطل، مبينات للمحق والمبطل، فحينئذ أقروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر وترك ما ينفع، ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، ولم يبق الله لهم حجة، فأجابهم الله ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ وهذا القول أعظم ألوان التوبيخ، والذل، والخسارة، والتأييس من كل خير، والبشرى بكل شر وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكايتهم من عذاب الجحيم، "تكلمون فى رفع العذاب عنكم فإنه لا يرفع ولا يخفف قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم ولا كلام بعد ذلك"(١) .

ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال:﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنته

(١) تفسير النسفي، النسفي، ٣/ ١٣٢.

عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه، ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم، وخوفهم ورجائهم.

فهؤلاء سادات الناس وفضلائهم، ﴿ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ ﴾ أيها الكفرة الأنذال ناقصو العقول والأحلام ﴿ سِخۡرِيًّا ﴾ تهزءون بهم وتحتقرونهم، حتى اشتغلتم بذلك السفه.

وسبب نزول الآية "نزلت فى كفار قريش مع صهيب وعمار وبلال ونظرائهم ثم هى عامة فيمن جرى مجراهم قديما وبقية الدهر وكسرها من السخر وهو الاستهزاء ومعنى الاستهزاء هنا أليق "(١).

﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر وعبادة الله، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة ؟!

﴿ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلي. ﴿ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم.

﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ ﴾ لهم على وجه اللوم، وأنهم سفهاء الأحلام حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون من الخير، الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة ورضوان ربهم.

﴿ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ ﴾ كلامهم هذا، مبني على استقصارهم جدا، لمدة مكثهم في الدنيا وأفاد ذلك، لكنه لا يفيد مقداره، ولا يعينه، فلهذا قالوا: ﴿ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴾ الضابطين لعدده، وأما هم ففي شغل شاغل وعذاب مذهل، عن معرفة عدده، فقال لهم: ﴿ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ ﴾ سواء عينتم عدده، أم لا ﴿ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ وأنى لهم العلم ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ ﴾ أيها الخلق ﴿ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا ﴾ سدى وباطلا، تأكلون وتشربون وتمرحون، وتتمتعون

(١) تفسير الثعالبي، ١ / ١٠٧.

بلذات الدنيا، ونترككم لا نأمركم، ولا ننهاكم ولا نثيبكم، ولا نعاقبكم ؟ ولهذا قال: ﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ لا يخطر هذا ببالكم، ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ ﴾ تعاظم وارتفع عن هذا الظن الباطل. ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ فكونه ملكا للخلق كلهم حقا، في صدقه، ووعده، ووعيده، مألوها معبودا، لما له من الكمال ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلقكم عبثا﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾. ومن دعا مع الله آلهة غيره، بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله، فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلما وعنادا، فهذا سيقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئا، لأنه كافر، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ فكفرهم منعهم من الفلاح.

﴿ وَقُل ﴾ داعياً لربك مخلصا له الدين ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ ﴾ لنا حتى تنجينا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

الهدايات المستنبطة من المقطع السادس:

* بعد تذكير الكفار بالأدلة العظيمة في أنفسهم وفي الآفاق، بتركهم إلى مصيرهم المحتوم، يتوجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ، ليعلمه مكارم الأخلاق، وألا يغضب لعنادهم، وأن يدفع السيئة بالحسنى، وأن يستعيذ بالله من الشياطين التي تقودهم إلى الضلال المبين وهذا تعليم لأمته ﷺ بتفويض الأمر لله بعد الأخذ بالأسباب، والدفع بالتي هي أحسن والاستعاذة من همزات الشياطين.

  وهذه توجيهات ربانية يجب على كل مسلم أن يتحلى بها.

* الحث على التوبة قبل الموت، وطلب الرجعة إلى الحياة، لتدارك ما فات، والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال، وطلب الرجوع للدنيا، كلمة لا معنى لها، ولا مدلول وراءها،

ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها. والندم بعد فوات الأوان لا ينفع.

* حياة البرزخ حق يجب الإيمان به والاستعداد له، والأموات فلا هم من أهل الدنيا، ولا هم من أهل الآخرة، إنما هم في ذلك البرزخ بينهما، إلى يوم يبعثون، وعذاب القبر حق. فهلا للعاقل أن يستعد للقاء ربه، ويعلم أن الحياة الدنيا قصيرة.

* انقطاع الأنساب والوشائج، يوم القيامة فلا ينفع أحد أحداً، إنما تقطعت الروابط وسقطت القيم التي كانوا يتعارفون عليها في الدنيا، ولا واسطة إلا العمل الصالح.

* يجب تنزيه الله - سبحانه - عما يقولون ويصفون. فهو الملك الحق، والمسيطر الحق، الذي لا إله إلا هو.

* كل ما يراه الناس على الكافرين من نعمة ومتاع، وقوة وسلطان، في بعض الأحيان، فليس فلاحا في ميزان القيم الحقيقية. إنما هو فتنة واستدراج، ينتهي بالوبال في الدنيا. فإن نجى بعضهم في الدنيا، فالآخرة تنتظره، والآخرة أشد وأنكى.

* يعرض ميزان الحساب وعملية الوزن في سرعة واختصار، بالعدل التام، فهنيئاً لمن ثقلت موازينه فهم المفلحون الذين ذكروا في مطلع السورة. وتعساً لمن خفت موازينه، في جهنم خالدون. وهؤلاء الذين خفت موازينهم خسروا كل شيء.

* تصوير حال الكافرين يوم القيامة وهم تلفح النار وجوههم حتى تكلح، وتشوه هيئتها ويكدر لونها، على العاقل أن يرهب منه.

* أسلوب العذاب المعنوي، فالعذاب الحسي - على فظاعته - أهون من التأنيب والخزي الذي يصاحبه، وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة.

* الاستهزاء بالرسل والمؤمنين جريمة أخرى بعد جريمة الكفر تدخلهم النار، فقد بلغ السفه بالكفار أن سخروا، وضحكوا منهم حتى ألهاهم عن ذكر الله، وباعد بينهم وبين التدبر والتفكر في دلائل الإيمان المبثوثة في صفحات الوجود.

* تنتهي السورة بتقرير الإلوهية الواحدة، وتحذير من يدعون مع الله إلها آخر، وإعلان الخسارة الكبرى لمن يشركون بالله، في مقابل الفلاح في أول السورة الذي وعد الله به المؤمنين.
* لا يجوز الدعاء إلا إلى الله وحده؛ لأنه لا يملك إجابة الدعاء إلا هو سبحانه، ومن هنا وجهت هذه الآيات إلى الله في طلب الرحمة والغفران، وهو أرحم الراحمين. وبرحمته يتم الفلاح والفوز.

المناسبة بين المقطع السادس ومحور السورة

ذكرت الآيات مشاهد ومقاطع من أحوال يوم القيامة في هذا المقطع لتذكير الناس أنهم إذا استطاعوا إنكار وحدانية الله في الدنيا، وأخر عذابهم، فلن يملكوا في الآخرة إلا الاعتراف والإقرار بوحدانيته سبحانه، ولكنهم لا يستطيعون الرجوع للدنيا.

سورة النور

بين يدي السورة:

١- اسمها: سورة النور، وسميت بهذا الاسم لقوله تعالى فيها:﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ قال ابن عاشور: (وهذه تسميتها في المصاحف وكتب التفسير والسنة ولا يعرف لها اسم آخر) (١) فقد اشتملت السورة على كثير من إشعاعات النور، التي تمثَّلت بتشريع الأحكام والآداب والفضائل الأخلاقية، التي تعتبر قبسا من نور الله تعالى، الذي عمَّ الوجود كله، وأنار قلوب المؤمنين بكتابه الحكيم، الذي جاء نوراً وضياء وفيضاً من فيوضات رحمته على عباده

٢- عدد آياتها: اثنتان أو أربع وستون آية (٢)، وكلمُها ألفٌ وثلاثمائة وست عشرة كلمة وحروفها خمسة آلاف وستمائة وثمانون حرفا، وهي ستون وآيتان في المدنيين والمكي، وأربع وستون في عدد الباقين (٣).

٣- نزولها:

سورة النور كلها مدنية بإجماع أقوال العلماء (٤). قال ابن عاشور: (وهي مدنية باتفاق أهل العلم ولا يعرف مخالف في ذلك) (٥) نزلت بعد سورة الأحزاب بأشهرفي النصف الآخر من سنة ست من الهجرة بعد غزوة بني المصطلق التي وقعت فيها حادثة الإفك التي رميت بها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالزنا من قبل المنافقين، وقد حدث ذلك باتفاق جميع الروايات المعتدَّ بها أثناء رجوع المسلمين من غزوة بني المصطلق (٦).

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ١٣٩.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ١/ ١٨٥، وانظر التفسير الكبير للرازي: ٢٣/ ١١٣.

(٣) البيان في عد آي القرآن: ١/ ١٩٣.

(٤) الجامع لأحكام الرآن للقرطبي: ١٢ / ١٥٨.

(٥) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ١٣٩.

(٦) انظر السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ٢٦٠، والسير الحلبية: ٢ / ٢٠٥.

مرحلة نزولها:

من المفيد في هذا المقام أن نسلط الأضواء على المرحلة التاريخية التي نزلت فيها هذه السورة، لأهميته البالغة في فهم الأحكام والتشريعات التي حفلت فيها سورة النور، فقد ظهرت في هذه المرحلة قوة المسلمين بعد انتصارهم في غزوة بدر، وتأكدت هذه القوة بعد انتصارهم الساحق على المشركين في غزوة الأحزاب، ذلك الانتصار الذي جعل المشركين والمنافقين واليهود يحسبون لتلك القوة ألف حساب، بعد فشلهم الذريع في تحقيق النصر في غزوة الأحزاب، رغم القوة الكبيرة التي حشدوها لسحق المسلمين واستئصالهم، فقد تأكَّد أعداء الإسلام أن النصر على المسلمين لن يتحقق بقوة السلاح وكثرة العدد والعتاد، فكل المعارك السابقة التي خاضوها مع المسلمين كان الكفار فيها هم المتفوقون عددا وعدة، ومالا واقتصادا، عندها أدركوا أن السبب في انتصار المسلمين عليهم ليس قوة السلاح، إنما هو تفوقهم في ميدان الأخلاق والفضائل، على مستوى الفرد والجماعة، الذي وثّق الروابط الاجتماعية بين المسلمين، ووحّد صفوفهم وأهدافهم.

وانطلاقا من هذا الاستنتاج حوّل أعداء الإسلام الكثير من طاقتهم في هذه المرحلة من الأعمال الحربية إلى أعمال خفية، لإحداث الفتن والقلاقل بين صفوف المسلمين، وقد تولَّى المنافقون تنفيذ تلك الخطة، مستغلِّين بعض الأحداث الهامة التي ابتدأت في شهر ذي القعدة من السنة الخامسة عندما تزوَّج النبي ﷺ مطلقة متبناه زيد بن حارثة زينب بنت جحش، فقد استغلَّ المنافقون هذه الحادثة أسوأ استغلال، من خلال شائعاتهم التي روَّجوها زاعمين أن النبي ﷺ وقع في غرام زوجة متبناه، وساعدهم في نشرها اليهود والمشركون وتفننوا في نشرها حتى فُتِن بتلك الشائعات بعض المسلمين، ثم جاءت الفتنة الثانية التي أحدثها المنافقون في غزوة بني المصطلق، وذلك لبث الفرقة والاختلاف في صفوف المسلمين في تلك الغزوة، التي شارك فيها زعيم المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول، مستغلا خلافاً حدث بين غلامٍ لعمر بن الخطاب، يُقال له جَهجاه، وبين سِنان بن وَبَر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء،

فاقتتلا، فصرخ الجهني: يامعشر الأنصار، وصرخ جَهْجَاه: يامعشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبيّ فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمِّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ثم أقبل على مَن حوله من قومه، وقال لهم: هذا ما فعلتموه بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غيركم (١).

هكذا حاول المنافقون تمزيق مجتمع المسلمين من خلال تلك الفتنة العنصرية البغيضة، ولكن الرسول الكريم وأدها في مهدها بحكمته البالغة، وسلَّم المسلمين من شرورها.

ثم جاءت الفتنة المزلزلة في نفس هذه الغزوة، والتي بلغت في خطورتها حداً كادت أن تعصف بالمجتمع الإسلامي الأول وتقتلعه من جذوره، وذلك عندما تجرَّأ المنافقون في هذه المرة على عرض رسول الله نفسه، فاتهموا زوجته الطاهرة عائشة رضي الله عنها بارتكاب فاحشة الزنا.

تلك هي الظروف والأحوال التي عاشها المسلمون عند نزول سورة الأحزاب وسورة النور بتشريعاتهاالأخلاقية والاجتماعية، والتي جاءت رداً على محاولات المنافقين للنيل من أخلاق المسلمين تمهيدا لهزيمتهم في ذلك الميدان، الذي كان سببا في تفوقهم وغلبتهم على أعدائهم، فكان ردُّ الله تعالى على تلك المحاولات تشريع العديد من الأحكام، التي تسدُّ الثغرات وتصلح مواضع الخلل في الجبهة الخُلُقية، والتي جاءت متكاملة في سورتي الأحزاب والنور.

وسوف نبين تلك الأحكام التي وردت في سورة النور، والتي زادت في عددها عن ثمانية عشر حكما، نظَّمت من خلالها الشؤون الأخلاقية، والآداب الاجتماعية للأمة الإسلامية، وذلك أثناء عرضنا لتفسيرها الموضوعي.

---

(١) انظر السير النبوية لابن هشام: ٤ / ٢٥٣- ٢٥٤.

٤- فضلها:

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ (علِّموا رجالكم سورة المائدة، وعلموا نساءكم سورة النور).

وأخرج أبو عبيد في فضائله عن حارثة بن مضرب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلَّموا سورة النساء والأحزاب والنور[1]. وقال رسول الله ﷺ: « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النورِ أَعطِي من الأجرِ عشرَ حسناتٍ بعددِ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ فيما مضَى وفيما بقى» [2].

٥- **محور السورة:** المحور الأساس الذي تدور حوله سورة النور هو: **(التربية الأخلاقية والآداب الاجتماعية للفرد والجماعة)**، وذلك من خلال تشريع الأحكام والآداب اللازمة لبناء المجتمع الفاضل.

ولبيان هذه الوحدة الموضوعية، التي تتجلى في هذه السورة العظيمة من أولها إلى آخرها نجد آياتها ابتدأت بتشريع أحكام لبعض الجرائم الأخلاقية، التي تنال من طهارة المجتمع وعفته، مثل الزنا وما يتعلق به من أحكام كالقذف واللعان، ثم قدَّمت لنا نموذجاً عمليا من واقع حياة المسلمين، يمثل خطورة جريمة القذف عل الفرد والجماعة، عندما عرضت لنا حادثة الإفك التي رميت بها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بفاحشة الزنا.

ثم شرَّعت السورة جملة من الوسائل، لوقاية المجتمع من جريمة الزنا، وذلك بسدِّ السُبُل المؤدِّية إليها، فمنعت كل وسائل الإغراء والغواية، فشرّعت آداب الاستئذان عند دخول البيوت، وأمرت بغض البصر، ونهت النساء عن إبداء الزينة، وحثَّت أولياء الأمورعلى تزويج الأيامى، وحذَّرت من البغاء، الذي يمثل انحدارا رهيبا، واعتداء صارخا على كرامة الإنسان، ومكانته في هذا الوجود.

---

(١) فتح القدير للشوكاني: ٤ / ٣. وكنز العمال: ٢ / ١٣٧.

(٢) تفسير أبي السعود: ٦ / ١٩٩. وتخريج الأحاديث والآثار: ٢ / ٤٥٣.

ثم توسَّطت السورةَ الكريمة إشارةٌ رائعة إلى مصدر هذه الأحكام والآداب، فهي منزَّلة من عند الله تعالى لعباده، لتكون لهم نورا وهداية في حياتهم، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾، ثم تأتي إشارة أخرى، إلى مراكز إشعاع ذلك النور الإلهي في الأرض، وهي بيوت الله تعالى، التي تشعُّ ذلك النور لتولِّد الهداية في قلوب الناس، وتحدث التزكية المطلوبة في نفوس المؤمنين، بخلاف الكفار الذين لم ينتفعوا من ذلك النور، لإيثارهم ظلمات الكفر على نورالهداية، الذي عمَّ الكائنات الأخرى المنتشرة في هذا الكون الفسيح من طير وسحاب، وليل ونهار، ومن كل الدواب، التي انتظمت بالفطرة مع هداية الله تعالى، واستسلمت لخالقها خضوعا وتسبيحا.

ثم تسوق السورة الكريمة - ضمن محورها- نموذجا لفئة من الناس لم تتأثر بنور الله تعالى الذي عمَّ السموات والأرض، ولكنه لم يخالط شغاف قلوبها، فبقيت في ظلمتها رغم تظاهرها بالإسلام، وهؤلاء هم المنافقون، الذين اضطربت أحوالهم، وساء سلوكهم، فلم يلزموا أنفسهم بالآداب اللازمة في معاملة رسول الله ﷺ، وفي التزام طاعتة والتحاكم إليه.

ثم تأتي المقارنة بين سلوك المنافقين السابق وبين سلوك المؤمنين، الذين أشرقت قلوبهم بنور الله تعالى، فبادروا إلى طاعة رسول الله ﷺ، وألزموا أنفسهم بالآداب الواجبة في التعامل معه، فأفاض الله عليهم من نوره، ووعدهم بالاستخلاف في الأرض، والتمكين لهم في الدين، والنصر على الكافرين.

ثم تعود السورة إلى محورها الأساس، لتكمل ما بدأته من تشريعات للآداب الاجتماعية مثل آداب الاستئذان والضيافة في محيط البيوت والأقارب والأصدقاء، وكذلك الآداب اللازمة مع رسول الله ﷺ في توقيره، واستئذانه وندائه، ثم كانت خاتمة السورة إعلانا مؤثرا عن مالكية الله تعالى لما في السموات والأرض، وعن علمه الشامل المحيط بأحوال الناس الذين سيصيرون إليه تعالى ليحاسبهم على أعمالهم.

وبهذا الختام المؤثر، تضع السورة المؤمن أمام مسؤولية خطيرة، تدفعه لتنفيذ ما ورد في

هذه السورة من أحكام وآداب، تمثل الأسس التي يقوم عليها بناء المجتمع الفاضل كما يريده الله تعالى في هذه الأرض.

المناسبات:

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت السورة الكريمة بإعلان قوي عن نزولها، وفرضها للأحكام التي وردت فيها، حيث قال الله تعالى:﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾ وهذا الإعلان يشعر بأهميتها، ووجوب تطبيق أحكامها بصورة حاسمة، وجاء ختامها تذكيرا للناس بعلم الله تعالى بأحوال عباده وأعمالهم، التي سيحاسبهم عليها يوم يرجعون إليه، ليعُدوا أنفسهم للسؤال أمام الله عن تلك الآيات والأحكام التي أنزلها إليهم، خاصة المذكورة في سورة النور وبذلك رد الختام على المبدأ والتحم الآخر بالأول [(١)].

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

ووجه اتصالها بسورة (المؤمنون) جليٌّ ظاهر، فقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين، وجعل من أجلِّ صفاتهم أنهم حافظون لفروجهم، حيث قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥] ثم ذكر في سورة النور أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني، قال السيوطي: «أقول وجه اتصالها بسورة قد أفلح أنه لما قال:﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ ﴾ ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فروجهن الزانية والزاني، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغض البصر، وأمر فيها بالنكاح حفظا للفروج، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف وحفظ فرجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا، ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط، ولا تناسق أبدع من هذا النسق» [(٢)].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي: ٥ / ٢٩٠.

(٢) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي: ١ / ١١٨ - ١١٩، وانظر تفسير روح المعاني للألوسي: ١٨ / ٧٤.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

ختمت سورة المؤمنون بإشارة إلى مغفرة الله ورحمته بعباده المؤمنين فقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، وجاءت سورة النور محققة لتلك الرحمة من تشريعاتها الحكيمة التي أنارت للعباد الطريق الموصل إلى السعادة الدائمة في الدنيا والآخرة، قال الإمام البقاعي رحمه الله: «لما ختم الله تعالى سورة (المؤمنون) بقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ ابتدأ سورة النور بأنه منَّ على المخاطبين ببيان ما خلقوا له من الأحكام لأنهم لم يخلقوا سدى، بل لتكاليف تعبدهم بها ترفع التنازع وتحسم مادة الشر، فتوجب الرحمة والعطف بسلامة الصدر بما فيهم من الجنسية»(١).

المناسبة بين خاتمة سورة النور وافتتاحية سورة الفرقان:

لما ذكر جل وعلا في آخر سورة النور، وجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ، ومدح المتابعين، وحذر المخالفين، افتتح سبحانه سورة الفرقان، بما يدل على تعاليه جل شأنه عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله، أو على كثرة خيره تعالى ودوامه، وأنه أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، إطماعا في خيره، وتحذيرا من عقابه جل شأنه، وفي هذه السورة أيضا من تأكيد ما في السابقة من مدح الرسول ﷺ ما فيها، فقال تبارك وتعالى:﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: ١].

ولما ختم سبحانه سورة النور بسعة الملك وشمول العلم وتعظيم الرسول والتهديد لمن تجاوزالحد، افتتح سورة الفرقان بمثل ذلك على وجه- مع كونه أضخم منه- هو برهان عليه فقال: «تبارك» أي: ثبت ثبوتا مع اليُمن والخير، به سبقت الرحمة الغضب، والتعالي في الصفات والأفعال(٢).

---

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٥/ ٢٢٩.

(٢) روح المعاني للألوسي: ١٨/ ٢٣٠. بتصرف يسير.

المقطع الأول: (الزنا والأحكام المتعلقة به)

حدُّ الزنا

قال الله تعالى:﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

سبب النزول:

أخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد يحمل الاسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأة بمكة يقال لها عناق، وكانت صديقة له، وأنه وجد رجلا من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، فجاءت عناق فابصرت سواد ظل تحت الحائط، فلما انتهت اليَّ عرفتني، فقالت: مرثد! فقلت: مرثد، فقالت: مرحبا وأهلا، هلم فبت عندنا الليلة؟ قلت: يا عناق حرم الله الزنا، قالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية وسلكت الخندمة فانتهيت إلى غار أو كهف، فدخلت فجاؤا حتى قاموا على رأسي فبالوا وظل بولهم على رأسي، ونحاهم الله عني، ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله أنكح عناقا؟ فأمسك فلم يرد علي شيئا حتى نزلت﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ فلا تنكحها [1].

(١) سنن الترمذي: ٥ / ٣٢٨، وقال: حسن غريب، وتفسيرابن كثير: ٣ / ٢٦٤، ولباب النقول للسيوطي: ١ / ١٥٢.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل، لما قدم المهاجرون المدينة، قدموها وهم بجهد إلا قليل منهم والمدينة غالية السعر شديدة الجهد، وفي السوق زوان متعالنات من أهل الكتاب، وأما الأنصار منهن أميمة وليدة عبد الله بن أبيَّ ومسيكة بنت أمية لرجل من الأنصار في بغايا من ولائد الانصار قد رفعت كل امرأة منهن علامة على بابها ليعرف أنها زانية وكنَّ من أخصب أهل المدينة وأكثرهم خيرا، فرغب أناس من مهاجري المسلمين فيما يكتسبن للذي هم فيه من الجهد، فاشار بعضهم على بعض لو تزوجنا بعض هؤلاء الزواني فنصيب من فضول أطعامهن! فقال بعضهم: نستأمر رسول الله ﷺ، فأتوه فقالوا يا رسول الله قد شق علينا الجهد ولا نجد ما نأكل! وفي السوق بغايا نساء أهل الكتاب وولائدهن وولائد الأنصار يكتسبن لأنفسهن فيصلح لنا أن نتزوج منهن فنصيب من فضول ما يكتسبن فاذا وجدنا عنهن غني تركناهن؟ فأنزل الله ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ ﴾ فحُرم على المؤمنين أن يتزوجوا الزواني المسافحات العالنات زناهن) [(١)].

وروي أنها نزلت في أهل الصفة، وكانوا قوما من المهاجرين، ولم يكن لهم في المدينة مساكن ولا عشائر، فنزلوا صفة المسجد، وكانوا أربعمائة رجل، يلتمسون الرزق بالنهار، ويأوون إلى الصفة بالليل، وكان بالمدينة بغايا متعالنات بالفجور، مخاصيب بالكسوة والطعام، فهمّ أهل الصفة أن يتزوجوهن فيأووا إلى مساكنهن، ويأكلوا من طعامهن وكسوتهن، فنزلت هذه الآية صيانة لهم عن ذلك [(٢)].

التفسير الاجمالي للمقطع الأول:

مطلع سورة النور مطلع فريد لم يتكرر في القرآن الكريم، حيث جاء الاستهلال بإعلان قوي وتنبيه لافت يدلُّ على أهمية ما ورد في هذه السورة من أحكام وحدود وآداب ملزمة للمؤمنين وليست مجرَّد توصيات وتمنيات تعطي الخيار في الفعل أو الترك، بل هي أحكام قاطعة لابد من تنفيذها وتطبيقها وإقامة الحياة على هديها ونورها، وهي في نفس الوقت أحكام وردت

(١) تفسير الدر المنثور: ٦ / ١٢٧.

(٢) تفسير القرطبي: ١٢ / ١٦٨.

في آياتها بينة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، لتكون عبرة وعظة وتذكرة للمؤمنين لما استقر في فِطرهم من آداب وأخلاق قد ينساها الناس تحت تأثير المغريات والشهوات قال تعالى:﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾، فقوله:﴿ أَنزَلْنَاهَا ﴾ (تنويه بالسورة بما يدل عليه﴿ أَنزَلْنَاهَا ﴾ من الإسناد إلى ضمير الجلالة الدال على العناية بها وتشريفها)[1] والمراد بالآيات البينات جميع مااشتملته السورة من أحكام شرعية، وهدايات متعددة، كالدعوة إلى الوحدانية، وإقامة الأدلة على سعة قدرة الله وعلمه وحكمته، وما أطلع الله عليه رسوله من أسرار المنافقين وفضح دخائلهم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

وبعد هذه البداية الفريدة تبدأ السورة ببيان تلك الآيات البينات، فتشرَّعت حدَّ الزنا، وقرَّرت له عقوبة محددة وهي جلد الزانيين غير المحصنين مائة جلدة لكل منهما، ونهت عن تخفيف العقوبة والتراخي في تنفيذها، وربطت ذلك بحقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين، لأن الزنا جريمة أكبر من أن تستدرَّ العطف أو تستجلب الرحمة بالزناة، وأمرت بإقامة الحدّ في مشهد عام تحضره طائفة من المؤمنين، لتكون العقوبة أوقع وأوجع في نفوس الفاعلين وأكثر زجرا لكل من تسوِّل له نفسه ارتكاب هذه الفاحشة الفظيعة من الآخرين.

وهذه العقوبة التي وردت في سورة النور، سبقتها عقوبة أخرى كانت مخففة ومؤقتة حيث كانت عقوبة الزانيين في أول الإسلام ما جاء في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ [النساء: ١٥- ١٦]. فكانت عقوبة الزنا الحبس في البيتوت للنساء، والأذى والتعيير للرجال، ثم نسخ ذلك

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩/ ١٤٢.

الحكم[١]، ونزل حدُّ الزنا في سورة النور، فكان هو السبيل الذي أشارت إليه سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ وهو الذي بينه النبي ﷺ في حديثه الشريف، الذي رواه مسلم بسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله أنه قال: « قال كان نَبيُّ اللهِ ﷺ إذا أُنْزِلَ عليه كُرِبَ لِذَلِكَ وَتَرَبَّدَ له وَجْهُهُ قال فَأُنْزِلَ عليه ذَاتَ يَوْمٍ فَلُقِيَ كَذَلِكَ فلما سرى عنه قال خُذُوا عَنِّي فَقَدْ جَعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ الثَّيِّبُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ رَجْمٌ بِالْحِجَارَةِ وَالْبِكْرُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ نَفْيُ سَنَةٍ»[٢].

وحدّ الجلد هوعقوبة الزاني البكر من الرجال والنساء، وأما المحصن وهو الذي سبق له وطء صحيح وهو مسلم حر بالغ فحدّه الرجم كما بين الحديث السابق، وقد ثبت الرجم بالقرآن الكريم في آية نسخت تلاوتها وبقي حكمها، وهي قوله تعالى: « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله..» وهو ثابت بالسنَّة المطهرة، فقد روى مسلم في صحيحه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: « قال عمر بن الخطاب وهو جَالِسٌ على مِنْبَرِ رسول اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ قد بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عليه الْكِتَابَ فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عليه آيَةُ الرَّجْمِ، قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رسول اللَّهِ ﷺ، وَرَجَمْنَا بَعْدَه، فَأَخْشَى إن طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ ما نَجِدُ الرَّجْمَ في كِتَابِ اللَّهِ فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا الله وَإِنَّ الرَّجْمَ في كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ على من زَنَى إذا أَحْصَنَ من الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إذا قَامَتْ الْبَيِّنَةُ أو كان الْحَبَلُ أو الِاعْتِرَافُ»[٣].

وثبت بالسنة المطهرة عندما أقامه النبي ﷺ في حياته على ماعز والغامدية، وهذا ثابت في الصحيحين فقد أخرج مسلم في صحيحه، عن سليمان بن بريدة عن أبيه، قال: جاء مَاعِزُ بن مَالِكٍ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي، فقال وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ وَتُبْ إليه، قال: فَرَجَعَ غير بَعِيدٍ ثُمَّ جاء: فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ طَهِّرْنِي، فقال رسول اللَّهِ ﷺ، وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرْ

---

(١) انظر الناسخ والمنسوخ للنحاس: ١ / ٥٨١.

(٢) صحيح مسلم: ٣/ ١٣١٦ رقم (١٩٦٠)

(٣) صحيح مسلم: ٣/ ١٣١٧ رقم (١٦٩١).

اللَّهَ وَتُبْ إليه، قال: فَرَجَعَ غير بَعِيدٍ ثُمَّ جاء فقال يا رَسُولَ اللهِ طَهِّرْني، فقال النبي ﷺ مِثْلَ ذلك حتى إذا كانت الرَّابعَةُ قال له رسول الله ﷺ، فيما أُطَهِّرُكَ؟ فقال: من الزِّنَى. فَسَأَلَ رسول الله ﷺ، أَبِه جُنُونٌ؟ فَأُخْبِرَ أَنَّهُ ليس بِمَجْنُونٍ، فقال: أَشَرِبَ خَمْراً؟ فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ فلم يَجِدْ منه ريحَ خَمْرٍ، قال: فقال رسول اللَّهِ ﷺ أَزَنَيْتَ؟ فقال: نعم. فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِم، فَكَانَ الناس فيه فِرْقَتَيْنِ: قَائِلٌ يقول: لقد هَلَكَ، لقد أَحَاطَتْ به خَطِيئَتُهُ، وَقَائِلٌ يقول: ما تَوْبَةٌ أَفْضَلَ من تَوْبَةِ مَاعِزٍ، إِنَّهُ جاء إلى النبي ﷺ، فَوَضَعَ يَدَهُ في يَده، ثُمَّ قال: اقْتُلْني بالْحِجَارَةِ، قال: فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أو ثَلَاثَةً، ثُمَّ جاء رسول الله ﷺ وَهُمْ جُلُوسٌ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ، فقال: اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بن مَالِك، قال: فَقَالُوا: غَفَرَ الله لِمَاعِزِ بن مَالِك، قال: فقال رسول اللَّهِ ﷺ: لقد تَابَ تَوْبَةً لو قُسِمَتْ بين أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ. قال: ثُمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ من غَامِدٍ من الأَزْدِ، فقالت: يا رَسُولَ اللهِ طَهِّرْني، فقال وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إليه، فقالت: أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَني كما رَدَّدْتَ مَاعِزَ بن مَالِكٍ قال: وما ذَاكِ؟ قالت: إِنَّهَا حُبْلَى من الزِّنَى، فقال: آنْتِ؟ قالت: نعم، فقال لها، حتى تَضَعِي ما في بَطْنِك، قال فَكَفَلَهَا رَجُلٌ من الأَنْصَارِ حتى وَضَعَتْ، قال: فَأَتَى النبي ﷺ، فقال: قد وَضَعَتْ الْغَامِدِيَّةُ، فقال: إذاً لَا نَرْجُمُهَا وَنَدَعُ وَلَدَهَا صَغِيراً ليس له من يُرْضِعُهُ، فَقَامَ رَجُلٌ من الأَنْصَارِ، فقال: إِلَيَّ رَضَاعُهُ يا نَبِيَّ اللهِ، قال فَرَجَمَهَا (١)».

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: أتى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ من الناس، وهو في المَسْجِد، فَنَادَاهُ يا رَسُولَ اللَّهِ إني زَنَيْتُ، يُرِيدُ نَفْسَهُ، فَأَعْرَضَ عنه النبي ﷺ، فَتَنَحَّى لِشِقِّ وَجْهِهِ الذي أَعْرَضَ قِبَلَه، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ إني زَنَيْتُ، فَأَعْرَضَ عنه فَجَاءَ لِشِقِّ وَجْهِ النبي ﷺ، الذي أَعْرَضَ عنه، فلما شَهِدَ على نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ، دَعَاهُ النبي ﷺ فقال: أَبِكَ جُنُونٌ؟ قال: لَا يا رَسُولَ اللَّهِ، فقال: أَحْصَنْتَ؟ قال: نعم يا رَسُولَ اللَّهِ، قال اذْهَبُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ، قال بن شِهَابٍ أخبرني من سمع جَابِراً قال فَكُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُ فَرَجَمْنَاهُ بِالْمُصَلَّى فلما

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٣٢٢ رقم (١٦٩٥)

أَذْلَقَتْهُ الحِجارَةُ جَمَزَ حتى أَدْرَكْناهُ بِالْحَرَّةِ فَرَجَمْناهُ» .[١]

ثم بينت الآيات فظاعة هذه الفاحشة وبشاعتها، وأنها تتنافى مع الإيمان، فالذين يرتكبونها لايليق بهم أن يتزوجوا المرأة المؤمنة العفيفة، بل يليق بهم الزواج من الزانية، أو من هو شر منها وهي المشركة، والزانية كذلك لايليق بها أن تتزوج المؤمن العفيف، وإنما يليق بها من هو مثلها من الزناة، أو من هو شرٌّ منهم وهم المشركون، إلا أن تقع التوبة التي تطهِّر النفوس من ذلك الدنس، قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ وهناك خلاف مشهور بين علماء السلف في هذه المسألة، حيث تباينت آراؤهم على قولين، بين من يرى حرمة الزواج بالزانية والزاني، وبين من يرى جواز ذلك النوع من النكاح، وهو مذهب جمهور العلماء، ولكل أدلته التي اعتمد عليها، ويمكن مراجعتها في مصادرها، ولكن المتأمل في أسباب النزول يمكنه حصر المسألة في نطاقها المحدَّد لها، فالزانيات اللواتي رغب بعض الصحابة بنكاحهن، كنَّ من البغايا، اللواتي احترفن الزنا، وكنَّ من المشركات، وهذا ماوضحه ابن عباس رضي الله عنهما فقد أخرج أبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن ابن عباس أنها نزلت في بغايا متعالنات كن في الجاهلية، وكنَّ زوانى مشركات، فحرَّم الله نكاحهن على المؤمنين[٢] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق شعبة مولى ابن عباس قال: كنت مع ابن عباس، فأتاه رجل فقال: إنى كنت أتبع امرأة فأصبت منها ما حرم الله عليّ، وقد رزقنى الله منها توبة، فأردت أن أتزوجها، فقال الناس: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾، فقال ابن عباس: ليس هذا موضع هذه الآية، إنما كنَّ نساء بغايا متعالنات، يجعلن على أبوابهن رايات، يأتيهن الناس يعرفن بذلك، فأنزل الله هذه الآية، تزوجها فما كان فيها من إثم فعليّ) [٣].

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٠٢ رقم (٦٤٣٩).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٣/ ٥٤٠ رقم (١٦٩٢٩). وتفسير الطبري: ١٨/ ٧٢.

(٣) تفسير الدر المنثور: ٦/ ١٢٩، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٢٦٥.

ولا شك أن هناك فرق كبير بين المرأة التي سقطت مرة في فاحشة الزنا، وبين تلك المرأة التي جعلت الزنا مهنتها، فالزواج من هذا الصنف من البغايا، لايمكن أن يقبله شرع، ولا يقرّه منطق، طالما أن البغيّ لم تقلع عن هذا العمل الشنيع، وتبادر بالتوبة إلى الله تعالى، فإن تابت وظهرت عليها أمارات الصلاح صحَّ الزواج منها، فكم من تائب من معاصية، تملّكه الندم والخوف من الله فتغير حاله ليصبح من الصالحين، فالتوبة الصادقة تجبُّ ما قبلها.

فهذا الحكم ينطبق على أولئك الزناة من الرجال والنساء الذين لايقلعون عن فعل تلك الفاحشة; ولا يتوبون منها، ولكنهم لو تابوا وأصلحوا أنفسهم، فلا ينطبق عليهم هذا الحكم لأن التوبة أسقطت عنهم صفة الزنا (فالآية الكريمة تفيد نفور طبع المؤمن من نكاح الزانية ونفور طبع المؤمنة من نكاح الزاني، واستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد... وبذلك تقطع الوشائج التي تربط هذا الصنف المدنس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة العفيفة) [١].

مناسبة الآيات لمحور السورة:

افتتاحية السورة وثيقة الصلة بالمحورالرئيس، لأنها تمثل الخطوة الأولى في منهج القرآن للتربية الأخلاقية المتكاملة للفرد والمجتمع التي وردت في سورة النور، والتي حدَّد الله تعالى فيها حدّ الزنا، ونفّر من الزواج بالزناة، تمهيدا لإقامة الأسرة الطاهرة، والمجتمع الفاضل.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* يعتبر الإسلام الزنا جريمة دينية وخلقية واجتماعية، لأنها تمثّل اعتداء على العرض والشرف والنسل والكرامة الإنسانية، وتؤدي إلى هدم الأسرة، وتحطيم كيان المجتمع، لذلك قرنها الله تعالى بالشرك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان: ٦٨].

(١) ظلال القرآن: ٤ / ٢٤٨٨ بتصرف يسير.

* يجب على الحكام المسلمين إقامة الحدود، وخاصة حدّ الزنا الذي يجب استيفاؤه كاملا غير منقوص في صفته أو عدده، ودون رحمة بالزناة، وعلى مرأى من الناس، ليكون عقوبة زاجرة لهم، ولأصحاب النفوس الضعيفة الذين تراودهم أنفسهم ارتكاب الفاحشة.
* حذَّر الإسلام من الزواج من المرأة الزانية، فلا يليق بالمؤمنة أن تتزوج من الرجل الزاني الفاسق، ولا يليق بالمؤمن أن يتزوج من المرأة الزانية، لأن الزنا فعل شنيع يجعل مرتكبه - مع كونه مسلما - لا يجدر به أن يرتبط بالصالحين الأعفَّاء من أفراد المجتمع، بل يرتبط بأمثاله من الزناة، أو بمن هم شر منهم وهم المشركون.

المقطع الثاني: حدُّ القذف

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

سبب النزول:

يرى بعض المفسرين أن سبب نزول الآيات هو حادثة الإفك التي رميت بها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والتي نزلت براءتها من السماء، يقول الطبري: (وذكر أن هذه الآية إنما نزلت في الذين رموا عائشة زوج النبي ﷺ بما رموها به من الإفك)، ثم روى عن سعيد بن جبير أنه سئل هل الزنى أشد أو قذف المحصنة؟ قال: لا بل الزنى، قلت: إن الله يقول «والذين يرمون المحصنات...» قال: إنما هذا في حديث عائشة خاصة [(١)].

والصحيح ما ذكره القرطبي، واختاره الطبري أن هذه الآيات نزلت في القذفة عامة وليست خاصة في حادثة الإفك التي رميت بها عائشة رضي الله عنها [(٢)].

---

(١) تفسير الطبري: ١٨ / ٧٤ - ٧٦.

(٢) انظر تفسير القرطبي: ١٢ / ١٧٢.

مناسبة الآيات لما قبلها:

المناسبة واضحة بين الآيات السابقة وبين هذه الآيات، التي تحدثت عن حدِّ القذف فالآيات السابقة قررت حدَّ الزنا، وتشدَّدت فيه صيانة للمجتمع من أخطار انتشار الفاحشة بين أفراده، ولكن هذه العقوبة لا تكفي وحدها لتحقيق هذا الهدف، لذلك شرَّعت الآيات حدَّ القذف لمن يرمي غيره ويتهمه بارتكاب الفاحشة دون بينة من شهود أربعة.

التفسير الإجمالي

المراد برمي المحصنات في الآية الكريمة هو قذف المحصنات العفائف بفاحشة الزنا الذي اعتبره الإسلام جناية، وشرع له حدا، عقوبة رادعة لأصحاب النفوس الخبيثة، التي تحاول النيل من أعراض الناس، وتلويث شرفهم من خلال التهم الكاذبة، التي يمكن توجيهها إلى أي فرد من أفراد المجتمع، وهذه الحالة تساعد على نشر الفاحشة والترويج لها، وتشجع أصحاب النفوس الضعيفة أمام إغراء الفاحشة على ارتكابها، وعندها تتهيأ بيئة المجتمع لانتشار الدعارة حتى تصبح ظاهرة فيه، لايتهيَّب أحد من ارتكابها، وعندها لايمكن لحدّ الزنا بمفرده أن يمنع وقوع فاحشة الزنا، لذلك جاء حدُّ القذف عقوبة رادعة للقاذف، تمثلت في جانب حسي، وهو الجلد ثلاثين جلدة، وجانب أدبي، وهو إسقاط شهادته، وثالث ديني، وهو الوصف بالفسق فمن رأى أحداً متلبسا بفاحشة الزنا فعليه لزوم السكوت، حتى تبقى الرذيلة في موضعها، ولا ينتشر قذاها إلى مواضع أخرى، وإن توفرله أربعة من الشهود قد رأوا بأعينهم فعلة الزنا عندها يجوز له أن يرفع الأمر إلى القاضي لإثبات جريمة الزنا، وإقامة الحدّ على الزاني.

ومن المفيد في هذا الموضع، الإشارة إلى أن الفقهاء قد حددوا شروطا لابد من توفرها في كل من القاذف والمقذوف والمقذوف به، حتى يقام الحدُّ على القاذف، منها ما ذكره القرطبي في تفسيره فقال: « للقذف شروط عند العلماء تسعة، شرطان في القاذف، وهما: العقل والبلوغ

لأنهما أصلا التكليف، إذ التكليف ساقط دونهما. وشرطان في الشيء المقذوف به، وهو: أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحدّ وهو الزنى واللواط، أو بنفيه من أبيه دون سائر المعاصي. وخمسة في المقذوف وهي: العقل والبلوغ والإسلام والحرية والعفة عن الفاحشة التي رمي بها [(١)].

وهناك تفصيلات كثيرة أخرى مذكورة في كتب الفقه حول تلك الشروط، يضيق المقام عن ذكرها [(٢)].

مناسبة الآيات لمحور السورة:

المناسبة واضحة جلية بين آيات القذف ومحور السورة، لأن حدَّ القذف يمثل حاجزا أمام انتشار فاحشة الزنا في المجتمع، مما يساعد على تحقيق الهدف المنشود في الوصول إلى التربية الأخلاقية وترسيخ الآداب الفاضلة في سلوك الفرد والجماعة التي ينشدها الإسلام، وهو المحورالأساس الذي تدور عليه آيات السورة.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* اعتبر الإسلام قذف المحصنات من كبائر الذنوب الموجبة لغضب الله وسخطه، وأوعد عليها بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: ٢٣]. وعدَّها النبي ﷺ من الكبائر المهلكات، فقال: (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: وما هن يارسول الله؟ قال: (الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) [(٣)].
* يعتبر الإسلام الكلمة من أخطر أنواع المسؤوليات التي يتحمل الإنسان تبعاتها في الدنيا

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢ / ١٧٣.

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي: ٢٣ / ١٣٣- ١٣٦.

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١٠١٧ رقم (٢٦١٥)، وصحيح مسلم: ١ / ٩٢ رقم (٨٩).

والآخرة، والقذف نوع من الكلام الخطير، الذي يتسبب في أذى الناس في أعراضهم، لذلك كان اللسان من أوسع الأبواب التي تدخل أصحابها إلى النار، فقد سأل معاذ بن جبل ﷺ رسول الله ﷺ سؤالا، فقال: يا رَسُولَ اللهِ أَنُؤَاخَذُ بِكُلِّ ما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقال ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعَاذُ بن جَبَلٍ ! وَهَلْ يَكُبُّ الناس على مَنَاخِرِهِمْ في جَهَنَّمَ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» (١) .

* جعل الإسلام عقوبة الزاني العذب - غير المحصن - جلد مائة جلدة، وجعل عقوبة القاذف جلد ثمانين جلدة وإسقاط شهادته ووصفه بالفسق، وتعدُّد هذه العقوبات على القاذف دليل على عظم جرمه وخطورة فعلته، فكم من أعراض جرحت، ونفوس حُطِّمت بسبب تهمة نكراء رمي بها بريء، وكم من فتاة عفيفة شريفة قتلت بسبب كلمة خبيثة رماها بها فاسق جبان، خاصة في هذا الزمن الذي عطِّلت فيه أحكام الشريعة، مما شجع البعض على الولوغ في أعراض الناس دون خوف من عقوبة حاكم في الدنيا، أو عذاب في الآخرة.

* خصَّت الآية الكريمة النساء بالذكر دون الرجال في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ مع العلم أن حدَّ القذف يطبَّق على كلِّ من رمى غيره بالزنا رجلا كان أو امرأة، وذلك لأن قذف المحصنات أشنع وأقبح في حقهن، ولشدة الضرر والأذى الذي يصيبهن وأهلهن من زوج ووالد وولد وأخ وأخت وغيرهم من أقربائهن، قال القرطبي رحمه الله: (ذكر الله تعالى في الآية النساء من حيث هنَّ أهم، ورميهن بالفاحشة أشنع وأنكى للنفوس وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى وإجماع الأمة على ذلك) (٢).

* دلَّ قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ ﴾ على أن توبة القاذف وحدها لاتكفي حتى تقبل شهادته على رأي القائلين بذلك، بل لابد من ظهور علامات الصلاح على القاذف، قال الرازي: أما قوله وَأَصْلَحُواْ فقال أصحابنا إنه بعد التوبة لا بد من مضي مدة

---

(١) المعجم الكبير: ٢٠ / ١٢٧ رقم (٢٥٨)، والمستدرك على الصحيحين: ٢ / ٤٤٧ رقم (٣٥٤٨) .

(٢) تفسير القرطبي: ١٢ / ١٧٢.

عليه في حسن الحال حتى تقبل شهادته وتعود ولايته [١].

* نهى الإسلام عن قبول شهادة القاذف في المستقبل حماية لأعراض الناس وصونا لكرامتهم فالذي تجرأ على القذف مرَّة بدون إثبات لايتورع عن تكراره مرات وكرات، فكان جديرا بأن تردَّ شهادته.
* دلَّ أسلوب (الحصر في قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ على المبالغة في شناعة فسقهم حتى كأن ما عداه من الفسوق لايعدُّ فسقا) [٢].

المقطع الثالث: اللعان

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠ ﴾

سبب النزول

روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: البينة أو حدٌّ في ظهرك، فقال: يا رسول الله إذا أري أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: البينة وإلا حدٌّ في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحدّ، فنزل جبريل وأنزل عليه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فانصرف النبي ﷺ، فأرسل إليهما، فجاء هلال والنبي ﷺ يقول: إن الله يعلم أن أحدكما كاذب

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٣ / ١٤٣.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ١٥٩.

فهل منكما تائب؟ ثم قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس فتلكأت، ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت فقال النبي ﷺ: أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين، سابغ الأليتين، خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»(١).

وروى الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « لما نزلت هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ قال سعد بن عبادة: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ لو أتيت لكاع قد تفخذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء؟ فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته، فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار أما تسمعون إلى ما يقول سيدكم؟ قالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور، ما تزوج فينا قط إلا عذراء، ولا طلق امرأة له فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، قال سعد: يا رسول الله بأبي وأمي والله إني لأعرف أنها من الله وأنها حق، ولكن عجبت لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، والله لا آتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته، فوالله ما لبثوا إلا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية من حديقة له، فرأى بعينيه، وسمع بأذنيه، فأمسك حتى أصبح فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ، وهو جالس مع أصحابه، فقال: يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء، فوجدت رجلا مع أهلي، رأيت بعيني، وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما أتاه به، وثقل عليه جداً حتى عُرف ذلك في وجهه، فقال هلال: والله يا رسول الله إني لأرى الكراهة في وجهك مما أتيتك به، والله يعلم أني صادق، وما قلت إلا حقا فإني لأرجو أن يجعل الله فرجا قال واجتمعت الأنصار، فقالوا: ابتلينا بما قال سعد أيجلد هلال بن أمية وتبطل شهادته في المسلمين؟ فهمَّ رسول الله ﷺ بضربه، فإنه لكذلك يريد أن يأمر بضربه، ورسول الله ﷺ جالس

---

(١) صحيح البخاري: ٤ / ١٧٧٢ رقم (٤٤٧٠).

مع أصحابه، إذ نزل عليه الوحي، فأمسك أصحابه عن كلامه، حين عرفوا أن الوحي قد نزل حتى فرغ، فأنزل الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ ﴾(١).

مناسبة الآيات لما قبلها:

يعتبر اللعان لونا من ألوان القذف، ولكنه شُرع لمعالجة مشكلة اجتماعية خطيرة، ناشئة من اتهام الزوج لزوجته ورميه لها بارتكاب فاحشة الزنا، وبيان ذلك: أنه لما نزل القرآن الكريم بحكم القذف، وقع بعض المسلمين في حرج شديد - كما أشارت الرواية الثانية لسبب نزول الآية - فقد يكون من السهل على الرجل أن يسكت على زنا الغير إن لم يجد أربعة من الشهود ولكنه من المستحيل أن يسكت على زنا زوجته الذي أبصره بعينه وسمعه بأذنه، فهل يلتمس أربعة من الشهود وقد يقضي الزاني حاجته قبل أن يحضر الشهود؟ أو يقتلهما معا فيقتل بهما قصاصا؟ أو يسكت على غيظ وغضب؟ لذلك تداركت رحمة الله عباده من خلال هذا التشريع الذي يرفع الحرج والظلم االذي قد يوقعه أحد الزوجين بالآخر.

التفسير الإجمالي

قرّر القرآن الكريم حكم اللعان بعد تشريع حدّ القذف، وبيان ذلك: أن المسلمين لما علموا حكم القذف الذي يلزم القاذف بإحضار أربعة من الشهود لإثبات جريمة الزنا، وإن لم يتوفر له ذلك لزمه السكوت، وإلا اعتبر قاذفا ويقام عليه حدّ القذف، والسكوت على زنا الأجانب قد يكون سهلا على النفس، لأنه متعلق بالآخرين، ولكن هذه الفاحشة لو رآها الرجل في أهله وعلى فراشه وأمام ناظريه، فإن وقعها شديد على النفس، ولو أُلزم الزوج بإحضار أربع من الشهود فقد يفر الجاني، أو يقضي حاجته قبل إحضار الشهود، وإن قتله قتل به، ويبدو من خلال استعراض روايات أسباب النزول، أن هذه المسألة قد أربكت المسلمين بعد نزول حد

---

(١) تفسير الطبري: ١٨ / ٨٢- ٨٣، ومسند أحمد: ١ / ٢٣٨ رقم (٢١٣١) ومسند أبي يعلى: ٥ / ١٢٤ رقم (٢٧٤٠).

القذف، فأزالت الشريعة ذلك الإرباك، من خلال تشريع حكم خاص يتعلق بزنا الزوجة، وهو حكم اللعان فمن رمى زوجته بالزنا، ولم يكن له أربعة من الشهود لإثبات صدقه فيما ادعاه على زوجته، فالواجب عليه أن يشهد أمام القاضي أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما رمى به زوجته من الزنا، وهذه الشهادات تقوم مكان الشهود الأربعة، ويحلف في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رمى به زوجته من الزنا، فإن شهد هذه الشهادات فلا يقام عليه حدّ القذف وأما الزوجة المقذوفة فإما أن تُقِر وتعترف وتقام عليها عقوبة الرجم وإما أن تلاعن زوجها، وذلك بأن تحلف أربعة أيمان بالله إنه لمن الكاذبين، فيما رماها به من الزنا تقوم مقام الشهود أيضا في إثبات براءتها، وفي المرة الخامسة تحلف بأن غضب الله عليها إن كان زوجها من الصادقين فيما رماها به من الزنا، فإن لاعنت زوجها لم ترجم وفرق بينهما وهذا التشريع نابع من رحمة الله بعباده ولطفه بهم، ولذلك كان ختام هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾. ولولا تلك الرحمة التي تجلّت في تشريع حكم اللعان لوجب على الزوج حدّ القذف لأنه لم يحضر أربعة من الشهود مع ظهور صدقه - غالبا - لاشتراكه في تحمل تبعات قذفه لزوجته وفضيحته بها، ولو جعل الله تعالى شهادات الزوج الأربعة موجبة لإقامة عقوبة الرجم على الزوجة للحق بها ظلم رهيب إن كان زوجها كاذبا، ولو جعلت شهاداتها عليه بالكذب موجبة لإقامة حدِّ القذف عليه - وقد تكون كاذبة - لأدّى ذلك إلى ظلمه أيضا، ولكن رحمة الله تعالى رفعت الحد عنهما في حال الملاعنة، مع اليقين أنه لابد أن يكون أحدهما كاذبا وقد أشار ابن عاشور إلى بعض مظاهر رحمة الله المستفادة من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ فقال: (تذييل لما مرَّ من الأحكام العظيمة المشتملة على التفضل والرحمة منه، والمؤذنة بأنه توَّاب على من تاب من عباده، والمنبئة بكمال حكمته تعالى إذ وضع الشدة موضعها والرفق موضعه، وكفَّ بعض الناس عن بعض) [١] .

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ١٦٨.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

الآيات كسابقاتها وثيقة الصلة بمحور السورة، لأنها عالجت مشكلة اجتماعية خطيرة تهدِّد كيان الأسرة، وتزرع الشكَّ بين الزوجين، لأن اللعان يمثل اتهاما صريحا للزوجة بارتكاب فاحشة الزنا، فجاء تشريع حكم اللعان حلاً وسترا لحال الزوجين، منعا للفاحشة من الانتشار، وبذلك يعتبر هذا الحكم ركيزة هامَّة في منهج تربية القرآن للأسرة والمجتمع.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* شرَّع الله تعالى حكم اللعان في الزوجات دون الأجنبيات، لأن قذف الزوجة يلحق العار بالزوج ويفسد عليه النسب، فإقدامه على القذف رغم أضراره الخطيرة دليل على صدقه في قذف زوجته. قال الإمام الرازي: « وإنما اعتبر الشرع اللعان في هذه الصورة دون الأجنبيات لوجهين: الأول: أنه لا معرّة عليه في زنا الأجنبية، والأولى له ستره، أما إذا زُني بزوجته فيلحقه العار والنسب الفاسد، فلا يمكنه الصبر عليه، وتوقيفه على البينة كالمعتذر، فلا جرم خصّ الشرع هذه الصورة باللعان. الثاني: أن الغالب في المتعارف من أحوال الرجل مع امرأته أنه لا يقصدها بالقذف إلا عن حقيقة، فإذا رماها فنفس الرمي يشهد بكونه صادقاً، إلا أن شهادة الحال ليست بكاملة، فضمَّ إليها ما يقويها من الإيمان، كشهادة المرأة لما ضعفت قويت بزيادة العدد، والشاهد الواحد يتقوى باليمين على قول كثير من الفقهاء »(١).

* خصَّ القرآن الكريم اللعنة في الزوج الملاعن، وخصَّ الزوجة بالغضب، لأن الغضب أشدُّ في العقوبة من اللعن، ولاشك أن اقتراف المرأة لجريمة الزنا أكثر إثما من اقتراف الرجل لجريمة القذف، وقد يكون اللعن أقل وقعا في قلوب النساء من الرجال، لكثرة

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٣/ ١٤٥.

جريانه على ألسنتهن، فسبحان العليم الخبير بخفايا نفوس البشر.

* شرَّع الله تعالى حكم اللعان عند اتهام الزوجة بالزنا، سترا من الله تعالى على عباده وفتحا لأبواب التوبة أمام الزوجين عند الإلمام بالمعصية، حيث يترك إثبات ارتكاب الزوجة للفاحشة معلقا، وكذلك إثبات كذب الزوج في اتهامه لزوجته، وفي هذا الحال توأد الجريمة في مهدها، دون أن تلطخ بقذرها من لهم صلة بالزوجين.

المقطع الرابع: حادثة الإفك

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم
مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ
بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ
عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ
(١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ
أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
(١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا
زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ
أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ
لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ
الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ

وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

سبب النزول:

يعتبر سبب نزول هذه الآيات الحدث الأبرز في هذه السورة، ومعلوم أن حادثة الإفك وما استتبعها من أحداث خطيرة في المدينة، استدعت رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أن يكشف عنهم هذه الغُمَّة بأنوار هذه السورة العظيمة، وسبب النزول روته معظم كتب السنة ومنها ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنهاَ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَراً أَقْرَعَ بين أَزْوَاجِهِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بها معه، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا في غَزَاةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي فَخَرَجْتُ معه، بَعْدَ ما أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ في هَوْدَجٍ وَأُنْزَلُ فيه، فَسِرْنَا حتى إذا فَرَغَ رسول الله ﷺ من غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا من الْمَدِينَةِ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حين آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حتى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فلما قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إلى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ أَظْفَارٍ قد انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ على بَعِيرِي الذي كنت أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فيه، وكان النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافاً لم يَثْقُلْنَ ولم يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ من الطَّعَامِ، فلم يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ حين رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ ما اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فيه أَحَدٌ فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الذي كنت بِهِ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إلي، فَبَيْنَا أنا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وكان صَفْوَانُ بن الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ من وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي وكان يَرَانِي قبل الْحِجَابِ فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حين أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فوطىء يَدَهَا فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حتى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ ما نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ في نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ من هَلَكَ وكان الذي تَوَلَّى الْإِفْكَ عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ بن سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ بها شَهْراً يُفِيضُونَ من قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ وَيَرِيبُنِي في وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى من النبي ﷺ اللُّطْفَ الذي كنت أَرَى منه حين أَمْرَضُ، إنما يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يقول: كَيْفَ تِيكُمْ؟

لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ من ذلك حتى نَقَهْتُ فَخَرَجْتُ أنا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا لَا نَخْرُجُ إلا لَيْلاً إلى لَيْلٍ وَذَلِكَ قبل أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيباً من بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ في الْبَرِّيَّةِ أو في التَّنَزُّهِ، فَأَقْبَلْتُ أنا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أبي رُهْمٍ نَمْشِي فَعَثَرَتْ في مِرْطِهَا فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ. فقلت لها: بِئْسَ ما قُلْت أَتَسُبِّينَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْراً؟ فقالت يا هَنْتَاهْ أَلَمْ تَسْمَعِي ما قالوا؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ فَازْدَدْتُ مَرَضاً إلى مَرَضِي، فلما رَجَعْتُ إلى بَيْتِي دخل عَلَيَّ رسول الله ﷺ فَسَلَّمَ، فقال: كَيْفَ تِيكُمْ؟ فقلت: ائْذَنْ لي إلى أَبَوَيَّ، قالت: وأنا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ من قِبَلِهِمَا فَأَذِنَ لي رسول الله ﷺ، فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ فقلت لِأُمِّي: ما يَتَحَدَّثُ به الناس؟ فقالت: يا بُنَيَّةُ هَوِّنِي على نَفْسِكِ الشَّأْنَ فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كانت امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إلا أَكْثَرْنَ عليها، فقلت: سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ الناس بهذا؟ قالت: فَبِتُّ اللَّيْلَةَ حتى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ ولا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ فَدَعَا رسول الله ﷺ عَلِيَّ بن أبي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بن زَيْدٍ حين اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَشِيرُهُمَا في فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عليه بِالَّذِي يَعْلَمُ في نَفْسِهِ من الْوُدِّ لهم، فقال أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يا رَسُولَ اللَّهِ ولا نَعْلَمُ والله إلا خَيْراً، وَأَمَّا عَلِيُّ بن أبي طَالِبٍ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ لم يُضَيِّقْ الله عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، فَدَعَا رسول الله ﷺ بَرِيرَةَ فقال: يا بَرِيرَةُ هل رَأَيْتِ فيها شيئا يَرِيبُكِ؟ فقالت بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إن رأيت منها أَمْراً أَغْمِصُهُ عليها أَكْثَرَ من أنها جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عن الْعَجِينِ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ (١) فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رسول الله ﷺ من يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ من عبد اللَّهِ بن أُبَيٍّ بن سَلُولَ، فقال رسول الله ﷺ: من يَعْذُرُنِي من رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ في أَهْلِي؟ فَوَاللَّهِ ما عَلِمْتُ على أَهْلِي إلا خَيْراً، وقد ذَكَرُوا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عليه إلاَّ خَيْراً، وما كان يَدْخُلُ على أَهْلِي إلا مَعِي فَقَامَ سَعْدُ بن مُعَاذٍ فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ أنا والله أَعْذُرُكَ منه إن كان من الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ وَإِنْ كان من إِخْوَانِنَا من الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فيه أَمْرَكَ، فَقَامَ سَعْدُ بن عُبَادَةَ وهو سَيِّدُ الْخَزْرَجِ وكان قبل ذلك رَجُلاً صَالِحاً وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ فقال كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ ولا تَقْدِرُ

(١) الداجن: الشاة: التي يعلفها الناس في منازلهم، لسان العرب: ١٣ / ١٤٨.

على ذلك، فَقَامَ أُسَيْدُ بن الحضير فقال: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ والله لَنَقْتُلَنَّهُ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عن الْمُنَافِقِينَ، فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حتى هَمُّوا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ على الْمِنْبَرِ، فَنَزَلَ فَخَفَّضَهُمْ حتى سَكَتُوا وَسَكَتَ، وبَكَيْتُ يَوْمِي لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ولا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ قد بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْماً حتى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قالت: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وأنا أَبْكِي إِذْ اسْتَأْذَنَتْ امْرَأَةٌ من الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لها فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دخل رسول اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ، ولم يَجْلِسْ عِنْدِي من يَوْمِ قِيلَ فِيَّ ما قِيلَ قَبْلَهَا، وقد مَكَثَ شَهْراً لَا يُوحَى إليه في شَأْنِي شَيْءٌ، قالت: فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قال: يا عَائِشَةُ فإنه بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ الله، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بشيء فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إليه، فإن الْعَبْدَ إذا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ الله عليه، فلما قَضَى رسول اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حتى ما أُحِسُّ منه قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قال: والله ما أَدْرِي ما أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فقلت لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قال، قالت: والله ما أَدْرِي ما أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قالت وأنا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيراً من الْقُرْآنِ، فقلت: إني والله لقد عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ ما يَتَحَدَّثُ به الناس، وَوَقَرَ في أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قلت لَكُمْ إني بَرِيئَةٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إني لَبَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، والله ما أَجِدُ لي وَلَكُمْ مَثَلاً إلا أَبَا يُوسُفَ، إِذْ قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ ثُمَّ تَحَوَّلْتُ على فِرَاشِي، وأنا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي الله وَلَكِنْ والله ما ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ في شَأْنِي وَحْياً وَلَأَنَا أَحْقَرُ في نَفْسِي من أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ في أَمْرِي، وَلَكِنِّي كنت أَرْجُو أَنْ يَرَى رسول اللَّهِ ﷺ في النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي الله فَوَاللَّهِ ما رَامَ مَجْلِسَهُ، ولا خَرَجَ أَحَدٌ من أَهْلِ الْبَيْتِ حتى أُنْزِلَ عليه الْوَحْيُ فَأَخَذَهُ ما كان يَأْخُذُهُ من الْبُرَحَاءِ[1] حتى إنه لَيَتَحَدَّرُ منه مِثْلُ الْجُمَانِ[2] من الْعَرَقِ في يَوْمٍ شَاتٍ،

---

(١) شدة الكرب من ثقل الوحي، لسان العرب: ٢/ ٤١٠.

(٢) حبات اللؤلؤ الصغار، وقيل حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ وفيه تشبيه عرق الرسول ﷺ بحب اللؤلؤ. لسان العرب: ١٣ / ٩٢.

فلما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بها أَنْ قال لي: يا عَائِشَةُ احْمَدِي الله، فَقَدْ بَرَّأَكِ الله، فقالت لي أُمِّي: قُومِي إلى رسول الله ﷺ، فقلت: لَا والله لَا أَقُومُ إليه ولا أَحْمَدُ إلا الله. فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ الْآيَاتِ، فلما أَنْزَلَ الله هذا في بَرَاءَتِي قال أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ وكان يُنْفِقُ على مِسْطَحِ بن أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِه منه، والله لَا أُنفِقُ على مِسْطَحٍ شيئا أَبَداً بَعْدَ ما قال لِعَائِشَةَ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قَوْلِهِ:﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾فقال أبو بَكْرٍ بَلَى والله إني لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ الله لي، فَرَجَعَ إلى مِسْطَحٍ الذي كان يُجْرِي عليه، وكان رسول الله ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عن أَمْرِي: فقال: يا زَيْنَبُ ماعَلِمْتِ؟ ما رَأَيْتِ؟ فقالت يا رَسُولَ الله أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي والله ما عَلِمْتُ عليها إلا خَيْراً، قالت: وَهِيَ التي كانت تُسَامِينِي فَعَصَمَهَا الله بِالْوَرَعِ (١).

مناسبة آيات حادثة الإفك لما قبلها:

ترتبط هذه الآيات بما قبلها ارتباطا وثيقا، حيث ابتدأت بتشريع حدّ الزنا، ثم كان حدّ القذف وحكم اللعان، ثم جاءت حادثة الإفك أنموذجا واقعيا للوقوف على أخطار القذف وأضراره ولرصد آثاره على الفرد والمجتمع.

التفسير الإجمالي:

هذه عشر آيات نزلت كلها في شأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين، بما قالوه من الكذب البحت والفرية الشنيعة، التي غار الله تعالى لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي جماعة منكم يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، فإنه كان

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ٩٤٢- ٩٤٥ رقم (٢٥١٨) وصحيح مسلم: ٤/ ٢١٣٠ رقم (٢٧٧٠).

يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به وجوزه آخرون منهم وبقي الأمر كذلك قريبا من شهر حتى نزل القرآن وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة [(١)].

إن قصة الإفك كما روتها سورة النور، وكما فصلتها كتب الصحاح، تمثل أنموذجا عمليا لأخطار القذف وأضراره، خاصَّة عندما يمسُّ رموز الأمة وقادتها، ويصيبها في مثلها العليا وقدوتها، فقد روَّج المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن سلول، شائعة عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما اتهموها بارتكاب فاحشة الزنا، تلك الشائعة التي سببت للرسول ﷺ آلاما رهيبة مدة شهر كامل، قبل أن ينزل الوحي ببراءتها رضي الله عنها، وهذه التجربة رغم مرارتها كانت خيرا للمسلمين ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لأنها كانت سببا في نزول سورة النور، التي حملت في طياتها العشرات من التشريعات الربانية، الكفيلة بتنشئة المسلمين وتربيتهم على أعظم القيم الأخلاقية، وكانت خيرا لهم عندما كشفت لهم، عن بعض مكائد المنافقين، الذين أثاروا هذه الفتنة لإلحاق الهزيمة بالمسلمين في ميدان الأخلاق، الذي تفوّقوا فيه على غيرهم، وكانت خيرا لهم، عندما بينت الأخطار الرهيبة التي تترتب على إطلاق الألسنة للخوض في أعراض الناس، مما استدعى تشريع عقوبة مناسبة لهذا الأمر الخطير.

وتشير الآيات الكريمة إلى جزاء أولئك الخائضين في ذلك الإفك ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، فلكل واحد منهم نصيب من الإثم بقدر خوضه، والذي تولى كبره منهم باختلاقه لتلك الحادثة ونشرها بين الناس، وهو عبد الله بن سلول رأس النفاق وحامل لواء الكيد للمسلمين له عذاب عظيم يوم القيامة.

ثم بينت الآيات الكريمة المنهج السليم الواجب اتباعه بين المؤمنين، والذي يقوم على مبدأ حسن ظن المؤمن بأخيه المؤمن، وعدم التسرع في اتهامة والظن السيء به، فإن من مقتضيات الإيمان ألا يصدِّق مؤمن على أخيه قول طعن ونقص. قال تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٦٩.

﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ قال ابن كثير: « هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها، حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السيء وماذكر من شأن الإفك فقال تعالى: ﴿لَّوْلَآ﴾ أي: هلا، ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: ذلك الكلام الذي رميت به أم المومنين رضي الله عنها، ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم، فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى»[1].

ويبدو أن هذا الموقف الإيماني كان موجودا بين المؤمنين، الذين سارعوا إلى رفض تلك الشائعات، كما حدث بين أبي أيوب الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما، عندما قالت له: يا أبا أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال نعم. وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال فعائشة والله خير منك»[2].

وهذا المنهج هو الجدير واللائق بمنزلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، لأنها فوق التهمة، وبمجرد سماع المؤمن لمثل تلك الشائعات، فالواجب عليه المسارعة إلى تكذيبها ووصفها بأنها إفك مبين، وأدلة كذبه واضحة ظاهرة لكل عاقل، يقول ابن كثير: « وقوله: «وقالوا» أي بألسنتهم ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ولو كان الأمر فيه ريبة لم يكن هذا فيه جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رءوس الأشهاد، بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستورا، فتعين أن ماجاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت والزور والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة» [3].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٧٤.

(٢) فتح الباري: ٨ / ٤٧٠. و تفسير الطبري: ١٨ / ٩٦، وتفسير ابن كثير: ٣ / ٢٧٤. والمحرر الوجيز لابن عطية: ٤ / ١٧٠.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٧٤.

وتبين الروايات التي تحدثت عن الافك أن الذين خاضوا فيه هم جماعة من المنافقين والمؤمنين، فالمنافقون منهم:عبد الله بن سلول زعيم المنافقين، وزيد بن رفاعة، والغالب أنه من اليهود المنافقين،، والمؤمنون منهم: مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش الذين انخدعوا بمكائد المنافقين فخاضوا مع الخائضين.

وبعد بيان الخطوة الأولى في ذلك المنهج، تأتي الخطوة التالية التي تطالب بالأدلة والبراهين التي تثبت التهمة عن طريق أربعة من الشهود، فإن لم يتوفر ذلك العدد من الشهود ثبت كذب أولئك المتهمين، قال تعالى:﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ وفي ذلك توبيخ كبير للذين سمعوا الإفك ولم يسارعوا إلى تكذيبه وإنكاره، ولكن فضل الله ورحمته بأولئك الخائضين في شأن عائشة رضي الله عنها، حال دون تعجيل إنزال العذاب بهم. قال القرطبي: « هذا عتاب من الله بليغ لمن خاضوا في الإفك، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا، ويرحم في الآخرة من أتاه تائبا»[1].

ثم بينت الآيات الكريمة قبح ما فعله الخائضون في الإفك، عندما أطلقوا العنان لألسنتهم، كل يتلقى عن الآخر ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ وهذا التعبير يوحي بأن ذلك الخبر تلقاه أولئك الخائضون بلا تدبّر ولا رويّة، ودون عرضه على العقل والقلب، غافلين عن عظمة ذلك الذنب المترتب على الخوض في عرض زوجة رسول الله ﷺ الطاهرة البريئة، التي اختارها الله تعالى زوجة لرسوله ﷺ، ثم تتعجب الآيات من سلوك بعض المؤمنين، الذين لم يسارعوا إلى تكذيب ذلك الخبر بمجرد سماعه، لكمال وضوحه في الكذب والبهتان، وتختم هذا الموقف ببيان العظة والعبرة من هذه الحادثة، التي أنزل الله تعالى فيها أحكاما تشريعية وآدابا اجتماعية، تشكل أساسا متينا في بناء المجتمع الصالح.

ثم فضحت الآيات الكريمة المنافقين، مبينة أهدافهم الخبيثة من نشر خبر الإفك، وهو

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢ / ٢٠٢.

حبهم الكبير ورغبتهم الشديدة في إشاعة الفاحشة بين المؤمنين، من خلال تشهيرهم وتناولهم عرض رسول الله ﷺ، الذي تتمثل فيه قدوة الأمة وطهارتها، فإذا اهتزت ثقة الناس بهذه القدوة واتُّهم عِرض أطهر الناس، فإن الفاحشة ستنتشر إنتشارا واسعا بين أفراد المجتمع الإسلامي قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾. وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حددت عقوبة مناسبة لأصحاب تلك النفوس الخبيثة في الدنيا والآخرة، وهددت المذكورين بإشارة إلى علم الله تعالى المحيط الذي يكشف للمؤمنين بواطن الأمور، ويفضح خفايا نفوس المنافقين، وذلك فضل من الله تعالى ورحمة منه، ليدفع عن عباده المؤمنين شرور الحاقدين المتربصين بالمسلمين الدوائر.

ثم توجهت الآيات الكريمة بنداء إلى المؤمنين، ليكونوا على حذر شديد من فتن الشيطان فقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ فالشيطان يزيِّن للناس فعل المعاصي، من إشاعة للفواحش والمنكرات والخوض في أعراض الناس، كما حدث في قصة الإفك، التي شارك فيها بعض المؤمنين، ولكن رحمة الله تعالى وفضله على عباده، فتح للعصاة بابا لتزكية أنفسهم، وتطهيرها من آثامها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ والأمر اللافت في ختام هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فالله سبحانه سميع للأقوال، عليم بالأحوال وبكل ما يخطر على بال، « فهو خبير بمن هو أهل للتزكية، ومن ليس بأهل لها، فاشكروا الله على تزكيته لكم من الخوض في مثل ما خاض فيه غيركم، ممن خذله نوعا من الخذلان، واصبروا على ذلك منهم، ولا تقطعوا إحسانكم عنهم، فإن ذلك يكون زيادة في زكاتكم وسببا لإقبال من علم فيه الخير منهم، فقبلت توبته وغسلت حوبته، وهذا المراد من قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾... »(١).

(١) نظم الدرر للبقاعي: ٥ / ٢٤٧.

وفي أجواء هذه التزكية، تأتي الدعوة إلى الصفح والتسامح بين المؤمنين، فقد يتسبب المؤمن في مظلمة أخيه، وحتى لا تكون القطيعة سيدة الموقف، تأتي دعوة القرأن صريحة مشوقة ليعفو المؤمن عن الذي ظلمه، فالله سبحانه وتعالى يعفو ويصفح عن عباده رغم ذنوبهم. لذلك نهت الآيات المؤمنين بعامة، وأهل الصلاح والفضل منهم خاصة، الذين وسَّع الله تعالى عليهم في أرزاقهم، أن يمتنعوا عن دفع مساعداتهم إلى الفقراء والمهاجرين، التي كانوا يؤدونها إليهم بسبب خوضهم في حادثة الإفك، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وهذا الموقف يبرز لنا أفقا عاليا من آفاق تزكية النفس البشرية، لتتخلص من رغبتها في الانتقام من الآخرين، الذين يتسببون في إلحاق الأذى بها، كما بين ذلك سبب النزول السابق فخوض بعض المؤمنين في عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بنت الصديق، وما سببه من آلام رهيبة في نفس أبيها، جعلته يتخذ هذا الموقف من قريبه مسطح بن أثاثة الذي خاض مع الخائضين في الإفك، ولكن القرأن الكريم يربي النفوس على أخلاق رفيعة، تجعل المؤمن يكبح رغباته وغرائزه الحيوانية، ويرقى بها إلى أعلى آفاق السمو الإنساني، الذي تمثل في دعوة القرآن الكريم المؤمن، إلى العفو والصفح اقتداء برب العزة، الذي يعفو ويصفح عن المؤمنين، ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، قال ابن عاشور: (وعطف ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ على جملة ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ زيادة في الترغيب في العفو والصفح وتطمينا لنفس أبي بكر في حنثه، وتنبيها على الأمر بالتخلق بصفات الله تعالى) (١) فهذه المسحة الربانية على آلام تلك القلوب، جعلتها نظيفة طاهرة زكية مشرقة بنور الله، لا تعرف الحقد والضغائن وهذا ما عبَر عنه أبوبكر ﷺ عندما سمع تلك الآيات، فقال: (بلى والله إني لأحب أن يغفر لي)، ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه، ويحلف ويقول: والله لا أنزعها منه أبدا.

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ١٩٠.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن تلك المغفرة التي تحدَّث القرآن عنها، إنما هي مقصورة على المؤمنين التائبين من خطيئة رمي المحصنات، وأما الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات الطاهرات ويتهمونهن بالزنا عن خبث وإصرار، كابن سلول وأمثاله، فلا عفو عنهم ولا سماحة معهم، وإن أفلتوا من عقوبة الدنيا، فإن الله تعالى قد لعنهم بسبب بهتانهم، وطردهم من رحمته، وأوجب لهم العذاب االعظيم في الآخرة، في ذلك اليوم الذي ستشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يفعلون من آثام، وستكون فضيحتهم مخزية على رؤوس الأشهاد وسينالون الجزاء العادل على جرائمهم التي ارتكبوها في الدنيا، وعندها يعلمون أن الله عادل لا يظلم أحدا من خلقه، لأنه هو الحق المبين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قال ابن كثير: (هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات خرج مخرج الغالب فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ولاسيما التي كانت سبب النزول وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما)[1].

وبعد بيان القرآن الكريم لعقوبة الخائضين في الإفك ومصيرهم يوم القيامة لابد من إشارة إلى السنة النبوية التي عدَّت قذف المحصنات من أكبر الكبائر، فقد أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قالوا يا رَسُولَ اللهِ وما هُنَّ قال الشِّرْكُ بِاللهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ الله إلا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يوم الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ[2].

ثم كان مسك ختام الآيات التي تحدثت عن الإفك براءة من الله تعالى للسيدة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك، قال تعالى: ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾ فأتى

(١) تفسير ابن كثير: ٣ / ٢٧٧.

(٢) صحيح البخاري: ٣ / ١٠١٧ رقم (٢٦١٥)

بالدليل القاطع، والبرهان الساطع، والقول الفصل، في عصمتها ونزاهتها، فهي زوجة وحبيبة رسول الله الطيبة الطاهرة، ورسول الله ﷺ طيب طاهر، وقد جرت سنة الله تعالى في خلقه أن تمتزج النفس الطيبة بالنفس الطيبة، والنفس الخبيثة بالنفس الخبيثة، فالخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، أولئك المتهمات من النساء بريئات من تلك التهمة الشنيعة، ولهم مغفرة من ذنوبهم على ما نالهم من الأذى، ورزق كريم في جنات النعيم. قال ابن كثير: (ما كان الله ليجعل عائشة زوجة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلا وهي طيبة لأنه أطيب من كل طيب من البشر ولو كانت خبيثة لما صلحت له لاشرعا ولاقدرا ولهذا قال تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ ﴾أي هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان،﴿ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ ﴾، أي: بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾، أي: عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة. [1]

وبذلك أظهر الله تعالى براءة عائشة رضي الله عنها، مما اتهمت به من فاحشة الزنى، وشهد لها القرآن بأنها طيبة، لأنها زوجة أطيب الطيبين، وأكرم مخلوق عند الله رب العالمين، وما كان الله تعالى ليجعلها زوجة لأحب عباده، لو لم تكن عفيفة طاهرة.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

هذه الآيات تشكل أساس المحور الذي تقوم عليه هذه السورة، وهو التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع، وذلك لأن منهج الإسلام في تربيته الأخلاقية للأسرة والمجتمع، يقوم على أساس طهارة الحياة الزوجية من كل مظاهر الانحراف خاصة الزنا، سواء حدث الانحراف فعلا من أحد الزوجين، أو تعرض أحدهما للقذف، فهذا كله يساعد على نشر الفاحشة في المجتمع، والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، فبصلاحها يصلح، وبفسادها يفسد.

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٧٩.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* نزول القرآن الكريم ببراءة السيدة عائشة رضي الله عنها، مما رماها به أهل الإفك، دليل قاطع على عفتها وطهارتها، ومن خاض في عرضها بعد ذلك، فهو كافر مرتد عن الإسلام لإنكاره أمرا صريحا جاء في القرآن الكريم قال ابن كثير: (وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي والله أعلم) [1].

* يجب على المؤمن أن يحسن الظن بأخيه المؤمن، فلا يظن به إلا خيرا، وهذه القاعدة مستفادة من قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ فهذا حثّ لإحسان ظن المؤمن بأفراد مجتمعه وملّته، ولذلك يعتبر من رمى عائشة باقتراف الفاحشة وهي زوجة النبي ﷺ، قد بلغ الغاية في سوء الظن، بنفسه، وبنبيه وأهل بيته وبأخلاق أمتة وهذا المعنى يتطابق مع قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾.

* تعتبر حادثة الإفك دليلا ساطعا على نبوة محمد ﷺ، فاالحالة التي عاشها عليه الصلاة والسلام أثناء فتنة الإفك كانت فظيعة وأليمة، واستمرت قرابة شهر كامل، لم يستطع فيها أن يخرس ألسنة الخائضين في عرضه، بل صبر على آلامه حتى نزلت البراءة من السماء، بل أن المتتبع لرواية سبب النزول، يكاد يرصد نوعا من الشك لدى الرسول ﷺ تجاه زوجته وهذا يفهم من قوله ﷺ لها:(إن كنت بريئة فسيبرؤك الله تعالى، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالى، وتوبي إليه)، ونجده تارة أخرى يسأل خادم بيتها، ويسأل علياً أخرى، وأسامة بن زيد ثالثة، وأزواجه رابعة، وكل هذه الحيرة تدل على حجم المعاناة التي سببتها له حادثة الإفك، فلو كان القرآن من كلامه لحل مشكلته بسرعة من خلال بضع كلمات

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٧٧.

يرتجلها وتنتهي هذه الفتنة النكراء، ولكنه ينتظر نزول الوحي من السماء ليكشف له ماكان خافيا عنه من أسرار هذه الحادثة الأليمة، والتي تكشف لنا حقيقة أخرى وهي تلقين الله تعالى للمسلمين درسا في بشرية الرسول ﷺ،وأنه يجري عليه ما يجري على سائر البشر من عدم معرفة الغيب إلا ما يطلعه الله عليه وأنه يتألم ويشك، وغير ذلك من الأحوال التي تعرض للبشر حتى لا يغالوا في شخصه ﷺ.

* قررت الآيات الكريمة قاعدة في الاتهام والمرافعة، تقوم على أساس أن كل اتهام لا بد له من دليل وبينه، وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ فعندما لاتتوفر الأدلة والبينات، والشهداء لتوثيق الاتهام فأولئك عند الله هم الكاذبون.

* إذا حلف المسلم على يمين ثم رأى أن الخير في تركها، خاصَّة إن كانت في قطيعة رحم فيجب الحنث فيها، والتكفيرعنها، عملا بقول الرسول ﷺ: «من حَلَفَ على يَمِينٍ ثُمَّ رَأَى غَيْرَهَا خَيْراً منها، فَلْيَأْتِ الذي هو خَيْر، وَلْيَتْرُكْ يَمِينَهُ»[1] وهذا ما فعله أبوبكر ﷺ عندما أعاد لمسطح نفقته وكفَّر عن يمينه.

* حثَّت الآيات الكريمة المؤمنين على التحلي بخلق العفو والصفح، بأسلوب لافت، من خلال تذكيرهم بعفو الله تعالى وصفحه عنهم﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فالمؤمن رحيم بأخيه المؤمن، فهم كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقد بادر أبوبكر ﷺ إلى العفو والصفح عن مسطح رغم خوضه في عرض ابنته، وقد جرت عادة الناس على مر العصور على عدم التساهل في مثل هذه الأمور، ولكن أبابكر كانت إجابته لدعوة الله بالعفو والصفح سريعة، ودون تردد، حيث قال: « والله إني لأحب أن يغفر الله

(١) مسند أحمد: ٤ / ٢٥٩ رقم (١٨٢٩٩).

لي «وأرجع إلى مسطح نفقته، التي كان ينفق عليه، وقال: « والله لاأنزعها منه أبدا» وفي رواية أخرى، أنه زاد له في النفقة، وجعلها ضعفي ماكانت عليه كما مر في سبب النزول.

* بينت الآيات الكريمة أن جوارح الناس وحواسهم تشهد عليهم يوم القيامة بما اقترفوه من المعاصي في الدنيا، وبذلك يكون الشهود على الإنسان من ذاته، فلا يستطيع إنكار ما اقترف من إثم يوم القيامة، قال تعالى:﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[النور: ٢٤]، وقال تعالى أيضا: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[يس: ٦٥]، هذه اللفتة القرآنية من شأنها أن تزيد من مراقبة الإنسان لنفسه ومحاسبتها على تصرفاتها.

* قررت الآيات مبدأً هاماً جداً في علم النفس والاجتماع، وهو أن النفوس الخبيثة تتوق إلى النفوس الخبيثة، والنفوس الطيبة الطاهرة لا تلتئم إلا مع مثيلاتها من النفوس الطيبة وهذه الحقيقة لها أهميتها في دراسة أنماط السلوك، وأساليب المعاملات، وقواعد الآداب، التي تساعد الباحثين في مجالات كثيرة، خاصة في اختيار الأزواج والأصدقاء، وغيرها من مظاهر الحياة الاجتماعية في الإسلام.

* فضل عائشة رضي الله عنها، على سائر أزواجه ﷺ، قال الرسول:(إن فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[1] وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (خِلالٌ فِيَّ سَبْعٌ لم يَكُنْ في أَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إلا ما أتى اللهُ مَرْيَمَ بنتَ عِمْرَانَ وَاللَّهِ ما أَقُولُ هذا فَخْراً على أَحَدٍ من صَوَاحِبِي فقال لها عبد الله بن صَفْوَانَ وما هُنَّ يا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ قالت نَزَلَ الْمَلَكُ بِصُورَتِي وَتَزَوَّجَنِي رسول اللَّهِ صلى اللهُ عليه وسلم لِسَبْعِ سِنِينَ وَأُهْدِيتُ إليه لِتِسْعِ سِنِينَ وَتَزَوَّجَنِي بِكْراً لم يَشْرُكْهُ فِيَّ أَحَدٌ مِنَ الناس وكان الْوَحْيُ يَأْتِيهِ وأنا وهو في لِحَافٍ وَاحِدٍ وَكُنْتُ أَحَبَّ الناس أليه وَبِنْتَ أَحَبِّ الناس إليه وقد نَزَلَ فِيَّ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ وقد

(١) صحيح البخاري: ٥ / ٢٠٦٧ رقم (٥١٠٢)، وصحيح مسلم: ٤ / ١٨٨٦ رقم (٢٤٣١)

كَادَتِ الأُمَّةُ تَهْلِكُ فِيَّ وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ ولم يَرَهُ أَحَدٌ من نِسَائِهِ غَيْرِي وَقُبِضَ في بَيْتِي لم يَلِهِ أَحَدٌ بجيرتي وقف الملك) (١) وقد مات النبي ﷺ وهو راض عنها.

* عدالة الجزاء في الإسلام، وهذا ما نلحظه من موقف القرآن من مسطح، فهذا الصحابي ورغم معصيته الكبيرة في خوضه في عرض عائشة رضي الله عنها، ولكن الله تعالى لم يمسح له كل أعماله الطيبة، وخاصة هجرته، ولذلك وجدنا الرسول ﷺ عندما نزلت الآية: (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة......) استدعى أبا بكر وتلاها عليه وقال له: ألا تحب أن يغفر الله لك؟ قال: بلى. قال: فاعف عنه وتجاوز، كما ذكرت الرواية الثانية لسبب النزول.

* شدَّد الله النَّكيرعلى الخائضين في عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، (ولو فَلَيت القرآن كله وفتشت عما أوعد به من العصاة، لم تر الله تعالى قد غلَّظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلاّ هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهله حتى يعلموا عند ذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾، فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكَّد وكرّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلاّ ما هو دونه في الفظاعة، وما ذاك إلا الأمَرّ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يُسأل عن تفسير القرآن، حتى سئل عن هذه الآيات، فقال: من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلاّ من خاض في أمر عائشة،

(١) المعجم الكبير للطبراني: ٢٣ / ٣١ رقم (٧٧)، وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح، انظر مجمع الزوائد للهيثمي: ٩ / ٢٤١.

وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك، ولقد برّأ الله تعالى أربعة بأربعة: برأ يوسف بلسان الشاهد ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، وبرّأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرّأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها إني عبد الله، وبرّأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلوّ على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك، وما ذاك إلاّ لإظهار علوّ منزلة رسول الله ﷺ، والتنبيه على إنافة محلّ سيد ولد آدم، وخيرة الأوّلين والآخرين، وحجة الله على العالمين، ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ، وتقدّم قدمه وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق، فليتلق ذلك من آيات الإفك وليتأمّل كيف غضب الله في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه)[1].

المقطع الخامس: آداب الاستئذان

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

سبب النزول:

سبب نزول هذه الآية رواه الطبري وغيره، عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل عليّ، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي، وأنا على تلك الحال فكيف أصنع؟ فنزلت الآية. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله أفرأيت الخانات والمساكن في

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ٢٢٧- ٢٢٨.

طرق الشام؟ ليس فيها ساكن، فأنزل الله تعالى:﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[١].

المناسبة بين آيات الاستئذان والتي قبلها:

بينت الآيات السابقة التي تناولت حادثة الإفك، أن المنافقين فتحوا بإفكهم ذلك، باب الظنون السيئة بين المسلمين، فأمر الله عباده المؤمنين _ دفعاً لتلك الظنون - بالتنزه عن مواقع التهم والتلبس بما يحسم الفساد، فأهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة، فصارت كأنها طريق التهمة، فأوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام، لأن في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة، وفي ذلك من المضرة ما لا خفاء به[٢].

التفسير الاجمالي:

بعد أن بينت الآيات السابقة عقوبة الزنا وقذف العفائف به (شرع في تفصيل الزواجر عما عسى يؤدي إلى أحدهما من مخالطة الرجال والنساء ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات وتعليم الآداب الجميلة والأفاعيل المرضية المستتبعة لسعادة الدارين ووصف البيوت بمغايرة بيوتهم خارج مخرج العادة التي هي سكنى كل أحد في ملكه وإلا فالمآجر والمعير أيضا منهيان عن الدخول بغير إذن)[٣]، فمقصود الآيات استئصال الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في فاحشة الزنا، التي يزداد انتشارها بتهيئة الأجواء المناسبة لها، من خلال تنشئة الأوساط الشهوانية الذي تحرِّك شهوات الناس الكامنة، وتثير غرائزهم، وقد وضع القرآن الكريم خطة وقائية

---

(١) انظر تفسير الطبري: ١٨ / ١١١، ولباب النقول للسيوطي ١/ ١٥٨.،وأسباب النزول للواحدي: ١٨٦.

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي: ٢٣ / ١٧٠، ونظم الدرر في تناسب الايات والسور للبقاعي: ٥ / ٢٥٢.

(٣) تفسير أبي السعود: ٦ / ١٦٨.

متكاملة لتحقيق هذا الهدف النبيل، تمثلت في نهيه عن دخول بيوت الآخرين بغير استئناس أهلها واستئذانهم، ونهي الرجال عن النظر إلى النساء الأجنبيات، وكذلك النساء عن النظر إلى الرجال الأجانب، ونهي النساء عن إبداء زينتهن لغير محارمهن وأزواجهن والنهي عن البغاء، الذي يفتح أوسع الطرق أمام الفاحشة، وأمر بتزويج العزَّاب والذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء، حتى العبيد والإماء، وهذه الأمور هي التي تؤمن الجوَّ الآمن للمجتمع السليم البعيد عن الشهوانية الحيوانية التي لايهمها إلا إرواء النزوات كيفما اتفق، وإلهاب الشهوات التي تحوِّل الإنسان إلى عبد ذليل، مسلوب الإرادة أسير شهواته، لايفكِّر إلا بالمتعة الجسدية بعيدا عن الأهداف العظيمة التي أنيطت به في هذا الوجود.

والآيات التي معنا في هذا المقطع، تعتبر الخطوة الأولى من الخطة التي وضعها الإسلام لاستئصال أسباب الفتنة والغواية، التي يتسبب بها النظر والاطلاع على العورات، خاصَّة عند دخول بيوت الآخرين دون استئذان، لذلك أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى طريقة حكيمة تقطع دابر الفتنة، فنهى الزائر عن دخول البيوت دون استئذان أهلها والسلام عليهم، ليأنسوا به، ويأمنوا نظراته، التي قد تقع على عوراتهم، أو على مكروه لا يحبون أن يطلع عليه أحد، قال تعالى: ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، ففي الاستئذان والسلام راحة، وأمن لأهل الدار، وفيه دفع لخطر الريبة والظن السيء عن المستأذن، وبعد الاستئذان إن كان في البيوت أحد من أهلها، فأذن للزائر دخل، وإلا فمجرد الاستئذان لا يخول الزائر الدخول واقتحام البيوت، لأن الإسلام جعل للبيوت حرمة،﴿ فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ وإن رفض طلب الاستئذان وطلب من المستأذن الرجوع، فعليه أن يتقبل ذلك بنفس راضية، لا يشعر معها بإساءة أهل البيت له، أو انتقاصهم من قدره ومكانته وكرامته، مقدرا أعذار الناس وأوضاعهم التي قد تضطرهم إلى ذلك،﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ « فالرجوع أفضل من الإلحاح وتكرارالاستئذان والقعود على الباب، وأطهر من التدنيس بالمشاحة على الدخول،

لما في ذلك من سلامة الصدر، والبعد من الريبة، والفرار من الدناءة». [١]

ثم كان ختام الآية قوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ وفيه تذكير للمؤمنين بعلم الله الشامل المحيط بهم، الذي سيجازيهم على أعمالهم وتصرفاتهم، « وفيه توعّد لأهل التجسس على البيوت وطلب الدخول على غفلة للمعاصي، والنظر إلى مالايحل ولا يجوز، ولغيرهم ممن يقع في محظور»[٢].

وأما البيوت العامة التي لااختصاص لها بسكن شخص معين، كالفنادق، والحوانيت، والحمامات، والمدارس، والمستشفيات، والدوائر العامة التي ترتبط بمنافع الناس كافة، فلا يحتاج دخولها إلى استئذان كالبيوت الخاصة.

ثم ختمت الآيات بهذا الوعيد ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾ وفي ذلك تهديد لأصحاب النوايا الخبيثة الذين يرغبون في التجسس على الناس وتتبع عوراتهم، قال أبو السعود: «وهذا وعيد لمن يدخل مدخلا لفساد أو اطلاع على عورات الناس» [٣]. فالله تعالى مطّلع على خفايا الأمور وظواهرها، ومراقبته دائمة في السر والعلانية، وفي ذلك دعوة لهذا الإنسان لامتثال أمره، والتزام هذا الأدب الرفيع، الذي حثت عليه الآيات الكريمة، وفيه حظر على النظرات المفاجئة التي تحرك الشهوات الساكنة والرغبات الدفينة، واللقاءات المشبوهة التي يزينها الشيطان، الذي حذرنا الله تعالى من اتباع خطواته في الآيات السابقة.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

هذه الآيات الكريمة حملت في طياتها الخطوة الثانية من الخطة الوقائية التي وضعها الإسلام لمنع وقوع فاحشة الزنا وهي بدورها تشكل جانبا هاما من محور السور الكريمة.

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني: ٤ / ٢٠.

(٢) تفسير القرطبي: ١٢ / ٢٢٠.

(٣) تفسير أبي السعود: ٦ / ١٦٩.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* إن الشريعة إذا حرمت شيئا، فإنها تحرِّم كل السبل المؤدية إليه، حتى تجعل فاصلا بين العبد والمعصية، لأن القرب من المعصية قد يضعف النفوس، ويغريها بارتكاب المعاصي ولذللك كان الأمر بالاستئذان منعا لوقوع البصر على العورات، التي تحرك رؤيتها الشهوة الممهدة لارتكاب الفاحشة، فالإسلام لم يحرم الزنا فقط، بل حرَّم كل السبل الموصلة إليه وهذا المعنى عبَّرت عنه الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء / ٣٢].

* وجوب الاستئذان عند الرغبة في دخول بيوت الآخرين، انطلاقا من مبدأ حق الإنسان في الخلوة، ومنع الآخرين من إقحام أنفسهم فيها بدون إذن صاحب الخلوة، وقد كان من عادة العرب في الجاهلية أنهم يقتحمون بيوت الناس اقتحاما دون استئذان، وقد تقع أنظارهم على عورات الناس، أو على أوضاع لايرغبون بأن يطَّلع عليها أحد، قال مقاتل بن حيان في تفسير قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ﴾، كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول: حييت صباحا وحييت مساءا، وكان ذلك تحية القوم بينهم: وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم، ويقول: قد دخلت ونحو ذلك، فيشقُّ ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله، فغيَّر الله ذلك كله في ستر وعفة، وجعله نقيا منزها من الدنس والقذر والدرن [1] .

* شرعت الآيات الكريمة للزائراستئناس أهل البيوت والسلام عليهم، لإزالة الوحشة عنهم، وإشعارهم بالأمن قبل الدخول، والتعبير بقوله تعالى ﴿ تَسْتَأْنِسُوا۟ ﴾ لايراد به مجرد الاستئذان، وإنما المراد به معرفة أنس أهل البيت بدخول الزائر ورغبتهم بزيارته، (وفي

(١) تفسير ابن كثير: ٣ / ٢٨٢.

ذلك من الآداب أن المرء لاينبغي أن يكون كلا على غيره، ولا ينبغي له أن يعرض نفسه إلى الكراهية والاستثقال، وأنه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متآنسين، وذلك عون على توفر الأخوة الإسلامية) [١]، وأما السلام فقد علَّمه النبي ﷺ لأصحابه، ومن ذلك أن رجلا من بَنِي عَامِرٍ اسْتَأْذَنَ على النبي ﷺ وهو في بَيْت فقال أَلِجُ فقال النبي ﷺ لِخَادمه اخْرُجْ إلى هذا فَعَلِّمْهُ الاسْتِئْذَانَ فَقُلْ له قُلْ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ فقال السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ فَأَذِنَ له النبي ﷺ فَدَخَلَ» [٢].

* الحكمة الأساسية من تشريع أدب الاستئذان هي الحيلوله بين النظر وبين عورات الآخرين، وتحقيقا لهذه الحكمة، أوصت السنة المطهرة الزائر ألا يستقبل الباب بوجهه، بل يجعله عن يمينه أو شماله، وهذه الطريقة علَّمها النبي ﷺ لأصحابه، فقد أخرج الطبراني بسنده عن سعد بن عبادة أنه قال: جئت إلى النبي ﷺ وهو في بيت فقمت مقابل الباب، فاستأذنت فأشار إلي أن تباعد، ثم جئت فاستأذنت، فقال: وهل الاستئذان إلا من أجل النظر؟ [٣].

* لم يحدد القرآن للاستئذان صيغة معينة، (وما ورد في بعض الآثار فإنما محملة على أنه المتعارف عليه بينهم، أو على أنه كلام أجمع من غيره في المراد. وقد بينت السنة أن المستأذن إن لم يؤذن له بالدخول يكرره ثلاث مرات فإن لم يؤذن له انصرف) [٤] والدليل على ذلك ماأخرجه البخاري بسنده عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أنه قال: كنت في مَجْلِسٍ من مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ إِذْ جاء أبو مُوسَى كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ فقال اسْتَأْذَنْتُ على عُمَرَ ثَلَاثاً فلم يُؤْذَنْ لي فَرَجَعْتُ فقال ما مَنَعَكَ

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ١٩٧.
(٢) سنن أبي داود: ٤ / ٣٤٥ رقم (٥١٧٧).
(٣) المعجم الكبير للطبراني: ٦ / ٢٢. رقم (٥٣٨٦)، ومجمع الزوائد للهيثمي: ٨ / ٤٤ وقال رجاله رجال الصحيح، وتفسير الدر المنثور: ٦ / ١٧٤.
(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩/ ١٩٩.

قلت اسْتَأْذَنْتُ ثَلَاثاً فلم يُؤْذَنْ لي فَرَجَعْتُ وقال رسول الله ﷺ إذا اسْتَأْذَنَ أحدكم ثَلَاثاً فلم يُؤْذَنْ له فَلْيَرْجِعْ فقال والله لَتُقِيمَنَّ عليه بينة أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ من النبي ﷺ فقال أُبَيُّ بن كَعْبٍ والله لَا يَقُومُ مَعَكَ إلا أَصْغَرُ الْقَوْمِ فَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ فَقُمْتُ معه فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النبي ﷺ قال ذلك)[1].

المقطع السادس: غضّ البصر

قال تعالى:﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

سبب النزول

أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: مرَّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به، فبينا الرجل يمشي إلى جنب حائط ينظر إليها، إذ استقبله الحائط فشق أنفه، فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأعلمه أمري، فأتاه فقصَّ عليه قصته، فقال النبي ﷺ: هذا عقوبة ذنبك، وأنزل الله﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ الآية[2] .

---

(١) صحيح البخاري: ٥ / ٢٣٠٥ رقم (٥٨٩١) وصحيح مسلم: ٣/ ١٦٩٤ رقم (٢١٥٣).

(٢) تفسير الدر المنثور للسيوطي: ٦ / ١٧٦، وكنز العمال: ٢ / ٢٠١ رقم (٤٥٣٨).

وروى ابن كثير عن مقاتل بن حيان قال: بلغنا والله أعلم، أن جابر بن عبد الله الأنصاري، حدَّث أن أسماء بنت مرثد، كانت في نخل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات، فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا؟ فأنزل الله ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ [1].

مناسبة الآيات لما قبلها:

ترتبط هذه الآيات بما قبلها ارتباطا محكما، لأنها تمثل الخطوة الثانية التي وضعها الإسلام في منهجه لاستئصال فاحشة الزنا من المجتمع، وتجلَّت في أمر الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات، بغض أبصار بعضهم عن بعض إذا ماحصلت الخلطة بعد الاستئذان (فقد أعقب حكم الاستئذان ببيان آداب ماتقتضيه المجالسة بعد الدخول، وهو أن لايكون الداخل إلى البيت محدقا بصره إلى امرأة فيه بل إذا جالسته المرأة غض بصره واقتصر على الكلام، ولا ينظر إليها إلا النظر الذي يعسر صرفه) [2].

التفسير الإجمالي:

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بغض البصر وحفظه وتنكيسه وصرفه عما لا يجوز النظر إليه من مفاتن المرأة الأجنبية من غير المحارم، وبيان ذلك أن الله تعالى (لما ذكر حكم الاستئذان أتبعه بذكر حكم النظر على العموم، فيندرج تحته غضُّ البصر من المستأذن، كما قال ﷺ: (إنما جعل الإذن من أجل البصر) وخصَّ المؤمنين مع تحريمه على غيرهم، لكون قطع ذرائع الزنا التي منها النظر هم أحق من غيرهم بها وأولى بذلك ممن سواهم) [3].

ومن المعروف أن حفظ الفرج ثمرة طبيعية لغضِّ البصر، ومن استطاع كبح جماح نفسه عن

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٨٤.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩/ ٢٠٣.

(٣) تفسير فتح القدير للشوكاني: ٤/ ٢٢.

النظر الحرام، فإنه يستطيع أن يتحكم بإرادته لحفظ فرجه، وعندها تتحقق الطهارة بمفهومها الكامل الشامل، طهارة النفس في تصوراتها ومشاعرها وانفعالاتها من الخيانة، وطهارة المجتمع من كل المظاهر التي تؤدي إلى انتشار الفاحشة، وهذا ما عبَّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ والله تعالى مطَّلع على عباده، خبير بأحوالهم عليم بنياتهم. وقد أرشد الرسول ﷺ أصحابه إلى ضرورة غضِّ البصر، فقد أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن جَرِيرِ بن عبد اللَّهِ قال سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عن نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي) [1]. وقال لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة إلى المرأة في ثوب واحد " [2].

وهذا الأمر للمؤمنين بغض البصر لايمكن أن يثمر الطهارة التي يريد الإسلام ترسيخها في المجتمع إلا إذا أمرت المرأة بنفس ذلك التكليف السالف للمؤمنين، لذلك أمر الله تعالى المؤمنات بغضِّ البصر وحفظ الفرج، وزادهن في التكليف على المؤمنين في النهي عن إبداء زينتهن إلا للزوج، الذي يطَّلع من زوجته على ما لا يجوز أن يطَّلع عليه أحد سواه وكذلك المحارم الذين يطَّلعون على بعض الزينة، ممن لا ينظرون إلى المرأة بشهوة وذلك (لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجهن إلى مداخلتهم وقلة توقع الفتنة من قبلهم، لما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة، وإنما لم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم في معنى الإخوان أو لأن الأحوط أن يتسترن عنهم حذرا أن يصفوهن لأبنائهم»[3] .

وهؤلاء المحارم ليسوا على مستوى واحد في حدود ما يجوز النظر إليه من زينة المرأة، يقول أبو حيان: "وبدأ تعالى بالأزواج لأن اطلاعهم يقع على أعظم من الزينة، ثم ثنَّى بالمحارم وسوَّى بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم في الحرمة بحسب ما في نفوس البشر فالأب

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٦٩٩ رقم (٢١٥٩).
(٢) المسند المستخرج على صحيح مسلم: ١ / ٣٨٥ رقم (٧٦٣).
(٣) تفسير البيضاوي: ٤ / ١٨٣.

والأخ ليس كابن الزوج فقد يُبدي للأب ما لا يبدى لابن الزوج "[١].

وأما الأنواع الباقية الذين استثنتهم الآية الكريمة ممن يجوز لهم النظر إلى زينة المرأة فهم: النساء أوملك اليمين، والتابعين غير أولي الإربة من الرجال البُله المغفلين الذين لاحظَّ لهم في النساء، وكذلك الأطفال الذين لايثيرهم جسد المرأة لصغر سنهم، وعدم معرفتهم بمعاني الجنس، وهناك خلافات فقهية بين الأئمة في هذه الأنواع لايتسع المقام لتفصيلها.

وأما ما يظهر من زينتها دون قصد ولا نية سيئة في إبداء المفاتن، أو ما يظهر من الزينة عند الضرورة كالوجه والكفين، فلا إثم عليهن فالله غفور رحيم.

فمقصود الآية تحقيق الوقاية المانعة من إثارة الشهوات، التي توقظها الحركات الناشئة عن رغبة المرأة في إبداء زينتها، لذلك نهى النساء عن الضرب بالأرجل، الذي كانت تفعله النساء وقتئذٍ ليسمع صوت خلخالها، فتلتفت الأنظار إليها، ويطمع فيها الذي في قلبه مرض. يقول أبو السعود في تفسير قوله تعالى:﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾: « أي ما يخفينه من الرؤية من زينتهن، أي: ولا يضربن بأرجلهن الأرض، ليتقعقع خلخالهن فليعلم أنهن ذوات خلخال، فإن ذلك مما يورث الرجال ميلا إليهن، ويوهم أن لهنَّ ميلا إليهم وفي النهى عن إبداء صوت الحليّ بعد النهى عن إبداء زينتها من المبالغة في الزجر عن إبداء موضعها مالا يخفى "[٢].

وقال أبو محمد بن حزم ما معناه أنه تعالى نهاهن عن ذلك لأن المرأة إذا مرَّت على الرجال قد لا يُلتفت إليها، ولا يُشعر بها، وهي تكره أن لا ينظر إليها، فإذا فعلن ذلك نبهن على أنفسهن وذلك بحبهن في تعلق الرجال بهن، وهذا من خفايا الإعلام بحالهن [٣].

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٦ / ٤١٣.

(٢) تفسير أبي السعود: ٦ / ١٧١.

(٣) تفسير البحر المحيط: ٦ / ٤١٤.

ثم كان ختام الآية دعوة للرجال والنساء إلى التوبة والرجوع إلى الله، لأنها طريق المغفرة ونيل رضا الله تعالى، الموصل إلى السعادة الدائمة في دار النعيم ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وأبلغ أوامر الله ونواهيه في كل باب، لا يكاد العبد الضعيف يقدر على مراعاتها، وإن ضبط نفسه واجتهد، ولا يخلو من تقصير يقع منه، فلذلك وصّى المؤمنين جميعاً بالتوبة والاستغفار، وبتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة "(١).

المناسبة بين هذه الآيات وبين محور السورة

أمر الله تعالى المؤمنين والمؤمنات في هذه الآيات بغضِّ البصر، للمحافظة على العورات من النظر، لأن النظرة الحرام قد يستتبعها بحث عن المعصية ونشر للفاحشة، فيأتي غضُّ البصر كوسيلة وقائية مانعة من وقوع المعصية، وهذه الخطة تساهم في تحقيق التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع، وهذا هوالمحور الأساس للسورة الكريمة.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* بين القرآن الكريم أن حبَّ المرأة للزينة أمر فطري، وكذلك رغبتها في إظهار زينتها وجمالها، والإسلام أقرَّ هذه الرغبة الفطرية، ولكنه وضع لها الضوابط التي تحدِّد أماكنها ومواضعها الصحيحة التي تثمر فيها، فطالبها بالتزيين لزوجها، وأن تظهر له كل ما يحب النظر إليه فيها. وأما الأجانب عنها فيحرم عليها أن تظهر شيئا من زينتها أمامهم، إلا الوجه والكفين فيجوز كشفهما إذا أمنت الفتنة، فقد روى أبو داود في سننه بسنده عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أبي بَكْر دَخَلَتْ على رسول الله ﷺ وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رِقَاقٌ فَأَعْرَضَ عنها رسول الله ﷺ، وقال: يا أَسْمَاءُ إِنَّ الْمَرْأَةَ إذا بَلَغَتْ الْمَحِيضَ لم تَصْلُحْ أَنْ يُرى

(١) تفسير الكشاف للزمخشري: ٣/ ٢٣٨.

منها إلا هذا وَهَذَا، وَأَشَارَ إلى وَجْهِهِ وَكَفَّيْه» (١) .

* أجاز القرآن الكريم للمرأة أن تظهر زينتها أمام محارمها، لأن الفتنة مأمونة من جانبهم فلا تتوفر فيهم الرغبات الشهوانية تجاهها، وهم: الآباء والأبناء، وآباء الأزواج وأبناؤهم وأبناء الأخوات، والنساء المؤمنات، وأما غير المسلمات فلا يصح للمسلمة أن تظهر زينتها أمامهن لأنهن قد يصفنها لأزواجهن وإخوتهن وأبناء دينهن.

* الأمر بغضِّ البصرعن النساء الأجنبيات، استثنت منه الشريعة بعض الصور التي تضطر الرجل للنظر في وجه المرأة، كالرغبة في الزواج منها فإنه يستحب للخاطب أن ينظر إلى مخطوبته، وهذا أمر بينته السنة المطهرة، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: كنت عِنْدَ النبي ﷺ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ تَزَوَّجَ امْرَأَةً من الْأَنْصَار، فقال له رسول الله ﷺ: أَنَظَرْتَ إِلَيْهَا؟ قال: لَا، قال: فَاذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فإن في أَعْيُنِ الْأَنْصَارِ شيئا (٢). وفي حديث آخر مروي عن جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال: قال رسول الله صلىالله عليه وسلم: (إذا خطب أحدكم امرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى بعض ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل، فخطبت امرأة من بني سليم فكنت أتخبأ لها في أصول النخل، حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوجتها (٣).

وقد قاس الفقهاء على ذلك صورا أخرى يجوز فيها للرجل أن ينظر إلى وجه المرأة كالنظر في وجه المشتبه بها أثناء التحقيق، أو الشهادة، أو نظر الطبيب إلى المرأة لعلاجها عند الضرورة، أوعند محاولة انقاذها من الحرق أو الغرق.

* لا يحلُّ لرجل أن ينظر إلى امرأة غير زوجته أو محارمه من النساء، أما نظرة الفجاءة فهو معفو عنها، بخلاف النظرة التي تستجلب لذة، فهي آثمة كما قال الرسول ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ

---

(١) سنن أبي داود: ٤ / ٦٢ رقم (٤١٠٤).

(٢) صحيح مسلم: ٢ / ١٠٤٠ رقم (١٤٢٤).

(٣) المستدرك على الصحيحين:٢ / ١٧٩ رقم (٢٦٩٦)وقال: صحيح على شرط مسلم.

كَتَبَ على بن آدَمَ حَظَّهُ من الزِّنَا، أَدْرَكَ ذلك لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ وَالنَّفْسُ تتمنى وَتَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلك كُلَّهُ أو يكذبه "(١).

* لا يحل للنساء أن ينظرن إلى الرجال عمدا، وإذا وقع ذلك منهن فجأة فليصرفنه، وهذا ما أمر به النبي ﷺ نساءه، فعن أُمِّ سَلَمَةَ قالت: كنت عِنْدَ رسول الله ﷺ وَعِنْدَهُ مَيْمُونَةُ، فَأَقْبَلَ بن أُمِّ مَكْتُوم، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أُمِرْنَا بِالْحِجَابِ، فقال النبي ﷺ: احْتَجِبَا منه، فَقُلْنَا: يا رَسُولَ الله أَلَيْسَ أَعْمَى لَا يُبْصِرُنَا ولا يَعْرِفُنَا؟ فقال النبي ﷺ: أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا، أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ؟» (٢).

* أقارب المرأة الذين لا يحرم عليهم الزواج منها تحريما مؤبدا، لا يعتبرون محارم بالنسبة للمرأة، فلا بد من حجابها أمامهم، وقد يتساهل الكثير من الناس في هذا الحكم بحجة القرابة خاصة مع أخت الزوجة، وأبناء الأعمام والعمات وأبناء الخالات وبناتهم.

* حرَّم الله تعالى على المرأة عند خروجها من بيتها أن تتعطر، لأنه من المثيرات لغرائز الرجال واعتبرالنبي ﷺ المرأة المتعطرة عند خروجها كالزانية فقال عليه الصلاة والسلام: « كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ وَالْمَرْأَةُ إذا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ فَهِيَ كَذَا وَكَذَا يَعْنِي زَانِيَةً» (٣) .

* نهى النبي ﷺ أصحابه عن الجلوس على الطرقات لحكم كثيرة منها غض البصر فقال رسول الله ﷺ، (إياكم والجلوس على الطرقات قالوا يا رسول الله لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه قالوا وما حق الطريق يا رسول الله قال غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) (٤).

---

(١) صحيح البخاري: ٥ / ٢٣٠٤ رقم (٥٨٨٩)، وصحيح مسلم: ٤ / ٢٠٤٧ رقم (٢٦٥٧).

(٢) سنن أبي داود: ٤ / ٦٣.

(٣) سنن الترمذي: ٥ / ١٠٦.

(٤) صحيح البخاري: ٢ / ٨٧٠، رقم (٢٣٣٣).

المقطع السابع: الترغيب في الزواج

قال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

سبب النزول

روى السيوطي عن عبد الله بن صبيح عن أبيه قال: «كنت مملوكا لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتاب فأبى، فنزلت ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾»(١).

وأخرج مسلم في صحيحه بسنده عن جابر أن جارية لعبد الله بن أُبيَّ يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة، فكان يريدهما على الزنا، فشكيا ذلك إلى النبي ﷺ، فانزل الله: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ ﴾(٢).

مناسبة الآيات لما قبلها:

أمرت الآيات السابقة بغض البصر وحفظ الفرج وقاية من الزنا، وأمرت النساء بستر أجسامهن وعدم إبداء زينتهن إلا لطائفة خاصة من الرجال، وكل تلك المقدمات تهدف إلى حماية المجتمع من آفة الزنا (فلما تقدمت أوامر ونواهٍ في غض البصر وحفظ الفرج وإخفاء الزينة وغير ذلك، وكان الموجب للطموح من الرجال إلى النساء ومن النساء إلى الرجال هو عدم التزوج غالباً، لأن في تكاليف النكاح وما يجب لكل واحد من الزوجين ما يشغل، أمر

(١) تفسير الدر المنثور: ٦ / ١٨٩.

(٢) صحيح مسلم: ٤ / ٢٣٢٠ رقم (٣٠٢٩).

تعالى بإنكاح الأيامى، وهم الذين لا أزواج لهم من الصنفين، حتى يشتغل كل منهما بما يلزمه فلا يلتفت إلى غيره) [(١)]، لذلك قدَّم القرآن الكريم الحلَّ الأمثل للوقاية من الزنا من خلال دعوته الرجال والنساء إلى الزواج، ونهيه عن البغاء، وأمره بالتوبة إلى الله تعالى، يقول الإمام البقاعي في بيان المناسبة: « لما تقدم سبحانه إلى عباده في الأمور العامة للأحوال والأشخاص في الزنا وأسبابه، فحكم وقرر، ووعظ وحذر أتبعه أسباب العصمة التي هي نعم العون على التوبة فقال: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ [(٢)].

التفسير الإجمالي:

رغَّب الله تعالى في النكاح، وأمر أولياء الأمور بإنكاح الأيامى، والأيامى جمع أَيِّم ويقال ذلك للرجل الذي لا زوج له، وللمرأة التي لا زوج لها... قال تعالى:﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾، فهذا أمر من الله تعالى لجماعة المسلمين، أن يهتموا بتزويج من كان في مجمعهم بلا زوج من الرجال والنساء الأحرار ومن وجدوا فيه صلاحا من العبيد والإماء، فعلى المسلمين أن يقوموا بواجب الإعانة على الزواج وتسهيل سبله، لأن الزواج هو الطريق الطبيعي النظيف لتنظيم الغريزة الجنسية، والذي يجب إزالة كل العقبات التي تعترض طريقه سواء، كانت هذه العقبات مالية أو غير مالية، لأنه هو السبيل الوحيد الذي يحقق إعفاف الشباب، ويحصِّن البنات، وهو الطريق الوحيد للحفاظ على النوع الإنساني، ومن هنا لا يجوز أن يقف الفقر حاجزا أمام التزويج، طالما أن الراغبين في الزواج لتحصيل العفة على درجة من الصلاح، وقد تكفَّل الله تعالى بالتوسعة عليهم، ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾، والرسول ﷺ قد عدَّهم من الأصناف التي تعهَّد الله تعالى بعونهم، حيث قال رسول الله ﷺ:(ثلاثة حق على الله عونهم، المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف) [(٣)].

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٦/ ٤١٤.

(٢) نظم الدرر: ٥ / ٢٦٠.

(٣) سنن الترمذي: ٤ / ١٨٤ رقم (١٦٥٥) وقال: حديث حسن. والبيهقي: ١٠ / ٣١٨ رقم (٢١٤٠١).

وأمام هذا الوعد تصبح أمور الزواج سهلة ميسَّرة وغير معقَّدة، ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن معنى قوله تعالى: ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ لا يعني لزوم إغناء الله تعالى لمن تزوج على فقر، وغاية ما يفهم منه، أنه لا ينبغي أن يكون الفقر صارفا للناس عن الزواج، وفي ذلك دعوة لأولياء أمورالبنات ألا يبالغوا في المهور، خاصَّة إن كان الخاطب فقيرا وصاحب خلق ودين، وفيه دعوة كذلك لأولياء أمور الشباب أن لا يؤخروا تزويج أبنائهم إن كان كسبهم قليلا، ودعوة للشاب نفسه أن لا يؤخروا الزواج انتظارا للمزيد من الغنى، ويكفيهم وعد الله تعالى بعونهم والتوسعة عليهم، فإن بقي بعض من الأيامى دون نكاح، فعليهم التزام الصبر والاستعفاف حتى يغنيهم الله تعالى من فضله، ويتمكنوا من الزواج، وخير تفسير لمعنى الاستعفاف الوارد في الآية الكريمة ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ هو قول الرسول ﷺ: « يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[١]. فهذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله تعالى أن يستعفف، أي أن يكفَّ عن المحرَّم، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه[٢].

وبهذا التشريع يكون الإسلام هو المصدر الوحيد الذي قدم الحلَّ الأمثل والطبيعي للمشكلة الجنسية، والذي يقوم على تأمين الزواج لكل راغب فيه، وفي نفس الوقت أوصد كل أبواب التصريف الجنسي القذر، الذي يظهر في تجارة بيع الأعراَض (البغاء)، والإباحية، الذي ارتبط وجوده بوجود الرقيق في الجاهلية، لضعف إحساسهم بكرامتهم الإنسانية، لذلك حثَّ الإسلام الأسياد على مكاتبة عبيدهم - إن علموا فيهم خيرا - مقابل مبلغ من المال لقاء الحرية، لتضييق مجالات الرقِّ الذي مثَّل الخطر الأكبر على الفضيلة في الجاهلية الأولى، لأن أكثر المحترفات للبغاء كن من الرقيق (الإماء) حيث كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة

(١) صحيح البخاري: ٢ / ٦٧٣ رقم (١٨٠٦) وصحيح مسلم: ٢ / ١٠١٨ رقم (١٤٠٠).

(٢) تفسير السعدي: ١ / ٥٦٧.

أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة من المال تدفعه إليه كل شهر، وهذه الفعلة الشنيعة التي تتنافى مع كرامة الإنسان، حذَّر منها القرآن الكريم عندما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾، وسبب نزول الآية السابق يبين لنا ذلك. فالآية الكريمة حملت نهيا صريحا للذين يكرهون فتيتاهم على الزنا ليكفوا عن ذلك الفعل الشنيع، ووبختهم على طلبهم المال عن طريق هذا العمل الخبيث، وحذّرت الظالمين المكرهين للفتيات بالعذاب الأليم، ووعدت المكرهات على الزنا بمغفرة الله تعالى ورحمته.

ثم كان ختام الآيات بيان من الله تعالى بأنه أنزل آيات واضحات، وأحكاما وحدودا مفصَّلات، وأمثالا عرضت مصائر الغابرين الظالمين المنحرفين، الذين حلَّ بهم سخط الله وعذابه، وفي تلك الأمثال موعظة للمؤمنين الذين يستشعرون رقابة الله تعالى لهم فتخشع قلوبهم، وتستقيم جوارحهم على هداية الله تعالى.

المناسبة بين الآيات ومحور السورة:

تندرج الآيات السابقة في محور السورة الأساسي الذي يدور حول التربية الاخلاقية للفرد والمجتمع، من خلال تشريع الآداب والأحكام التي تؤدي إلى بناء المجتمع الفاضل، وهي في نفس الوقت تمثل حلا حقيقيا وواقعيا للمشكلة الجنسية، من خلال دعوتها الصريحة إلى تيسير أمور الزواج، والمعاونة عليه، وتضييق كل السبل التي تمثل انحرافا وخروجا عن العلاقة المشروعة بين الرجل والمرأة كالبغاء ونحوه.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* رغَّب الإسلام في الزواج وحث عليه، وجعله من القُربات إلى الله تعالى، لأنه الطريق الآمن والوسيلة الوحيدة لتنظيم علاقة الرجل بالمرأة، ولبناء الأسرة الصالحة، وهو من سُنَّة رسول الله وفطرته، لذلك أمر به وحثَّ عليه فقال: «من أحب فطرتي فليستن بسنتي

ومن سنتي النكاح»[1]، ودعا الله تعالى أولياء الأمور إلى إعفاف الشباب والبنات عن طريق الزواج، وتذليل كل العقبات التي تعترضه، خاصة العقبات المالية التي تجعل الكثير من الشباب يتهيبون الزواج لأجلها، ويخافون من الفقر والعيال، وهذا الخوف وسوسة من الشيطان تزهيدا لهم بالزواج، وإفساحا وترويجا للفاحشة كما قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

* في الآيات دعوة للشباب الذين لايملكون تكاليف الزواج لإعفاف أنفسهم حتى يهيء الله تعالى لهم أسبابه، وهنا يظهر لنا خطأ القائلين بأن مهنة البغاء التي تحترفها بعض النساء هي بمثابة صمام أمان لحماية البيوت الشريفة من الاعتداء، لأنه يهيء مصرفا جنسيا لأصحاب الحاجة، فالإسلام يرفض فكرة تخصيص مقاذر بشرية للتخلص من الفضلات الجنسية، ويوجه الشعور الفطري بين الرجل والمرأة نحو علاقة إنسانية سامية تظللها المودة والرحمة، وتمدُّ المجتمع الإنساني بالأجيال الناشئة اللازمة لاستمرار دورة حياة الإنسان على الأرض.

* حثت الآيات الكريمة على مكاتبة الرقيق في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ ﴾ وذلك تقريرا لرغبة الإسلام في نشر الحرية بين الأرقاء، ولتضييق الخناق على ظاهرة البغاء القائمة في معظمها على الإماء كما بينت روايات أسباب النزول.

(١) سنن البيهقي الكبرى: ٧ / ٧٧. رقم (١٣٢٢٩)، ومصنف عبد الرزاق: ٦ / ١٦٩ رقم (١٠٣٧٨).

المقطع الثامن: نور الإيمان وظلام الكفر

قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى
زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ
وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾
رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ
وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا
وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن
فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ
لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

قال ابن عاشور: (أتبع منَّة الهداية الخاصة في أحكام خاصة المفادة من قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾ الآية بالامتنان بأن الله هو مكوِّن أصول الهداية العامة والمعارف الحق للناس كلهم بإرسال رسوله بالهدى ودين الحق مع مافي هذا الامتنان من الإعلام بعظمة الله تعالى ومجده وعموم علمه وقدرته)(١). وتوضيح ذلك أن الله تعالى بيَّن في الآيات السابقة أنه أنزل آيات فصَّل فيها الحق من الباطل، وبيَّن فيها الأحكام والتعاليم على الوجه الأكمل، التي تسعد الآخذين بها في الدنيا والآخرة، وتعرِّض المخالفين لنقمته وعذابه، كما حلَّ بالأمم السابقة التي قصَّ الله تعالى علينا قصصهم، ففي التزام منهج الله تعالى درء لعذابه ونقمته، والفوز بقربه ومرضاته، وتحصيل نورهدايته، فالآيات الكريمة تشير إلى مصدر تلك الآيات المبينات، وهو

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٢٣٠.

الله تعالى الذي أنزلها لتكون نوراً وهداية لعباده المؤمنين، (فأهل الأرض والسماوات بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلال يعتصمون) (١).

التفسير الإجمالي:

اشتملت الآيات السابقة على جملة من الأحكام الشرعية التي عالجت أخطر الأمراض التي تفتك بهذا الكيان البشري، وهي آفة الزنا، فشرَّع الله تعالى لها حداً رادعا، كما شرَّع حدَّ القذف لمن يرمي غيره بتهمة الزنا، وحدد الوسائل الوقائية التي تمنع وقوع هذه الفاحشة، بتشريع آداب الاستئذان على البيوت، وغضِّ البصر، وإخفاء الزينة، والنهي عن المثيرات، والترغيب في الزواج، والتحذير من البغاء، وكل تلك التشريعات تهدف إلى الرقي بالإنسان وحادثة الإفك وما استتبعها من فتن وأزمات، عاشها المسلمون فترة من الزمان، خيَّم فيها الظلام على المدينة فلم يعرفوا الحقيقة، وباتوا متطلعين إلى السماء لتكشف عنهم هذه الظلمة فنزلت سورة النور، لتكون نورا مشرقا للمسلمين بما اشتملته من علم، لأن من معاني النور العلم، كما أن من معاني الجهل الظلمة، فالله تعالى نوَّر الكون، بمعنى أنه لا يمكن أن تعرف الحقائق ولا تحلُّ المشاكل إلا من خلال نور الله تعالى المتمثل بما شرَّعه لعباده من أحكام، وما أنزله عليهم من علم يقشع عنهم ظلمات الجهالة والضلالة، وبتلك التشريعات عالج القرآن الكريم أغلظ وأخطر مايمكن أن يصيب الإنسان في كيانه البشري، وهو الانحراف الجنسي، وما يستتبعه من انحدار وهبوط، وانحطاط وقذارة، تمسخ إنسانية الإنسان وتلصقه بتراب هذه الأرض، وهذا يتنافى مع الكرامة الإنسانية والمكانة العظيمة التي ارتضاها الله تعالى للإنسان حيث جعله خليفته في أرضه، وهذه الخلافة لايمكن أن تتحقق إلا بدوام الصلة بالله تعالى، التي تمنحه الشفافية، وتؤهله لتلقي نور الله تعالى الذي يملأ الآفاق، فالله تعالى هو نور السماوات والأرض، أنار السماوات بكواكبها المضيئة، وأنار الأرض برسالاته وأحكامه وشرائعه، والله تعالى ذو نور في السماوات والأرض، لأنه مظهرهما بإيجادهما، وإيجاد أهلهما، وهاديهم بالتنوير

(١) تفسير الطبري: ٨/ ١٣٥.

بالعلم الجاعل صاحبه لهدايته إلى الصراط المستقيم، كالماشي في نور الشمس لايضع شيئا في غير موضعه [١].

(فالمراد بالنورما تظهر به الأشياء، أي: ما كان ظاهرا بنفسه ومظهرا لغيره، هذا هو المفهوم الحقيقي للنور في ذهن الإنسان، فهو يعبر بالظلام عن كيفية عدم رؤيته شيئا، ويقول عندما يتبين له كل شيء قد بدا النور. فكلمة (نور) إنما استعملت لله تبارك وتعالى باعتبار مفهومها الأساسي هذا، ولم تستعمل بمعنى أن الله تعالى - والعياذ بالله - شعاع يسير ١٨٦٠٠٠ ميل في كل ثانية، وينعكس على الشبكية في العين ويؤثر في مركز الإبصارفي الدماغ)[٢].

وأحسن ما نفسر به قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أن الله موجد كل ما يعبر عنه بالنور وخاصة أسباب المعرفة الحق والحجة القائمة والمرشد إلى الأعمال الصالحة التي بها حسن العاقبة في العالمين العلوي والسفلي وهو من استعمال المشترك في معانيه) [٣] وقد مثل الله لنوره بهذا المثل فقال:﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾، (أي: مثل نوره في قلب عبده المؤمن ككوة الحائط لا منفذ لها لتكون أجمع للضوء فيبدو قويا متألقا. وهذا المصباح في زجاجة تقيه الريح وتصفي نوره، فيزداد تألقا وانتشارا، وهذه الزجاجة بحدِّ ذاتها كأنها كوكب دري في صفائها ونقائها وشدة نورها، وهذا المصباح يوقد من زيت شجرة مباركة زيتونة، ومن المعروف أن النورالحاصل من زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون، وهذه الشجرة المباركة ليست في جهة الشرق ولا في جهة الغرب، وإنما هي في صحراء متكشفة كما يقول ابن عباس ﷺ: (هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ولا جبل ولا كهف، ولا يواريها شيء، وهو أجود لزيتها) [٤].

---

(١) نظم الدرر: ٥ / ٢٦٣.

(٢) تفسير سور النور لأبي الأعلى المودودي: ١٩٦.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٢٣٣.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩١.

وزيت هذه الشجرة من شدة صفائه وحسنه وجودته يكاد يضيء بذاته دون أن تمسه نار وهنا تتجمع الأنوار، نور على نور، نور السراج وحسن الزجاجة وصفاء الزيت، وهذه الأنوار مجتمعة التي ذكرت مثالا لهداية الله تعالى، لا يوفق إليها إلا من هداه الله تعالى.

ولما ذكر الله تعالى هدايته لمن يشاء من عباده، ذكر مواطن هذه الهداية، وهي بيوت الله تعالى المساجد، فقال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ فأحب البقاع إلى الله- تعالى- تلك البيوت، التي أذن الله تعالى أن ترفع ويعظم شأنها، لتكون منارات لنشر هداية الله ومركزاً لعبادته، وتلاوة آياته، وتسبيحه بصورة دائمة، خاصة من أولئك الرجال المؤمنين الذين خلصت قلوبهم لله تعالى، فلم تشغلهم الدنيا وزخارفها عن ذكر ربهم، ولا يلهيهم البيع و الشراء عن طاعة الله تعالى، فهم رغم عملهم بالتجارة، والبيع والشراء، لا يغفلون عن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة المستحقة عليهم في أموالهم، ليقينهم بيوم الحساب، ذلك اليوم الرهيب الذي تضطرب من هوله وترتعد قلوب الناس وأبصارهم، ولكن الله تعالى طمأنهم بأن فضله سيصيبهم عندما يكافئهم على أعمالهم، التي فعلوها في الدنيا بأحسن الجزاء، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، والله يرزق من يشاء بغير حساب، وهذا الرزق يفوق الحدَّ ويفوق العدَّ، وهو كناية عن السعة في عطاء الله تعالى لهم، وقد يكون المعنى أن الله تعالى يدخلهم الجنة بغير حساب يوم القيامة، وهذا ما وضحه الحديث الشريف الذي رواه ابن كثير عن أبي حاتم بسنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قال رسول الله ﷺ: « إذا جمع الله الأولين والأخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم قليل ثم يحاسب سائر الخلائق»[1] .

وبعد أن بين الله تعالى في الآيات السابقة حال المؤمنين الصادقين المهتدين بنور الله تعالى

(١) المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٤٣٣ رقم (٣٥٠٨)، وشعب الإيمان: ١/ ٤٥٤ رقم (٦٩٣)، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩٧.

تحدث عن حال أضدادهم من الكفار والمنافقين الذين أبوا اتباع الرسول ﷺ وتلك هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى نور الله تعالى وهدايته، وقد ضرب الله تعالى مثالين لحال الكافرين هما:

الأول: لبيان مصير أعمالهم. والثاني: لبيان فساد اعتقادهم وتخبطهم في الظلمات والضلال، ففي المثل الأول شبَّه الله تعالى أعمال الكفار، بسراب في أرض مكشوفة مبسوطة، يحسبه الظمآن من شدة ظمئه ومزيد حاجته إليه ماء، فيقصده ويتحمل المشاق في سبيل الوصول إليه، ويحسب أن نجاته وسعادته ستتحقق عندما يشرب منه، غافلا عما ينتظره هناك، وعند وصوله لا يجد ماء يرويه، بل هو مجرد سراب مخادع لا يروي ظمأ، ولا يطفيء عطشا، وإنما يجد مفاجأة مذهلة لم يكن يتوقعها أبدا، وهي ظهور خصمه المتربص به في ذلك الموضع دون أن يعدَّ نفسه لذلك اللقاء، وكذلك حال الكافر الذي يعتقد بأنه سينال ثوابا على أعماله يوم القيامة، ولا يدري أن كفره محبط لعمله، فإذا مات وانقلب إلى ربه، أو وقف موقف الحساب كانت المفاجئة التي لم يكن يتوقعها أبدا، فكل أعماله التي كان ينتظر ثوابها ذهبت هباء منثورا كما قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]. والأمر العجيب في تلك المفاجئة أن هذا الكافر كان ينتظر المثوبة من الله تعالى على أعماله، فإذا به يجدُ بدلا منها العقوبة والعذاب الأليم.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ (أي: وجد عقاب الله الذي توعَّد به الكافر عند ذلك، فتغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم إلى تيقن الضرر العظيم، أو وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق)[١].

فالكفار يعتقدون أن أعمالهم الظاهرة سوف تنقذهم من النار يوم القيامة، ويرجون نفعها

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٤ / ٨

في الآخرة، ولكنهم عندما يقفون للحساب يوم القيامة لا يجدون لها نفعا، بل يجدون الله تعالى ليوفيهم حسابهم على كفرهم.

وفي المثل الثاني، شبَّه الله تعالى عقائد الكفار الفاسدة بالظلمات المتراكبة المتطابقة التي تحجب كل أثر للنور، فهي ظلمات كثيفة متراكمة بعضها فوق بعض، وصلت في ظلمتها إلى أن الإنسان الذي بداخلها إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها، فإن ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب تكاثفت عليه حتى حجبت عنه أقرب شيء إليه وهو يده، وكذلك الكافر يتخبط في حياته في ظلمات الكفر والضلال، وظلمات الجهل التي تجعله يغفل عن ضروريات وجوده، ويعمى عن رؤية أظهر الحقائق في هذا الوجود، وهو الخالق الذي لا تظهر الكائنات إلا بنوره، وهذا النور لا يهتدي إليه إلا المؤمنون الذين أشربت قلوبهم بنور الله تعالى، واستنارت بصيرتهم فرأوا هذا الكون كله إشراقات من نور الله تعالى. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾(أي: من لم ينوِّر قلبه بنور الإيمان ويهده إليه فهو في ظلمة ولا نور له ولا يهتدي أبداً وهذا النور هو في الدنيا وقيل هو في الآخرة أي من لم ينوره الله بعفوه ويرحمه برحمته له وكونه في الدنيا أليق بلفظ الآية وأيضاً فذلك متلازم لأن نور الآخرة هو لمن نور الله قلبه في الدنيا) [1]. فالكفر حاجب يمنع وصول نور الله تعالى إلى قلب الإنسان، والإيمان هو الطريق الوحيد للوصول إلى ذلك النور المنبثق في كل جنبات هذا الكون الفسيح الذي انتظم في نور الله، وهدى الله عز وجل.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

تلتقي الآيات الكريمة مع محور السورة في إشارتها إلى مصدر الهداية وهو الله تعالى الذي ينير للإنسان طريقه في الدنيا والآخرة من خلال تشريعاته للأحكام المختلفة وخاصة ما يتعلق منها بالآداب والتربية الأخلاقية للفرد والجماعة التي مرت سابقا، وهو المحور الأساس للسورة الكريمة.

---

(١) البحر المحيط: ٦/ ٤٢٥.

الهدايات المستنبطة من الآيات:

* إن مصدر الهداية الوحيد الذي ينير للإنسان طريقه في حياته ويبعده عن الظلمات، هو الله تعالى وكل محاولة من الإنسان لاستبدال مصدر تلك الهداية من خلال الأنظمة البشرية والقوانين الوضعية، إنما هي غوص في الظلمات، وجلب للشقاء الدائم الذي يفسد على الإنسان حياته في الدنيا، ومصيره في الدارالآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٤].

* نور الله تعالى المتمثل بهدايته للإنسان غير محدود، فكلما اقترب العبد من ربه، وهبه الله تعالى المزيد من نورهدايته، الذي يشرق في النفس فترتقي إلى أعلى الدرجات، وعندها يلفُّه النور من كل جانب ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ فيصبح ذلك الإنسان الرباني المستنير بهداية الله الشاملة، ويصل إلى مرتبة الأولياء الذين قال الله عنهم في حديثه القدسي الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّ اللَّهَ قال: من عَادَى لي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بالْحَرْب، وما تَقَرَّبَ إلي عَبْدِي بشَيْءٍ أَحَبَّ إلي مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلي بالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[1].

* أظهرت الآيات الكريمة دور بيوت الله (المساجد) في بثِّ نور الله تعالى إلى عباده، فهي بيوت مرفوعة ومخصصة لذكر الله، وتسبيحه وربط قلوب عباده به، لتصبح وضيئة بفضل مداومتها على التسبيح وذكر الله تعالى، وعدم انشغالها بأعمال الدنيا كالبيع والشراء عن حقوق ربها كإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وبذلك تظهرالآية الكريمة أدوار المساجد في تربية الفرد والجماعة على منهج الله تعالى.

(١) صحيح البخاري: ٥ / ٢٣٨٤ رقم (٦١٣٧).

* المؤمن لا يشغله طلب الرزق ومطالب الدنيا عن واجبات ربه، كإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وعليه أن يستصحب معه دائما شعور الخوف من الله تعالى، والاستعداد للقائه وحسابه يوم القيامة، في ذلك اليوم الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار.

* يجازي الله تعالى عباده المؤمنين يوم القيامة أعظم الجزاء، فيضاعف لهم ثواب أعمالهم أضعافا مضاعفة، فكلما خلُصت نياتهم في التوجه إلى الله تعالى، وأعمالهم من الرياء، كلما زاد الأجرعند الله، والله يرزق من يشاء بغير حساب، وهذا محض فضل من الله تعالى، الذي يكافيء عباده المؤمنين بكرمه، فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وهذه المضاعفة تكون في جزاء الأعمال الصالحة، وأما السيئات فإن الله تعالى يحاسب عليها عباده على أساس العدل، وذلك كما ورد في الحديث القدسي الذي رواه مسلم بسنده عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ عن رسول الله ﷺ، قال: قال الله عز وجل: «إذا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ ولم يَعْمَلْهَا كَتَبْتُهَا له حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ إلى سبعمائة ضِعْفٍ، وإذا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ ولم يَعْمَلْهَا لم أَكْتُبْهَا عليه، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[1].

* الكفار هم أكثر الناس غفلة وحمقا وانخداعا في الحياة الدنيا، وهم يعيشون أسوأ خداع للنفس، لأنهم يعتقدون أنهم سيثابون على أعمالهم يوم القيامة، ولكنهم واهمون وسيعلمون هذه الحقيقة كاملة عندما ينقلبون إلى عذاب النار يوم القيامة، وإن المؤمن لتتملكه نزعات من الشفقة على أولئك الكفار، الذين يعيشون في ظلمات الضلال والشقاء ومنغصات الحياة الدنيا، ومع ذلك لن تدركهم رحمة الله يوم القيامة، فأوجبوا على أنفسهم العذاب الدائم، وخسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

* من الملاحظ أن الآية الكريمة ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ... ﴾ رقمها ٣٥، في ترتيب آيات السورة، وبذلك تكون هذه الآية هي قلب السورة ومصباحها، فقد توسطت

(١) صحيح مسلم: ١ / ١١٧ رقم (١٢٨).

السورة كما يتوسط المصباح الغرفة، وهذه الآية النورانية أشعَّت بنورها على نصفها الأول من خلال تشريع سلسلة الأحكام التربوية الأولى، وكان وسطها ذلك النور الذي سكبه الله على كائناته كلها من خلال الإشارة إلى الآيات الكونية التي تربط الإنسان بنور الله، وكل ما شرعه الله من أحكام هي بمثابة إشعاعات النور التي تهدي الإنسان في متاهات الحياة المختلفة. ثم استوفت السورة في شطرها الآخر بقية الأحكام الشرعية لتكمل الخطة الأخلاقية والمنهج الأدبي لبناء الفرد والجماعة المؤمنة الفاضلة.

المقطع التاسع: من آثارقدرة الله وعظمته

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات لما قبلها:

بين الله تعالى في الآيات السابقة أنه تعالى نوَّرالسموات والأرض، خلقهما وأبدعهما وأفاض على من فيهما من نوره، فاهتدى المؤمنون بنوره، وأعرض الكافرون عن ذلك النور فضلوا ضلالا بعيدا، والآيات التي معنا تسوق مجموعة من الأدلة الكونية الدالة على وحدانية الله وكمال قدرته وعظمته، فهي بمثابة النور الذي يظهر الموجودات للدلالة على موجدها وهذه الأدلة سيقت بعد بيان موقف الكفار المتعنت لإقامة الحجة عليهم بعد إصرارهم على كفرهم، مع كثرة البراهين الساطعة، والأدلة القاطعة، على وحدانيته تعالى وكمال قدرته.

التفسير الإجمالي:

تقدم الآيات الكريمة مجموعة من الآثار الكونية الدالة على وحدانية الله وعظمته تعالى وقد درج القرآن الكريم في كثير من آياته على توجيه الإنسان للنظر فيما حوله من مظاهر صنع الله تعالى في السماوات والأرض، فالكون كله يسبح لله تعالى، إنسه وجنه، أرضه وسماؤه، طيره وحيوانه... كل منهم انتظم في صلاته وتسبيحه لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فهم يسبحون لله تعالى، وكذلك الطير الصافات أرجلها وهي طائرة في الفضاء تسبِّح الله تعالى، (والصلاة الدعاء ولا يبعد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها)[1]. وكذلك الكون كله مسبح لله تعالى، قائم بصلاته بالفطرة، وها هي الجبال عندما كان داوود يرتل مزاميره تؤوِّب الجبال معه، وكذلك الطير، قال الله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يغفل عن ذكر ربه، مع العلم أنه هو الأجدر بالإيمان والتسبيح، نظراً لما وهبه الله تعالى من نعمة العقل والتفكير، الموصل إلى المعرفة الحقيقية بالله تعالى وكماله في ذاته وصفاته (وقد نبه سبحانه على كمال قوة تلك الدلالة وغاية وضوحها حيث عبر عنها بما يخص العقلاء من التسبيح الذي هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال وتخصيص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضا لما أن مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة في إخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له سبحانه في الألوهية ونسبتهم إياه عز وجل إلى اتخاذ الولد ونحو ذلك مما تعالى الله عنه علوا كبيرا وإطلاق من على العقلاء وعيرهم بطريق التغليب) [2].

ثم تستعرض الآيات دليلا آخر يحمل في طياته قبساً من نور الله تعالى إلى قلب الإنسان، من خلال هذه الظاهرة الكونية التي يمرُّ الناس عليها غافلين، لكثرة ألفهم لها وهي المطر، فيقول

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ٢٥٠، وانظر التحرير والتنوير: ٩/ ٢٥٨.

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي: ١٨/ ١٨٧.

تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ ﴾. فالله سبحانه يزجي السحاب ويدفعه من مكان إلى آخر، ثم يؤلف بينه ويجمعه، ليصبح ركاما بعضه فوق بعض، كأمثال الجبال، وينزل منه المطر النافع، أوالبرد الضار، فيصيب به من يشاء من عباده، بالمطر النافع، أو البرد الضار بالزرع والثمروالماشية والبشر وغيرها، ويدفعه عمن يشاء فلا يلحق بهم ضررا، ويخرج من ذلك السحاب ضوءا بارقا، يكاد يخطف أبصار الناظرين من شدة إضاءته وقوة لمعانه، فقوة البرق دليل على تكاثف السحاب وغزارة المطر ولكنه نذير بنزول الصواعق في نفس الوقت، وكذلك يحوِّل الله تعالى بقدرته الظلام ضياء والضياء ظلاما، لينتج من ذلك التحويل والتقليب بين الحرِّ والبرد، والنمو والينوع واليبس وغيره، وكل ما سبق من تلك الظواهر والمشاهد الكونية أدلة قاطعة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، ينتفع بها أصحاب البصائر المستنيرة والقلوب النافذة [١].

ثم ختمت هذه الأدلة الكونية بإشارة إلى الأصل الواحد الذي خلقت منه سائر المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وأحجامها وحركاتها... وهو الماء. يقول تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾، فالماء هو أصل الحياة لجميع أنواع الدواب، ولكن على الرغم من ذلك، تفاوتت هذه المخلوقات في حركة مشيها، فمنها ما يمشي على بطنه كالزواحف، ومنها ما يمشي على رجلين كالإنسان والطير، ومنها ما يمشي على أربع كالأنعام، قال أبو حيان: « قدم ما هو أظهر من القدرة وأعجب، وهو الماشي بغير آلة من رجل وقوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع »[٢]. وهذا الاختلاف الواضح في الدواب في أشكالها وأحجامها، وأصولها وأنواعها وألوانها، وهي خارجة من أصل واحد، دليل قاطع على وجود الصانع

(١) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥ / ٢٧٣.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٦ / ٤٢٨.

القدير صاحب التدبير والتقدير، الذي أحسن كل شيء خلقه، قال الفخر الرازي:(واعلم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على سبيل الكمال، ووجه الاستدلال بها على الصانع ظاهر لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع فذلك بالنسبة إلى الكل على السوية فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها وقواها ومقادير أبدانها وأعمارها وأخلاقها لا بد وأن يكون بتدبير مدبِّر قاهر حكيم سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون) [(١)].

وكل تلك الأدلة السابقة على وحدانية الله تعالى واضحة ظاهرة، لا خفاء في شيء منها عند أحد من الخلق، فهي آيات واضحات دلالاتها ظاهرة على نور الله تعالى، ولكن ذلك النور يرشد الله تعالى إليه من يشاء من خلقه، وهم الذين أعملوا عقولهم في تلك الآيات البينات فاهتدوا بها إلى الإيمان بالله تعالى واستدلوا من خلالها على وحدانيته وكمال قدرته وعظمته.

مناسبة الآيات لمحور السورة

الأدلة السابقة التي ساقتها الآيات الكريمة واضحة الدلالة على وحدانية الله تعالى وعلى كمال قدرته وعظمة حكمته، فقد درجت كل الكائنات وفق منهجه ومشيئته، فانتظمت أمورها، وتحققت أهدافها، وهذه دعوة للإنسان ليدخل نفسه في منظومة هذه الكائنات، لتنفيذ أحكام الله وشرائعه، خاصَّة تلك الأحكام المتعلقة بالتربية الأخلاقية التي شكَّلت محور هذه السورة الكريمة.

الهدايات المستفادة من الآيات:

* كل الكائنات التي خلقها الله تعالى تسبح الله تعالى من إنس وجن وملائكة وطير وشجر وحجر ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ وهذا المعنى أشارت إليه الآية الكريمة ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٤ / ١٨.

* المالك الحقيقي للمخلوقات جميعا هو الله وحده، وهو المتصرف في جميع شؤونها ومصيرها إلى الله تعالى، ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ وهذه تذكرة للإنسان ليتصرف فيما يملكه وفق مشيئة المالك الحقيقي للمال، وعدم الخروج عن تعاليمه، التي حدَّدها لكسب المال وإنفاقه، قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ ﴾ [الحديد: ٧].

* يربي القرآن الكريم أتباعه تربية عاطفية متوازنة، قائمة على إبقاء شعورالمؤمن مترددا بين الخوف والرجاء، ليبقى قلب المؤمن متعلقا بالله تعالى، يرجوه الخيرالدائم في الدنيا واللآخرة، وفي نفس الوقت يخافه من أن ينزل به الضر والشر، وهذا المعنى نلحظه في آية السحاب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ﴾ فرؤية السحاب تثير في النفس رجاء وترقبا بنزول المطرالنافع، ولكن ذكر البرد الضار يوقظ فيها الشعور بالخوف، وكذلك رؤية البرق قد تبشر بغزارة المطر، ولكنها قد تنذر بنزول الصواعق. وهكذا يبقى قلب المؤمن متقلبا بين الخوف من الله وبين رجائه وهذا المنهج يساعد على دوام مراقبة النفس وإبعادها عن الغفلة.

* التأمل في الظواهر الكونية ترسِّخ الإيمان بالله تعالى ووحدانيته وكمال قدرته، مثل ظاهرة الليل والنهار وتقليب الله لهما، بالطول والقصر، والظلمة والنور، والحر والبرد، وكذلك ظاهرة خلق الدواب من أصل واحد هو الماء، رغم الاختلافات الكبيرة فيما بينها في الأشكال والأحجام والألوان وغيرها، مما يدلُّ على كمال التدبير، وغاية التقديرفي دقة خلقها وتناسقها وإبداعها، وهذا يلغي الفكرة القائلة بأن هذا الكون وجد صدفة دون حاجته إلى خالق حكيم مدبِّر، كما تزعم الفلسفات المادية الوجودية في القديم والحديث.

المقطع العاشر: المنافقون لم ينتفعوا بآيات الله

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

سبب النزول:

نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي، حين اختصما في أرض فجعل اليهوديّ يجرّه إلى رسول الله، والمنافق يجرّه إلى كعب بن الأشرف، ويقول: إن محمداً يحيف علينا. وروي أنّ المغيرة بن وائل كان بينه وبين عليّ بن أبي طالب ﷺ خصومة في ماء وأرض، فقال المغيرة: أمّا محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه، فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليّ»[(١)].

مناسبة الآيات لما قبلها:

ذكرت الآيات السابقة مجموعة من الأدلة الساطعة، الدالة على وحدانية الله وعظمتة تعالى وكمال قدرته، ورغم توفر هذه الآيات البينات التي أوصلت المؤمنين إلى نور الله تعالى وهدايته فإن هناك فريقا من الناس جاء موقفهم منها في غاية الغرابة، لأنهم أغلقوا قلوبهم وعقولهم عن التفكر فيها، فلم يهتدوا بها، ولم يصلوا إلى أهدافها،، وأغمضوا أعينهم عن نورها، فمكثوا في ظلام كفرهم، وهؤلاء هم المنافقون الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، فخالف ظاهرهم

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ١٨٨، وتفسير الكشاف: ٣/ ٢٥٣.

باطنهم، وأقوالهم أفعالهم، وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة.

التفسير الإجمالي:

قررت الآيات السابقة مبدأ ازدواجية الإيمان والعمل واقترانهما معا، فدعوى الإيمان باللسان لا تكفي، بل لا بد أن تظهر آثارها في السلوك، والذين يحاولون الفصل بين الإيمان والعمل هم مرضى واهمون، شخَّص القرآن حالتهم بأنهم في قلوبهم مرض، وهو مرض النفاق، فهؤلاء كانوا يقولون: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾، يقولون ذلك بألسنتهم، ولكن تلك الطاعة لم تظهر في أعمالهم وسلوكهم، تكذِّب أعمالُهم ما قالته ألسنتهم، لذلك وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وأكثر المواطن التي تفضح المنافقين في سلوكهم، وتظهر كذبهم ونفاقهم، عندما يُدعَون إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم على أساس شريعة الله عزَّ وجلَّ التي أنزلها عليه، لأن حكم الرسول ﷺ هو حكم الله تعالى، ولكن هؤلاء المنافقين يعرضون عن ذلك الاحتكام، ويستنكفون عن الحضور إلى مجلس الرسول ﷺ، ولكنهم إن كان الاحتكام في مصلحتهم، جاؤوا إلى الرسول ﷺ وأذعنوا لحكمه، قال الرازي: « ونبَّه بقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم، أو شكُّوا، فأما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض، بل سارعوا إلى الحكم وأذعنوا ببذل الرضا، وفي ذلك دلالة على أنه ليس بهم اتباع الحق وإنما يريدون النفع المعجل وذلك أيضاً نفاق»[1].

ثم تعلِّق الآيات على ذلك السلوك المنحرف من أولئك المنافقين، وتطرح جملة من التساؤلات، ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

والتساؤل الأول يفترض مرض قلوبهم، الذي حال دون وصول الإيمان إلى تلك القلوب فاكتفوا بإظهار الإسلام، مخادعة لأفراد المجتمع، ليحرزوا مصالحهم الدنيوية.

والتساؤل الثاني يفترض سبب إعراضهم عن حكم الله ورسوله، ذلك الريب والشك في

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ٢٤/ ١٩.

رسالة محمد ﷺ، وفي القرآن الكريم الذي نزل من عند الله تعالى، وفيه كل الحقائق التي أثبتتها رسالة محمد ﷺ.

وأما التساؤل الثالث، فيفترض أن يكون سبب إعراضهم عن حكم الله ورسوله، هو خوفهم من الظلم والأذى والضرر الذي سيلحق بهم لو تحاكموا إلى الله تعالى وإلى الرسول عليه الصلاة والسلام، وكل هذه الاحتمالات تجعل صاحبها ظالما، ولذلك حكم الله سبحانه عليهم بالظلم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، (أي لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتمّ لهم جحوده، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ﷺ، فمن ثمة يأبون المحاكمة إليه) [1]، ولذلك وصفوا بالظلم لأنهم لا يريدون للحق أن يسود ولا للعدالة أن تعم سائر البشر.

أما المؤمنون الصادقون في إيمانهم فلهم موقف آخر يعارض الموقف السابق للمنافقين، وضحته الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ فالآية بينت موقف المؤمنين الصادق من طاعة الله ورسوله، وفي ذلك توبيخ للمنافقين وتأديب لهم لأنهم يدَّعون الإيمان بألسنتهم ولكن أعمالهم تناقض ذلك الادعاء. يقول الطبري في هذا المعنى: (إنما كان ينبغي أن يكون قول المؤمنين إذا دعوا إلى حكم الله وإلى حكم رسوله ليحكم بينهم وبين خصومهم أن يقولوا سمعنا ما قيل لنا وأطعنا من دعانا إلى ذلك ولم يعن بـ (كان) في هذا الموضع الخبر عن أمر قد مضى فيقضى، ولكنه تأنيب من الله الذي أنزل هذه الآية بسببهم، وتأديب منه آخرين غيرهم) [2] ولكن موقف المؤمنين هو موقف السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال، بل التسليم الكامل لحكم الله تعالى ورسوله ﷺ، انطلاقا من ثقتهم المطلقة بأن ذلك الحكم هوالذي يحمل الخيرالمطلق والسعادة الحقيقية للإنسان في الدنيا والآخر، وما سواه من أحكام فمردها الهوى

---

(١) تفسير الكشاف: ٣/ ٢٥٣.

(٢) تفسير الطبري: ١٨/ ١٥٧.

ومنشؤها الباطل، وهذه الحقيقة لا تدركها إلا القلوب الواعية التي غمرها نور الله، وغمرها حب الله فأقبلت راغبة في طاعته، وهؤلاء هم المفلحون الفائزون.

يقول تعالى ذكره: (ومن يطع الله ورسوله فيما أمره ونهاه ويسلم لحكمهما له وعليه ويخف عاقبة معصية الله، ويحذره ويتق عذاب الله بطاعته إياه في أمره ونهيه فأولئك يقول فالذين يفعلون ذلك هم الفائزون برضا الله عنهم يوم القيامة وأمنهم من عذابه)(١) لأن الله تعالى هو الذي يدبِّر أمورهم، ويصرِّفها لهم، وينظم علاقاتهم، فتغدوا نفوسهم مطمئنة، وأوضاعهم مستقرة، لاعتمادهم على حكم الله تعالى ورسوله، بعيدا عن حكم البشر للبشر، الذي يحكمه الهوى والمصلحة والشهوة والنتيجة ستكون انتشارالظلم والاستبداد والفساد. فطاعة الله وتقواه هما السبيل إلى الفوز في الدنيا والآخرة، وهو أدب رفيع يشير إلى مدى إشراق قلب المؤمن بنور الله واتصاله به، وفيه إشارة إلى عزَّة المؤمن الذي تدفعه عزته لعدم طاعة أي مخلوق إذا تعارضت طاعته مع طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

وبعد هذه المقابلة التي أبرزتها الآيات بين موقف المنافقين المنحرف عن طاعة الله، وموقف المؤمنين القائم على طاعة الله، تعود الآيات مرة أخرى للحديث عن المنافقين، فيقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

وهذا موقف آخر يظهر خبيئة جديدة للمنافقين وهي الكذب، فالمنافقون كانوا يقسمون لرسول الله ﷺ لئن أمرهم بالخروج للجهاد ليخرُجُنّ، ولكن الله تعالى يعلم كذبهم، فردَّ عليهم متهكما ساخرا من أَيمانهم قائلا: ﴿ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ ﴾ فإن أيمانكم كاذبة، وطاعتكم لله وللرسول معروفة، فإنها مجرَّد قولٍ باللسان دون القلب، والقول دون الفعل، والله تعالى بصير لا يخفى عليه شيء من خفاياكم، ثم يكررالأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله الكريم ﷺ،

(١) تفسير الطبري: ١٨ / ١٥٧.

الطاعة الحقيقية لا الطاعة المزيفة، فإن تولوا وأعرضوا فإنما يتحمل الرسول مسؤولية ومهمة التبليغ، وقد قام بها على خير وجه، وعليكم ما حملتم من الأمر بالطاعة، وقد نكصتم عن ذلك، وإن تطيعوا الله والرسول طاعة حقيقية فإنها ستوصلكم إلى الهداية والفوز والفلاح، وإن أعرضتم فما على الرسول إلا البلاغ، وليس مسؤولا عن إيمانكم، وأنتم المسؤولون والمحاسبون والمعاقبون بما توليتم، وبما عصيتم وبما خالفتم أمر الله ورسوله.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

تبين الآيات الكريمة موقف المنافقين المتناقض بين القول والعمل، والمحكوم بتقديم المصلحة الشخصية على كل الاعتبارات الدينية والأخلاقية، وهذه نتيجة طبيعية سببها كفرهم الباطن الذي حرمهم من نورهداية الله تعالى، الذي لايشرق إلا في القلوب المؤمنة، وأما قلوب المنافقين فهي مريضة بالنفاق، مغمورة بالظلمات، محرومة من طاعة الله والاحتكام إلى شريعته، خاصة في الأحكام الشرعية التي وردت في هذه السورة وشكلت محورها الدائر حول الآداب والتربية الأخلاقية للفرد والجماعة.

الهدايات المستفادة من الآيات:

* الإيمان قول وعمل، وهذه الحقيقة بينتها الآية الكريمة بوضوح كامل من خلال عرضها لموقف المؤمنين الذين قرنوا استجابتهم لله تعالى بالعمل﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ ﴾ ولو صحَّ أن يكون الإيمان بالقول فقط لما نفى الله تعالى عنهم وصف الإيمان بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .
* الاستجابة لحكم الرسول ﷺ استجابة لحكم الله تعالى، وهذه الاستجابة ليست مقصورة في فترة حياته ﷺ، بل هي ممتدة إلى ما بعد وفاته، وقد أوصى الرسول ﷺ أمته بذلك صريحا في حديثه الشريف حيث قال: (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض)[1].

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ١ / ١٧٢ رقم (٣١٩) وكنز العمال: ١ / ١٠٠ رقم (٨٧٦).

* ينبغي على المؤمنين الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية، والانصياع لأحكامها بالكلية، بنفس راضية وقناعة تامة بأنها المصدر الوحيد لإنقاذ المسلمين، وتلبية حاجاتهم في كل زمان ومكان للوصول بهم إلى السعادة الدائمة في الدنيا والآخرة.

* شريعة الله كاملة وعادلة في أحكامها، فمن اعتقد نقصانها، أو اشتمالها على أحكام ظالمة، أو رغب في استبدالها بأنظمة بشرية وقوانين وضعية، أو أخذ بالأحكام التي تناسبه في مصالحه الشخصية، ورفض مايخالف مصلحته وهواه، فقد اتصف بصفات المنافقين.

* من أسوأ أساليب المنافقين التي يستخدمونها للوصول إلى أغراضهم الخداع، من خلال كثرة الحلف والأقسام، ليوهموا السامع بصدقهم فيما يقولون، أو ليحموا أنفسهم من العقوبة. قال تعالى:﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المنافقون: ٢].

المقطع الحادي عشر: جزاء الطاعة في الدنيا والآخرة

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

سبب النزول:

روى القرطبي بسنده عن أبي العالية أنه قال: " مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعد ما أوحي إليه، خائفا هو وأصحابه، يدعون إلى الله سراً وجهراً، ثمَّ أمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح، فقال رجلٌ يا رسول الله: أما يأتي علينا يوم

نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال ﷺ: (لا تلبثون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة) ونزلت هذه الآية، وأظهر الله نبيه على جزيرة العرب، فوضعوا السلاح وأمنوا. قال النحاس: فكان في هذه الآية دلالة على نبوة رسول الله ﷺ، لأن الله جلَّ وعزَّ أنجز ذلك الوعد(١).

مناسبة الآيات لما قبلها:

يبين الله تعالى في هذه الآيات جزاء الطاعة الكاملة والإيمان الصادق في هذه الدنيا قبل يوم الحساب، فقد وعد الله تعالى عباده المؤمنين المخلصين الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح، وعدهم بالاستخلاف في الأرض، كما استخلف المؤمنين من قبلهم في الأمم السابقة، والتمكين لدينهم بإظهاره على الأديان الأخرى، وإبدالهم أمنا بعد حالة الخوف التي كانوا يعيشونها وهذه النِّعم جزء من الفلاح المترتب على طاعة الله وطاعة رسوله، الذي أشارت إليه الآية الكريمة السابقة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بينا فيما سبق أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين الصالحين بأن يُنجز لهم الوعود الثلاثة السابقة، ولكن هذه الوعود لن تتحقق إلا بتحصيل أسبابها، وقد أشار ابن عاشور إلى ذلك فقال: (ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمنا إيماء إلى التهيؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا بذلك، وأن ملاك ذلك هو طاعة الله والرسول ﷺ ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ﴾ وإذا حلَّ الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات فأقبلت مسبباتها تنهال على الأمة)(٢)، وقد تحققت تلك الوعود- كما أخبر سبحانه في فترة زمنية قصيرة - عندما فتح

(١) انظر أسباب النزول للواحدي: ١٨٨، وتفسير الطبري: ١٨ / ١٥٩.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٢٨٢- ٢٨٣.

المسلمون مشارق الأرض ومغاربها، وتحقق الاستخلاف في الأرض على خير وجه عندما ملَّك الله تعالى المسلمين، وجعلهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم وتحققت بشارة رسول الله ﷺ لأصحابه التي وردت في حديثه الذي رواه مسلم في صحيحه بسنده عن ثوبان أنه قال: « قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زوى لي منها، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوّاً من سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قال يا محمد: إني إذا قَضَيْتُ قَضَاءً فإنه لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوّاً من سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عليهم من بِأَقْطَارِهَا، أو قال من بين أَقْطَارِهَا، حتى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً» [(١)].

يقول ابن كثيررحمه الله تعالى في بيان كيفية إنجاز وعده للمؤمنين: (وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنّة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة، وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب، وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر واسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه، ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلَمَّ شعثَ ما وَهَى عند موته ﷺ، وأطَّد جزيرة العرب ومهدها، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبه خالد بن الوليد ﷺ، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها، وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة ﷺ ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثا صحبة عمرو بن العاص ﷺ إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله عز وجل، واختار له ما عنده من الكرامة، ومنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياما تاما، لم يدر الفلك بعد الأنبياء

---

(١) صحيح مسلم: ٤ / ٢٢١٥ رقم (٢٨٨٩).

على مثله في قوة سيرته وكمال عدله، وتمَّ في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر أقليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة، ثمَّ لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ (١).

وتحققت المُكنة لهذا الدين، عندما أعزَّ الله المسلمين وأعلى دينهم فوق بقية الأديان، وتحقق الأمن لهذه الأمة بعد خوفها عندما عاشوا في استقرار، وهذه النعم التي حصَّلها المسلمون الأولون كانت ثمرة ومكافئة لهم لتحقيقهم العبودية الحقيقية لله تعالى، وبعدهم عن أي مظهر من مظاهر الإشراك بالله تعالى، فإن خرجوا عن طاعة الله تعالى، ووقعوا في معصيته، وجحدوا تلك النعم سلبها الله منهم، فالمراد بالكفر هنا كفر النعم كما قال الطبري: لأن الله وعد الإنعام على هذه الأمة بما أخبر في هذه الآية بأنه منعم عليهم، ثم قال:﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾: أي كفر هذه النعمة، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ (٢).

ثم يأتي الأمر بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول، التي تجلب رحمة الله، وتطمئن الآية المؤمنين بأن قوة أعدائهم لن تعجز الله تعالى، وهو قادر عليهم، وهو وعد من الله تعالى بنصره رسوله والمؤمنين، عندما يحققون شروط الاستخلاف في الأرض، من اتصال بالله تعالى بإقامة الصلاة، وتطهير النفس من الشُحّ ببذل الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ والرضا بحكمه

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٠١.
(٢) انظر تفسير الطبري: ١٨ / ١٦٠.

وتنفيذ منهج الله سبحانه في سائر أوجه الحياة، فإن استقامت الأمة على ذلك النهج، فإن قوة أعدائها من الكفارلن تعجز الله تعالى مهما بلغت لن تتمكن من رقاب المسلمين، طالما حصلوا أسباب الاستخلاف السابقة.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

تحدثت الآيات عن استخلاف الله تعالى للمؤمنين في الأرض، والتمكين لدينهم الذي يجعلهم أصحاب الشأن والقرار في الأرض، وعندها يحكِّمون شريعة تعالى في سائر أوجه الحياة، وبدون هذا الاستخلاف في الأرض وذلك التمكين في الدين، لن يتمكن المسلمون من الحكم بشريعة الله خاصة في التربية الأخلاقية الاجتماعية، كما هو المشاهد في هذه الأيام، بعد إخلال المسلمين بشروط الاستخلاف، وإحجامهم عن طاعة ربهم وبذلك الإخلال كان الزوال لتلك النعم.

الهدايات المستفادة من الآيات:

* الوعد المذكور في الآيات الكريمة لعباد الله المؤمنين الملتزمين بالشروط الواردة في الآيات والذين يدعون الإيمان بألسنتهم لايتحقق لهم هذا الوعد،
* ينبغي فهم الاستخلاف الوارد في الآيات الكريمة بمفهومه القرآني الدقيق الذي يعني الالتزام الكامل بتطبيق منهج الله الشامل في جميع مناحي الحياة، فإن تحقق الملك لأحد بعيدا عن ذلك الالتزام، فإنه لايكون دليلا على صلاحه واستخلاف الله تعالى له، وإنما هو مجرَّد قهر وغلبة وهيمنة على البشر.
* الوعود السابقة من الله تعالى لعباده المؤمنين ممتدة إلى يوم القيامة، فكل من حصل شروطها من عبادة الله وحده، ونبذ كل مظاهر الشرك، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول والرضا بأحكامه، فإنها تتحقق له، وهذه حقيقة واقعية تاريخية لايستطيع أحد إنكارها فكل مرحلة مرت بها الأمة وحققت هذه الشروط تحقق لها الاستخلاف، وما من مرحلة

خالفت هذه الشروط إلا ذلت وخضعت للأمم الأخرى.

* تعالج الآيات الكريمة حالة الهزيمة النفسية التي قد تتعرض لها الأمة عندما تفقد إحساسها بكرامتها ورفعة مكانتها، واليأس من مستقبلها، فهي تفتح باب الأمل أمامها، فما على المؤمنين إلا تحصيل شروط الاستخلاف، وأما قوة أعدائهم فقد تكفل الله تعالى بردِّها مهما بلغت، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

المقطع الثاني عشر: آداب الاستئذان داخل البيوت

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

سبب النزول:

١ - أخرج بن أبي حاتم من طريق مقاتل بن حبان قال بلغنا أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعا طعاما فجعل الناس يدخلون بغير إذن فقالت أسماء يا رسول الله ما أقبح هذا إنه ليدخل على المرأة وزوجها غلامها وهما في ثوب واحد بغير اذن فنزلت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾[1].

(١) فتح الباري: ١١/ ٣١. وانظر تفسير الدر المنثور للسيوطي: ٦ / ٢١٧.

٢- وروي أن رسول الله ﷺ بعث وقت الظهيرة إلى عمر رضي الله تعالى عنه غلاما من الأنصار يقال له مدلج، وكان رضي الله تعالى عنه نائما، فدقَّ عليه الباب ودخل، فاستيقظ وجلس فانكشف منه، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لوددت أن الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن، فانطلق معه إلى رسول الله - ﷺ - فوجد هذه الآية قد نزلت، فخر ساجدا، وهذا أحد موافقات رأيه الصائب رضي الله تعالى عنه للوحي (١).

٣- وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات فيغتسلوا ثم يخرجون إلى الصلاة فأمرهم الله تعالى أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن بقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ (٢).

مناسبة الآيات لما قبلها:

مناسبة الآيات لما قبلها بينة واضحة، إما باعتبارها تتمة لما تقدم الحديث عنه من تشريع الأحكام السابقة، وإما باعتبار أن امتثال المؤمنين لأحكامها هو تحقيق لطاعة الله ورسوله التي حثت عليه الآيات السابقة، قال الألوسي رحمه الله:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ﴾ الخ رجوع عند الأكثرين إلى بيان تتمة الأحكام السابقة، بعد تمهيد ما يوجب الإمتثال بالأوامر والنواهي الواردة فيها، وفي الأحكام اللاحقة من التمثيلات والترغيب والترهيب والوعد والوعيد وفي التحقيق، ويحتمل أن يقال أنه مما يطاع الله تعالى ورسوله ﷺ فيه، وتخصيصه بالذكر لأن دخوله في الطاعة باعتبار أنه من الآداب أبعد من غيره) (٣).

---

(١) انظر تفسير القرطبي: ١٢ / ٣٠٤، وأحكام القرآن لابن العربي: ٣ / ٤١٥. وروح المعاني للألوسي ١٨/ ٢١٠.

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي: ١٨ / ٢١٠.

(٣) روح المعاني للألوسي: ١٨ / ٢٠٩.

وقال البقاعي: (ابتدأت السورة بطائفة من الأحكام، وفصلها بدرر الوعظ وجواهر الحكم والحث على معالي الأخلاق ومكارم الأعمال، ثم وصلها بالإلهيات التي هي أصولها، وعن علي مقاماتها تفرعت فصولها، فلما ختمت بالتمكين لأهل هذا الدين وتوهين أمر المعتدين، شرع في إكمالها، بإثبات بقية أحوالها، تأكيدا لما حكم به من التمكين، وما ختمه من ذلك من التوهين، وتحذيرا مما ختمه به من العذاب المهين، وتحقيقا لما ألزم به من الطاعة ولزوم السنة والجماعة، فقال واصلا بها ختم به الأحكام الأولى من الأمر بإنكاح الأيامى، والكفِّ عن إكراه البغايا، إثر الذين لم يظهروا على عورات النساء﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾)[1].

التفسير الإجمالي:

بعد هذه الوقفة الطويلة مع الإلهيات التي ابتدأت بالإشارة إلى نور الله تعالى الذي أنار قلوب عباده المؤمنين، فأقبلوا على طاعته وتحاكموا إلى شريعته، واستجابوا لله ورسوله، فكافأهم على ذلك استخلافا وتمكينا وأمنا في الأرض، ولكن ذلك النور لم يحرك ساكنا في قلوب المنافقين والكافرين، فأصروا على ضلالهم وسوء أدبهم مع الله ورسوله، فحرمهم الله من ذلك النور، ليعيشوا في ظلمات بعضها فوق بعض.

بعد ذلك السياق، تعود السورة إلى موضوعها الأساس، لتكمل ما بدأته من تشريع للآداب والأحكام الشرعية المتعلقة بالأسرة والمجتمع، فتحدثت عن الاستئذان داخل البيوت، إلى جانب الاستئذان في مجلس رسول الله صلى اله عليه وسلم، وتنظم علاقة الزيارة والطعام بين الأقارب والأصدقاء، إلى جانب بيان الأدب الواجب في خطاب رسول الله ﷺ ودعائه، وكلها آداب اجتماعية هامة تنظم علاقات المسلمين فيما بينهم، وقد مرسابقا في هذه السورة، تشريع أدب الاستئذان للدخول على البيوت، وهنا يأتي التشريع لأدب الاستئذان داخل البيوت، فقد جاء الأمر صريحا، بوجوب الاستئذان على الأرقاء، من العبيد والإماء،

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥ / ٢٨١.

وكذلك الأطفال، الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال الأحرار، وذلك في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة، وهذه الأوقات هي: من قبل صلاة الفجر عند النوم والخلود إلى الراحة، ووقت الظهيرة حيث يتخفف المسلم من ثيابه أثناء قيلولته، ومن بعد صلاة العشاء عندما تخلع الثياب وترتدي ثياب النوم. وسميت هذه الأوقات عورات لاحتمال انكشاف العورات فيها، لذلك أوجب الله تعالى على المذكورين الاستئذان كي لا تقع أنظارهم على عورات الأهل والأسياد.

وأما الأوقات الأخرى فلا حرج على الأرقاء والصغار من الدخول بغير استئذان، وذلك لكثرة دخول وخروج الصغار على أهلهم، أو قيام الرقيق بواجب الخدمة، وبتشريع ذلك الأدب الرفيع تستر العورات، ويزال الحرج والضيق، فلو وجب الاستئذان على المذكورين في كل الأوقات كما يفعل الكبار لشق الأمر عليهم، ولكن عندما يبلغ الصغار سن البلوغ، فإنهم يعاملون معاملة الكبار في وجوب الاستئذان في كل وقت.

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عليم بنفوس البشر وبما يصلحها من الشرائع المنطلقة من حكمته تعالى في علاج النفوس والقلوب.

وبذلك التشريع تكون الآيات قد قدمت تنظيما رائدا داخل البيوت يكفل بناء الأسرة والمجتمع على طهارة الأبصار وطهارة القلوب وطهارة الأعراض.

والمتأمل في هذا النوع من الاستئذان يجده نوعا من الاستثناء لحكم الاستئذان العام الذي مرَّ سابقا في هذه السورة، وهذا الأمر نلحظه كذلك في حكم آخر يتعلق بحجاب المرأة المسلمة، الذي سيق في هذه السورة كذلك، والذي أمر النساء بإخفاء زينتهن منعا لإثارة الفتن والشهوات، فجاء اسثناء القواعد من النساء، اللاتي بلغن سن اليأس وقعدن عن الحيض والولد، لكبر سنهنَّ، بحيث لا يبقى لديهن طمع في الزواج، ولا يرغب فيهن الرجال، لذهاب مفاتنهن، فرفعت الآية الحرج عنهن إذا وضعن ثيابهن غير متظاهرات بزينة لجلب أنظار الرجال إليهن. قال أبو حيان: (وحقيقة التبرج إظهار ما يجب إخفاؤه، أو غير قاصدات التبرج

بالوضع، ورُبَّ عجوز يبدو منها الحرص على أن يظهر بها جمال) (١).

وليس المراد بوضع الثياب أن تخلع المرأة كل ما عليها من الثياب حتى تتعرى، لأن المراد بالثياب الجلابيب التي تخفي زينة المرأة كما اتفق على ذلك الفقهاء والمفسرون، والتي ذكرت في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٩] وأما آية سورة النورالتي معنا، فإنها أفادت جواز إلقاء هؤلاء القواعد جلابيبهن وخمرهن أمام الرجال، لكونهنَّ لم يعدن يرغبن في التزيُّن، وانعدمت فيهن الغرائز الجنسية، فإن بقي فيهن ميل لإظهار الزينة فلا يصح لهن وضع الجلباب.

ورغم تلك الرخصة في وضع الثياب لأولئك القواعد من النساء، فقد بينت الآية أن الأفضل لهن الاستعفاف، الذي يعني التعفف (والسين والتاء فيه معنى المبالغة مثل استحباب، أي تعففهن عن وضع الثياب عنهن أفضل لهن ولذلك قيد هذا الإذن بالحال وهو ﴿ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ ﴾ أي وضعا لايقارنه تبرج بزينة) (٢)وذلك يقتضي بأن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة، وسمى القرآن ذلك استعفافا، ليبرز الصلة الوثيقة بين التبرج والفتنة وبين التحجب والعفة، فهما أمران متلازمان وواقع الناس أكبر دليل على صحة تلك الصلة.

ثم يأتي ختام الآية فوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ فالله تعالى سميع لكلامهن إذا خاطبن الرجال هل يخضعن بأقوالهن، ويتصنعن في ترخيم أصواتهن، أو يقلن قولا معروفا، والله تعالى عليم بخفايا نفوسهن إن وضعن ثيابهن هل يضعنها للفتنة أو لغيرها، والله تعالى سيجازي كل إنسان على عمله (٣).

(١) تفسير البحر المحيط: ٦/ ٤٣٤.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩/ ٢٩٨.

(٣) انظرنظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي: ٥/ ٢٨٤.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

الآيات الكريمة بمضمونها من الأحكام التشريعية تشكِّل جزءا أصيلا من الأجزاء التي شكَّلت محور السورة المتعلق بالآداب الاجتماعية والتربية الأخلاقية للفرد والمجتمع، حيث اشتملت على أدب الاستئذان داخل البيوت، ووضع الثياب للقواعد من النساء.

الهدايات المستفادة من الآيات:

* يوصي الإسلام أتباعه بتربية أبنائهم الصغار ورقيقهم وخدمهم على أدب الاستئذان داخل البيوت، في الأوقات الثلاثة المذكورة، منعا من وقوع أنظارهم على العورات، وهذا الأدب الرفيع يغفل عنه الكثير من الآباء والأسياد، ويتهاونون به ظنا منهم أن رؤية الصغار للعورات لاتؤثر فيهم، وقد أثبتت الدراسات النفسية والاجتماعية أن تلك المناظر تؤثر تأثيرا سيئا على حياتهم في المستقبل، ويُلحق بهم أضرارا نفسية وعصبية وخلقية خطيرة.

* خصَّص القرآن الكريم الأوقات الثلاثة لاستئذان الصغار والخدم والرقيق منعا للحرج والضيق، وذلك لكثرة دخولهم على أهلهم وأسيادهم، وبهذا التشريع جمع القرآن بين حرصه على عدم انكشاف العورات، وبين مصلحة الصغار والخدم، فلو وجب الاستئذان عليهم في كل وقت كالكبار لشقَّ الأمر عليهم.

* يربط الإسلام أحكامه الشرعية بعلاتها وجودا وعدما، فالمرأة مأمورة بالحجاب وعدم إبداء زينتها للأجانب، منعا للغواية وإثارة الشهوات، فإذا انتفت علَّة الحكم بكبر السِّن وذهاب الفتنة جاز لها وضع الثياب بالضوابط الشرعية السابقة. قال ابن عاشور: (فلما كان في الأمر بضرب الخمر على الجيوب أو إدناء الجلابيب كلفة على النساء المأمورات اقتضاها سد الذريعة، فلما انتفت الذريعة رفع ذلك الحكم رحمة من الله فإن الشريعة ما جعلت في حكم مشقة لضرورة إلا رفعت تلك المشقة بزوال الضرورة وهذا معنى الرخصة) [١].

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٢٩٧.

المقطع الثالث عشر: إباحة الأكل من بيوت الأقرباء

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

سبب النزول:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ [النساء: ٢٩]. تحرَّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمي والعرج، وقالوا: الطعام أفضل الأموال، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب، والمريض لا يستوفي الطعام، فنزلت هذه الآية. (١)

٢- وعن سعيد بن المسيب أن ناسا كانوا إذا خرجوا مع رسول الله ﷺ، وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا، فكانوا يتقون أن يأكلوا منها ويقولون نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة فنزلت هذه الآية (٢).

٣- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان المسلمون يذهبون مع رسول الله ﷺ في الغزو ويدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم ويقولون قد أحللنا لكم الأكل منها فكانوا يقولون: إنه لايحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم وإنما نحن أمناء. فأنزل الله تعالى:

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ١٨٩. وانظر زاد المسير: ٦ / ٦٣- ٦٤.

(٢) أسباب النزول للواحدي: ١٩٠، وزاد المسير: ٦ / ٦٤، وتفسير البحر المحيط: ٦ / ٤٣٤.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾[١].

٤- وعن مجاهد بن جبر أن قوما من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمون المريض والزمن ذهبوا به إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم وبعض من سمى الله عز وجلَّ في هذه الآية فكان أهل الزمانة يتحرجون من أكل ذلك الطعام لأنه أطعمهم غير مالكه فنزلت هذه الآية. [٢].

٥- وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم ان عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهلية حتى ان كان الرجل يسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطرمة وأبي صالح قالا كانت الأنصار اذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل معهم الضيف فنزلت رخصة لهم. [٣].

مناسبة الآية لما قبلها:

شرَّعت الآيات السابقة أدب الاستئذان داخل البيوت، ورخَّصت للقواعد من النساء في وضع ثيابهن، وكل ذلك يأتي لاستكمال التشريعات الأدبية والأخلاقية التي يريد الإسلام ترسيخها في المجتمع المسلم، وهذه الآيات سيقت لنفس الغرض السابق، حيث اشتملت على اسثناء جديد، يتصل بموضوع الاستئذان، وهو إباحة الشريعة للمسلم تناول الطعام من جملة من البيوت ذكرتها الآية الكريمة، من خلال تنظيم العلاقات وتحديد الارتباطات بين الأقرباء والأصدقاء، فقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾الآية.

(١) أسباب النزول للواحدي: ١٩٠، وتفسير ابن كثير: ٣/ ٣٠٦.

(٢) أسباب النزول للواحدي: ١٨٩- ١٩٠، وزاد المسير: ٦/ ٦٤.

(٣) تفسير الدر المنثور: ٦/ ٢٢٥.

التفسير الإجمالي:

رفعت الآية الكريمة الحرج عن المعذورين المذكورين في الآية الكريمة وهم العميان والعرج والمرضى، فأجازت لهم الأكل من كل بيت، لأن عذرهم يثبت لهم حقا على المجتمع وأما سائر الناس فلهم أن يأكلوا من البيوت المذكورة دون استئذان، قال الرازي: (والظاهر أن إباحة الأكل لا تتوقف على الاستئذان لأن العادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل الأقارب) (١)، وهذا هو المعنى الظاهر الذي يؤيده سياق الآيات ولاحقها وهذا رأي جمهور المفسرين، ولكن بعض المفسرين يجعلون رفع الحرج عنهم محصورا في إباحة قعودهم عن الجهاد (٢) ويرى فريق ثالث أن قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾منفصل عن قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ وأنه متعلق بالاستئذان الذي سبق ذكره، وليس في غرض الأكل في البيوت، والمناسبة في ذكر هذه الرخصة عقب الاستئذان للأعمى أنه لايتعين عليه الاستئذان لانتفاء سببه، وكذلك الأعرج لاحرج عليه في التكاليف التي يشترط فيها المشي، وكذلك المريض فالحرج مرفوع عنه في التكليف الذي يؤثر المرض في إسقاطه كالصوم والجهاد (٣).

والملاحظ أن الآية لم يذكر فيها بيوت الأبناء مع الأقرباء، وذلك لأن بيت الابن هو بمنزلة بيت النفس، لحديث الرسول ﷺ، (إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه، وإن ولده من كسبه) (٤). والمراد بقوله تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ كما يقول القرطبي رحمه الله: (يعني مما اختزنتم، وصار في قبضتكم، وعظم ذلك ما ملكه الرجل في بيته وتحت غلقه، وذلك هو تأويل

---

(١) تفسير الرازي: ٤ / ٣٢.

(٢) انظر تفسير الكشاف: ٣/ ٢٦١، وتفسير البحر المحيط: ٦ / ٤٣٤.

(٣) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٢٩٩- ٣٠٠.

(٤) سنن الترمذي: ٣ / ٦٣٩ رقم (١٣٥٨)، وابن ماجه: ٢ / ٧٦٨ رقم (٢٢٩٠)، وابن حبان: ١٠ / ٧٧ رقم (٤٢٦١).

الضحاك وقتادة ومجاهد، وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاء والعبيد والأُجراء، قال ابن عباس: عَنَى وكيل الرجل على ضيعته وخازنه على ماله، فيجوز له أن يأكل مما قيم عليه)[١].

ولما انتهى من بيان البيوت التي يجوز الأكل منها دون استئذان، بين الحالة التي يجوز عليها الأكل، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، فالآية رفعت الحرج عن الآكلين سواء كانوا مجتمعين أو متفرقين، وذلك رداً على سلوك بعض أحياء من العرب الذين ألزموا أنفسهم منهجا قاسيا، وعرفا متشددا، حيث كانوا لايأكلون طعامهم إلا مجتمعين كما بين سبب نزول الآية، فأخبرهم الله تعالى، بأن الرجل إذا أكل وحده فلا حرج عليه. قال ابن عطية: (وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ ردٌ لمذهب جماعة من العرب، كانت لا تأكل أفرادا البتة، قاله الطبري، ومن ذلك قول بعض الشعراء:

إذا ماصنعتِ الزاد فالتمسي له أكيلا فإني لست آكله وحدي

وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه، فنزلت هذه الآية مبينة سنة الأكل، ومذهبةً كل ما خلفها من سنة العرب، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرما، نحت به نحو كرم الخلق، فأفرطت في إلزامه، وأن إحضار الأكيل لحسن، ولكن بأن لا يحرم الانفراد)[٢].

ولما انتهى من بيان الحالة التي يجوز الأكل عليها، شرع في بيان آداب دخول البيوت التي يؤكل فيها، فقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾.

فالآية الكريمة أمرت بإلقاء السلام على من بداخل البيوت، والتزام الآداب عند دخولها،

(١) تفسير القرطبي: ١٢ / ٣١٥.
(٢) المحرر الوجيز لابن عطية: ٤ / ١٩٦.

وتلك تحية طيبة مباركة شرعها الله تعالى لعباده المؤمنين، (ووصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب المودة، ووصفها بالطيب لأن سامعها يستطيبها) (١)، وكل هذه الأحكام الشرعية، والآداب الاجتماعية الراقية، شرَّعها الله تعالى لعباده، ليتدبروها، ويعقلوا مقاصدها.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

مناسبة الآيات لمحور السورة واضحة جلية لأنها اشتملت على مجموعة من الآداب الاجتماعية والتربية الأخلاقية للفرد والمجتمع التي تشكِّل عماد محور السورة.

الهدايات المستفادة من الآيات:

* خصَّ الإسلام أهل الأعذار بتكريم خاص، فأسقط عنهم الجهاد في سبيل الله، وأباح لهم الأكل من بيوت الناس بدون استئذان، كحق مكتسب لهم على المجتمع الذي يعيشون فيه، وهذا التكريم لم تعرفه أكثر الأنظمة العالمية، التي تدَّعي التقدم والمحافظة على حقوق الإنسان في العالم.

* أباح الإسلام الأكل بدون إذن من بيوت الأقرباء كالآباء والأمهات والإخوان والأخوات الأعمام والعمات، والأخوال والخالات... لما في ذلك من تقوية للروابط الاجتماعية، وبثٍّ لروح الألفة والمودة بين الأقرباء.

* نبَّه الإسلام على شرف منزلة الصداقة، وأعلى من مكانتها، عندما سوَّى في إباحة الأكل من بيوت الأقرباء والأصدقاء بدون إذن، (وقد جعل - أي الصديق - في مرتبة القرابة مما هو موقور في النفوس من محبة الصلة مع الأصدقاء، وسئل بعض الحكماء: أيُّ الرجلين أحب إليك أخوك أم صديقك؟ فقال: لإنما أحب أخي إذا كان صديقي) (٢). وهذا أدب اجتماعي رفيع، يقوِّي الروابط الدينية بين المسلمين ويزيد من تماسك المجتمع المسلم.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢ / ٣١٩.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٣٠٢.

* أباح الإسلام الأكل في حالة الانفراد، رداً على منهج بعض قبائل العرب المتشدِّدين، الذين ألزموا أنفسهم بالأكل مجتمعين، وهذا يظهر لنا يسر الشريعة الاسلامية في تكاليفها، ولكنه رغم تلك الإباحة، حبَّبَ الإسلام لأتباعه الإجتماع على الطعام، تحصيلاً للبركة، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه عندما سألوه قائلين: يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَأْكُلُ ولا نَشْبَعُ قال فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ؟ قالوا: نعم. قال: فَاجْتَمِعُوا على طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عليه يُبَارَكْ لَكُمْ فيه [١].

وأخرج ابن ماجه بسنده عن عُمَرَ بن الْخَطَّابِ ﷺ قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: كُلُوا جميعا ولا تَفَرَّقُوا فإن الْبَرَكَةَ مع الْجَمَاعَةِ. [٢]

* أمر الإسلام المؤمنين بإلقاء التحية عند دخول بيوت الآخرين، وجعل شعار تلك التحية (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) لما في ذلك من إفشاء لروح السلام والألفة والمودة بين المسلمين، قال رسول الله صلى الله عايه وسلم: « والذي نفسي بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم. [٣]

* كشفت لنا روايات أسباب النزول عن أثر القرآن في تربية الصحابة رضي الله عنهم على خلق الورع وشدة الخوف من الله تعالى، الذي جعلهم في غاية رهافة الحسِّ في التمييز بين الحلال والحرام، فنزول آية ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ كان كافيا لهم للامتناع عن مشاركة المرضى والزمنى والعمي في الطعام خوفا من أكل الحرام، كما أظهرت

(١) سنن أبي داود: ٣/ ٣٤٦، رقم (٣٧٦٤) وصحيح ابن حبان: ١٢ / ٢٧ رقم (٥٢٢٤) وابن ماجه: ٢/ ١٠٩٣ رقم (٣٢٨٧)

(٢) سنن ابن ماجه: ٢ / ١٠٩٣ رقم (٣٢٨٧).

(٣) مسند أحمد: ١ / ١٦٤ رقم (١٤١٢)، وسنن الترمذي: ٤ / ٦٦٤ رقم (٢٥١٠)، والسنن الكبرى: ١٠/ ٢٣٢ رقم (٢٠٨٥٤)

لنا رواية ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا الخلق تجلَّى أيضا في سلوك أولئك الضمناء الذين ائتمنهم المجاهدون مع الرسول على أموالهم، فإنهم رغم الإباحة الصريحة لهم بالأكل مما وُكِّلوا عليه، ولكنهم امتنعوا عن الأكل خوفا من أن نفوس أصحاب الأموال غير طيبة بذلك.

المقطع الرابع عشر: أدب المؤمن مع الرسول ﷺ

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾

سبب النزول:

روى أن هذه الآية نزلت في حفر الخندق، حين جاءت قريش وقائدها أبو سفيان، وغطفان وقائدها عيينة بن حصن، فضرب النبي ﷺ الخندق على المدينة، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة، فكان المنافقون يتسللون لواذا من العمل، ويعتذرون بأعذار كاذبة [1].

مناسبة الآيات لما قبلها:

قال ابن عاشور: (لما جرى الكلام السابق في شأن الاستئذان للدخول، عقب ذلك بحكم الاستئذان للخروج ومفارقة المجامع، فاعتنى من ذلك بالواجب منه، وهو استئذان الرسول ﷺ في مفارقة مجلسه، أو مفارقة جمع جُمِع عن إذنه، لأمر مهم كالشورى والقتال والاجتماع للوعظ

(١) تفسير الدر المنثور للسيوطي: ٦ / ٢٢٩. وتفسير القرطبي: ١٢ / ٣٢١.

ونحو ذلك) [١]. فالمناسبة بين الآيات السابقة والتي معنا قوية وموضوعية، لأنها انتقال من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء، إلى تنظيم العلاقة بين المؤمنين ورئيسهم وقائدهم محمد ﷺ وذلك بإبراز بعض الآداب اللازمة في معاملته ﷺ.

التفسير الإجمالي:

حملت الآيات الكريمة ثناء من الله تعالى على عباده المؤمنين، حيث شهد الله تعالى لهم بكمال إيمانهم بالله ورسوله، وشهد لهم بكمال أدبهم في التعامل مع رسول الله ﷺ، فهم إذا كانوا معه في أمر هام وجامع فيه مصلحة للمسلمين، لا يذهب واحد منهم حتى يستأذنه، (والحاصل أن الأمر الجامع أو الجميع هو الذى يعم نفعه أو ضرره وهو الأمر الجليل الذى يحتاج إلى اجتماع أهل الرأي والتجارب قال العلماء كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن) [٢] وهؤلاء المؤمنون لا يستأذنون الرسول ﷺ إلا وهم مضطرون، فإيمانهم الراسخ يمنعهم من التخلي عن الأمر الجامع الذي يشغل بال الأمة، ومع ذلك فالقرآن يعطي الخيار لرسول الله ﷺ بإعطاء الإذن لأولئك المؤمنين أومنعهم منه، وفي نفس الوقت يطالبه بالاستغفار لهم، لأن الاستئذان ولو لعذر يعتبر قصورا، لأنه تقديم للمصلحة الشخصية على المصلحة الاجتماعية وتقديم للدنيا على الآخرة.

ثم تنتقل السورة إلى أدب آخر يرتبط برسول الله ﷺ ويتجلى في توقير المؤمنين لرسولهم فيقول تعالى:﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ ﴾.

فقد نهت الآية الكريمة المؤمنين أن يتعاملوا مع دعاء الرسول كما يتعاملون فيما بينهم سواء كان ذلك الدعاء أمرا وتكليفا من الرسول للمؤمنين، فإذا دعاهم وجبت عليهم الإجابة وفي عدمها خطرعلى الإيمان وحبوط للعمل، وقد يكون المراد بالدعاء نداء الرسول ﷺ، فلا

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور: ٩ / ٣٠٦.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني: ٤ / ٥٧.

تجوز مناداته باسمه، فلا ينادى: (يا محمد)، أو(يا أبا القاسم) أو (يا أبا عبد الله) كما يدعو المسلمون بعضهم بعضا، إنما يُنادى ويُدعى بتوقير وتشريف الله له من خلال وصف النبوة أو الرسالة فيُقال: (يا نبي الله) (يا رسول الله).

وقد يكون المراد بالدعاء، دعاء الرسول على غيره من المخالفين، وفي هذا المعنى قال البيضاوي رحمه الله: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (لا تقيسوا دعاءه إيَّاكم على دعاء بعضكم بعضا في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته عليه الصلاة والسلام واجبة، والمراجعة بغير إذنه محرَّمة، وقيل لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضا باسمه ورفع الصوت به والنداء من وراء الحجرات، ولكن بلقبه المعظم، مثل يا نبي الله، ويا رسول الله، مع التوقير والتواضع، وخفض الصوت، أو لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض، فلا تبالوا بسخطه، فإن دعاءه موجب) [1].

ثم حذَّرت الآيات الكريمة المنافقين الذين يتسللون لواذا أي قليلا قليلا، ويخرجون من الجماعة خفية يستتر بعضهم ببعض، قال الطبري: « واللواذ هو أن يلوذ القوم بعضهم ببعض، يستتر هذا بهذا» [2]، فقد حذرهم الله تعالى من مخالفة أمره أو أمر رسوله ﷺ لأنها سبب في نزول المحن الشديدة بهم في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة وقد بين الإمام الرازي المراد بالفتنة فقال: (والمراد بالفتنة العقوبة في الدنيا، والعذاب الأليم عذاب الآخرة، وإنما ردَّد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الأمرين، لأن ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا، وقد يعرض له ذلك في الدنيا، فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد، ثم قال الحسن: الفتنة هي ظهور نفاقهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما: القتل وقيل الزلازل والأهوال). [3]

ثم كان مسك الختام لهذه السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

(١) تفسير البيضاوي: ٤ / ٢٠٣.

(٢) تفسير الطبري: ١٨ / ١٧٨.

(٣) التفسير الكبير للرازي: ٢٤ / ٣٨.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾. فلله تعالى كل مافي السموات والأرض (من الموجودات بأسرها خلقا وملكا وتصرفا إيجادا وإعداما بدءا وإعادة لا لأحد غيره شركة أو استقلالا ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من الأحوال والأوضاع التي من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق، ودخول المنافقين مع أن الخطاب فيها قبل للمؤمنين بطريق التغليب... وتعليق علمه بيوم رجعهم لا برجعهم، لزيادة تحقيق علمه سبحانه بذلك، وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع الشيء مستلزم للعلم بوقوع الشيء على أبلغ وجه وآكده، وفيه إشعار بأن علمه جلَّ وعلا بنفس رجعهم من الظهور بحيث لا يحتاج إلى البيان قطعا)[1] ففي ذلك الختام إشارة رهيبة تشعر القلوب بدوام مراقبة الله لهذا الإنسان، واطلاعه على أعماله، مما يجعل القلب مرتبطا بربه، يخشاه ويتقيه في كل أحواله وهذا الشعور هو الحافز الوحيد الذي يدفع الإنسان لفعل الطاعات واجتناب المنهيات والحرص على نيل مغفرة الله تعالى ورضوانه.

مناسبة الآيات لمحور السورة:

يأتي ختام هذه السورة بهذه الآيات الكريمة، التي تناولت جملة من الآداب الواجبة في التعامل مع الرسول ﷺ، من استئذانه، واستجابة دعائه، وتوقيره عند ندائه، وعدم مخالفة أوامره، وكل تلك الآداب من صميم محور السورة الأساس الذي انتظمها من أولها إلى آخرها وهو: (التربية الأخلاقية للفرد والمجتمع).

الهدايات المستفادة من الآيات:

* يدعو الإسلام إلى تنظيم العلاقة بين القائد والرعية خاصة في المواطن الخطيرة والأوقات الحرجة، التي تستدعي مشاركة الجميع، كالحروب والنكبات والنوازل وغيرها، فلا يجوز الانصراف من تلك المشاركة إلا باستئذان من القيادة ولظروف قاهرة، وعلى القائد أن يقدِّر

---

(١) روح المعاني للألوسي: ١٨ / ٢٢٨.

حالة الاضطرار ويوازن بين مصلحة بقاء المستأذن أو انصرافة. (وفي قوله: ﴿ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ أنه خطب جليل لا بد لرسول الله ﷺ فيه من ذوي رأي وقوة يظاهرونه عليه ويعاونونه ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفاءته فمفارقة أحدهم في مثل هذه الحالة مما يشق على قلبه ويشعث عليه رأيه فمن ثم غلظ عليهم وضيق الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط ومساس الحاجة إليه واعتراض ما يهمهم ويعينهم... لذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل ولا يتفرقون عنهم والأمر في الإذن مفوض إلى الإمام إن شاء أذن وإن شاء لم يأذن على حسب ما اقتضاه رأيه)[1].

* توقير الرسول ﷺ أمر واجب، فهو رسول الله، فلا تجوز مناداته والتعامل معه كالآخرين، وهذه لفتة هامة جداً من القرآن الكريم للمسلمين، يشعرهم بهيبة القائد ووقاره تمهيدا لطاعته والتزام أوامره، فإن هان أمره على الرعية، قلت هيبته، ورغب الكثير عن طاعته وعندها تدبُّ الفوضى، وتتفرق الكلمة، وأعظم بهما من بلاء يدمِّر الأمة.

* يعتبر الإسلام طاعة الرسول من طاعة الله، لأن أوامره وحيٌّ من عند الله، قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء: ٨٠]. وأما مخالفته فهي مسخطة لله تعالى، تعرِّض المخالفين للفتن والمحن في الدنيا، وللعذاب الأليم في الآخرة.

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان: ٦ / ٤٣٦.

سورة الفرقان

بين يدي السورة:

اسمها:

تسمى سورة الفرقان، لما ورد في الصحيحين عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت القراءة، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: أرسله، أقرئنا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، ثم قال: أقرئنا عمر، فقرأت التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه [١].

عدد آياتها:

عدد آيات سورة الفرقان سبع وسبعون آية في قول جميع القراء [٢]، وعدد كلماتها ثمانمائة واثنتان وسبعون كلمة وحروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثة وثلاثون حرفا[٣] وهي السورة الثانية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة ﴿يسٓ﴾ وقيل سورة فاطر[٤] وهي السورة الخامسة والعشرون في ترتيب المصحف.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الخصومات، باب كلام بعضهم في بعض ٣/ ٩٠ رقم الحديث(٢٢٨٧). والإمام مسلم، حديث رقم (٨١٨).

(٢) انظر منار الهدى للأشموني ص ١٩٨، وحاشية الشهاب على البيضاوي ٦/ ٤٠٥.

(٣) انظر منار الهدى للأشموني ص ١٩٨.

(٤) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٧٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.

المرحلة الزمنية لنزولها:

القول الراجح أنها مكية جميعها، كما في صحيح البخاري في تفسير سورة الفرقان: عن القاسم بن أبي بزة أنه سأل سعيد بن جبير: هل لمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة ؟ فقرأت عليه ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾فقال سعيد: قرأتها على ابن عباس كما قرأتها علي فقال هذه مكية نسختها آية مدنية التي في سورة النساء (١).

محور سورة الفرقان:

تقدم في ثنايا الحديث عن المناسبات أن محور سورة الفرقان هو القرآن باعتباره معجزة رسول الله ﷺ ودليل صدقه.

ووفق المنهج المتبع عادة للتعرف على محور السورة وهو(التعرف على المحور من خلال اسم السورة، أو من خلال المناسبات في السورة، أو من خلال المرحلة الزمنية لنزول السورة، أو من خلال القضايا المعروضة في السورة).

لو طبقنا هذا المنهج على سورة الفرقان للتعرف على محورها لوجدناه(الاستدلال على صدق رسول الله ﷺ من خلال معجزة القرآن).

المناسبات في السورة:

(١) المناسبات بين افتتاحية سورة الفرقان وخاتمة سورة النور:

أ- توقير رسول الله ﷺ وتعظيمه:

- جاء ذلك في خاتمة سورة النور في مظهرين:

الأول: عدم انصراف المؤمن من مجلس رسول الله ﷺ إلا بإذنه ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير ٦/ ١٥ رقم الحديث(٤٤٨٤).

وذلك لضبط الأمور وتنظيمها مع القيادة الرشيدة.

الثاني: عدم مناداته باسمه المجرد ولا بكنيته، وإنما ينادى بلقب الرسالة ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾.

- وجاء في افتتاحية سورة الفرقان في مظهرين أيضا:

الأول: وصف رسول الله ﷺ بصفة العبودية المضافة إلى الله تعالى﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾.

الثاني: كون رسول الله ﷺ مبعوثا للعالمين، وكون رسالته عالمية، وهذه ميزة لم يعطها أحد من الأنبياء والمرسلين غيره، فقد صح عنه قوله:(أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) [(١)].

ب- مهمة الرسول ﷺ العظمى (الإنذار):

- جاء ذلك في خاتمة سورة النور في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] والتحذير عن مخالفة أمر رسول الله لون من ألوان الإنذار. وجاء بصيغة التعميم ليشمل التحذير عن المخالفات في العقيدة والأحكام والأخلاق، ويدخل فيه الانصراف بدون إذنه دخولا أوليا.

- وجاء النص على هذه المهمة صريحا في افتتاحية سورة الفرقان في قوله تعالى:﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾والشق الثاني من المهمة يأتي ضمنا في الإنذار، فإذا كان الإنذار للمخالفين لأوامره فإن البشارة للمؤمنين به المتبعين لما جاء به من الهدى والنور.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم ١/ ٨٦، الحديث رقم (٣٢٨).

ج- مظاهر من قدرة الله تعالى وعظمته وتفرده بالملك والتصرف:

- جاء ذلك في خاتمة سورة النور في قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النور: ٦٤].

فلله سبحانه ملك السماوات والأرض وما بينهما خلقا وتقديرا وتدبيرا وإنهاء وتدميرا، وفي تقديم لفظ الجلالة بيان تفرده بذلك. وعلم الله المحيط بكل شيء، ومنه إحاطته بأحوالهم وما هم عليه من الصفات والأحوال والأعمال ليجازيهم بها يوم الرجوع إليه.

- وجاءت جملة من مظاهر التفرد والعظمة في افتتاحية سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ فلله ملك السماوات والأرض وحده لا شريك له في ذلك - دل على ذلك تقديم الجار والمجرور المتعلقين بالخبر على المبتدأ - وهو المنزه عن الولد والشريك، فلا يعجزه شيء﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾[يس: ٨٢]. وخلق المخلوقات بتقدير، ولا يكون إلا بناء على العلم بدقائق الأمور وجلائلها، ويستلزم الحكمة لوضع الشيء المقدر في مكانه بناء على العلم المحيط.

(٢) المناسبات بين افتتاحية سورة الفرقان وخاتمتها:

أ- الحديث عن المعبود بحق وبعض صفاته، والحديث عن الآلهة المزيفة وبيان عجزها

- جاء ذلك في افتتاحية سورة الفرقان في قوله تعالى﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٢].

أما الحديث عن الآلهة المزيفة العاجزة فجاء في قوله تعالى﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا

يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٣].

فالإله الحق يتفرد بالملك والتدبير والتقدير. أما آلهتهم المزيفة فلا تملك دفع الضر عن نفسها وهي مخلوقة لغيرها ولا تدفع عن نفسها الموت ولا تهب الحياة فكيف تتخذ آلهة من دون الله تعالى.

- وجاء الحديث عن المعبود بحق في خاتمة السورة بالثناء على عابديه﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وجاء الحديث عن المعبود الباطل في خاتمة السورة بالوعيد على عابديه في قوله تعالى﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩].

ب- الحديث عن اليوم الآخر في الافتتاحية في قوله تعالى﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

والحديث عن اليوم الآخر في الخاتمة في قوله تعالى﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٩].

ج- والحديث عن الرسالة في الافتتاحية في قوله تعالى﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١].

وجاء الحديث عن الرسالة في الخاتمة في قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٥] وهي مهمة الرسول البشارة، والمهمة الأخرى النذارة ذكرت في قوله تعالى ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٧].

(٣) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

تقدم أن السورة تسمى سورة (الفرقان)، ومحور السورة هو إثبات صدق رسول الله ﷺ من خلال القرآن الكريم(المعجزة العظمى لرسول الله ﷺ).

فوجوه إعجاز القرآن الرئيسية الأربعة موجودة في السورة:

- فالإعجاز البياني من خلال نظمه﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[الفرقان: ٣٢].
- والإعجاز العلمي في أسرار مخلوقاته ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾[الفرقان: ٦]، ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾[الفرقان: ٥٣].
- والإعجاز الغيبي بذكر أخبار الأنبياء والأمم السابقة كما في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ ﴾ ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ ﴾ [الفرقان:٣٥-٤٠].
- والإعجاز التشريعي بذكر الهدايات القرآنية في العقائد وأصول التشريع والأخلاق كما في قوله تعالى﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾[الفرقان: ٦٣-٧٧].

فالمناسبة بين اسم السورة (الفرقان) وهو المعجزة والمحور الذي يثبت صدق الرسول ﷺ من خلال هذه السورة بذكر أوجه إعجازه جلية واضحة.

(٤) المناسبات بين مقاطع السور بعضها ببعض:

سيأتي الحديث عنها في نهاية كل مقطع مع سابقه.

(٥) المناسبات بين مقاطع السور ومحورها:

سيأتي الحديث عنها في نهاية كل مقطع.

(٦) المناسبات بين مضمون سورة الفرقان ومضمون سورة النور

على الرغم من أن سورة النور مدنية وسورة الفرقان مكية، فهناك وجوه من المناسبات بين مضمون السورتين منها:

أولاً: اشتملت سورة النور على كثير من الأحكام كالزنا والقذف والاستئذان، والكشف عن مغيبات.. تبين بمعرفتها الخبيث من الطيب... ثم كريم وعده للخلفاء الراشدين بالتمكين في الأرض وفضح المنافقين الذين كانوا يتسللون من مجلسه بغير إذنه. فكان مجموع ذلك فرقانا يعتضد به الإيمان.. يشهد لرسول الله ﷺ بصحة رسالته، ويوضح عظيم قدره عند ربه..

جاء في سورة الفرقان قوله تعالى: تبارك الذي نزل الفرقان على عبده.. «فهو القرآن الفارق بين الحق والباطل، والمطلع على ما أخفاه المنافقون وأبطنوه من المكر والكفر».. [1].

ثانياً: ذكر في سورة النور الدلائل على توحيد الله سبحانه وتعالى من الآيات الكونية وجاء مثلها في سورة الفرقان فمن ذلك:

أ- جاء في سورة النور قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾ [النور: ٤٣].

وجاء في سورة الفرقان قوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ

(١) انظر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج١٣ ص٣٣٤، ط دار السلفية، بومباي، الهند.

كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الآية ٤٨-٤٩].

ب- جاء في سورة النور قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ [النور: ٤٥].

وجاء في سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الآية: ٥٤].

ثالثاً: جاء في كلتا السورتين مصير أعمال الكافرين يوم القيامة، فجاء في سورة النور قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾ [النور: ٣٩]، وجاء في سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الآية: ٢٣]. (١)

افتتاحية سورة الفرقان

صفات الإله الحق، وعجز الآلهة المزيفة

قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان: ١- ٣].

المعنى الإجمالي للافتتاحية:

افتتحت السورة بالثناء على الله تعالى الذي تنامى خيره وتكاثر، فشمل كل شيء، ومن أعظم مظاهر الخير المتنامي إنزال القرآن على صفيه وخليله وعبده ونبيه خاتم الأنبياء محمد ﷺ، ليبلغ عن ربه ما أوحي إليه وينذر به العالمين، وفيه الميزان الذي يفرق به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ، ويميز بين منهج السعادة والنجاة ومنهج الشقاء والهلاك.

(١) انظر الزحيلي، وهبة مصطفى: التفسير المنير ج١٩ ص٦.

ومن أوائل المبلغين المنذرين أولئك الذين اتخذوا معبودات صنعوها بأيديهم ثم أضفوا عليها بأوهامهم صفة القدسية، وهم يدركون عجزها المطلق عن دفع الضر عن أنفسها أو جلب النفع لها، ناهيك عن دفع الضر أو إيصال النفع إلى عابديها ففاقد الشيء لا يعطيه، ولو أنهم فكروا في أنفسهم وما وهبهم الله من قدرات وطاقات لأدركوا من أنهم أفضل من تلك الأصنام والأوثان، فإنها عاجزة عن الفهم والحركة والتصوف ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٤- ١٩٥].

إن من شأن المعبود الحق ملك السماوات والأرض خلقا وإيجادا من العدم، وأن يكون غنيا عن مساعدة غيره في تدبير هذا الملك، وأن لا ينازعه أحد في ملكه، وأن تكون مخلوقاته قد وجدت لأداء وظائفها بحكمة وعن سابق علم محيط فقدرها خالقها تقديرا.

وأن يكون له مطلق الإرادة والمشيئة في مخلوقاته إذا أراد إنهاء وجودها، أو أراد بعثها للمحاسبة والجزاء. فهل تقدر آلهتهم المزيفة على شيء من ذلك ؟.

تضمنت افتتاحية سورة الفرقان الحديث المجمل عن قضايا العقيدة الأساسية:

الألوهية:

فبعد تقديس الله عز وجل، جاءت أربعة أوصاف تؤكد التنزيه والتقديس للمعبود بحق:

﴿ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

﴿ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا ﴾.

﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ ﴾.

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٢].

- وذكرت الافتتاحية بطلان آلهتهم المزيفة من خلال أربعة صفات:

﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾.

﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾.

﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾.

﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

البعث بعد الموت:

وتحدثت الافتتاحية عن عقيدة البعث بعد الموت في لمحات خاطفة، كما تكرر الحديث عن اليوم الآخر والبعث والنشور من خلال مقاطع السورة باختصار لأن هذا المجال لا يشكل محور السورة الرئيس.

الرسالة، الرسول، المعجزة:

فقد ذكرت الرسالة المتضمنة في(الفرقان)، وذكر الرسول الذي أنزل عليه الفرقان(عبده)، وذكرت المعجزة وأوجه إعجازها كما تقدم في المناسبات بإيجاز وسيأتي المزيد عن أوجه إعجاز الفرقان في ثنايا تفسير المقاطع. فإن محور السورة هو(الاستدلال على صدق الرسول ﷺ من خلال معجزة القرآن) كما تقدم.

من الفوائد المستنبطة من الافتتاحية:

* إثبات صفات الجلال والكمال والعزة لله سبحانه وتعالى، وتنزيهه عن صفات النقص والعجز وعن الشريك والولد أساس عقيدة المؤمنين.
* عموم رسالة محمد ﷺ للعالم الإنس والجن، ومن بلغه دعوة محمد ﷺ ولم يؤمن به فهو في النار.
* بطلان عبادة من اتخذ آلهة لا تتصف بصفات الجلال والكمال. أو تعجز عن الخلق والتدبير والتقدير، وعن الإحياء والإماتة والبعث بعد الموت.

المقطع الأول

شبهاتهم حول القرآن وردها

قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٤-٦].

المناسبة بين المقطع الأول والافتتاحية:

بعد الثناء على الله سبحانه وتعالى بما هو أهله، وذكر النعمة العظمى على عباده بإنزال كتابه على عبده ورسوله محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيرا، وبيان عجز آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، وضلال ما هم عليه من الشرك والإلحاد. ذكر موقف المشركين من القرآن العظيم، الذي أنزله رب السماوات والأرض وخاطب به الإنسانية. وكان من المفترض منهم وهم العقلاء الأذكياء أن يتدبروا معاني هذا الكتاب، وما يدعوهم إليه، فإن من شأن العاقل إذا خوطب أن يلقي السمع لما يسمع، وأن يتدبر مضمون الكلام الموجه إليه، ليتخذ حياله الموقف الحكيم. ولكن القوم اتخذوا حيال القرآن موقفا مخالفا تماما.

المعنى الإجمالي للمقطع الأول:

كانت آيات القرآن الكريم كالأضواء الكاشفة لظلمات جهل المشركين وفساد عقولهم وسوء تصرفاتهم فأرادوا أن يطفئوا نور الله بكل ما أوتوا من مكر وافتراء. فقالوا إن هذا القرآن اختلقه محمد واستعان ببعض بتلقينه أساطير الأولين ثم صاغها محمد بأسلوبه ونسبها إلى ربه ليضفي عليها صفة التقديس. وتكررت هذه الفرية من القوم كلما تحداهم القرآن الكريم وأظهر عجزهم. ولكن موضع الضعف في مقولتهم هذه من جانبين:

الأول: أن محمداً ﷺ الذي جاء بالقرآن لا يدعيه أنه منه وإنما ينسبه إلى ربه عز وجل، وهم لم يجربوا عليه كذبا قط.﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

الثاني: أن محمدا واحد منهم ومداركه العلمية التي تلقاها من بيئته لا تزيد على ما كان عند القوم، بل لعل بعض القوم كان لديه من الإطلاع والقدرات الكسبية أكثر منه، كقول الشعر والإطلاع على أخبار الماضين، وكان لبعضهم أسفار إلى أقوام وشعوب مما أكسبهم ثقافة لا عهد لقريش بها مثل النضر بن الحارث الذي كان يقول: إن لديه من قصص رستم واسفنديار وأساطير الفرس ما يضاهي به قصص القرآن. ومحمد ﷺ معروف لديهم بأميته.

حاول القوم تغطية هذه الفجوة في ادعائهم بأن قالوا: إنه اختلقه بالتعاون مع بعض أتباعه حيث زودوه بالمعلومات ومادة القصص، وصاغها محمد ﷺ بأسلوبه البياني البليغ.

لقد رد القرآن الكريم قولهم هذا بقوله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨].

إن الكلام المفترى لا يكلف صاحبه شيئا سوى السرد بعد تذويقه وإضفاء المسحة الجمالية عليه، فلو كان القرآن مختلقا مفترى من عند أحد من البشر لكانوا أقدر الناس على الإتيان بمثله، لأن طبائعهم تلائم الاختلاق والكذب، بخلاف نفس محمد ﷺ المطبوعة على الصدق والأمانة والاستقامة.

أما الذين نسبوا إليهم مساعدة محمد ﷺ والتعاون معه في الخفاء فقد ذكروا منهم: يسار مولى الحضرمي، وعداس مولى حويطب بن عبد العزى، وجبر مولى ابن عامر.

ولكن لماذا اختاروهم من الموالي الغرباء عن قريش ؟

لقد اختاروهم من المغمورين المجهولين لعل الغربة تجد قبولا لدى العامة من الناس، ولدى الغرباء من قريش فيتوهموا أن هؤلاء الموالى على علم لا تعلمه قريش فاستعان بهم محمد ﷺ.

ولكن الذي غفلوا عنه أو تغافلوا، أن يوجهوا لأنفسهم سؤالا وهو:لو كان الموالي يملكون علوم الأولين والآخرين، وعلوم الكون وعلوم الأديان... أما كانوا أحق أن يدعوا لأنفسهم دون محمد ﷺ ؟.

ثم إن القرآن ليس كله قصصا وأخبارا، بل جاء بشرائع تنظم مجالات الحياة كلها بأسلوب

معجز، وتصاريف من القول أعجزت فصحاء الضاد، فكيف ينسجم مع زعمهم أن محمدا تلقاه من البشر ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل: ١٠٣].

إن ما اشتمل عليه آي الذكر الحكيم من حقائق الكون وسننه، وما يتعلق ببدء الحياة على الأرض وما بث فيها من المخلوقات، وما يتعلق بمستقبل ما يجري في قادمات الأيام... دليل على أن القرآن منزل من الذي أحاط بكل شيء علما، بأسرار الكون والمخلوقات في السماوات والأرض، ولم ولن يستطيع أحد أن يبطل حقيقة ذكرها القرآن الكريم ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾.

إن الذين يفترون الكذب ويزعمون أن مصدر القرآن بشري، يعرضون أنفسهم لعذاب الله الأليم، ولولا سعة مغفرة الله ورحمته بعباده لأنزله بهم، ولكن الله رحم أمة الدعوة بتأجيل حسابهم إلى يوم القيامة لعل بعضهم يعود إلى الحق والصواب، فيستغفر الله ويتوب إليه عما كان عليه من الضلال. ووجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم أمان لهم من العقوبة العاجلة﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأنفال: ٣٣].

المناسبة بين المقطع الأول ومحور السورة:

لقد تقدم أن محور السورة هو(الاستدلال على صدق رسول الله ﷺ من خلال معجزة القرآن) والمقطع الأول يتحدث عن شبهة المشركين حول القرآن ودفعها ببيان أن الذي أنزل القرآن عالم غيب السماوات والأرض. فالمناسبة واضحة لأن الحديث في صميم المحور.

من الفوائد المستنبطة من المقطع الأول:

* العناد والجحود يلجيء صاحبه إلى الوقوع في المتناقضات. فالمشركون يقولون بصدق محمد ﷺ ويصرحون له (ما جربنا عليك كذبا قط) ثم يتهمونه بأكبر فرية باختلاق القرآن من نفسه ونسبته إلى الله تعالى.

* شبهات الكافرين حول القرآن الكريم سطحية لا تعتمد على عقل، ولا تصمد للمناقشة والدحض. سواء ما أثارتها قريش، وما يثيرها اليوم المستشرقون وأذنابهم المستغربون. ففي أسلوب القرآن الكريم المعجز ومضامينه الهائلة وتحديه المستمر إلى يوم الدين حجة لمن رام الحق وبحث عنه.
* مشركو قريش أكثر إنصافا من المستشرقين اليوم، لأنهم سلموا بأمية الرسول ﷺ فقالوا عنه إنه اكتتب القرآن أي طلب كتابة القرآن من غيره. وقالوا إن قصص القرآن تملى عليه، أي يقرؤها غيره عليه. لأنه لم يقرأ في حياته كتابا ولم يخط بيده مكتوبا. أما المستشرقون اليوم فيحاولون جاهدين أن يثبتوا أن محمدا ﷺ كان قارئا كاتبا. وأنى لهم ذلك؟

المقطع الثاني

شبهاتهم حول الرسول ﷺ وردها

قال تعالى ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧-١٠].

المناسبة بين المقطع الثاني والمقطع الأول:

بعد أن أثار المشركون الشبهات حول الوحي المنزل، أثاروا شبهات حول الرسول الذي أنزل عليه الوحي. وهذا الترتيب ينسجم مع الترتيب في قوله تعالى﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ حيث ذكر الفرقان أولا ثم الرسول المنزل عليه الوحي.

المعنى الإجمالي للمقطع:

شبهة الأقوام للأنبياء والمرسلين قديمة قدم الرسالات فكل قوم أثاروا هذه الشبهة حول نبيهم، قال قوم نوح عليه السلام لنبيهم ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقال قوم شعيب عليه السلام لنبيهم ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

وقال قوم صالح عليه السلام ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القمر: ٢٤].

وهكذا جميع الأقوام ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾ ﴾ [التغابن: ٦].

وأتبعت قريش سنن من قبلهم من الأقوام فاستغربوا أن يكون الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق..، ويعتوره من الأعراض والهيئات ما يعتور البشر جميعاً.

وهذا جهل من الأقوام بحكمة الله سبحانه وتعالى في الرسالات، وجهل بقيمة الإنسان في ميزان الله العلي الحكيم.

أما جهلهم بحكمة الله: فإن الإنسان خلق لأداء مهمة على وجه الأرض وهي عبادته واستخلافه في عمارتها. كما ذكر القرآن الكريم ذلك ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [فاطر: ٣٩]. ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ [هود: ٥٦] ولمعرفة المهمة والتكاليف المنوطة بالإنسان لا بد من تبليغه بها وبيانها له، والطرق المتصورة في التبليغ ثلاث لا رابع لها.

الأولى: أن يبلغ كل فرد مباشرة من ربه وهذا ينافي الحكمة من الابتلاء، إذ الابتلاء يقتضي الاختبار في الإرادة.

الثانية: أن يرسل إليهم رسولا من غير جنسهم من الملائكة أو الجن، فإن كانوا على صورتهم الأصلية لا تتحقق الغاية من التبليغ، لأنهم لو أتوهم على صورتهم الأصلية لا يتحقق معه التلقي والبيان والتطبيق العملي والقدوة حيث الانسجام بين التكوينين مفقود، يقول تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾[الأنعام: ٨-٩] وإذا ظهر لهم على صورة البشر كانت مطابقة للطريقة الثالثة.

الثالثة: أن يكون الرسول من جنس البشر وهي الطريقة التي يتحقق معها المراد من إرسال الرسل.

إن الحكمة الإلهية لا تتحقق إلا أن يكون رسول البشر من البشر واحد من البشر يحس إحساسهم ويتذوق مواجدهم، ويعاني تجاربهم ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم... وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة التقليد... فيكون هو بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم،.. ولو كان ملكا ما فكروا في عمله ولا حاولوا أن يقلدوه، لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم، فلا جرم يكون سلوكه غير سلوكهم على غير أمل في محاكاته ولا شوق إلى تحقيق صورته[1].

هذه سنة الله في الرسالات أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم يقول جل شأنه ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾[الإسراء: ٩٤- ٩٥].

أما جهلهم بقيمة الإنسان في ميزان العلي الحكيم:

فإن الإنسان خلق من مادة الطين لأنه مهيأ للحياة على هذه الأرض ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾[طه: ٥٥]. وجاء التكريم الرباني من نفخة الروح التي

(١) في ظلال القرآن٥/ ٢٥٥٣ باختصار.

استحق بها سجود الملائكة ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [ص:٧١- ٧٢]. بهذه النفخة الإلهية تميز، واستخلف في الأرض وأودع الاستعداد للاتصال بالملأ الأعلى. فلا مجال للاعتراض على بشرية الرسل إذا أدركنا سنة الله في الرسالات، ومكانة الإنسان في ميزان الله جل جلاله.

ومن خلال اعتراضهم على بشرية الرسول نجد أن لهم قيما معينة ينطلقون منها، ففي تصورهم أن يكون الرسول مستغنيا عن الطعام والشراب، وإن احتاج إليهما فينبغي أن يكون مكفيا عن ذلك بأتباعه فلا يحتاج للمشي في الأسواق للتكسب والسعي على الرزق.

أو يلقى عليه كنز من السماء، فينفق على نفسه وأتباعه لتظهر لهم المزية على غيرهم، فإن لم يكن شيء مما تقدم فلا أقل من جنة(بستان من نخيل وأعناب) يأكل منها. وإن احتاج إلى حماية ونصرة مثلا نزل ملك ليكون نذيرا على معانديه يخوفهم من البطش بهم.

وكل ما اقترحوه أمور مادية منبثقة من قيمهم المادية التي يزنون بها الرجال، فمنتهى نظرهم أن يكون المرء في هذه الحياة وافر المال كثير الأتباع، أما الكمالات النفسية والسمو الروحي والخلقي فلا وجود لها في موازينهم، هذا ما قاله بنو إسرائيل من قبل ﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ ﴾[البقرة: ٢٧٤]. وقالت قريش﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[الزخرف: ٣١].

وإذا لم تتحقق في الرسل مواصفاتهم، فليبحثوا عن سبب دفعه إلى هذه المقولة، وعرض نفسه للصدام مع القوم وقد كان في غنى عن ذلك. في تصورهم لا يقدم على هذا الفعل إلا رجل فقد عقله أو غلب عليه فهو يهرف بما لا يعرف ويقول ما لا يعقل.

﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾.

إنه لعجب حال هؤلاء القوم، كانوا يصفون محمدا قبل البعثة بالصادق الأمين ولم يجربوا عليه كذبا، ولم يعرفوا عنه طيشا في التصرفات ولم يلحظوا عليه انحرافا في السلوك. ولكنهم

اليوم تاهوا واحتاروا في اختيار الأوصاف والألقاب السيئة لإلصاقها بجنابه الكريم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]. لا تستند على حقيقة معقولة ولا على سبب وجيه. وإنما تبرير لبقائهم على معهودات الآباء والأعراف التي نشأوا عليها.

لذا جاء الاستغراب من مقولاتهم هذه ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ [الفرقان: ٩].

ويأتي الرد مجملا لينتقل إلى البيان الدامغ الحقيقي لمقولتهم ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [الفرقان: ١٠-١١].

المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة:

الحديث في هذا المقطع عن الشبهات التي أثارها القوم على رسول الله ﷺ يعد الشق الثاني من المحور، فالمحور كما بيناه يدور حول الاستدلال على صدق رسول الله ﷺ من خلال معجزة القرآن. فالمناسبة واضحة لا تحتاج إلى بيان.

من الفوائد المستنبطة من المقطع الثاني:

* القيم والموازين الربانية مختلفة عن موازين أهل الدنيا فالإصطفاء الرباني لرسله يكون للكمالات الروحية والخلقية، أما المقاييس البشرية فتعتمد على كثرة المال والأتباع والمنصب والجاه.
* مشروعية دخول الأسواق للكسب للأنبياء وأتباعهم، ولا يؤثر ذلك على مكانتهم الرفيعة بل هم قدوة للناس في الكسب الحلال وأداء الأمانة وتطبيق أحكام الله في المعاملات.
* الاتهامات الباطلة لا تؤثر على أهل الحكمة والصلاح والحصافة والعقل لأن واقعهم يكذب تلك الاتهامات والافتراءات، ولا تحتاج إلى جواب لذا جاء الرد الإلهي﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾الفرقان/ ٩.
* أراد الله سبحانه وتعالى لأنبيائه الذكرى الخالدة بمآثرهم الخلقية وعطائهم الثر للبشرية. ليكونوا قدوة الأجيال إلى يوم القيامة.

المقطع الثالث

الدوافع الحقيقية وراء تكذيبهم

قال تعالى﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ
سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ
ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا (١٦) وَيَوْمَ
يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ
(١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ
نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا
وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾ [الفرقان: ١١- ١٩].

المناسبة بين المقطع الثالث وما قبله:

تقدم في المقطع السابق الحديث عن شبهاتهم حول الرسول ﷺ، ثم انتقل في هذا المقطع إلى الحديث عن السبب الحقيقي لتكذيبهم، فإن تكذيبهم لرسول الله ﷺ ودعوته مبني على إنكار الساعة. وجاء تقرير الساعة مفصلا بسرد وقائع تقع بعد قيام الساعة إمعانا في التقرير والتوضيح فكأن وقوع الساعة والبعث بعد الموت أمر مفروغ منه، ولكن قد يلتبس عليهم صور أهل الشقاء، فجاء ذكر مصير المكذبين بالساعة والسعير المتقد عليهم...

المعنى الإجمالي للمقطع:

إن الدافع الحقيقي للمشركين إلى تكذيب الرسول ﷺ وإثارة الشبهات حوله هو إنكارهم قيام الساعة، لأن قيام الساعة يعني هدم ملذاتهم وتنغيص متعهم الهابطة، ولأن البعث بعد الموت يعني محاسبتهم على جرائرهم في الحياة الدنيا.

ولم تورد الآيات الكريمة الأدلة العقلية على قيام الساعة- كما جاءت في سياق آخر-وإنما

ذكر جزاء من يكذب بها، فالنار المستعرة مهيأة معدة لهم، إذا ظهرت للناظر وكانت على مرأى منهم سمعوا الدوي الهائل الذي يدور في جنباتها تكاد تميز من الغيظ من أقوال المجرمين وأفعالهم ومواقفهم من رسل الله ورسالاتهم، كلما اقترب منها فوج شهقت لتجذبهم إلى جوفها. وزفرت لتنفس عما في جوفها من الغيظ. إنه لمنظر رهيب ومصير تعيس ليس منه مفر فهم يساقون إليها سوقا يجرون إليها بالسلاسل مقرنين بالأصفاد، يكبون فيها على وجوههم ومناخرهم، تتعاظم أجسادهم لتتسع دائرة مس العذاب حتى يكون ضرس أحدهم مثل جبل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث[1]، ويضيق عليهم المكان حتى يكون كالزج للرمح، وفوق كل ذلك قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالأصفاد والأغلال، فليس لديهم إلا الدعاء بالويل والثبور على أنفسهم...

وحسب عادة القرآن في التزاوج بين الترهيب والترغيب، والإنذار والبشارة جاء ذكر ما ينتظر المؤمنين المتقين من النعيم المخلد بعد ذكر ما أعد للأشقياء التعساء المكذبين بالساعة.

ويأتي ذلك في صيغة الاستفهام للتوبيخ والتقريع، ولما كان الدافع الحقيقي للمشركين في التكذيب بالساعة هو تعلقهم بمتعهم الدنيوية ورغبتهم في الاستمرار عليها، والإيمان بالساعة معناه انتهاؤهم وزوالهم عنها، جاء التأكيد على الخلود في مثوبة المتقين، فالجنة خالدة ولا تزول ولا تنتهي ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الفرقان: ١٥]. ولقطع دابر الظن أو توهم زوالهم عنها جاء التأكيد على خلودهم فيها ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ﴾ [الفرقان: ١٦]. وذاك وعد من الله عز وجل قطعه على نفسه ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢]. ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ [الفرقان: ١٦]. وبعد عرض تلك الصور المتقابلة لشقاء التعساء، ونعيم السعداء، يتجه السياق إلى تحديد المسؤوليات في الحياة الدنيا عن إضلال الضالين الناكبين عن طريق الحق.

---

(١) انظر في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه. باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء ٨/ ١٥٤.

وتعرض الصورة الجديدة وقد حضر العابدون ومعبودوهم، كل عابد وما عبد من دون الله، يقفون في صعيد واحد، ويوجه السؤال إلى المعبودين سواء كانوا على علم بعبادة هؤلاء لهم أم لم يكونوا عالمين ولا راضين ﴿ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الفرقان: ١٧].

وبدهي في هذا اليوم قول الحق والصدق. فلا مجال للإنكار أو الإخفاء، فأما المعبودون من دون الله من الذين لم يرضوا بعبادة الناس لهم كالملائكة والأنبياء والصالحين، والمخلوقات التي ليس من شأنها النطق في الحياة الدنيا كالكواكب والأشجار والحجارة فتقول ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾الفرقان/ ١٨. ننزهك ونقدسك عن سفه السفهاء وجهل الجهلاء، وإننا كنا في حياتنا الدنيا نعبدك ونثني عليك الخير كله، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، فكيف نتخذ من دونك أولياء، وكيف ندعو الناس إلى عبادتنا ونحن مشفقون من هذا اليوم (إننا نعلم أنه لا ينبغي لنا فكيف نحاول؟)[1].

وإلى جانب توجيه الخطاب العام للمعبودين عامة يخص بعض الأجناس والأفراد بخطاب خاص فمن الذين عبدوا من دون الله الملائكة ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤٢].

وممن عبد من دون الله عيسى عليه السلام فيوجه له الخطاب﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٨/ ٣٣٩.

تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٧].

أما الذين رضوا بعبادة العباد لهم فلهم شأن آخر، حيث يتبرأ كل فريق من الآخر ويحمله المسؤولية ويفصل بينهم فاصل من الكره والبغض ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الكهف: ٥٢]. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٦- ١٦٧].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت: ٢٩].

إنها صورة من الخذلان والندم والحسرة ولكنها لا تنفع أصحابها يومئذ لأنهم في الدنيا كانوا في بطرهم واستمتاعهم بملذاتهم الهابطة، وقلبوا منح الله لهم ورغد العيش إلى وسائل للبغي والطغيان والأشر والبطر﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾الفرقان/ ١٨. فاستحقوا بصنيعهم هذا الهلاك والبوار لأن نفوسهم خلت من الخير وأصبحت قلوبهم قاسية وعقولهم مظلمة كالأرض البور والصحراء القاحلة.

ويعود السياق مرة أخرى إلى تبكيت الضالين مرة أخرى، كيف كنتم تحملون هؤلاء المعبودين مسؤولية ضلالكم؟ هاهم قد كذبوكم في قولكم، ولم يأمروكم بشيء مما نسبتم إليهم فما التوجيه عندكم عما كنتم عليه من ضلال، وما المعدل والمصرف الذي يصرفكم عن المصير المحتوم ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف:٥٣]. إنه العذاب الكبير للظالمين الذين اتخذوا من دون الله آلهة، وكذبوا بكتابه وعادوا رسوله، ولم يرفعوا لدعوة الحق رأسا ولم يلقوا لنداء الله أذنا صاغية.

المناسبة بين المقطع الثالث والمحور:

في هذا المقطع نوع من الاستطراد بذكر ما يجري للمكذبين عند قيام الساعة التي كذبوا بها، وكان إنكارها الدافع الحقيقي لإثارة الشبهات حول القرآن المنزل والرسول المبلِّغ، فإثارة الشبهات من باب ذر الرماد في العيون وإخفاء الدافع الحقيقي للتكذيب.

من الفوائد المستنبطة من المقطع الثالث:

* الدافع الحقيقي لتكذيب المشركين بالرسالة والنبوة هو إنكار يوم القيامة، لعدم رغبتهم في تصور زوال متعهم وملذاتهم في الحياة الدنيا، ومحاسبتهم عليها يوم القيامة. لذا كان رسول الله ﷺ يقول(أكثروا من ذكر هادم اللذات)[1] أي الموت، حتى لا تطمئن النفس إلى هذه الحياة فتتقاعس عن العمل للآخرة.

* الروابط والعلائق بين أصحاب المصالح الدنيوية، وبين الأتباع وبين المتبوعين تنقطع ويعادي بعضهم بعضا يوم القيامة إلا المتقين ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٧]. فلا رابطة يوم القيامة إلا رابطة الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

* الجنة والنار مخلوقتان موجودتان، ففي الجنة النعيم الخالد والمسرات الدائمة وفيها ما لا عين رأت وما لا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفي النار عذاب أليم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]. يصب من فوق رؤوسهم العذاب ويأتيهم الموت من كل مكان وما هم بميتين يتمنون الموت للخلاص من شدة العذاب. فلا يحصل لهم.

* وعد الله سبحانه وتعالى المتقين بالخلود في دار النعيم ووعد الله محقق، وقد أوجبه على

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد. أو ذكر رقم الحديث ٢٤٦٠ والنسائي في الجنائز أو ذكر رقم الحديث والإمام أحمد في مسنده٢/ ٢٩٣.

نفسه تفضلاً وتكرماً. وعلم عباده الدعاء بذلك ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾[آل عمران: ١٩٤]. ولقن الملائكة هذا الدعاء ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾[غافر: ٨].

المقطع الرابع

سنة الله في اختيار المرسلين

وعادة المكذبين المستكبرين

قال الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾[الفرقان: ٢٠ -٢٩].

المناسبة بين هذا المقطع وسابقه:

ذكر في المقطع السابق الدافع الحقيقي لتكذيبهم القرآن الكريم ومعاداتهم رسول الله ﷺ واستطرد إلى ما ينتظرهم يوم القيامة من التوبيخ وإقامة الحجة عليهم والعذاب المهين. عاد السياق في هذا المقطع إلى رد شبهتهم مباشرة ببيان سنة الله في المرسلين. ثم استطرد السياق إلى بيان عتوهم واستكبارهم وتماديهم في طلب الخوارق بإنزال الملائكة أو رؤية الله سبحانه، وتبين أن رؤيتهم الملائكة يعني وقوع القيامة ولا يدرون ماذا ينتظر المجرمين أمثالهم حين يتغير نظام

الكون وتنزل الملائكة حيث يتبرأ الطغاة بعضهم من بعض، وهم يعضون أصابع الندم على فوات الإيمان بالرسول وصحبته.

المعنى الإجمالي للمقطع:

يوجه الخطاب لرسول الله ﷺ، أن لا يلتفت إلى اعتراضات القوم وشبهاتهم، فإن سنة الله سبحانه وتعالى جارية عليه وعلى قومه، فكل من اصطفاه الله جل وعلا لرسالته ابتلي بهذا التكليف وابتلي قومه به. ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

إن هذه الدار دار ابتلاء وفتنة، فإن رسول الله ﷺ فتنة للمشركين إذ زعموا أن حاله مناف للرسالة فلم يؤمنوا به، وكان حال المؤمنين في ضعفهم فتنة للمشركين إذ ترفعوا عن الإيمان بالدين الذي يسويهم بهم، فقد كان أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأضرابهم يعلمون: إن أسلموا وقد أسلم قبلهم عمار بن ياسر وصهيب وبلال فإن السابقة لأولئك. وكانوا يعرضون على رسول الله ﷺ إبعادهم عن مجلسه حتى لا يعيروا بهم إن جلسوا في مجلس كانوا فيه. فكان الرد الحاسم لمطالبهم وأطماعهم ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣ ﴾ [الأنعام: ٥٢- ٥٣].

لقد أعمى العناد والكبر منافذ النور إلى قلوبهم الخاوية، فلا يدرون سنن الله في هذه الحياة الدنيا ولا يعرفون الممكن من غير الممكن، ولا يدركون عواقب الأمور وما يترتب على مطالبهم، يطلبون إنزال الملائكة عليهم، والملائكة لا تنزل على الأرض إلا بمهمة، إما التأييد والنصرة لأولياء الله، أو إنزال العذاب على أعداء الله.

وهؤلاء القوم يعرفون أنفسهم فليسوا بأولياء الله، فنزول الملائكة عليهم ليس في صالحهم.

وطلبوا ثانية أن يروا ربهم، وهذا الطلب نابع عن جهلهم بالنبوات والرسالات، فقد

طلب بعض بني إسرائيل هذا الطلب، فقد جاء على لسانهم ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[البقرة: ٥٥]. إنهم سيرون الملائكة يوم القيامة، ولكنها رؤية تسوؤهم حين يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار، فلا بشرى يومئذ للمجرمين، ويبحثون عن ملجأ ومجير ولا ملجأ ولا محجر، ويقولون عوذا معيذا[١]. أما اغترارهم ببعض ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من إطعام الطعام وإقراء الضيف وسدانة الكعبة وخدمة الحجيج، فقد عوضوا عنها في حياتهم الدنيا بالصحة والجاه والأمن في الديار. فلا وجود لها في الآخرة، أما أصحاب التوحيد والعمل الصالح، فهم آمنون مستقرون في أحسن هيئة وفي خير مقام وأفضل مقيل. فإن مالك الملك المتفرد فيه قرب أهل التوحيد في هذا اليوم وأكرمهم. وأبعد أهل الشقاء وأهانهم، فتراهم في هذا اليوم ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٨]. في هذا اليوم تأكل الحسرة قلوبهم، يعض أحدهم على يديه ندما وحسرة على الفرصة التي واتته ففاتته فلم يتبع سبيل الرسول، لقد كان قرناء السوء يوغرون صدره على الرسول ﷺ ويحولون بينه وبين نور القرآن، فأين هم الآن ؟ لقد تخلوا عنه، ليته لم يتخذهم أخلاء ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[الفرقان: ٦٧].

المناسبة بين المقطع الرابع ومحور السورة:

هذا المقطع وثيق الصلة بالمحور لأنه تناول في بدايته سنة الله في إرسال الرسل وكونهم من البشر يعيشون كأي واحد منهم في المأكل والمشرب والسعي على الرزق، وتعرض في أوسطه لما ينتظرهم يوم القيامة نتيجة استكبارهم على دعوة الحق، وفي آخر المقطع ذكر ندمهم على فوات إيمانهم وصحبتهم للرسول الذي كذبوا به. وكما قلنا فإن الحديث عن تصديق الرسول من خلال معجزة القرآن هو محور السورة.

---

(١) قال الخليل وأبو عبيدة: كان الرجل إذا رأى الرجل الذي يخاف منه أن يقتله في الأشهر الحرم يقول له: حجرا محجورا، أي حرام قتلي، وهي عوذة. انظر التحرير والتنوير: ١٩/ ٧.

من الفوائد المستنبطة من المقطع الرابع:

* سنة الله سبحانه وتعالى في الأنبياء والمرسلين واختيارهم من البشر لتتحقق الحكمة من بعثتهم وكونهم يأكلون ويشربون ويتكسبون في الأسواق لا يتنافى مع مكانتهم عند الله وكونهم من خير البشر، فامتيازهم عن غيرهم في الاتصاف بالكمالات النفسية والخلقية.

* الدنيا دار ابتلاء وامتحان لكل الناس، فالأنبياء والمرسلون مكلفون بأداء رسالات ربهم فهم مبتلون بها، والأمم مكلفة بالإيمان بهم مبتلية بهم، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم... وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك...)[1]. وكذلك الابتلاء والفتنة لسائر الناس فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني، فعلى كل واحد أن يتقي الله ويصبر على الحق ولا يحسد غيره ولا يسخر منه، والله بصير بهم جميعا.

* الجاحد المعاند يتفنن في مطالبه لتبرير موقفه على ما هو عليه من الكفر، ولو أعطي كل طلب لم يكن ليغير موقفه، لأنه يريد التعجيز لا الوصول إلى الحق، كما قال الله سبحانه وتعالى عنهم ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١١١].

* لا ينتفع الكافر بأعمال البر التي عملها كإكرام الضيف والإنفاق على الفقراء والمساكين وغيرها في الآخرة لافتقارها إلى الشرطين الأساسين: الإخلاص فيها لله تعالى ومتابعة شرع الله سبحانه وتعالى ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١١]. وهؤلاء لم يتوفر فيهم شرط الدخول إلى حظيرة الإيمان وهو كلمة التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولكن الله يعوضهم في الدنيا بالصحة والجاه والغنى أما

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة والنار، ١٧/ ١٩٦. المطبعة المصرية بالأزهر، ط١ ١٣٤٩ هـ.

في الآخرة ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣].

* تتجلى الحقائق يوم القيامة، يستبشر المؤمنون بإيمانهم ويسعدون بأعمالهم في مقام صدق عند مليك مقتدر. أما الكافرون المعاندون، فتأكل الحسرة قلوبهم ويندمون ولات ساعة مندم. يترك الصديق صديقه وتحل العداوة والكره والبغض بين الأخلاء لأن كل علاقة مقطوعة وكل رابطة مبتورة إلا ما كان مبنيا على الإيمان بالله ورسوله والعمل الصالح.

المقطع الخامس

شكوى رسول الله ﷺ من تصرفات القوم وتسليته عن ذلك

قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ
نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ
جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ
وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا
﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ
لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَـٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ
كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ
مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٠-٤٠].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

ذكر في المقطع السابق بيان المصير السيء الذي ينتظر المكذبين بالرسول ورسالته يوم القيامة حيث يتخلى الأخلاء عن بعضهم وتناكر القرناء وندموا حيث لا ينفع الندم، جاء الحديث هنا عن شكوى رسول الله ﷺ من هجرانهم للقرآن وعدم تدبره، واقتراحاتهم وشبهاتهم كما جاء

تسلية رسول الله ﷺ في ذلك بذكر سنة الله في جملة من الأنبياء مع أقوامهم والمآل السيء الذي ينتظر هؤلاء كما كان لأولئك.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: قال المشركون:إن كان محمد كما زعم نبيا، فلم يعذبه ربه، ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة، فينزل عليه الآية والآيتين، فأنزل الله:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ ﴾[1].

المعنى الإجمالي للمقطع:

بعد إلقاء القوم شبهاتهم على شخص رسول الله ﷺ، هجروا ما جاءهم به من الهدى والبينات ولا شيء يؤثر في نفس الصادق عندما يرى إعراض الناس عن الصدق، وإتباعهم الباطل والكذب. ولا ألم أشد على نفس المصلح عندما يرى قومه يتركون ما فيه سعادتهم وعزهم وفلاحهم ويتمسكون بما يعود عليهم بالفساد والهلاك والدمار.

فشكاهم رسول الله ﷺ إلى ربه، إنهم هجروا القرآن:

- بترك الاستماع إليه ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت: ٢٦].
- وهجروه بالإعراض عنه إذا طرق سمعهم من غير إرادة منهم﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ ﴾ [الجاثية: ٧- ٨].
- وهجروا القرآن حيث استبدلوا به لهو الحديث من لغو القول السيء ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ

(١) انظر تفسير ابن أبي حاتم برقم (١٥٩٢٢).

﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ [لقمان:٦-٧]. كانوا يقصدون من كل ذلك الحيلولة بين الناس وبين سماع القرآن من رسول الله ﷺ وحملهم على عداوته.

فجاءت تسلية رسول الله ﷺ ومواساته من رب العزة والجلال أن ذلك سنة الله في الرسالات والأقوام وللرسول أسوة بإخوانه المرسلين ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وإمعانا منهم في هجر القرآن حاولوا إثارة الشكوك والشبهات حوله،﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]. فقد سمعوا أن التوراة كتبت لموسى عليه السلام في الألواح، فلماذا ينزل القرآن منجما مفرقا الخمس والعشر في أوقات متباينة ؟!

ويأتي الرد القرآني على مقترحهم المشبوه ببيان الحكمة في نزوله مفرقاً فمن هذه الحكم.

الحكمة الأولى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]. ويكون هذا التثبت في صور:

١- إن القرآن نزل على أمة أمية أنا جيلها في صدورها. ونزوله جملة واحدة يصعب حفظه واستيعابه.

٢- لو نزل جملة واحدة ثم انقطع الوحي لأدى إلى دخول اليأس والملل إلى القلوب، أما تجدد الاتصال والتتابع يسكن القلب بأن ربه ما قلاه ولا ودعه.

٣- إن تكرار نزول الملك بالوحي ينشرح له صدر النبي ﷺ ويتلذذ بهذا العالم الروحي. قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام: ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزل قوله تعالى ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ (١) [مريم: ٦٤].

٤- اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون تربية هذه الأمة بالتدريج، وذلك من لطف الله سبحانه وتعالى بها، فجاء تشريع بعض الأحكام ثم نسخها إلى الأخف للتيسير، أو إلى الأثقل لمضاعفة الثواب، أو المماثل للابتلاء. ونزول القرآن جملة لا يتناسب مع هذه

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة مريم ٥/ ٢٣٧.

المزية العظيمة.

٥- إن تنزيله مفرقا وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها، أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل جملة واحدة، وفي إظهار الحجة عليهم تثبيت لقلب رسول الله ﷺ.

٦- لو لم ينزل القرآن منجما على حسب الحوادث والوقائع لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام، وذلك من تمام إعجازها، لتدخل الطمأنينة إلى قلب رسول الله ﷺ.

الحكمة الثانية: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

والترتيل مأخوذ من الرتل، وهو التتابع في ترسل وتثبت مع التبيين، ووجه الحكمة في ذلك أن الآيات أو السورة إذا نزلت عقب الحادثة أو تبعتها فإن ذلك أدعى إلى الفهم وأقوى لمعرفة دلالة الآيات ومضامينها وأرسخ في الذهن وأشد تأثيرا في النفس.

الحكمة الثالثة: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٣].

استفسارات القوم لا تنتهي، وتساؤلاتهم ليس لها حدود، وكلها من قبيل التعجيز وإثارة الشبهات وكلها تحتاج إلى جواب أو رد، فلو نزل القرآن الكريم جملة واحدة لم يتمكن الرسول ﷺ من إجابتهم أو الرد عليهم في كل مرة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ فلا يأتون بحجة أو شبهة إلا أجابهم الله سبحانه وتعالى بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأفصح من مقالتهم. وهذا الاقتراح أو التساؤل هل هو آخر ما أوردوه عن القرآن وعن الرسول، فقد تقدم جملة من تساؤلاتهم التي نمّقوها ورصفوا ألفاظها فأشبهت الأمثال في غرابتها:

- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾.
- ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾.

-﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾.

-﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾.

-﴿ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾.

-﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾.

لقد قصدوا بهذه الأمور إفحام رسول الله وابتغاء إظهار حاله أنها لا تشبه حال الرسل السابقين، لكن الله قذف بالحق على باطلهم فأزهقه، وجاء رسوله بالصواب وما هو الحق في الاستدلال فبرز أمر رسول الله ﷺ لكل ذي بصيرة.

لقد أرادوا بمقولاتهم تلك الغض من شأن رسول الله ﷺ، فانعكس الأمر عليهم فكانوا خاسئين في الدنيا ويحشرون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم فكانوا شر الناس وأضلهم سبيلا[(١)]. وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ ونصرة له، ووعيد للمشركين وذم لهم.

وفي أكثر من موضع في القرآن الكريم يذكر حشر المناوئين لرسول الله ﷺ الجاحدين لدعوتهم المعاجزين في طلباتهم على وجوههم، فكأنهم يريدون قلب الحقائق والظهور بمظهر مخادع، والجزاء من جنس العمل فيكون حشرهم يوم القيامة فبه قلب لأوضاعهم، كما جاء في سورة الإسراء ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٧].

---

(١) في صحيح البخاري عن أنس بن مالك ﷺ، أن رجلا قال: يا نبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة! قال: أليس الذي أمشاه على رجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة. كتاب التفسير ٦/ ١٤.

ثم ذكرهم بمصير أقوام سبقوهم إلى تكذيب أنبيائهم ورد رسالاتهم، والعاقل يأخذ العبرة من غيره، وأورد في السياق جوانب من قصصهم فيها تعريض بقريش:

أولا: ففي قصة موسى عليه السلام:

أ- ذكر الكتاب الذي أنزل عليه إن هو إلا وحي أوحي إليه من ربه، فجمع في كتاب.

ب- وفي ذكر هارون مع موسى تعريض بالرد على المشركين إذ قالوا﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾فإن موسى عليه السلام لما اقتضت الحكمة تأييده لم يؤيد بملك ولكنه أيد برسول مثله من البشر.

ج- في وصف القوم الذين كذبوا بآياتنا اختزال للقصة واقتصار على ذكر أولها وآخرها لأنهما المقصود للوصول إلى الغاية وهو استحقاق المكذبين التدمير بتكذيبهم رسلهم وفيه تعريض بقريش لموقفهم من رسول الله ﷺ.

ثانيا: وفي قصة نوح عليه السلام:

أ- جاء التأكيد على القوم بأسلوب الاشتغال[1]، لأن حالهم هو محل العبرة فقدم ذكرهم ثم أكد بضميرهم.

ب- في قوله تعالى﴿ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾تعريض بأمرين وقعت فيهما قريش في مجيء(لما)الظرفية إفادة سرعة وقوع الجزاء بمجرد وجود السبب، فما أن وجد التكذيب وجد الإغراق.

وفي مجيء كلمة(الرسل)بصيغة الجمع وهم لم يكذبوا إلا رسولهم نوحا عليه السلام، لأن تكذيب رسول واحد تكذيب لسائرهم جميعا، لأن دعوتهم واحدة وهو تعريض بقريش أيضا، لأنهم قالوا لرسولهم كما قالت قريش ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ

(١) قوم: منصوب بفعل محذوف يفسره المذكور بعده تقديره(وأغرقنا قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم).

مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

ج- في تذييل قصصهم بقوله ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾وهي قاعدة عامة تنطبق على كل ظالم ومنهم قريش الذين قالوا عن القرآن وعن الرسول ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان: ٤].

ثالثا: ثم أدمجت قصص أقوام ثلاثة كانوا بالقرب من ديار قريش جنوبا وشمالا وشرقا وهم من القبائل العربية المعروفة لقريش.

أ- فقبيلة عاد كانت تسكن الأحقاف جنوب الجزيرة العربية في حضرموت وما جاورها وأرسل إليهم نبي الله هود عليه السلام ﴿ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦].

ب- وقبيلة ثمود كانوا يسكنون الحجاز شمال الجزيرة العربية(مدائن صالح)، أرسل إليهم نبي الله صالح عليه السلام فكذبوه فأهلكوا بالصيحة الطاغية المزلزلة.

ج- وأما أصحاب الرس[1]: فكانوا يسكنون وسط الجزيرة العربية بوادي الرمة. كما قال زهير بن أبي سلمى:

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن ووادي الرس كاليد للفم.

يقول المفسرون: كان نبيهم يسمى(حنظلة بن صفوان). قيل خسف بهم وقيل أخذتهم الزلزلة بعد أن قتلوا نبيهم، وقيل سدوا عليه باب البئر.

رابعا: وقرونا بين ذلك كثيرا:

التعبير بالقرون يدل على كثرتهم وامتدادهم عبر التاريخ لأن سنة الله تعالى ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]. ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]. ولقد

---

(١) الرس: البئر غير المطوية (غير المبنية).

أهلكوا جميعا لتكذيبهم رسلهم.

خامسا: القرية التي أمطرت مطر السوء وهي قرية لوط، والعبرة بهم أبلغ لأنهم يمرون عليها في رحلة الصيف إلى بلاد الشام للتجارة ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨].

لقد ورد ذكر مصائر هؤلاء الأقوام الذين يحيطون بقريش وكانت قريش على علم بتاريخهم وأيامهم ليتفكروا في مآلهم، إن أولئك كما الحال مع قريش «كانوا لا يؤمنون بالبعث فلم يكن لهم استعداد للاعتبار، لأن الاعتبار ينشأ عن المراقبة ومحاسبة النفس لطلب النجاة، وهؤلاء المشركون لما نشؤوا على إهمال الاستعداد لما بعد الموت قصرت أفهامهم على هذا العالم العاجل، لم يعنوا إلا بأسباب ووسائل العاجلة»[1].

إن ذكر كل هؤلاء ومصائرهم تحذير لقريش، وتسلية لرسول الله ﷺ.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

هذا المقطع وثيق الصلة بالمحور لأن فيه رداً على شبهات المشركين وتحذير لهم بذكر مصير أقوام ارتكبوا صنيعهم في تكذيب أنبيائهم ورد ما أوحي عليهم.

كما أن اشتمال القرآن على هذه الأنباء عن الأنبياء السابقين وأممهم دليل على أن الله أوحى به إلى نبيه محمد ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٩].

من فوائد ما يستنبط من المقطع الخامس:

* الوسيلة الفعالة في الدعوة إلى الإسلام هي القرآن الكريم، وأدرك الجاهليون قديما دور القرآن فهجروه بعدم الاستماع إليه، واللغو عند قراءته، وترك الإيمان به وصد الناس عنه، والدعوة

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٩/ ٣١.

إلى ترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والعدول عنه إلى أنظمة الجاهلية.

* كما أدرك الجاهليون المعاصرون دور القرآن في حياة المسلمين فقال قائلهم: لن يقر قرار للغرب في بلاد المسلمين ما دام القرآن في أيديهم، وما دامت الكعبة قبلتهم يتوجهون إليها خمس مرات في اليوم[1].

* شبهات أعداء الإسلام حول القرآن الكريم وحول الرسول الله ﷺ مستمرة منذ بعثته عليه الصلاة والسلام إلى اليوم، وفي كل عصر يضيفون إلى افتراءات من تقدمهم من الجاهليين ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف: ٨].

* منطق أهل الشرك واحد: إنكار الغيب، الاعتراض على بشرية الرسل، تكذيب ما جاء من عند الله(الكتب المنزلة)، إنكار البعث بعد الموت. هذا ما ظهر من قوم نوح ومن بعدهم إلى مشركي قريش وإلى يومنا هذا.

* سنة الله الغالبة تدمير المكذبين وإهلاكهم ونصر رسله وأنبيائه، إلا أن العذاب المستأصل لأمة الدعوة بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام أخره إلى يوم القيامة تكريما لرسول الله ﷺ كما أخبر القرآن بذلك ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٣]. فقد نصر رسوله على أعدائه من غير أن يستأصل الكافرين.

* أهل الحجا والنهى وأولوا الألباب الذين يأخذون العظة والعبر من غيرهم ويدرسون الأسباب التي أودت بالممالك والحضارات السابقة ودمرتها فيجتنبون مسالكهم، وطرائقهم في الحياة وإدارة شؤونهم.

---

(١) في كلمة لوزير المستعمرات البريطانية.

المقطع السادس

الاستهزاء والسخرية سلاح العاجز عن الحجة

قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان:٤١-٤٤].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

- عودة من القوم إلى الطعن في الرسول ﷺ، وهذه المرة لم يجدوا ما يثيرون حوله من شبهات فلجأوا إلى السخرية والاستهزاء، وهو دليل إفلاس القوم وفراغهم الفكري والنفسي.
- والحكمة في تأخير ذكر استهزائهم برسول الله ﷺ - والله أعلم- تكريم رسول الله ﷺ فكأنه قيل: إذا كان القوم قد تطاولوا على الذات الإلهية فاتخذوا معه شركاء، واعترضوا على كلام الله المنزل وقالوا عنه أساطير الأولين واعترضوا على طريقة نزوله... فلا غرابة أن يستهزئوا برسول الله ﷺ، وقد انعكست عندهم القيم والمفاهيم فهم كالأنعام... وفي كل ذلك تطييب لقلب رسول الله ﷺ قبل ذكر استهزائهم به وتوقحهم عليه.

المعنى الإجمالي للمقطع:

لقد تفنن المشركون في المطالب وتفننوا في إثارة الشبهات والاتهامات فلم يجدوا أثرا لتفننهم واتهاماتهم على المعجزة والرسول، ولم يصلوا إلى غايتهم في ثني رسول الله ﷺ عن المضي قدما في تبليغ رسالة ربه، لجأوا إلى السخرية والاستهزاء وهو علامة إفلاسهم الفكري، فلو وجدوا مسلكا في إثارة شبهة أو أسلوبا جدليا في الطعن لما ادخروا وسعاً في ذلك.

لقد ألقى الله الحق على باطلهم فأزهقه، وما أتوا بمثل إلا جاء الله بالحق وأحسن تفسيرا، فلم يبق أمامهم إلا الاستهزاء بالرسول والحط من شأنه لتنفير الناس منه وصرفهم عن دعوته،

هذا منطق الطغاة والعتاة عبر القرون، فقد قال فرعون قبلهم يخاطب قومه ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦] وقال أيضاً ﴿ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٥١- ٥٢]. وهؤلاء يقولون عن رسول الله ﷺ ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ ﴾ [الفرقان: ٤٢]. ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف: ٣١].

ولكن عندما تزال الحجب وتتكشف الحقائق، يتميز الضلال عن الهدى ويبرز المصلح من المفسد وتوضع موازين الحق ﴿ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٢]. إن هؤلاء المشركين ليس لديهم أثارة من العلم المنقول يتبعونه في ضلالهم، وليس لهم أسلوب من التفكير السليم يوصلهم إلى ما يعتقدون، وليست عندهم حجة أو برهان من المحسوس يستندون إليها، إنهم يرددون كالبهائم شعارات جوفاء سمعوها من أسلافهم. ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠- ١٧١].

إن هؤلاء الذين أعطوا ملكة العقل والتفكير ثم عطلوها واتبعوا أهواءهم، أضل سبيلا من البهائم التي لم تستخدم ما وهبها الله في غير ما خلقت له، والبهيمة تقدّر من أحسن إليها فلا تؤذيه، والبهيمة لم تتخذ مع الله إلها آخر بل تسبح الله وتحمده ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل: ٤٩- ٥٠]. لقد استحق المستهزئون هذا التحقير والعلة واضحة والحكمة ظاهرة، أما استهزاؤهم برسول الله ﷺ ومحاولة الحط من شأنه فهو جائر ظالم لا مبرر له.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

لقد اشتمل المقطع على دفع شبهة وطعن في رسول الله ﷺ حيث استخدم المشركون أسلوب السخرية والاستهزاء للحط من شأنه، فرد الله كيدهم في نحرهم، وبين أنهم المستحقون له لانحطاطهم إلى دركات الجهل والبهائم العجماوات، وهذا الدفاع من صلب محور السورة حيث لا يبرز صدقه ولا تظهر مكانته إلا إذا أزيح ركام الباطل وقتم الأراجيف عن شخصيته النبيلة الطاهرة.

من الفوائد المستنبطة من المقطع:

* أهل الشرك والضلال والباطل يحاولون تبرير مواقفهم والبقاء على ما هم عليه بشتى الوسائل والأساليب، باتهام خصومهم بالضلال وإثارة الشبهات حولهم والتهكم والاستهزاء بهم لإقناع أنفسهم بسلامة مواقفهم... وأنى لهم ذلك ؟.
* إن الذي لا يستخدم ما وهبه الله سبحانه وتعالى من المزايا والمواهب والإمكانات فيما خلقت له أسوأ حالا من الأنعام التي تنحصر حركاتها على ردود الأفعال الانعكاسية للغرائز المودعة فيها. لذا لا حساب ولا عقوبة على الأنعام في الآخرة. أما الكافر فعليه الحساب والجزاء جراء ما اقترفت يداه من الآثام والموبقات.
* لم يعبد إله في الأرض كالهوى، فلا دليل من النقل ولا حجة من العقل تؤيد عبادة غير الله سبحانه وتعالى، وإنما اتباع الهوى، لذا كان متبعوا الهوى أضل من البهائم حيث منحوا العقل للتفكير في الحال والمآل، فلم يفكروا إلا في شهواتهم العاجلة الفانية.

المقطع السابع

من دلائل النبوة، الحقائق الكونية التي وردت على لسان الأمي

قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٥-٥٥].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

بعد الحكم على القوم في المقطع السابق أن لا سبيل لإفهامهم ولا رجاء في اهتدائهم عن طريق المحاكمات العقلية، جاء في هذا المقطع جملة من الظواهر الكونية المحسوسة، لعلها تثير فيهم التأمل والتدبر، فإن هذه الظواهر تدل على النظام في الكون، والإرادة المدبرة لشؤونه، ولا يمكن أن تكون صدفة عمياء أوجدت هذا النظام الكوني الدقيق الذي يحقق مصالح المخلوقات في هذا الكون...

إن تدبر المشاهد المحسوسة في الكون سبيل للتفكير فيما وراء المحسوسات من عالم الغيب فإن المحسوسات طريق إلى المعقولات، وهي طريق للإيمان بعالم الغيب.

وهذا المقطع تفصيل لقوله تعالى ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٦].

تمهيد بين يدي البحث في الآيات الكونية:

كثر الحديث في عصرنا عن ما يسمونه التفسير العلمي والإعجاز العلمي في الآيات الكونية. وانزلقت أقدام بعض الباحثين نتيجة اندفاعهم وراء المكتشفات الحديثة وحاولوا ليّ أعناق النصوص الكريمة وتحميلها ما لا تحتمل من التفسيرات لمسايرة التطور الفكري والصناعي. وكان في المقابل ردود أفعال عند بعضهم مما جعلهم يديرون ظهورهم للحقائق القرآنية التي وردت الإشارات إليها في القرآن الكريم في الآفاق وفي الأنفس. ونذكر فيما يلي بعض الضوابط التي تعصم الباحثين من الزلل عند البحث في مثل هذه الآيات الكريمة:

أولاً: القرآن الكريم كتاب هداية، والإشارات التي وردت في آياته تنسجم مع هدف إخراج الإنسان من متاهات الضلال وظلمات الشرك إلى نور التوحيد، وتنبيه الغافلين إلى حكمة الله في مخلوقاته والتفكير في الحال والمآل. ولا ينبغي تفسير الآيات على وجه يخرج القرآن عن هذه المهمة.

ثانياً: أن يجعل الباحث الحقائق العلمية المسلم بها عند أهل الاختصاص مجال الاستشهاد بها وترجيح دلالات الآيات وأقوال المفسرين بعضها على بعض، ويبعد النظريات والفرضيات عن مجال البحث والترجيح. وذلك تنزيها للنصوص الكريمة من تطرق احتمال الشك والغش في دلالاتها.

ثالثا: عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة العلمية الواحدة

إن من إعجاز القرآن وأسرار خلوده أسلوبه المرن الذي يسع فهوم الأجيال المتعاقبة وخاصة في الآيات الكونية والسنن الاجتماعية، فلو برزت حقيقة علمية في عصر ما لا ينبغي قصر دلالة الآية عليها، بل تكون تلك الحقيقة أحد أوجه دلالة الآية، وتبقى مجالات أخرى تتسع دلالات الآية لها.

رابعا: استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية

إن الحقائق التي خلقها الله سبحانه وتعالى في الكون، والحقائق التي أشار إليه القرآن

الكريم تخرج من مشكاة واحدة ومن مصدر واحد، فيستحيل التناقض بينهما ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾الفرقان/ ٦.

وإن توهم بعض الباحثين التناقض بينهما، فمرجعه إلى أحد أمرين:

- إما أن ما ظنه حقيقة علمية ليست كذلك وإنما هي نظرية، شاعت وانتشرت فتوهمها حقيقة علمية.

- وإما أن يكون فهمه للآية غير سديد لعدم رجوعه إلى دلالات الآية المختلفة، واقتصاره على وجه واحد منها، فكان هذا الوجه مرجوحا.

خامسا: ترك الإفراط والتفريط.

الالتزام بالمنهج الوسط عند البحث في الآيات الكونية فلا تحمل أكثر مما تحتمل ولا تلوى أعناق النصوص لتتسع دلالة معينة. كما لا ينبغي إهمال الإشارات الدقيقة إلى الحقائق العلمية التي وردت فيها، بل يتوجه الباحث حيث توجهه الآيات الكريمة إسهابا أو اختصارا.

ولا ينبغي أن توجهه قناعاته المسبقة حول قضية ما. فالقرآن هو الموجه وهو الهادي إلى المنهج الأمثل في البحث.

المعنى الإجمالي للمقطع:

اشتمل هذا المقطع على جولات في أرجاء الكون المنظور تخللها وقفات وتعقيبات للنظر والتدبر:

الجولة الأولى: (الظل والشمس).

امتداد الظل وتقلصه تبع لقرب الشمس من الأفق وابتعادها منه، وهي النظرة السطحية الظاهرة أما النظرة الاختصاصية فتقول إن ذلك تبع لدوران الأرض حول نفسها حيث يتولد الليل والنهار لمقابلة ضياء الشمس، فكلما دارت الأرض امتد النور لتتقلص ظلال الأجسام على الأرض.

ومن الجانب الآخر ليمتد الظل من جديد للأجسام، وحيثما كانت الشمس عمودية على

جسم فلا ظل له. بهذا الاختلاف في النظام توجد أسباب الحياة على الأرض، ولو شاء الله لجعل الظل ساكنا كما هو الحال في ظل القمر أو غيره من الكواكب التي تقابل الشمس بوجه واحد، فالوجه المقابل للضياء يحترق من الحر والوجه الآخر يتجمد من البرد، فنظام دوران الأرض وتعاقب الليل والنهار هو السبب في تهيئة الأرض للحياة.

أما القبض اليسير للظل فهو إشارة إلى اعتدال الكرة الأرضية عن محورها المائل بدرجة قدرها الفلكيون بـ ٢٣° لينشأ اختلاف الفصول، واختلاف الليل والنهار طولا وقصرا في الشتاء والصيف، وتساويهما في الخرف والربيع. يقول عز من قائل ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

الجولة الثانية: (الليل والنوم، النهار والنشور): ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٧].

هذه الظواهر الأربع آثار للظل والشمس، فإذا امتد الظل فغطى جانبا من الكرة الأرضية جاء الليل فغشي ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ ﴾ [الليل: ١]. والساعة البيولوجية لدى الإنسان موزونة على ذلك فيدب الفتور والسكون إلى أنحاء الجسم فتهدأ الأعصاب وترتخي العضلات ويحدث النوم(الموت الأصغر كما عبر عنه القرآن) ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر: ٤٢]. ونوم الليل يحقق الراحة للجسم أكثر من نوم النهار في آي وقت آخر، وهو من التكامل في نظام الكون الذي تشكل حياة الإنسان ونظام عمله جزءا منه ﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ [النبأ: ٨- ١١]. كان من دعاء رسول الله ﷺ بعد قيامه من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما

أماتنا وإليه النشور»[1]. هذا النظام الكوني الدقيق تتكامل معه العادات والطبائع التي أودعها الله في النفس الإنسانية، فلا تصادم بين النظامين، بل انسجام وتآلف وتلاؤم.

الجولة الثالثة: (الرياح والمطر).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٨- ٤٩].

ظهور السحب في الأفق وملامسة الرياح الرطبة للوجه، تدخل البشر والسرور إلى نفوس الناس وبخاصة من ترتبط حياته بالزراعة والماشية، لأن في ذلك بشائر المطر والخصب والفناء.

وعلاقة الرياح في تكوين السحب والتأليف بينها وسوقها إلى مساقط المطر علاقة وطيدة وأساسية، وقد أشار القرآن الكريم إلى جملة من هذه الحقائق وفي آيات عديدة منها:

- قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [الروم:٤٨].

- وقوله عز وجل﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور: ٤٣].

ويقول جل جلاله ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر: ٢٢].

- ويقول تبارك اسمه ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

إن هذه الحقائق في الرياح والسحب والمطر وتكييف حرارة الأجواء لم يصل إليها الإنسان

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام: ٧/ ١٤٧.

إلا بعد تطور علم الأرصاد واستخدام الأجهزة الحديثة في هذه الدراسات، يقول المختصون (... عندما يتبخر الماء يمتص كمية من الحرارة من الجو المحيط في المناطق المدارية، فيعمل على تلطيف جوها، وعندما يتكاثف بخار الماء ويتحول إلى سحب وأمطار في المناطق الباردة، فإنه يعيد إلى الجو نفس الطاقة الحرارية التي اكتسبها عند تبخره من قبل. وبهذا يتم رفع درجة حرارة المناطق الباردة إلى حد ما، وكأن هذه الدورة تكييف إلهي مذهل جبار. ولا بد من استمرارها من أجل عدالة التوزيع الحراري على سطح الأرض). [1]

- الماء والحياة: بقول عز من قائل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٨- ٤٩]. ويقول جل شأنه ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].
من الحقائق العلمية المسلم بها: حيث يوجد الماء ابحث عن الحياة.

وخاصية الطهارة والنظافة في الماء خاصية لا يشاركه شيء آخر فيها، فطهارة الأجسام ونظافة الهواء والأجواء والسهول والبطاح والجبال والوديان لا يكون إلا بالماء الطهور.

وإحياء البلد الميت، وسقيا البلاد والعباد والأنعام لا يكون إلا بالماء العذب الفرات ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر: ٩].

الجولة الرابعة: وقفة للتذكير والتعقيب.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٠ -٥٢].

---

(١) انظر الكون والإعجاز العلمي للقرآن/ للدكتور منصور حسب النبي ص١٩٠ ط دار الفكر العربي.
ويقول المؤلف (إن المناطق المدارية على الأرض- حيث أشعة الشمس القوية- أشبه ما تكون بالغلاية في ماكينة التكييف، والمناطق الباردة أشبه ما تكون بالمكثفات فيها.

ذهب جمهور المفسرين إلى إعادة الضمير في (صرفناه)إلى الماء، ومعنى تصريف الماء جريانه في مسالك الأرض ووديانه، حيث تتحقق مصالح العباد بها بالإفادة منه في مجاري الأنهار وينابيعه من العيون والآبار، ومواطن تجمعه في البحيرات والغدران، ولكن أكثر الناس أشركوا بالله وقالوا إنما مطرنا بنوء كذا وكذا، ولم ينسبوا الفضل إلى الله تعالى. كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه يوما على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، وكافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، ومؤمن بالكوكب». [١]

وذهب قلة من المفسرين إلى إعادة الضمير في(صرفناه) إلى القرآن، وإن لم يتقدم له ذكر ويعضد هذا القول سياق الآية حيث جاء بعدها(وجاهدهم به) [٢]. كما يرجح هذا القول الاستعمال القرآني لكلمة(صرف) المشددة المسندة إلى الله تعالى، والتي تأتي بمعنى التحويل من حال إلى حال أو من وجه إلى وجه آخر [٣]. كما في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [الإسراء: ٤١] وقوله سبحانه ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣]، وغيرها كثير.

ووجوه تصريف القول في القرآن الكريم كثيرة متنوعة، فمن ألوان التصريف: توجيه الخطاب إلى الفطرة الإنسانية، ومخاطبة العقول والقلوب بالحق الناصع والحجة المقنعة. ومنها الأسلوب البياني الذي يسيطر على المشاعر والعواطف بسحر البيان، ومنها ما يعرضه القرآن من مشاهد يوم القيامة ما تتفطر له القلوب ويهتز له كيان الإنسان ويقشعر له بدنه. ومن ألوان تصريف القول ما ورد فيه من قصص الغابرين الداعية إلى الاعتبار بما آلوا إليه. ومن ذلك ما

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان ١/ ٥٩.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١١/ ٤٩.

(٣) انظر مفردات الراغب ٤١٣، وعمدة الحفاظ للسمين الحلبي ٢٩٢، مادة صرّف

ورد فيه من الحقائق الكونية المذهلة.

كل هذا من تصريف القول في القرآن وآياته، وهي من أنواع أسلحة الجهاد بالقرآن الكريم ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

الجولة الخامسة: البرزخ بين البحرين.

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٣].

ظاهرة عدم اختلاط الماء العذب بالماء المالح من الظواهر التي أدركها الناس بأشكال وصور مختلفة:

- على شكل أنهار ضخمة تحت مياه المحيطات، أمكن رصدها من الجو.
- وجود ينابيع عذبة تحت ماء البحر في المياه الضحلة.
- في مصبات الأنهار الكبيرة في البحار حيث تتكون أحواض وحجر محجورة تمتاز بخاصيتها عن مياه النهر، ومياه البحر في الكائنات الحية، والنباتات والأملاح.

ويعلل المختصون هذا التمايز بين المياه العذبة والمياه المالحة بوجود ظاهرة (المط السطحي) أو قوة التوتر السطحي. الناشئة من اختلاف التجاذب بين جزيئات الماء العذب والمالح لاختلاف كثافتهما، فيبدو الحد الفاصل بينهما. «فسبحان من جعل بين العذب الفرات- النهر- وبين البحر الملح الأجاج برزخا مائيا- وهو الحاجز المائي المحيط بماء المصب- حبسا على كائناته الحية، ممنوعا عن الكائنات الحية الخاصة بالبحر والنهر»[1].

(١) من أوجه الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عالم البحار ص١٧ من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة.

الجولة السادسة: خلق الإنسان- النسب والصهر-

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٤].

خلق الجنين من ماء النطفة الأمشاج أغرب وأعقد من حال الكائنات الحية التي تخلق من ماء السماء، إن الخلية الواحدة من ماء الرجل والخلية الواحدة من ماء المرأة(البويضة) تحملان عناصر الوراثة للجنس كله، وللأبوين وأسرتيهما القريبتين، لتنقلها إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى كل منهما بحسب ما ترسم له يد القدرة الإلهية من خلق واتجاه في طريق الإنسان.

فجعل هذا المخلوق ذكرا يتزوج فيولد له ويثبت النسب إليه، أو أنثى فتتزوج فيصاهر بها. وبوجود هذه القرابات من الأصهار- وهم أهل بيت المرأة بالنسبة للزوج- والأحماء- وهم أهل بيت الرجل بالنسبة للزوجة- تقوم العلاقات الاجتماعية. وتتلاحم وشائج الأرحام.
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣].

الجولة السابعة: تعقيب واستغراب.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٥].

يأتي التعقيب والاستغراب بعد هذه الجولات في الآفاق والنفس الإنسانية التي تدل على تفرد الله سبحانه وتعالى في الخلق والإبداع، وافتقار كل شيء من المخلوقات إليه، كيف يتخذ هؤلاء الكافرون من دون الله آلهة هي عاجزة عن جلب النفع لأنفسها ولعابديها أو دفع الضر عن أحد.

لكن الكافر الذي حجب العقل عن التفكير والفطرة عن الاشتياق لخالقها هو عدو للحق حرب على أولياء الله، فهو يحارب الله عندما يكذب بآياته، ويحارب رسول الله عندما يزعم أنه افترى هذا القرآن من عند نفسه ونسبه إلى ربه، وفي كل ذلك هو عون للشيطان يعلن العداوة لربه ولكتابه ولرسوله.

مناسبة المقطع السابع لمحور السورة:

هذا المقطع وثيق الصلة بمحور السورة، ففيه إبراز لوجوه من إعجاز القرآن الكريم من خلال سنن الله في الآفاق والأنفس. وقد جاءت هذه الحقائق الكونية على لسان النبي الأمي الذي لم يكن له عهد بها كما لم يكن للمشركين عهد بها.

إن ورود هذه الحقائق الضخمة في آيات القرآن الكريم دليل باهر على أن القرآن كلام الله المنزل من لدن العليم الخبير ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٦].

من الفوائد المستنبطة من المقطع:

* من نعم الله العظمى بث دلائل قدرته في الكون، ولفت النظر إليها، ليتدبرها العقلاء ويؤمنون بالخالق جل وعلا عن قناعة، فيقومون بتوجيه العبادة والإخلاص فيها له وحده لا شريك له.
* المنهج القرآني في الاستدلال على الغيبيات البدء بالمحسوسات التي لها أثر في حياة الناس ومصالحهم ثم الترقي بهم للاستدلال من خلالها إلى خالقها ومدبر شؤونها ومسخرها لمصالح العباد. وقدرته على البعث بعد الموت للحساب والجزاء.
* ورود الحقائق الكونية في آيات القرآن الكريم دليل باهر على مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزيل من الذي يعلم السر في السماوات والأرض، لأن علم البشر على الرغم من تقدمه عاجز عن اكتناه الحقائق التي وردت فيه، فكيف يزعم الجاحدون المعاندون أن هذا القرآن افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون.
* الكافر المعاند، عدو للحق، عدو لنفسه، عدو لمصالحه. فإنه في صف عدوه مشاق لله ولرسوله. إنه نسي الله فأنساه نفسه، فهو حرب على الله ورسوله سلم لأعدائه. وهذه المشاقة والعداوة لا تنفعه لأن من يناصرهم ليس لهم من الأمر شيء في الدنيا والآخرة. ومآلهم جميعا إلى الله ليجازي كلا على ما قدم.

المقطع الثامن

مهمة الرسول ﷺ ومنهجه في دعوة المعاندين

قال تعالى﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٦- ٦٢].

المناسبة بين المقطع وسابقه:

بعد بيان الدلائل والبراهين الحسية والفعلية على إثبات وحدانية الله تعالى، وبطلان ما هم عليه من عبادة ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ذكر ما يتعلق بمهمة الرسول ﷺ الرئيسية وهي البشارة والإنذار، وأن لا يحزن على إعراضهم عنه، وأن يفهمهم أنه غير طامع من دعوتهم أن يعتز باتباعهم إياه. (١)

المعنى الإجمالي للمقطع:

جاءت الآيات في هذا المقطع بنوع من التسلية لرسول الله ﷺ، لإصرار القوم على عبادة ما لا ينفعهم ولا يضرهم، وتنكرهم للحق الذي جاء به الرسول ﷺ، لأن مهمة الرسول هي التبليغ- البشارة والإنذار- وليس مطالبا بهدايتهم وحملهم على الإيمان به وبرسالته، فهذا تحت مشيئة الله خالقهم، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ [القصص: ٥٦]. ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف: ٦].

وبعد قصر مهمة الرسول ﷺ على البشارة والإنذار، عطف عليه الأمر بأن يذكرهم أنه لا

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٩/ ٥٧ بتصرف.

يبتغي بذلك منهم أجرا ولا مالا ولا جاها.

ولما كان الاستمرار في دعوة القوم إلى قوة دافعة وعزم قوي، جاء الأمر بأن يتوكل على الحي الذي لا يموت، الغني عن كل شيء، الذي لا يضام من توكل عليه، ولا يذل من والاه، وتسبيحه وتمجيده آناء الليل وأطراف النهار، وتنزيهه عما ألصق به الجاهلون السادرون في ضلالهم من صفات النقص والعجز، فإنه خبير بما ينسبون إليه، سميع بما يقولون عنه، عليم بدخائل نفوسهم العاتية وعقولهم الزائغة.

إن في جملة ما ينزه عنه الحي القيوم إضاعته من يتوكل عليه أو إنقاص أجره، وخذلانه من يستنصره وعجزه عن عقوبة من يكفر به ويكذب رسوله.

ومن مظاهر كمال قدرته وعظمته تفرده بخلق السماوات والأرض، ووضع نظامها، وبث المخلوقات فيها ووضع أقواتها وطاقاتها، وخلق السنن التي تسير بموجبها، كل ذلك في ستة أيام، فكيف يكفر بهذا الخالق العظيم وكيف يجحده الجاحدون ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

إن هؤلاء المعاندين لا يزالون على عنادهم - مهما أقيمت عليهم الحجج وبرزت لهم البينات وذكرت لهم صفات الجلال والكمال - فإذا طلب منهم الخضوع للرحمن بعد كل ما تقدم قالوا: وما الرحمن؟! مستغربين متجاهلين، واستهزؤا بمن دعاهم وغالطوا وقالوا: انظروا إلى هذا الصابيء ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو الله ويدعو الرحمن. وما أدركوا أن لله الأسماء الحسنى ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]. ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠].

إن الرحمن قد سبقت رحمته غضبه، فهو يحسن إلى عباده في الدنيا كافرهم ومؤمنهم، فلا

يقطع عنهم الرزق والرعاية، وسخر للجميع السنن الكونية، وأطلق للجميع السعي للتعرف عليها وتسخيرها لمصالحه ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾[الإسراء: ٢٠].

ومن رحمته بعباده أن جعل في السماء بروجا، وخلق فيها السراج الوهاج والقمر المنير فتولد من خلق الشمس ووضع نظام المجموعة الشمسية وفق تلك البروج الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر، فهل من متدبر لدقائق صنع الله تعالى في هذه البروج والليل والنهار. فإن فيها الدلائل الباهرة على عظيم قدرة الخالق جل جلاله وواسع رحمته بعباده، مما يستوجب شكر المنعم على إنعامه ولطفه بعباده. (١)

مناسبة المقطع الثامن لمحور السورة:

محور السورة هو تصديق رسول الله ﷺ من خلال معجزة القرآن، وهذا المقطع يصب في إبراز مهمة الرسول ﷺ وهي البشارة والإنذار، من خلال تبليغ الناس رسالة ربه المتمثلة في القرآن الكريم، وأن لا يتطرق اليأس إلى قلبه بسبب عنادهم واستهزائهم به وبما جاءهم به من الحق. واتهامه بالرغبة في الزعامة عليهم أو جمع حطام الدنيا.

إن هذا المقطع رافد هام يصب في مجرى السورة وتيارها لإبراز شأن الرسالة وصدق الرسول في دعوته وصبره على الاستمرار في أداء مهمته.

من الفوائد المستنبطة من المقطع:

* هم الكافر ومبلغ علمه الحياة الدنيا وزينتها من المال والجاه والشهوات، لذا يتهمون

(١) يقول علماء الفلك: عدد البروج اثنا عشر برجا، وتنقسم إلى قسمين: شمالية تخص الربيع والصيف وجنوبية: تخص الخريف والشتاء. وبحلول الشمس في كل برج يختلف الزمان حرارة وبرودة، والليل والنهار طولا وقصرا. مما له الأثر الكبير في الحياة على الكرة الأرضية وسكانها. انظر روح المعاني للآلوسي ١٩/ ٤٠. بتصرف واختصار.

المصلحين في كل العصور بأنهم يريدون ذلك المتاع بدعوتهم، ولا ترتقي مداركهم إلى الأجر الأخروي الذي يرغبون فيه، وما عند الله خير وأبقى.

* على الدعاة إلى الله والمصلحين الذين يسعون إخراج الناس من الظلمات إلى النور، أن يتوكلوا على الله سبحانه وتعالى حق التوكل مع اتخاذ الأسباب الظاهرة، وأن لا يتطرق اليأس إلى قلوبهم إذا قابلهم الجاحدون المعاندون بالتهم الباطلة، والاستهزاء والسخرية فإن العاقبة لهم، ولهم الأجر الوافر عند ربهم يوم القيامة.

* الله جل جلاله خالق كل شيء، يقول للشيء كن فيكون، إلا أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ليعلم الناس التثبت والتروي والتؤدة. وخلق العرش واستوى عليه استواء يليق بجلاله وكماله وعظمته، وما على الجاهل إلا أن يسأل خبيرا بالله أو عالماً، ثم يتبعه ويقتدي به.[1]

* من لطف الله بعباده ورحمته بهم أن جعل في السماء بروجا للشمس ومنازل للقمر. وجعل الشمس ضياء والقمر نورا، وجعل الليل والنهار متعاقبين على الكرة الأرضية كل ذلك لتحقيق مصالح عباده. ففي الليل سكون وفي النهار حركة وسعي ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [القصص: ٧٣].

(١) انظر التفسير المنير للزحيلي، ١٩/ ٩٨.

المقطع التاسع (خاتمة السورة)

ثمرات الرسالة الربانية

قال تعالى﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ
قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا
عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ
لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا
يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ
ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ
يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ
مَتَابٗا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا
قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ
فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا
دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٧].

المناسبة بين الخاتمة والمقطع السابق:

ذكر في المقطع السابق الكفار وعداوتهم للحق الذي جاء به رسول الله ﷺ وإصرارهم على إنكار استحقاق الرحمن للعبادة والخضوع، وذكر في خاتمة السورة ما يضاد الكفرة وصفاتهم. ليبين صفات الذين استجابوا لدعوة الحق وآمنوا بالرسول ﷺ. فهم ثمرة هذه الدعوة ونتاجها، وفي وصفهم بصفة العبودية المضافة إلى الرحمن تكريم وتشريف لهم، ورد وتحقير لمن أنكر الرحمن وأبى السجود له.

ووصف عباد الرحمن بخصال تتعلق بتعاملهم مع أنفسهم، وتعاملهم مع الناس

ومعاملتهم لربهم جل جلاله. وهم المثل الحية الواقعية للفئة المؤمنة والأنموذج الذي يكونه الإسلام بمنهجه التربوي الخاص. وهم محل رعاية ربهم، ولولاهم ولولا تضرعهم إلى ربهم لم يعبأ الرحمن أن ينزل بأسه بأهل الأرض جميعا.

سبب نزول قوله تعالى﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

أخرج البخاري عن ابن عباس قال: لما أنزلت في الفرقان﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية. قال مشركو أهل مكة: قد قتلنا النفس بغير حق، ودعونا مع الله إلهاً آخر، وأتينا الفواحش، فنزلت:﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾الآية[1].

المعنى الإجمالي للخاتمة:

ختمت سورة الفرقان- التي اشتملت مقاطعها على المنهج الرباني الذي نزل به القرآن والرسول الذي قام بتطبيق هذا المنهج وبلغه للناس ودعا إليه- ختمت بصفات عباد الرحمن، وهي شهادة ضمنية لرسول الله ﷺ بنجاح دعوته، ونجاح المنهج التربوي الذي دعا إليه من خلال تبليغ الفرقان.

فعباد الرحمن هم المثل الحية الواقعية التي أراد الإسلام تكوينها بمنهجه التربوي الخاص وهم المستحقون لنزول الرحمة، ولولا وجودهم لم يعبأ الله عز وجل أن يأخذ أهل الأرض في طرفة عين.

واشتملت الآيات الكريمة في الخاتمة على اثنتي عشرة صفة من صفات عباد الرحمن وزعت على أربعة أقسام: القسم الأول: في تحليهم بالكمالات، والقسم الثاني: التخلي عن الضلالات، والقسم الثالث: الاستقامة على شرع الله، والقسم الرابع: تطلعهم إلى الزيادة من صلاح الحال.

وهذه الصفات الخلقية الاثنتي عشرة التي ذكرت لعباد الرحمن هي من أسس الأخلاق

---

(١) صحيح البخاري الحديث رقم (٤٧٦٥).

الإسلامية وهي ثمرة من ثمرات العقيدة الإسلامية والالتزام بها وتحويلها إلى سلوك ومنهج حياة وهذه الأخلاق حسب ورودها في الآيات الكريمة هي:

- التواضع، الحلم، التهجد، الخوف من الله، ترك الإسراف والتقتير، البعد عن الشرك اجتناب القتل، النزاهة عن الزنى، التوبة، تجنب الكذب، قبول الموعظة، الابتهال إلى الله.

ويحسن أن نشرح كل صفة من هذه الصفات بإيجاز، لبيان أهميتها ومكانتها بين الأخلاق الإسلامية:

١- **التواضع**: خلق رفيع يزين أهل العلم والفضل والنسب والجاه، يزيدهم جمالا وبهاء وعزا على ما هم في.

فالمؤمن هين لين، يمشي بسكينة ووقار، لا يريد علوا في الأرض ولا فسادا، وقد تكرر الأمر بهذا الخلق في آيات القرآن الكريم كما في قوله تعالى ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]. وكما جاء على لسان لقمان لابنه ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٨- ١٩].

٢- **الحلم**: إذا تعرض المؤمن لسفاهة الجهلاء لم يقابلهم بالمثل ولم ينزل إلى دركتهم، كما أخبر القرآن عنهم في آية أخرى ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥]. وهو سلام متاركة وإعراض، لا سلام تحية وترحيب، لأن مجاراة السفهاء نوع من السفاهة والطيش.

٣- **التهجد ليلا**: بعد ذكر معاملتهم لأنفسهم ولغيرهم، ذكر تعاملهم مع خالقهم جل وعلا، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ وخص قيام الليل بالذكر لأنه أبعد عن الرياء، وأشد أثرا في تهذيب النفس كما أخبر المولى عن ذلك﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمل: ٦].

٤- **الخوف من سوء المصير:** ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾إن المؤمن يعيش بين الخوف والرجاء، فمع خشوعهم وقيامهم بالليل يخشون ربهم أن يردها عليهم، ويتهمون أنفسهم بعد أدائها على الوجه الأكمل بعدم صدق النية والإخلاص فيها لله تعالى. يقول عز من قائل ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. (قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أهو الذي يزني، ويسرق، ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ فقال لها: لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل) [(١)].

٥- **الاعتدال في الإنفاق:** الإسلام دين العدل والوسطية في جميع شؤون الحياة، وقد وجه رب العزة والجلال رسوله ومن ورائه أمته بقوله ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٩]. وهذا الاعتدال يكون في الإنفاق على الملذات المباحة. أما في الأمور المطلوبة شرعا فلا يقال فيها سرف، قال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف. وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف. وقالوا: لا سرف في الخير، ولا خير في السرف. [(٢)]

٦- **البعد عن الشرك:** ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾. وكأن في ذكر هذه الكبائر في هذا السياق وبيان تنزه عباد الرحمن عنها تعريضا بما كان عليه أعداؤهم من المكذبين بالقرآن والرسول الذي جاء به. والشرك بالله من أكبر الكبائر على الإطلاق. وقد صرح القرآن الكريم أن الذنوب جميعها تحت مشيئة الله تعالى إن لم يتب عنها المذنب، إن شاء غفرها وإن شاء عاقب عليها، إلا الشرك فلا تجاوز عن المشرك يقول جل جلاله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء: ١١٦]. عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تدعو لله ندا وهو خلقك.

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير ٥/ ٩.

(٢) التفسير المنير للزحيلي ١٩/ ١٠٨.

قال ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك». [١]

٧- اجتناب القتل: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾: لقد حرم الإسلام قتل النفس وعصمها إلا في حالات حددها الإسلام بثلاث كما جاء في قول رسول الله:(لا يحل دم امريء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث:الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة) [٢]. والحفاظ على النفس وعصمة الدماء من الكليات الخمس التي جاءت شرائع الإسلام للحفاظ عليها. وهي: الدين، النفس، العقل، العرض، المال.

٨- النزاهة عن الزنى: (ولا يزنون).

نظم الإسلام الغرائز لدى الفرد وهذبها، فلم يطلق لها العنان للإشباع، ولم يكبتها فيحرمها من نيل نصيبها من الاستمتاع، وإنما أشبعها بطريق منظم لتؤدي وظيفتها الإيجابية في الحياة. وعلى رأس هذه الغرائز غريزة الجنس فشرع النكاح وشرط له شروطا لضمان استمرار النسل البشري من غير اختلاط في الأنساب ليبقى المجتمع متماسك البنيان، سليما من الآفات والأمراض الناجمة من الفوضى الجنسية والانحرافات الخلقية.

ولقد سمى الله سبحانه وتعالى عقد الزواج ميثاقا غليظا يقول تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [النساء:٢١]. ووضع للأعراض سياجا واقيا فمن تعرض لها بمقالة سوء فعليه أن يأتي بأربعة شهداء وإلا جلد على ظهره يقول عز من قائل﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور: ٤].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الديات ٨/ ٣٤، صحيح مسلم: باب كون الشرك أقبح الذنوب ١/ ٦٣، الترمذي: كتاب التفسير ٥/ ١٧٠.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الديات ٨/ ٣٨، صحيح مسلم: باب ما يباح به دم المسلم٥/ ١٠٦.

ومن تجاوز الحدود ووقع في الفاحشة، فإن كان بكرا جلد مائة جلدة، وإن كان محصنا رجم بالحجارة حتى الموت. يقول تعالى ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور:٢]. ويقول رسول الله ﷺ (... والثيب بالثيب الرجم...)[1].

٩-التوبة: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾.

من رحمة الله بعباده أن فتح لهم باب التوبة، فمن حسنت توبته وأخلص لله في عمله بعد التوبة، فإن الله يغفر ذنبه ويستر عليه، بل يبدل تلك السيئات حسنات. عن أبي ذر الغفاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:(إني لأعرف آخر أهل الجنة خروجا من النار، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة، يؤتى برجل فيقول: نحّوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال: فقال له: عملت يوم كذا: كذا وكذا، وعملت يوم كذا: كذا وكذا، فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا، فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة، فيقول:يارب عملت أشياء لا أراها ههنا. قال فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه)[2].

وجمهور المفسرين على أن لا تعارض بين آية الفرقان وهي مكية وآية سورة النساء وهي مدنية قوله تعالى﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣]. فإن سورة النساء مطلقة فتحمل على من لم يتب، أما آية سورة الفرقان فإنها مقيدة بالتوبة.

وقد جاء الحث على التوبة والاستغفار في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة. كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٤٥١١) بنحوه.

(٢) صحيح مسلم: باب آخر أهل النار خروجا ١/ ١٢١.

إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦]، ويقول رسول الله ﷺ: "لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه؛ من رجل كان في سفر في فلاة من الأرض، نزل منزلا وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فأوى إلى ظل شجرة، فوضع رأسه فنام نومة تحتها، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها، فأتى شرفا فصعد عليه فلم ير شيئا، ثم أتى آخر فأشرف فلم ير شيئا، حتى اشتد عليه الحر والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، رفع رأسه فإذا راحلته قائمة عنده، تجر خطامها، عليها زاده طعامه وشرابه، فأخذ بخطامها، فالله أشد فرحا بتوبة المؤمن من فرحه براحلته وزاده»[1].

وتكرر النص على التوبة في قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ تعميم بعد تخصيص، فالاستثناء على التوبة من الشرك والقتل والزنى، أما هذا فلبيان حال من تاب من جميع المعاصي.

١٠ - **تجنب الكذب** (الترفع عن حضور مجالس الزور واللغو): ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

من أشد أنواع الكذب الزور، فأثر هذه الجريمة مضاعف لأن الأصل في الشهادة أن تكون عونا لإبراز الحق وإيصاله إلى صاحبه، فالميل بها عن حقيقتها تعطيل لها عن أداء دورها، والثانية يكون قد ساهم في إلحاق الظلم بآخرين، وتمكين أهل الباطل من تحقيق مآربهم، لذا اعتبرها رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا: بلى يا رسول الله قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور

(١) صحيح البخاري كتاب الدعوات ٧/ ١٤٦، صحيح مسلم: باب في الحض على التوبة والفرح بها ٨/ ٩٢.

فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»(١).

وذهب بعض المفسرين إلى أن الزور يعم كل باطل، وبهذا المعنى يكون من صفات عباد الرحمن عدم حضورهم مجالس الباطل، ولعل ذكر مرورهم كراما على اللغو يؤيد هذا التعميم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص: ٥٥].

إن الوقت رأس مال الإنسان، والمؤمن يضن أن ينفق رأس ماله فيما لا فائدة فيه، ومجالس اللغو أقل ما يقال فيها: إنها للثرثرة والعبث وضياع الوقت والغفلة...

١١- قبول المواعظ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾[الفرقان: ٧٣].

من شأن المؤمن أن يأخذ العظة والعبرة من كل شيء، فإذا سمع آيات الله تتلى، أو ذكره أحد الناصحين بآيات من كلام الله تعالى لم يردها عليه ؟ يفهم معناها مقدرا لما تهدي إليه، مقارنا حاله على ضوء هدايات الآيات، فإن كان في سلوكه أو فعله أو قوله خلل عدّله واستقام على الهداية.

كما أن آيات ربهم تشمل الآيات الكونية، التي يستدل من خلال التمعن فيها وأوضاعها وهيئاتها على النظام التام الذي يسود أجزاءه ومجراته ونجومه وكواكبه، ويستدل من خلال ذلك على الخالق المبدع، بخلاف الكافر الذي لا يهمه مما حوله إلا ما يوفر له اللذة الفانية والمتعة الدنيوية العابرة، فهو أصم وأعمى عن هدايات تلك الآيات ما كان منها وحيا، وما كان آية مرئية أو مسموعة مما يحيط به من حوله.

١٢- الابتهال إلى الله تعالى والدعاء له ولذريته ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشهادات. باب ما قيل في شهادة الزور٣/ ١٥٢. صحيح مسلم، باب الكبائر وأكبرها:١/ ٦٤

وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

من أصول العبادة الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والالتجاء إليه في كل شيء (فالدعاء مخ العبادة) [١]. والدعاء مطلوب في أمور الدنيا كما هو مطلوب في أمور الآخرة ومما يجمع به خيري الدنيا والآخرة الذرية الصالحة، فبهم تقر الأعين في الحياة الدنيا، وهم استمرار لعمل المرء بعد مماته وانقطاع عمله.

ففي الذرية الصالحة حياة مديدة للآباء والأمهات، وعمل صالح مستمر، يقول رسول الله ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية»[٢]. لا شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى ولدا أو أخا أو حميا مطيعا لله.

والإمامة في الدين مرغوب فيها بموجب هذه الآية الكريمة، فدعاء عباد الرحمن لم يقتصر على طلب الذرية الصالحة التي تخلفه من بعده، بل يدعون أن يكونوا هم وذرياتهم أئمة في الدين يقتدى بهم، هداة مهتدين يتعدى نفعهم وخيرهم إلى غيرهم من الناس. لذا كان من دعاء خليل الرحمن ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٤].

هذه أخلاق عباد الرحمن التي وعدهم ربهم عليها الدرجات العلى في الجنة، بسبب صبرهم على هذه الأخلاق الكريمة وصبرهم على ما يلاقونه من الأذى والمصائب بسبب عقائدهم وسلوكهم المتميز.

يجزون على ذلك الغرف العالية يكرمون بالتحية والدعاء بالسلامة والإقامة الدائمة في نعيم الجنة الذي لا ينقطع ولا الخوف من الزوال.

يتوج كل ذلك بالتحية والسلام من ربهم عز وجل ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس:٥٨].

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٥٦ رقم ٣٣٧١) وقال: حديث غريب.

(٢) رواه مسلم، باب ما يلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته: ٥/ ٧٣.

والأمن من زوال النعم عنهم أو زوالهم عنها، أمر تكرر في ثنايا السورة، لأن مما ينغص على أهل النعمة استمتاعهم بنعمة المال والجاه تعرضها للزوال منهم، أو تحولهم عنها بالموت، لذا فإن إدخال الأمن والطمأنينة إلى القلوب يقتضي النص على الخلود في جنات الخلد: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٨] ﴿ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان: ١٥- ١٦].

هذا ما ينتظر عباد الرحمن، أما الذين لا يرفعون لهدايات القرآن رأسا ولا يلقون لمنهجه التربوي بالا، فهم أهون عند الله من أن يجعل لهم وزنا، أو يكترث بهلاكهم، ولولا كون بعثة رسول الله ﷺ رحمة للعالمين، وقد أرجأ الله سبحانه وتعالى عقوبتهم إلى الآخرة ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٣]. لولا ذلك لأنزل بهم عذاب الاستئصال، ولا يبالي بشأنهم ولا يعبأ بهم فقد استحقوه بأقوالهم وأفعالهم التي كذبوا بها الرسول وأنكروا دعوته وقاوموا منهجه. والله من ورائهم محيط.

مناسبة الخاتمة لمحور السورة:

خاتمة السورة اشتملت على صفات عباد الرحمن بمثابة النتيجة لمحور السورة، فالمحور يتحدث عن المعجزة- القرآن الكريم- والرسول الذي أنزلت عليه المعجزة. واشتملت المعجزة على المنهج الذي التزمه الرسول ﷺ ودعا إليه في العقائد والسلوك والأخلاق، وذكر هذه الصفات في الخاتمة شهادة على سلامة المنهج وتصديق للرسول ﷺ في دعوته ونجاحه فيها.

إن هذه الصفوة من عباد الرحمن تشمل المؤمنين إلى يوم القيامة - ويدخل فيهم صحابة رسول الله ﷺ دخولا أوليا- هم محل العناية الربانية ولولاهم لم يكترث بأهل الأرض.

وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ لأن من أثمرت جهوده هذا النتاج الطيب عليه أن يتحمل المشاق ويصبر على الشدائد لتحقيق هذه الغاية النبيلة. وكل ذلك من صلب المحور.

من الفوائد المستنبطة من الخاتمة:

* المناهج التربوية الصحيحة تنتج أناسا ربانيين يتصفون بالكمالات الخلقية، والسلوك المستقيم والاعتدال والوسطية في جميع تصرفاتهم ومعاملاتهم مع أنفسهم ومع غيرهم من الناس ومع خالقهم عز وجل.
* من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن فتح باب التوبة لهم من جميع المعاصي والآثام كبيرها وصغيرها، وحث عليها وأبعد اليأس والقنوط عن قلوب عباده. وباب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها، وحتى تدخل النفس حال سكرات الموت.
* طلب الزعامة والرياسة في الدين مرغوب فيه، لأن القدوة في الدين يكتب له أجر من يقتدي به وكل من يتبعه، فأعماله في صفحة عمل إمامه وقدوته من غير أن ينقص من أجره شيء.
* تكرر في السورة في أكثر من موضع النص على الخلود، ومنها الخاتمة لبيان أهمية الأمن النفسي والاستقرار والطمأنينة في حياة الإنسان وخاصة في الجنة، أما في الدنيا فلا أمن على البقاء على حالة واحدة لأن النعيم معرض للزوال عن صاحبه للعوارض التي تعتور أحواله. أو صاحب النعمة سيزول عن النعيم بالموت. أما نعيم الجنة فهو المخلد الذي لا يزول. ولا موت فيها لأصحاب النعيم.

سورة الشعراء

بين يدي سورة الشعراء

سورة الشعراء مكية، وآياتها سبع وعشرون ومائتان، نزلت بعد الواقعة، وهذه السورة السادسة والعشرون حسب ترتيب المصحف وتلي سورة الفرقان، وتقع في الجزء التاسع عشر. وهي السابعة من المجموعة الثالثة من قسم المئين، ورد تسميتها في تفسير الإمام مالك بسورة الجامعة، [1] لأنها جمعت ثماني حلقاتٍ قصصيةٍ لأنبياء الله ورسله عليهم السلام.

وقد جاء في رواية ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير إطلاق القول بمكيتها، وأخرج النحاس عن ابن عباس أنها نزلت بمكة سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة، من قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾. [2]

وتتكون السورة من تسع مجموعاتٍ أو مقاطع على النحو التالي:

المجموعة الأولى: وتبدأ من الآية (١) إلى تمام الآية (٩) وتتعرض للقرآن والتوحيد.

المجموعة الثانية: وتبدأ من الآية (١٠) إلى تمام الآية (٦٨) وتتناول قصة موسى عليه السلام.

المجموعة الثالثة: وتبدأ من الآية (٦٩) إلى تمام الآية (١٠٤) وتتناول قصة إبراهيم عليه السلام.

المجموعة الرابعة: وتبدأ من الآية (١٠٥) إلى تمام الآية (١٢٢) وتتناول قصة نوح عليه السلام.

المجموعة الخامسة: وتبدأ من الآية (١٢٣) إلى تمام الآية (١٤٠) وتتناول قصة هود عليه السلام.

المجموعة السادسة: وتبدأ من الآية (١٤١) إلى تمام الآية (١٥٩) وتتناول قصة صالح عليه السلام.

المجموعة السابعة: وتبدأ من الآية (١٦٠) إلى تمام الآية (١٧٥) وتتناول قصة لوط عليه السلام.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: الشيخ محمد علي الصابوني، ٢/ ٦٤٣.

(٢) أسباب النزول: أبو الحسن الواحدي النيسابوري، ص ٢٥٢.

المجموعة الثامنة: وتبدأ من الآية (١٧٦) إلى تمام الآية (١٩١) وتتناول قصة شعيب ﷺ.

المجموعة التاسعة: وهي الخاتمة وتبدأ من الآية (١٩٢) إلى نهاية السورة (٢٢٧)، وترتبط بالمقدمة في تعظيم القرآن الكريم وإثبات نبوة محمد ﷺ وتفنيد شبهات المشركين.

ومحور السورة هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾. وقد تكررت ثماني مرات عقب نهاية كل قصة في الآيات التالية:(٩ و ٦٨ و ١٠٤ و ١٢٢ و ١٤٠ و ١٥٩ و ١٧٥ و ١٩١). وما يلفت الانتباه وضوح الصلة بين محور السورة وبين دعوة ونصيحة كل رسول لقومه بعبارة ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ التي تكررت في سبع قصص، بمعدل مرة إلى مرتين في كل قصة عدا قصة موسى ﷺ، مما يدلل على أن التقوى والطاعة من أسس الدعوة. [1] ومحور السورة يفيد الاعتبار والعظة مما تعرضه هذه القصص من حِكم تدل على قدرة الله تعالى وعظمته في الخلق والتدبير والإهلاك، وهو خالق السموات والأرض وما بينهما، وله الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة المدبر للكون على مشيئته وعلمه. كما يرينا محور السورة طريقة مخاطبة كل نبي ورسول لقومه، وما لاقوه من أنواع التكذيب، لتوصلنا في النهاية إلى إثبات وحدة الرسالات. ليكون في ذلك عبرة لأهل مكة وكفارها، وهم يرون آثار مصارع الأقوام السابقة، لعلهم يرتدون عن الكفر والشرك، ويؤمنون بالله العزيز الرحيم، وعقدت السورة بمقاطعها ووحداتها المتعددة مقارنة بين ما يؤول إليه المتقون من جنات النعيم، وما ينتهي إليه الكفرة والمشركون من عذاب، جزاء كفرهم واستهزائهم وتطاولهم وسفاهة افتراءاتهم على رسل الله، وختمت السورة بمثل ما افتتحت به بالتأكيد على عظيم الكتاب المنزل وجلال قدره، ومما تجدر الاشارةِ اليه اشتمال السورة على طائفة من ضوابط وخصائص القرآن المكي الموضوعية. [2] ويلاحظ بوجه عام عمق اتصال

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٠٣.

(٢) أهم خصائص السور المكية ومقاصدها: د. أحمد عباس البدوي، ص٤٥.

سورة الشعراء بسورة الفرقان التي قبلها، وسورة النمل التي بعدها، برباط واضح ومتين [1] فهذه السور الثلاث مكية افتتحت في الغالب بما يفيد مدح القرآن الكريم وما يتبع ذلك من تسرية النبي ﷺ. ويجري عليها التشابه في إقرار عقيدة التوحيد، والأمر بتقوى الله تعالى، وإيراد الدليل المشاهد على قدرته سبحانه وتعالى الكونية، وإبراز شواهد ولقطاتٍ من أهوال يوم القيامة للاتعاظ. كما تتشابه في الإخبار عن بعض الأنبياء والرسل وما أثير من شبهات أقوامهم لهم كالكذب والسحر والجنون ونحوه. وامتد التشابه في هذه السور أيضاً إلى إنكار بشرية الرسل بالكلية. ولا يفوتنا التنويه هنا أن القصة القرآنية الواحدة قد ترد في سورٍ متعددة، ليس من باب التكرار، بل على سبيل التأكيد تارةً، ولذكر مقاصدها المرجوة، وللوفاء بالغرض الذي سيقت من أجله تارةً أخرى. وقد يرد في سورة ما لم يرد في أخرى. وما يرد منها حسب موقعه يكون مناسباً بالقدر والطريقة التي تناسب الإطار العام للسورة وسياقها. [2]

ويرى المتأمل في قصص الرسل الواردة في سورة الشعراء أنها امتدت لتشمل مئة وثمانين آية من إجمالي آيات السورة. [3]

توطئة في بيان المقطع الأول من سورة الشعراء ووجه االعلاقة مع غيره

يؤلف هذا المقطع وحدةً متجانسةً ومتكافئةً مع غيره من مقاطع السورة، وفيه من وشائج الترابط والوئام ما يشد عضده بالمقاطع الأخرى حتى نهاية السورة الذي انعطف على أولها فزادها حسناً وإعجازاً، مما يشير إلى أن سورة الشعراء مجموعة واحدة في هدفها وغايتها، وإن تعددت مقاطعها.

وتحمل آيات المقطع تسرية للنبي ﷺ لتثبيت فؤاده في الدعوة والصبر على ما يواجهه من صعابٍ في ألطف العبارات الربانية وأرقها.

---

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى: ٧/ ٣٨٩٧.

(٢) قصص القرآن الكريم: د. فضل حسن عباس، ص٧٥.

(٣) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ١٩٠.

وغاية المقطع إثبات نبوة محمد ﷺ، وبيان أن القرآن كلام الله ليؤمن أهل مكة عن تبصرٍ وتعقلٍ، ويمهد المقطع إلى مقارعة قريش بالحجة من خلال الإشارة أن الله ﷻ أرسل رسوله بشيراً ونذيراً ورحمةً للعالمين، وقد مضت سنته تعالى في الأمم المكذبة بإمهالهم ثم أخذهم بذنوبهم، فتأملوا يا كفار قريش كيف كانت عاقبة من كان قبلكم، ومع ذلك فإن المشركين كذبوا بالذكر الذي نزل عليهم وأعرضوا عنه واستهزؤوا به، وقد غاب عنهم أنه سبحانه وتعالى على كل شيءٍ قدير.

وقد حفل المقطع بالعديد من الدروس والعظات لأهل مكة بما شمله من التذكير والإنذار. كما انتظم فيه من المعالم التربوية للأمة الشيء الكثير. فالخطاب وإن كان في صورته موجهاً للنبي ﷺ، لكنه في الحقيقة تعليم للأمة وإرشادٌ لها لتسلك طريق التقوى وتعمل بهدي القرآن.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الأول من سورة الشعراء

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

افتتحت آيات المقطع الأول من سورة الشعراء(١-٩) بقوله تعالى﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ ﴾: وتلفظ عند القراءة بأسماء حروفها طا، سين، ميم. وهذه الحروف ابتدأ الله سبحانه وتعالى بها السورة للتنبيه ليكون في غرابتها ما يثير الالتفات.

وهي مع ذلك تشير إلى عظمة المؤلف من الحروف كالحروف التي يؤلف منها العرب كلامهم. والذين عجزوا عن الإتيان بمثله، وفيها إشارة إلى أن الكتاب معجز ذو شأن عظيم، يتحدى به لأنه يفصل بين الحق والباطل[1].

---

(١) ورد الاستفتاح بالحروف المقطعة في تسع وعشرين سورة كلها مكية سوى البقرة وآل عمران. وعدد =

ثم تنعطف الآيات إلى تسرية الرسول ﷺ وتعزيته عن تكذيب المشركين له. ويخبر الله تعالى رسوله ﷺ موجهاً: لعلك أيها الرسول مهلك نفسك وقاتلها حسرةً وتأسفاً على عزوف قومك عن القرآن والرسالة فهون عليك وأشفق واصبر على مشاق الدعوة.

ولا يضيق صدرك ولا تبتئس بما يعملون ضدك وما يتفننون فيه من إثارة الشبهات، ولا تحزن لإعراضهم فقد خسروا الدنيا والآخرة، وإن العزة لله ورسوله ونصر الله قادم لا محالة.

وبرهان إنكارهم للكتاب والرسالة متكرر في القرآن الكريم في غير موضع منها: قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾ [الكهف:٦].

وقد حملهم الارتياب من الدعوة أن طالبوا الرسول ﷺ، أن يُريهم معجزات مادية لتكون لهم أية. أوَلم يكفهم أن الله عز وجل أيد رسوله بالقرآن دليلاً على مصداقية نبوته فيهم، ومع تعنتهم في طلب المعجزة المادية، أخبرَ سبحانه وتعالى عن قدرته أن يأتيهم بها متى شاءت حكمته لتخضع لها أعناق القوم، وتضطرهم إلى التسليم قسراً لا يملكون معها جدلاً، ليس بعدها إعراض ولا تكذيب ولا استهزاء البتة. وما ذلك على الله بعزيز، ولكن سنن الله عز وجل في الإيمان تقوم على حرية الاختيار وعدم الإجبار، ومما يؤسف له أن قولهم المشروط لإيمانهم، ما كان إلا تكذيباً وعناداً لا تبصراً واسترشاداً. وإرادة الله تأبى ذلك.

ثم أعقبه تهديد الكافرين الذين أضلتهم أهواؤهم عن التفكر والتدبر بقدرة الله عز وجل على إنزال العذاب لهم. لاستهزائهم بالنذر وإعراضهم عن كل جديد يتنزل من آيات الله.

وبداهة العقل تؤكد أن الرسول ﷺ، قامت كل الحجج على صدق رسالته. ثم تمضي

= الحروف التي تتركب منها أربعة عشر حرفا وهي:(ا، ح، ر، س، ص، ط، ق، ك، م، ن، ه، ي). وهذه الفواتح منها ما جاء على حرف واحد وهي (ص، ق، ن). ومنها ما هو مؤلف من حرفين ومنها من ثلاثة أحرف، ومنها ما هو مؤلف من أربعة أحرف، ومنها خمسة أحرف. وللعلماء قديماً وحديثاً عدة أقوال في تفسيرها والله اعلم بمراده منها.

الآيات لتقريع المشركين وتوبيخهم بالاستفهام الإنكاري، أما بلغكم عاقبة استهزاء الذين جاءتهم رسلهم بالحجج الدالة على صدقهم فأعرضوا ووضعوا أيديهم على أفواههم استغراباً واستنكاراً، فَلِمَ هذا العناد والتقليد لآبائكم في مواصلة الطعن بالقرآن الذي نزل هداية لكم لينقلكم من دياجير التخلف ووهدة الضلالة إلى نور الإيمان. فانتظروا ما سيحل بكم من عاجل العذاب وآجله كما وقع لمن قبلكم. فهل من متعظ ومعتبر؟ فليس هناك أشد ظلماً ممن كفر وافترى الكذب على الله ورسوله مع قيام الحجة القاطعة. وبعد هذا الإنذار والترهيب تسجل الآيات عزوف المشركين، عن إعمال العقل فيما يشاهدونه من قدرة الله في الخلق، فوجه أنظارهم إلى الكون ونعم الله تعالى فيه. وخص منها تحديداً أصناف المزروعات النافعة بمسمياتها المتعددة ومذاقها المختلف، التي نبتت من الأرض بعد أن أنزل الله من السماء ماءً فأخرج ثمراتٍ مختلفاً ألوانها. نتجت عن تزاوج عناصر الذكورة والأنوثة في كل نبتة. وفي هذا تنبيه من الله عز وجل إلى إعجاز القرآن في الخلق والرزق. حتى لا يكون للناس على الله حجة يتعللون بها، وإن في ذلك لآيةً لأولي النُّهى الذين يعملون عقولهم، ولكن المشركين مع هذا كله يطلبون آيةً باهرةً، ويغفلون عن آيات الله في أنفسهم. فما آمن أكثرهم وظلوا على سيرة آبائهم الأولين في معتقداتهم الموروثة. فهم بذلك لا يسمعون ولا يبصرون ولا يتدبرون ولا يتعظون، وكان من الواجب عليهم أن يتلقوا آيات الله بالفهم لكن الشيطان أضلهم وصدهم عن الهدى.

ثم يختتم المقطع الأول من سورة الشعراء ببشارة النصر لرسول الله ﷺ، وغلبته لأعدائه والظفر بهم وإظهاره عليهم، فالله ذو العزة الغالب لكمال قوته وقدرته، القوي القادر على أخذ المكذبين بالعذاب الذي يستحقونه، ذو الرحمة الواسعة الذي يمهل الكافرين فلا يعذبهم حتى يأتيهم نذير. ورحمته تقتضي أن يبعث الرسل عليهم السلام للتبصير والتنوير والتبشير والتحذير. فمن اختار الكفر ودلائل الإيمان حاضرة أمامه أخذه الله بالهلاك أخذ عزيز مقتدر.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الأول من سورة الشعراء

إن جملة القول في آيات المقطع الأول تقتضي الإشارة إلى ترابط كل آيةٍ فيه مع المقطع الآخر الذي يليه حتى خاتمة السورة. رغم اختصاص كل قصة بذكر نبيٍّ معين مع قومه. وما يذكر في كل قصة يتلاءم مع سياق القصص الأخرى، وهذا دليل على وحدة الهدف التي سيقت من أجله، فالآيات تخدم سياق بعضها بعضاً. وعليه فإن حاصل ما ترشد إليه آيات المقطع الأول من العبر والدلالات متعددة منها:

١- تأكيد القرآن الكريم حاجة الناس إلى رسل الله وأنبيائه. لتربيتهم على منهج الشريعة الربانية، وتأديبهم بآدابها، وتبليغهم رسالات الله على الوجه الذي أمرهم الله به، بالحكمة والموعظة الحسنة. ولتبيين معاني ما أنزل عليهم من نصوص وتوضيح مدلولاتها للعمل بمقتضاها. (١)

٢- إيضاح حكمة عدم تلبية الله عز وجل لمطالب المشركين، في رؤية معجزات مادية قاهرة لتعنتهم وشططهم، مع قدرته سبحانه وتعالى على تحقيق ما أرادوه، وقد كان الله عز وجل في الرسالات السابقة يستجيب لطلب المعجزات من بعض الأمم، فيجريها على أيدي أنبيائه ورسله، للدلالة على صدق الدعوة، وليتحدى الرسول قومه بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا في شك من دعوته. أما إذا كان طلب المعجزة فيه سوء قصدٍ ورغبةٍ في التفكه فإن الله عز وجل لا يستجيب لطلبهم، ولا يلتفت إليهم، لأنهم وطّنوا أنفسهم على العناد والجحود مهما رأوا من آيات وبراهين. فاقتضت حكمة الله عدم الاستجابة لهم، فالله يخلق من المعجزات ما يشاء بقدرته ويختار بحكمته ما يشاء منها على مقتضى علمه، وليس في مقدور الخلق، ولا من حقهم أن يختاروا على الله ما يشاءون. وأن خلق الله للأشياء تكون

(١) العقيدة الإسلامية: عبد الرحمن الميداني، ص٣١٣.

بتوجيه الإرادة والأمر فإذا أراد سبحانه وتعالى أن يخلق شيئاً، قال له كن فيكون. فقدرته عز وجل لا تقف دونها حدود. فالله لا يعجزه شيء وهو القادر على كل شيء. يضاف إلى ذلك حكمة بالغة، وهي أن القوم إذا طلبوا آية بعينها، وأجيبوا إليها ثم لم يؤمنوا بها أُخذوا بالهلاك والعذاب، والله تبارك وتعالى لم يشأ أن يكتب على هذه الأمة، التي نزلت عليها خاتمة الشرائع السماوية الهلاك الذي جرى على الأمم من قبلها. [1]

لهذا اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون الإيمان من خلال إعمال العقل بالمطلق، في ملكوت الله بعد أن بلغ العقل الإنساني رشده ونضجه.

٣- لعل من تمام الحكمة الربانية أن يبعث الله عز وجل إلى البشر رسولاً منهم، ليكون في دعوته وأفعاله وأخلاقه حجة عليهم، فإذا تعجب أهل الكفر أن يكون المرسل من الله إليهم بشراً، فتعجبهم يستدعى العجب من عجابة أمرهم وغرابة شأنهم وتفكيرهم. وهذا مكرورٌ في تاريخ دعوات الرسل كافة، من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ، فلو جاء الرسول للبشر من الملائكة حسب طلبهم، فلا بد أن يأتي علىٰ صورة بشرية حتى يتمكنوا من مشاهدته ليتفاعلوا معه وينصتوا إليه.

ولطالما الأمر كذلك، فالأولى في رسل الله أن يكونوا بشراً مثلهم من جنسهم، فيهم جميع طبائع البشر وغرائزهم. مما يستدعي محاكاتهم والتأسي بهم والعمل بدعوتهم، لحسن سيرتهم التي ألفوها منهم في حياتهم التي كانوا عليها قبل النبوة.

٤- أقامت الآيات الدلائل والبراهين على عظمة الله تعالى وقدرته في الخلق، وخص منها سبحانه وتعالى إخراج النبات والزرع. فالمزارع يحرث الأرض ويلقي الحب أو يزرع الشتل، ويتوكل على الله تعالى ثم ينزل الغيث من السماء، فينبت الزرع بعد انشقاق الحبوب في التربة، ويتغذى عليها الإنسان والحيوان والطير.

---

(١) المرجع السابق: ص٣٤١.

ومن حكمته سبحانه وتعالى أن الأرض الواحدة تسقى أشجارها ونباتها بماءٍ واحدٍ، وتتغذى من تربةٍ واحدةٍ، فتعطي ثمراً مختلفاً ألوانه ومذاقه وأحجامه وروائحه وفوائده.

إنه الله تعالى الذي أحسن كل شيءٍ خلقه، وإن الناظر ليعجب من عظيم صنع الله وبديع خلقه ودقة تنظيمه في الكون ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

أليس في هذا دعوة للمشركين بوجوب النظر في آيات الله تعالى. وترك ما اعتادوه من التقليد لآبائهم بتأمل وتفكر في ملكوت الله ونعمه.

٥- إن استهزاء الكفار والمشركين في رسل الله وكتبهم مألوف في تاريخ دعوة الرسل كلهم. لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجر: ١١]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٧]. ويعزى قبح سلوكهم هذا بالاستهزاء على رسل الله، إما لبشرية الرسل وإنكار المشركين عليهم ذلك. أو لقلة نصيبهم من متاع الدنيا كالجاه والمال والسلطان، والمشركون في كلتا الحالتين أساءوا الأدب مع الله تعالى ورسله. فهم لم يستعملوا عقولهم ولم ينتفعوا بها، حيث يقول الواحد منهم يوم القيامة حين يشاهد العذاب في حسرةٍ وألم. ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠].

ولقد شاءت سنن الله تعالى أن الذين يسخرون اليوم يسخرُ منهم غداً، وتلك الأيام يداولها الله بين الناس عظةً وعبرةً.

وسيرون عاقبة استهزائهم وما سيحل بهم من عاجل العذاب وآجله، في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [هود: ٨]. وقوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النحل: ٣٤]. فليضحكوا قليلاً في دنياهم وليبكوا كثيراً في آخرتهم، جزاءَ ما كانوا يعملون من باطل، وما كانوا يفعلون من منكر.

٦- لعل ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يشير على وجه الخصوص أن الناس كانوا منذ آدم عليه السلام أمة واحدة على دين الفطرة السليمة، فاختلفوا على ديانة التوحيد بتأثير عوامل الجهل والهوى والشيطان، فبعث الله النبيين ليبشروهم بالنعيم ولينذروهم بالعذاب، وأنزل مع كل رسول كتاب يهدي إلى الحق، فما آمن أكثرهم وهذا شأنهم في دعوات الرسل كافة.

وبمقابلة حكمة هذه الآية ومراد الله بها حسب مشيئته وقدرته، نرى على وجه العموم أن عدد سكان الأرض يقترب من سبعة مليارات نسمة حسب تقديرات الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٥، وبالمقاربة والمقارنة بين عدد الوثنيين وعدد الذين يدينون بالديانات السماوية مع الإقرار بتحريف كتب بعض هذه الديانات بالتبديل وبالزيادة وبالنقصان، وخروجهم عن حظيرة الإيمان من حيث نظرة الإسلام لهم حسب صريح القرآن. يتضح لنا أن أقل من ثلثي سكان الأرض بقليل، وثنيون يدينون بالديانات الوضعية الكنفوشوسية والبوذية، وخير مثال على ذلك قارة آسيا والقارة الإفريقية، التي تدين بعض قبائلها وشعوبها بديانات وضعية تحت مسميات متعددة. إضافةً إلى ذلك جيوب الوثنية في غابات أمريكا الجنوبية. ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣]. ولدقة المقابلة نرى عدد النصارى حوالي مليار ونصف نسمة، والمسلمين مليار ومائتي مليون نسمة، وأتباع اليهودية يقتربون من عشرين مليوناً حسب أدق التقديرات.

وإن في ذلك لآيةً وهذا ما اقتضته حكمته سبحانه وتعالى، ولو شاء ربك لجعل الناس جميعا على الإسلام مصداقاً لقوله تعالى:﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩].

ولكنه سبحانه وتعالى ترك الخلائق بعد إرسال الرسل مختارين في معتقداتهم حسب ما تمليه عليهم عقولهم، مع قدرته على حملهم على الإسلام قسراً لو شاءت حكمته ذلك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

٧- اقتضت حكمة الله تعالى في دعوات الأنبياء والرسل، وحدة فلسفة تكاملها في جوهرها وأصولها وعقائدها ومبادئها وغاياتها، وتناسقها فيما بينها وتكامل السابق منها باللاحق، حتى كان إتمام نضجها برسالة محمد ﷺ لتكون للعالم كافة.

ودعوة الرسل كلهم أجمعين واحدة في أسس ومبادئ إسلامها. وما نراه اليوم من الخلاف بين الديانات السماوية الثلاث، إنما يعزى لما طرأ على الديانتين اليهودية والنصرانية من تحريف الكلم عن مواضعه.

ولو أن الديانات السابقة بقيت من غير تحريف لالتقت مع رسالة القرآن الكريم المنزل على رسول الله ﷺ.

توطئة في بيان مقطع قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء ووجه العلاقة مع غيرها

تُعد قصة موسى عليه السلام من أكثر القصص ذكراً في القرآن الكريم، سواء ما انتظم من قصته مع فرعون الطاغية، أو قصته مع قومه بني إسرائيل قبل الخروج وبعده. فلا تكاد تخلو سورة من السور الطويلة من قصة موسى عليه السلام، وقد ورد ذكره في القرآن مائة وستاً وثلاثين مرة. [1] وعدد السور التي ورد اسمه فيها أربع وثلاثون سورة. وفي سورة الشعراء وحدها ثماني مرات. أمَّا أخوه هارون عليه السلام فقد جاء ذكره تسع عشرة مرة، منها مرتان في سورة الشعراء. وورد اسم فرعون أربعاً وسبعين مرة، وفي الشعراء وحدها ست مرات.

كما تكرر لفظ (بني إسرائيل) إحدى وأربعين مرة، منها أربع مرات في سورة الشعراء[2].

وأكثر السور حديثاً عن موسى عليه السلام وأخيه هارون وبني إسرائيل وفرعون هي: (البقرة والأعراف ويونس وطه والشعراء والنمل والقصص وغافر والنازعات).

أما السور التي عرضت لقطاتٍ مجملةٍ من قصته فهي (سور النساء والمائدة وهود وإبراهيم

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٧٧-٧٧٨.

(٢) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ٢/ ٢٧٠.

والإسراء والأنبياء والمؤمنون والأحزاب والصافات والزخرف والذاريات والصف).

والسور التي اكتفت بذكر اسم موسى ﷺ فقط فهي باقي السور الأخرى من إجمالي السور الأربع والثلاثين.

وبقراءة شمولية وبنظرة تحليلية فاحصة للقصص القرآني التي عرضت لقصة موسى ﷺ نرى أن جذوره في مصر تعود إلى يوسف ﷺ، حين أصبح حاكماً على خزائن الأرض فيها في عهد الملوك الرعاة أو الهكسوس، فاستدعى أبويه وإخوانه للإقامة معه في مصر، حسب ما ورد في سورة يوسف.

وقد أشارت الآيات القرآنية في غير موضعٍ أن سلطان مصر من الهكسوس زمن قصة يوسف ﷺ، كان يلقب بالملك وهم قوم موطنهم الأصلي جنوب بلاد الشام، وفدوا مصر واحتلوها عنوة لمدة قرنين ونيف تقريبا حسب تقديرات المؤرخين،(١) أذلوا أهلها ورحبوا بكل غريب وافد إليها، فكان وقتئذٍ قدوم بني إسرائيل الذين عاشوا في ظلهم معززين مكرمين مما حمل المصريين على نبذهم وكرههم.

ثم مرت السنون تليها السنون وبنو إسرائيل في توالد مستمر، وبتوالي الأيام استجدت تطوراتٍ ضد الغزاة الهكسوس بقيادة (أحمس) مؤسس السلالة الثامنة عشرة. الذي قام بثورةٍ داخليةٍ لطرد المحتلين فكان له ما أراد، وتم طردهم نهائياً من مصر بعد حروب دامت زهاء نصف قرن من الزمن، وبتغير السلطة ونظام الحكم الوطني الجديد في البلاد استبدل مسمى كل من حكم مصر من ملك إلى فرعون.

وفي العهد الفرعوني الجديد عاش بنو إسرائيل معذبين مضطهدين، فتفرعنوا عليهم وتكبروا وتجبروا بسبب اتهامهم أنهم كانوا عيوناً للهكسوس الغزاة، ومن أشهر فراعنة مصر حسب أقوال المؤرخين (أُحمس) الذي تقدم ذكره و (أخناتون) الذي حمل المصريين على توحيد

(١) العرب واليهود في التاريخ: د. أحمد سوسة، ص١٦٨.

ديانتهم بإلهٍ واحد هي (الشمس) وأطلق عليها اسم الإله (أتون)، ورمسيس الثاني فرعون موسى عليه السلام، الذي ولد في عهده وعاش في بلاطه وهو صغير وهرب منه بعد قتله للفرعوني، ولقب بفرعون الاضطهاد، وقد مات أثناء إقامة موسى عليه السلام في أرض مدين، (ومنبتاح أو منفتاح) ابن رمسيس الثاني الذي حكم بعد وفاة أبيه، وهو الذي قابله موسى وأخوه هارون عليهما السلام وعرضا عليه دعوة الإيمان والتوحيد، فأنكر دعوتهما وطاردهما وكان من المغرقين، ولقب بفرعون الخروج.(١)

وقد سجلت آيات القرآن الكريم في العديد من السور مظاهر كفر فرعون ودعوته لقومه إلى تأليهه وعبادته، وادعائه الألوهية والربوبية. فتغطرس وتجبر وسعى إلى إذلال خصومه واستعبادهم واحتقارهم.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ
أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن
يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ
مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ
لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ
﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ
مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

(١) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ٢/ ٣٩٣. وقصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص٢٠٢.

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي
الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ
لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ
أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم
مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ
فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ
﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا
رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ
فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾
فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم
مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾
فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ »

قراءات:

- (قرأ يعقوب: ويضيق صدري ولا ينطلق لساني، بنصب يضيق وينطلق، والباقون بالرفع. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح: أآمنتم بهمزتين، والباقون: آمنتم. وقرأ حفص: تلْقَف بسكون اللام وفتح القاف دون تشديد. والباقون: تلَقَّف بفتح اللام وتشديد القاف المفتوحة. وقرأ أهل الكوفة وابن عامر: «حاذرون» بألف بعد الحاء. والباقون: حذرون)[1]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ١٠١.

-(هناك قراءة أخرى حَذُرون بضم الذال)[١].

-(قرأ حفص: معيَ ربي بفتح الياء، والباقون: معيْ ربي بسكونها). [٢]

تبين الآيات الكريمة التي امتدت في سورة الشعراء من الآية١٠ إلى الآية٦٨ جانباً من قصة موسى ﵇، فافتتح مقطع القصة بقوله تعالى (وإذ) وتفيد معنى (واتلُ) أو (واذكر) وفيها إخبارٌ من الله عز وجل إلى عبده ورسوله ﷺ، أن يا محمد نحن نقص عليك من نبأ موسى ﵇ لتتلوه على قومك، لعلهم يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك ليعلم قومك أنك ما كنت حاضراً وقت عُهد إليه بأمر الرسالة ولا شاهداً على ذلك، حين ناداه ربك بالوادي المقدس طوى، أن اذهب رسولاً نبياً إلى فرعون وقومه، الذين استعبدوا بني إسرائيل وذبحوا أبناءَهم وظلموا أنفسهم بالكفر. وهذا خبرٌ في غيب الماضي نسوقه إليك ليعلموا صحة دعوتك، ثم انعطفت الآيات للحديث عن قصة موسى ﵇ وتبرز مشهد استجابة الله عز وجل لنبوة هارون مع موسى عليهما السلام، ليفيد من فصاحة لسانه وقوة بلاغته. إذ كان يعترف لأخيه بوضوح كلامه وقوة فصاحته وحسن بيانه، وقد التمس من ربه ذلك اتقاءً للتقصير في الدعوة لا نكوصاً عنها.

ثم تمضي الآيات وترصد في غير موضع دعاء موسى ﵇ أن يشرح الله صدره لينطلق لسانه بالحق أمام فرعون، لأن ضيق الصدر يورث حبسة في الكلام، قد تعجز صاحبها عن أداء رسالته وتضعف حجته وما قد يتأتى عن ذلك من تكذيب. وتبرز الآيات تأييد الله عز وجل لموسى وهارون - لا تكُ في خوفٍ ولا تبتئس من سابق سيرتك مع فرعون، فإني معكما أسمع وأرى- وفي هذا التعبير تسرية لهما من باب الحفظ والرعاية والعناية، فإني يا موسى اصطنعتك لنفسي واصطفيتك لرسالتي، ووجههما إلى حسن مخاطبة فرعون باللين والموادعة لإقامة الحجة عليه لعله يؤمن برب العالمين، وبعد أن أتياه وقالا ما أمرهما الله به، نظر فرعون

(١) التبيان في إعراب القرآن، العُكبري، ٢/ ٩٩٦.

(٢) تيسير التفسير: الشيخ إبراهيم القطان، ٣/ ٣١٤.

إليهما نظرة ازدراء واحتقار ولم يتعامل مع موسى ﷺ باعتباره رسولاً، وإنما كواحدٍ من بني إسرائيل المستضعفين الذين استرذلهم.

ورد عليه فرعون باستهزاء قائلاً: ألم تكن في بيتي ربيباً، وفعلت فعلتك بقتل رجل من شيعتي، ثم وليت هارباً خوفاً من بطشنا فمتى كان هذا الذي تدعيه من أمر النبوة؟.

ولم يكتف بذلك بل اتهم نبي الله أنه من الكافرين المنكرين لنعم فرعون عليه في طفولته وصباه.

فأجاب موسى ﷺ أنه جرى على يديه قتل القبطي الذي من شيعتك دون قصد وعن جهل مني، بما قد يتحقق من موته بمجرد وكزه وأنا أسيف للذي حدث، فلا تثريب عليَّ لأنه كان سابقاً للنبوة، وهذا لا يطعن ولا يقدح برسالتي إليك وكان من أثره أن فررت خيفة قتلي واتجهت إلى مدين فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين، وها أنا أقف أمامك لأدعوك إلى عبادة رب العالمين خالق كل شيء ومدبره.

فأين أنت من رب العالمين بالمقارنة؟ إذ بلغ بك الكفر أن ادعيت الألوهية وحملت قومك على عبادتك وزعمت بقولك أنا ربكم الأعلى وأنت بهذا في منزلة الأبالسة من شياطين الجن.

ثم تدرج موسى ﷺ بالرد على فرعون إلى أن قال: أتمنُّ علي بأن ربيتني وليداً ومنعت عني القتل وأنت الذي استعبدت بني إسرائيل وأوغلت في قتلهم، فلو كنت عكس ذلك لما قُذِفت في اليم حين خشيت أمي افتضاح أمرها، بعد أن وضعت بي وقادني القدر الإلهي إليك لأكون نزيلاً في بلاطك وأنا الآن عدو لك.

فاغتاظ فرعون وقال: وما صفة رب العالمين الذي تدَّعي أنك رسوله؟

وهنا تفصل سورة الشعراء جانباً من الحوار بين موسى ﷺ وفرعون، وما طرحه من أسئلة فيها تعبير السخرية والتهكم عن رب العالمين، ومصير القرون الأولى من الخلائق وإجابات موسى ﷺ عليها مؤكداً أن الألوهية والربوبية لا تكون إلا لله الخالق رب العالمين

الجدير بالعبادة وحده لا شريك له. وهو رب السموات والأرض وما بينهما، ورب المشرق والمغرب وما بينهما، وهو الذي خلقك وخلق آباءك الأولين، وكان في الرد لفتة حكيمة للتدليل على عظيم قدرة الله في الخلق.

ثم أوضح للقوم مخاطباً عقولهم أن فرعون هذا مربوبٌ لا ربٌ كما يزعم، فكيف تعبدون من هو واحد منكم من جنسكم؟

وهنا استعظم فرعون واستغرب من صلابة موسى عليه السلام في الرد وقوة حجته فأنكر دعوته، موجهاً كلامه للملأ من قومه، إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون أسأله عن شيء فيجيب بغيره. ثم تمضي الآيات لتشيرَ إلى رد موسى عليه السلام حين وقف وخاطب الملأ: إن كنتم تعقلون فآمنوا برسالتي، فإن لم تفعلوا فأنتم الأحق بالجنون إن أنا إلا نذير مبين.

فما كان من فرعون عندئذٍ أن ضاقت عليه الأرض بما رحبت من صلابة موسى عليه السلام فتوجه إلى تهديده وترهيبه إذ قال: لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين، وهذا ديدن المحجوج الضعيف على مدار التاريخ. يلجأ إلى البطش والقوة حين تعوزه الحجة وينقصه الدليل. فأجابه عليه السلام : أتجعلني من المسجونين ولو جئتك بشيءٍ على صدق رسالتي إليك فالتقط فرعون أنفاسه وقال عليَّ بها فأتِ بالذي يشهد على نبوتك إن كنت من الصادقين. فألقى عصاه فانقلبت ثعباناً يسعى، وأخرج يده من جيبه فإذا هي خالصة في شدة بياضها ولمعانها.

فلمّا وقف على رؤية ما رآه من معجزات أفزعه الأمر، وطلب الرأي والمشورة من أعيان قومه في أمر موسى، متظاهراً باحترام الرأي والرأي الآخر ليستدر عطفهم ومؤازرتهم في محنته هذه بعد أن كُشِفت عورته للملأ من حوله، وقد عمد قبل سماع رأيهم إلى إخافة القوم أن غاية موسى عليه السلام أن يخرجهم من أرض مصر بسحره ليتملكها وقومه. فأشار عِلْيَةُ القوم عليه، إن موسى لساحر، فأرسل في طلب مشاهير السحرة من المدائن والحواضر في مختلف الأقاليم كافة. لنشهد على أعين الناس في ميقات يومٍ معلوم، منازلتهم له ولسحره، وحُدّد وقت الضحى من يوم الزينة وهو عيد عند الفراعنة كموعدٍ لمعارضة السحر بالسحر على زعمهم.

ولما تقاطر السحرة إلى بلاط فرعون، قالوا له عند اجتماعهم معه، أيكون لنا أجرٌ عظيمٌ إن كنا الغالبين بعزتك؟ فأجابهم بل أنتم من صفوة المقربين في بلاطي ولكم ما شئتم.

ولما حان الموعد، وتراءى الجمعان في حلقة المنازلة، أقسم السحرة بعزة فرعون أنهم الغالبون، والقوم مجتمعون حولهم على شكل حلقات متداخلة، فألقوا حبالهم وعصيهم وخُيِّل للناس أنها حيّات تسعى فاسترهبوا أعينهم، ولما وقف فرعون على رؤية ما شاهد تملكه الفخر والزهو والغرور. وهنا قذف الله في قلب موسى عليه السلام الصلابة، وأوحى إليه لا تخف من سحرهم وعِصيهم وكيدهم إنك أنت الأعلى، فأنت على حق وهم على باطل، ولك النصر عليهم وسيرون هزيمة مكرهم. فألقى عصاه فإذا هي حية عظيمة تبتلع سريعاً ما ظهر على أيديهم من سحر التخييل والتدجيل. فأيقن السحرة حقيقة المعجزة لأن ما شاهدوه مقرون بالتحدي مع عجزهم أن يأتوا بمثله. وهنا كشف الله عن قلوبهم الغشاوة والغفلة وأنارها بالهدى فأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين.

وتظهر الآيات بعد هذا المشهد جانباً من غضب فرعون الذي أنكر على السحرة إيمانهم قبل أن يأذن لهم، فتهددهم وتوعدهم، وزعم أن موسى هو كبيرهم الذي علمهم السحر وتتلمذوا على يديه في المعابد الفرعونية قبل هذه الواقعة. وتوعدهم بقطع أيديهم وأرجلهم مختلفات من خلاف بعضها بعضاً. كقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو العكس، مع التصليب حتى الموت في جذوع النخل. وتصور لنا آيات القرآن ثبات السحرة على إيمانهم دون اكتراثٍ لتهديد فرعون لهم. وأجابوه بلسان اليقين ومنطق الحق المبين، أسلمنا لله واتبعنا رسله، فاقضِ ما أنت قاضٍ. وهنا وقف الطغيان عاجزاً أمام الحق وكانوا أول المؤمنين.

ثم ينعطف المشهد إلى بيان تتابع الأحداث بعد تلك الواقعة بشكل متسارع بين موسى عليه السلام وفرعون، بعلم الله وإرادته وتقديره للأحداث، فهو المقدر لها الفعال لأمرها وفق حكمته ومشيئته، فتخبرنا عن وحي الله لرسوله بالخروج من مصر ليلاً ومن آمن معه من بني إسرائيل. وهنا ترصد الآيات خروجهم من مصر دون علم الفراعنة، فانطلقوا سراً باتجاه سيناء لبلوغ

الأرض المقدسة أرض كنعان بفلسطين، وكان بين دخول بني إسرائيل إلى مصر في عهد يوسف ﷺ، وبين خروجهم منها بصحبة موسى ﷺ، خمسمائة سنة تقريباً، في أرجح الروايات التاريخية، وكان عددهم يتراوح ما بين ستة إلى سبعة آلاف نسمة فقط.[1]

ونشير هنا إلى عدم مصداقية عددهم في العديد من الكتب والروايات التي نقلت عن الإسرائيليات والعهد القديم لمبالغتها الفلكية فهي باطلة ومردودة[2]، ودليلنا في ذلك تحكيم العقل بعددهم عند قدومهم إلى مصر، إذ كانوا قرابة خمسين إلى ستين شخصاً. وباستمرار تناسلهم لأجيال متعاقبة بلغ عددهم الرقم المشار إليه عند الخروج هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قول فرعون عنهم عندما علم بخروجهم سراً: - إنَّ هؤلاء لشرذمة قليلون - تقليلاً وتصغيراً لعددهم وشأنهم في الحياة المصرية.

ثم تمضي آيات قصة موسى ﷺ في سورة الشعراء، بإيضاح وكشف ما كان عليه فرعون من الغضب والغيظ بخروجهم من غير إرادته وعلمه ومخالفتهم لأمره.

فلحق بهم حتى أدركهم وقت شروق الشمس عند شاطئ البحر الأحمر، ولما رأى كل فريق صاحبه ولم يبق بينهما إلا مسافة الأفق، ليقاتل كل منهم الآخر، صاح قوم موسى خائفين

---

(١) العرب واليهود في التاريخ: د. أحمد سوسة، ص٥٢٨.

(٢) تجدر الإشارةِ هنا إلى مسألةٍ على قدر من الأهمية والحساسية وهي بيان مخاطر اشتمال طائفة كبيرة من كتب التفسير والقصص والتاريخ، على غرائب الإسرائيليات التي يرفضها العقل والمنطق، ومن صور ذلك ما نحن بصدده من أحداثٍ في مقطع قصة موسى عليه ﷺ إذ أورد الطبري، ت ٣١٠هـ في تاريخ الأمم والملوك ١/ ٢٤٦، والثعلبي، ت٤٢٧هـ في قصص الأنبياء غرائب المجالس ص١٧٤، وابن الأثير، ت٦٣٠هـ في كتابه الكامل في التاريخ ١/ ١٤٣، وابن كثير، ت٧٠٧هـ في قصص الأنبياء ص٢١٦، وابن خلدون، ت٨٠٨هـ في المقدمة ١/ ١٤وغيرهم، ضخامة أعداد بني إسرائيل عند خروجهم من مصر، وقد تراوحت تقديراتهم ستمائة ألف مقاتل ونيف غير الصبية والنساء وكبار السن، كما اختلفت تقديراتهم لجند فرعون حتى تجاوزت في هذه الكتب ألف ألف وستمائة ألف، وهذه أرقامٌ منكرة بعيدة عن المصداقية وجادة الصواب؟!!!

رهبةً من بطش فرعون وظلمه (إنا لمدركون) وقالوا لموسى عليه السلام: سيلحقنا أذىً كبيرٌ لا طاقة لنا به من فرعون وجنوده على فعلتنا هذه. فأجابهم موسى عليه السلام: لا تجزعوا من رؤيتهم فلن يدركونا لأن معي ربي هادياً وناصراً ومذللاً للصعاب ومرشداً للنجاة، فاتبعوني ولا تلتفتوا إليهم، ولما بلغ الماء أوحى الله عز وجل إليه أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق أرضاً يبساً إلى اثنتي عشرة طريقاً بعدد أسباط بني إسرائيل، وكان الماء عن اليمين وعن اليسار حاجزاً كالجبل العظيم. فأدركهم الله بلطفه وعنايته ونجّى موسى عليه السلام وقومه. فلمّا جاوزوا البحر وانفصلوا عنه بمسافة يسيرة، انتهى فرعون وجنده إلى مياه البحر فأطبقت عليهم، ولم ينج منهم أحد وفي ذلك آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى. وقُذِفَ فرعون إلى الشاطئ ليكون للناس آيةً وعظةً وعبرةً على مر الأزمان والدهور إلى يومنا هذا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس: ٩٢]. وليس غريباً ولا خافياً على أحد أن مومياء فرعون الخروج والمطاردة لم تزل على حالها محنطة في المتحف القومي بالقاهرة، يتوافد إليها السياح من مختلف دول العالم للاعتبار بهلاكه.

ثم اختتمت قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء بمحور السورة المتكرر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾. فالآية ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ تهدف إلى إنذار الكافرين والمشركين من قريش وتحذيرهم من الاستمرار في كفرهم، ودعوتهم إلى الابتعاد عن الإفساد في الأرض، لعلهم يفيقون من غفلتهم ويؤمنون بالله عز وجل، فيعبدونه ويصدقونه برسله، ويعتبرون بما نزل بالأقوام السابقة من العذاب الشديد عظةً وعبرةً. وفي هذا دليل واضح على ارتباط الخاتمة بمقدمة السورة.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إشارة إلى قلة عدد المؤمنين برسالات الرسل كافة على وجه العموم. وفيها بيان عدد المؤمنين برسالة موسى عليه السلام من قوم فرعون وقلتهم على وجه الخصوص. ومن أبرزهم آسية امرأة فرعون التي قالت عندما رأت موسى عليه السلام وهو رضيع: ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [القصص: ٩].

وقد ورد في القصص دعوة فرعون لها بالكفر فأبت فعذبها ولم يزل في تعذيبها حتى فارقت الحياة. وكان منها أن دعت الله عز وجل أن يبني لها بيتا في الجنة. ومن القلة المؤمنة أيضاً برسالة موسى عليه السلام: الرجل الصالح مؤمن آل فرعون، الذي قدم الموعظة والمشورة والحجة لقومه بشأن رسالة موسى عليه السلام وهو الذي نصح له بالخروج لئلا يقتل عندما فر إلى أرض مدين. ولعله كان متأثراً بدعوة يوسف وأبيه يعقوب عليهما السلام، وكان من القلة المؤمنة أيضاً السحرة الذين آمنوا برب موسى وهارون وسجدوا لله وقالوا لفرعون: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [طه: ٧٢]. وقولهم في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾. وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ فتفيد أن باب التوبة مفتوح للإنسان ما لم يغرغر تحت وطأة سكرات الموت وهذا مشاهد في فرعون عند غرقه حين قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠]. وهنا تصور الآيات المشهد الأخير من حياة فرعون وهو يُحتضر ورده تعالى: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس: ٩١].

ففي هذا الرد استفهام إنكار نص على عدم قبوله تعالى منه التوبة لأنها جاءت متأخرة بعد فوات الأوان، وهو العزيز في نقمته وانتصاره ممن خالفه وعبد غيره القاهر للكافرين بالانتقام منهم، مع كونه كثير الرحمة في الإمهال وعدم المعاجلة بالعقوبة، لعلهم يعقلون قبل فوات الأوان حين لا ينفع نفساً إيمانها. (١)

(١) قصص الأنبياء: للإمام الحافظ ابن كثير، ص٢١٩.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها مقطع قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء

١- إن التفسير السيكولوجي لقول فرعون لنبي الله موسى عليه السلام : ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ يفيد أن الطواغيت في كل زمان ومكان صاغتهم القوة ونسجت حولهم أوهاماً وأساطير، فالطاغية عصبي المزاج نزق في سلوكه السيكولوجي ليس حليماً ولا صبوراً ولا متأنياً، وإذا سمع شيئاً لا يعجبه ولا يتفق مع هواه يسارع بالعقوبة ويتعجل بالقتل، فالطغاة على أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون وفي آذانهم وقر فلا يسمعون، وقلوبهم غلف فلا يعقلون والمألوف عن الطغاة أنهم حين يغلبون على أمرهم ويخشون افتضاح أمرهم، ويعوزهم الدليل والحجة، عدلوا عن الجدل والمناظرة مع خصومهم. وعمدوا إلى ترهيبهم إرضاءً لنفوسهم المتعطشة إلى الثأر وإشباعا لرغبتهم في القتل، علهم بهذا السلوك الشاذ يسترون عوراتهم ويخفون باطلهم بإخافة الآخرين.

وليس خافياً أن هؤلاء الطغاة على امتداد التاريخ لا يبغون إلا المحافظة على ما يتقلبون به من نعيم العيش والسلطان، وإذا أوجس الآحاد منهم من أحدٍ من الدعاة والمصلحين خيفةً منه. أعلن له العداء، وكشف له عن البغضاء، وتربص به الدوائر، ثم ما انفك ينتظر الفرصة السانحة للانتقام منه، وسعى من باب المكر والخديعة بث عيونه بين عوام الرعية، ليحذروا من اتباعه لحملهم على مجاراة الطاغية في عداوته. لعله يأنس منهم سكوتاً لو أقدم على تصفيته جسدياً.

فهل هناك محنة أشد مما يتعرض له الدعاة المخلصين في دعوتهم لله في كل زمان، وحسبنا من قصص الأنبياء مع طواغيت أقوامهم آية بوجه عام، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون بوجه خاص. وفي هذا درس للجهر بقول الحق في الدعوة لله وتحذير المؤمنين من الاستسلام لحكم الطواغيت.

٢- إن في هلاك فرعون وقومه دعوة للناس كافة على امتداد العصور للاعتبار والعظة، وبياناً أن طريق السعادة ليس بالمال ولا بالجاه ولا بالسلطان بل بعمق الإيمان، الذي لا يتأتى إلا بقوة العقيدة، التي تدفع إلى الاستماتة على المبدأ و الصمود باقتدار وثقة أمام العاديات وصعاب النوازل والأهوال، حتى ينتصر الحق على الباطل، وفي هذا شحذ للهمم وتقوية العزائم وإزالة الوهن من النفوس وإبعاد اليأس عن القلوب، فيتحرر الإنسان من خوف الذات وسلطان التقليد للآباء الأولين، ويعيش حياة السيد العزيز. والعاقبة للمتقين بالنصر المؤزر أو الشهادة في سبيل الله، لينعم في الجنة جزاء إيمانه وتصديقه لرسل الله.

٣- إيضاح تفرد نبي الله موسى عليه السلام بأمرين لم يكونا لأحدٍ من أنبياء الله ورسله، لا من قبل ولا من بعد وهما: (أ) شرف تكليم الله له من وراء حجاب بلا واسطة ملك، فسمع كلام ربه عليه السلام دون أن يراه، ولهذا لُقب ب-(كليم الله). وتحققت له هذه المنزلة الرفيعة في المكان المبارك والليلة المباركة عند الجانب الأيمن الغربي من جبل الطور في الوادي المقدس طِوى وقت عودته من مدين[1] إلى مصر بصحبة أهله ليلاً، ولقد بدأ الله عز وجل كلامه لموسى عليه السلام بعقيدة التوحيد والوحدانية، حيث أخبره أنه لا إله إلا هو، وأنه رب العالمين، وكلفه أن يذهب إلى فرعون ويبلغه الدعوة وأيده بمعجزتين العصا واليد. (ب) التماسه من ربه أن يصحبه في رحلته الدعوية أخوه هارون، فكان النبي الوحيد الذي سأل النبوة لأخيه فاستجاب الله له. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه: ٣٦].

ومعلوم أن طلبه هذا لم يكن لمقصد دنيوي، بل ليكون أخوه هارون مساعداً له يتقوى به في دعوته، كما لا يفوتنا الإشارة هنا أن موسى عليه السلام هو أكثر الأنبياء والرسل في عدد معجزاته المادية وهي على النحو التالي:

أ- معجزة انقلاب عصاه حية تسعى وابتلاعها حبال وعصي سحرة فرعون.

---

(١) ورد في الحديث الشريف: (أتم موسى أوفى الأجلين وأبرهما وأوفاهما مع شيخ مدين). صحيح البخاري٢٦٨٤.

ب- معجزة اليد التي تظهر بيضاء من غير سوء.

ج- معجزة الرجز أي العذاب وتتضمن صوراً متتاليات من الآيات الربانية وهي رجز السنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع ورجز الدم.

د- معجزة فلق البحر وغرق فرعون وجنوده.

هـ- معجزة إنعام الله على بني إسرائيل بتفجير اثنتي عشرة عينا.

و- معجزة إنعام الله على بني إسرائيل بالعديد من النعم في صحراء سيناء.

ز- معجزة بعث جماعة من بني إسرائيل إلى الحياة بعد موتهم بالصاعقة.

ح- معجزة رفع جبل الطور فوق جماعة من بني إسرائيل.

ط- معجزة إحياء قتيل بني إسرائيل بضرب جسده ببعض البقرة التي أُمروا بذبحها.

٤- إن الإله الذي كان أنبياء بني إسرائيل يدعون لعبادته هو الله رب العالمين، وديانتهم هي ديانة الإسلام بالمعنى العام في توحيدهم للعبودية والألوهية لله الواحد القهار.

فقد جاء على لسان يعقوب عليه السلام لأبنائه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وعن يوسف عليه السلام قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وجاء على لسان موسى عليه السلام: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. وعن حواريي عيسى عليه السلام: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]. ولعل من المفيد الإشارة هنا أن الله رب العالمين هو غير إله اليهود الذي تصفه التوراة والتلمود.

وتعود تسمية (يهود) على جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصر ونسبةً إلى مملكة يهوذا، فإله اليهود المزعوم (يهوه) ابتدعه كتبة التوراة المحرفة، في السبي البابلي بعد ثمانمائة عام من وفاة موسى عليه السلام، فطرأ عليها التحريف والتصحيف والتبديل باعتراف آيات القرآن.

فكان إلههم (يهوه) لا غاية له من العالم سوى اليهود شعبه المختار، الذين خصهم بالخيرية والتمجيد والاصطفاء وجعل النبوة قاصرة عليهم إلى قيام الساعة.

ولعل الناظر في التوراة والتلمود يرى دعوة (يهوه) لقومه الجنوح للبطش والقسوة والشر والمكر والخديعة والعدوان والتدمير وتعطشه للدماء، وله من صفات البشرية من مأكل ومشرب ومنام وحب وكراهية وغير ذلك الشيء الكثير، فأي إلهٍ هذا ؟! ولله المثل الأعلى الذي ليس كمثله شيء. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن القرآن الكريم فرق بين مصطلحين هما (بنو إسرائيل) وهم ذرية يعقوب عليه السلام الذي كثرت النبوة في نسله، فكان منهم يوسف وموسى وداود وسليمان وغيرهم عليهم السلام. وبين كلمة (اليهود) التي وردت تسع مرات في القرآن الكريم. ثلاث منها في سورة البقرة، وأربع مرات في سورة المائدة، ومرة واحدة في سورتي آل عمران والتوبة.

ونرى من بديع إعجاز القرآن أنه يطلق اسم بني إسرائيل على قوم موسى عليه السلام في مواضع الرضا في أغلب الحالات، كالذي نراه في ذكر اصطفاء الله لهم، وخصهم بالرسالة وإسباغ الحكمة والنبوة فيهم.

وبالمقابل يطلق اسم اليهود على بني إسرائيل في مواضع السخط عليهم، والتنديد بقبح أعمالهم، أو عند التحدث عن تمردهم على أنبياء الله ورسله، وما أصابهم جزاء ذلك من الذلة والعبودية لفساد طويتهم. أو عند تحذيرهم لغلو منكر القول الذي أدخلوه في كتبهم وقالوا هذا من عند الله وكفرهم بأنعمه. وقد اقترن اسم اليهود في آيات القرآن الكريم في غير موضع بالسوء والفحش واللعن والانحراف والشدة في عداوة المؤمنين لقوله تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ ﴾[1] [المائدة: ٨٢].

وبنظرة فاحصة لسلوك اليهود في القرآن والسنة نرى أنهم أصحاب الباطل، ما انفكوا

(١) العرب واليهود في التاريخ: د. أحمد سوسة، ص٤٦٣.

يجدون في باطلهم الرابط الذي يشد بعضهم بعضاً، تأبى طبيعتهم العظة والاعتبار. استكبروا على موسى عليه السلام في سيناء وكانوا قوماً مجرمين. استحوذ عليهم الشيطان فأضلهم طريق الرشاد الذي جاءت به الرسل، أتتهم رسلهم بآيات الله فلم ينظروا إليها بعين الاعتبار لغفلتهم، وهم قوم لا يؤمنون بالآيات حتى لو رأوها، لا يؤثر فيهم الإنذار ولا الحجج. مشهود لهم بالكبر والمكابرة والعناد، عقيدتهم فاسدة لا تخضع لأي منطق سليم يتفق وفطرة الإنسان. وأنبياء بني إسرائيل بريئون منهم ومما يعبدون من دون الله وإنهم وإن علا شأنهم اليوم، فإن مصيرهم الهلاك والدمار في مستقبل الزمن.

٥- إن في قصة موسى عليه السلام مع فرعون درس للتحذير من الذهاب للسحرة والكهان والعرافين فالساحر رجل انحرف عن جادة الإيمان واستخدم عالم الجن وسخره لخدمته. وأصبح خادماً لشيطانه الذي تعهده بإضلال الناس وغوايتهم. وفي الحديث: (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)[(١)].

والسحر عمل مذموم قبيح مستهجن مُخل بالعقيدة، وسمي سحراً لأنه يحصل بأمور خفية لا تدرك بالأبصار، وهو من تعليم الشيطان لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وهو كفر وضلال وشرك يسعى إليه الإنسان عند الجهل بالدين والتهاون بالعقيدة. وفيه تقرب إلى الشياطين بما يحبونه من ذبح لغير الله أو كتابة الطلاسم الشركية والتعاويذ الشيطانية أو بإلقاء القرآن في نجاسة، وفي الحديث: (اجتنبوا السبع الموبقات)[(٢)]. كان منها الشرك بالله والسحر، والسحر عمل يجري على أيدي الدجالين والمشعوذين طلباً للفتنة كالتفريق بين الزوجين أو المرض أو الوسوسة .... الخ.

والاعتقاد بوقوع السحر الذي يغير قدر الله إلى قدر الساحر كفر وخروج من الملة. وإن للسحر أعراضاً منها الصد عن ذكر الله وضيق في الصدور عند سماع القرآن أو الحديث

---

(١) صحيح مسلم/ ٢٢٣٠.

(٢) متفق عليه: البخاري٥/ ٢٩٤ ومسلم٨٩.

وتكرار رؤية الأحلام المزعجة والقلق والبله والغفلة والنسيان وجحوظ العينين وهلاوس وهذاءات سمعية وبصرية، ومما يؤسف له ظهور بعض السحرة بمظهر الولي الذي له خوارق وكرامات كدخول النار والضرب بالسيف دون أن تؤثر فيه، والادعاء بعلم الغيب بواسطة قراءة الكف أو الفنجان أو الكهنة أو السحر أو التنجيم[١].

٦- ليس للمؤمنين بالله أن يكونوا مغلوبين على أمرهم أمام هؤلاء الدجاجلة والمشعوذين وعليهم أن يحصنوا أنفسهم بالآيات القرآنية والأذكار النبوية الشريفة التالية:

أ- الفاتحة. ب- أول خمس آيات من سورة البقرة. ج- آية الكرسي. د- أواخر سورة البقرة. هـ- سورة الإخلاص. و- سورة الفلق. ز- سورة الناس. ويضاف إلى ذلك عند التباغض والخصومة في الحياة الزوجية الآيات (١٠٢و١٠٣) من سورة البقرة.

أما الأذكار النبوية فهي:

أ- (بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم)[٢].

ب- (لا إله ألاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير)[٣].

ج- (أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطانٍ وهامّة ومن كل عينٍ لامّة)[٤].

د- (اللهم إني عبدك ابن عبدك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور بصري،

---

(١) كتاب التوحيد: د. صالح الفوزان، ص٤٧.

(٢) مسند أحمد ١/ ٦٢. وأبو داود٥٠٨٨. وابن ماجة٣٨٦٩. سنن الترمذي٣٣٨٨.

(٣) صحيح مسلم٥٩٤.

(٤) صحيح البخاري٣٣٧١، كتاب أحاديث الأنبياء.

وجلاء حزني، وذهاب همّي)[١].

ويستأنس بتلاوة الآيات والسور السابقة في الصباح والمساء عند النوم، أما الأذكار النبوية الشريفة فيتم ذكرها عقب كل صلاة. ولا يفوتنا الإشارةِ هنا من تلاوة البقرة والكهف أسبوعياً.

٧- قد ثبت في الصحيحين في باب فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته عن النبي ﷺ قال (لا تخيروني على موسى)[٢].

(لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدري أصعق فأفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور)[٣].

ويفهم من هذا الحديث من باب الهدايات المستنبطة لقصة موسى عليه السلام، النهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه العصبية، مع أن الله عز وجل قد رفع الأنبياء بعضهم على بعض درجات، لقوله تعالى ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وفي الحديث (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر)[٤].

وفي الحديث أيضاً (والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني)[٥].

وهذا يدلل على وحدة الرسالات السماوية في معناها العام للإسلام لتكون في خدمة الإسلام بمعناه الخاص، وهي الرسالة التي نزلت على محمد ﷺ، الذي اقتدى بمن سبقه من أولى العزم (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى) وصبر كصبرهم ففعل، وجمع مختلف أنواع الصبر الذي صبروه، فكان أحقهم بالدرجة الأولى في أولي العزم.

٨- بمناسبة قوله تعالى عند دعوة موسى وهارون لفرعون ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ

(١) سنن أحمد ١/ ٣٩١ و ٤٥٢ وابن حبان٩٧٢.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ٣٤٠٨، ومسلم ٥٣٧٣/ ١٦٠.

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري ٣٤٠٨ ومسلم ٥٣٧٣/ ١٦٠.

(٤) الترمذي ٣١٤٨، وأحمد١٠٩٨٧.

(٥) رواه أحمد ٣/ ٣٨٧، رقم الحديث ١٥٠٩٤.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[الشعراء: ١٦]. نلاحظ ورود كلمة (رَسُوْلُ) مفردة مع أنهما مثنى، في حين جاءت الكلمة في سورة طه بصيغة المثنى لقوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ ٤٧. وتفيد الآية معنى نحن رسولان من عند ربك، وهنا يتحقق توافق المبتدأ والخبر في صيغة المثنى، أما في آية سورة الشعراء فلم يتطابق اسم إنّ وخبرها، حيث جاء اسم إنّ مثنى (إنّا) بينما جاء خبرهما مفرداً (رسول) واللطيفة القرآنية في الحكمة من تفاوت التعبير بين الآيتين، يمكن تعليله بأن سورة طه خاصّة بقصة موسى عليه السلام منذ ولادته إلى وفاته، ومن هنا جاءت دعوتهما لفرعون وملئه وقومه بصيغة المثنى، فكل منهما نبيّ في دعوته بينما لوحظ في سورة الشعراء حقيقة وحدة الرسالة والدعوة، فكل من موسى وهارون عليهما السلام يدعو إلى دين واحد شأن دعوة رسل الله جميعاً ممن ورد ذكرهم في السورة. (١)

وبالمقابل يرى العُكبري أنّ موسى عليه السلام هو الأصل وهارون تَبعٌ له فذُكر الأصل واكتفي به، إذ كان موسى على أمرٍ واحد في الدعوة مع هارون وهو مصدر رسالة، والتعبير المفرد هنا لكلمة (رسول) يُحمل على المثنى أيضاً بمعنى إنّا ذَوَا رسالة رب العالمين. (٢)

توطئة في بيان قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء ووجه العلاقة مع غيرها

إن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام هو أحد أولي العزم الخمسة من الرسل، أثبت الله نبوته في آيات عديدة من سور القرآن الكريم، وكرمه تكريماً خاصاً، وشهد له بأنه كان أمةً قانتاً لله حنيفاً، شاكراً لأنعمه بالحمد والولاء، يذكر اسمه في القرآن والسنة مقروناً بالكرم والدعاء والتضحية، وهو صاحب الفداء بالذبح العظيم، آتاه الله رشده في صغره مذ عقِل، واختاره رسولاً واتخذه خليلاً(٣)، وفضله على كثير من خلقه، متسامح حليم أواه منيب، جاء ربه بقلب سليم، وهو أول من أطلق على ملته المسلمين، وأمرنا الله تعالى باتباع ملته، وجعل في ذريته من

---

(١) قصص القرآن، د. صلاح الخالدي، ٢/ ٤٠٤.

(٢) التبيان في إعراب القرآن، العُكبري، ٢/ ٩٩٤.

(٣) ورد في الحديث (يا أيها الناس، إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً) صحيح مسلم٥٣٢/ ٢٣.

نسل هاجر وسارة النبوة والكتاب والحكمة. ويعد حج البيت العتيق من أعظم آثار اتباع ملته منذ أربعة آلاف عام. يتفق المؤرخون أن مولده كان في العراق في القرن التاسع عشر ق. م. (١) وقد جاء ذكره في مختلف كتب التفسير مقروناً بعهد الملك الطاغية الكافر(نمرود)، الذي قال بالأُلوهية فأبطل بالمنطق العقلي والبرهان مزاعمه، مدللاً على ربوبية الله وحده لا شريك له. عاش في قوم اعتادوا عبادة الكواكب السيارة والنجوم كالشمس وعطارد والقمر والزهرة، ومنهم من توجه إلى عبادة الأصنام والتماثيل، فأحس بفطرته تفاهتها فأنكرها وأعلن براءته منها وحطمها، وتوجه صادقاً لفاطر السموات والأرض. وهنا بدأ صراعه مع أبيه وقومه، فما كان منهم بعد أن غلبهم في جداله ومناظراته حول آلهتهم المحطمة، أن طرحوه في النار ليقتلوه قصاصاً لفعلته. فأنجاه الله منها وكانت له برداً وسلاماً. وحتى لا يؤذيه بردها، قال تعالى: وسلاماً إذ لو لم يقل الله لها كوني سلاماً عليه لكانت برداً قاتلاً وهذا من لطيف التعبير القرآني، وكان من المفروض أن تنتقم آلهة القوم لنفسها ممن حطمها، ولكنهم حين أرادوا إحراقه لم تحرقه النار وخذلتهم آلهتهم. وتعطل قانون خاصية الإحراق. فكأن آلهتهم التي كانوا يزعمون أنهم ينتقمون لها ليست آلهة إنما أصنام لا تضر ولا تنفع. إذا وقفت عاجزة على أن تقول: يا نار احرقي من حطمنا. وهنا تحجرت قوانين الكون وأصبحت عاجزة أمام قدرة الله وإرادته فكانت المعجزة. (٢)

وبعد تلك الواقعة قصد بلدة (حاران) مولياً ظهره لمسقط رأسه بصحبة زوجته سارة، وابن أخيه لوط. ومنها توجه إلى أرض كنعان (فلسطين) فمكث فيها مدة من الزمن، ثم انطلق بعدها إلى مصر وكل حركاته مقدرة له من رب العالمين حسب حكمته ومشيئته، فما لبث أن غادرها عائداً إلى أرض كنعان مع أهله وجاريته هاجر، ونزل في بلدة (حبرون) وهي الخليل اليوم ولعل اسم المدينة مشتَقّ من خليل الله.

ولم يمض وقت طويل حتى رزقه الله ولده الأول إسماعيل من جاريته المصرية هاجر

(١) العرب واليهود في التاريخ: د. احمد سوسة، ص٧٤، ٤٨٠.

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم. الشيخ محمد متولي الشعراوي، ١/ ١٠.

التي وهبها الفرعون (سنسوسرت الثالث) ١٨٧٢-١٨٤٣ ق. م [١] إلى زوجته سارة، فوهبتها لزوجها إبراهيم فاستولدها نبي الله إسماعيل. فأسكنه وأمه مكة وشيد معه البيت الحرام[٢]. وعهد الله عز وجل لهما عليهما السلام أن يطهرا البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود.

ثم ولدت له زوجته سارة لاحقاً ابناً في شيخوخته أسماه إسحاق بعد أن بشرت الملائكة به حين زيارتهم له وإعلامه بمصير هلاك قوم لوط.

ومما يجدر ذكره أن اسم إبراهيم مكرور في القرآن تسع وستون مرة في خمس وعشرين سورة. [٣] وكان ذكره في كل سورة يأتي مناسباً لسياقها العام وما يعرض منها يتفق وموضوع كل سورة، ومناسبة الآيات في السورة تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع، والمناسبة التي تساق القصة من أجلها هي التي تحدد مساق القصة والمشهد الذي تعرض له ومدته، ومعلوم أن كل قصة مجملة أم مفصلة أم قصيرة، جاءت تفي بالغرض الذي سيقت من أجله، وقد يذكر في القصة ما لا يرد في غيرها من الصور والمشاهد. كأن يذكر إنكار إبراهيم على أبيه وقومه عبادة الكواكب والأصنام في سورة، ويرد تحطيمه للأصنام ومحاكمته على أعين الناس في سورة أخرى، ومحاججته للملك الكافر المنكر لوحدانية الله وربوبيته وألوهيته وتحديه له أن يأتي بالشمس من المغرب في سورة ثالثة، وطلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى في سورة رابعة، وحمده أن وهب الله له على الكبر إسماعيل وإسحاق وطلبه إلى ربه أن يجعله مقيم الصلاة وذريته وأن يقبل دعاءه ويغفر لوالديه يوم يقوم الحساب في سورة خامسة. ونجاته ولوط إلى الأرض المباركة في سورة سادسة، والأمر باتباع ملة إبراهيم في سورة سابعة.

---

(١) العرب واليهود في التاريخ: د. احمد سوسة، ص٤٩٥.

(٢) قد ثبت في الصحيحين في ذكر بناء البيت العتيق عن أبي ذر قال: (قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة). متفق عليه، صحيح البخاري٣٣٦١ ومسلم٥٢٠/ ١.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢-٣.

ويتضح لنا مما سبق اختصاص كل سورة بحدث معين. والنهج ذاته مكرورٌ في قصص الأنبياء والرسل كافة، مما يتطلب على من يأخذ بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم أن يربط بين مختلف الصور والمشاهد والأحداث المشتركة التي يقتضيها السياق الواحد.

وورد ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم على ثلاث حالات:

الحالة الأولى: التوسع في ذكر بعض تفاصيل ومشاهد قصته، وتعد سورة البقرة خير دليل على ذلك. إذ ذكر نبأه في الآيات ١٢٤-١٤١ و ٢٥٨ و ٢٦٠. كما ورد ذكره في آل عمران بشيء من التفصيل أيضاً.

الحالة الثانية: التوسط والاعتدال في بعض المشاهد واللقطات وهذا القول ينسحب على السور التالية: إبراهيم والشعراء والزخرف والحديد.

الحالة الثالثة: الاكتفاء بذكر اسمه بإشارات بسيطة ضمن بعض الأنبياء، وهي كثيرة منها على سبيل المثال: الأحزاب وص والشورى والنجم، فقد ورد ذكره في كل منها مرة واحدة.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا
عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ
يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ
﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى
حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ
﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ
أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ
﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ

وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

يخبرنا الله تعالى في هذا المقطع عن أمره عبده ورسوله محمد ﷺ، أن يقص على قومه من كفار قريش، قصة إبراهيم ﷺ لمن أراد أن يتعظ ويعتبر، وصراعه في الدعوة مع أبيه وقومه في عبادتهم للأوثان والأصنام، التي كانوا ينحتونها بأيديهم ويصنعونها على أعينهم وينصبونها أرباباً لهم، كتلك التي ضربت حول الكعبة، وما انفك قومك يتعبدون بها ويزعمون أنهم على ديانة إبراهيم وملته. (١)

وليعلموا أن فيما ذكره الله من نبأ إبراهيم لعظة وعبرة، وما يعتبر بها إلا العقلاء الذين يتدبرون، لعلهم يهتدون ويقرون على صدق الرسل وقدرة الله. و أُتلُ عليهم يا محمد إقبال إبراهيم على الله بقلب سليم من مرض الشرك والكفر والنفاق حين صدع بقول الحق كما تدعوهم أنت الآن، بيِّن لقومك يا محمد خطاب إبراهيم لأبيه وقومه، تبكيتاً بقصد تقبيح أصنامهم للتنبيه على عجزها وفسادها وسؤاله عن عجب واستنكار: أي آلهةٍ هذه التي تفردتم بعبادتها؟ أوضح لقومك يا محمد ما كان من أمر إبراهيم في آلهة قومه حين أبطل أمرها وكشف زيفها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع. قل لقومك وعشيرتك الأقربين، أرأيتم وحدة رسالة الإسلام بيننا. فأين أنتم من ديانة وملة أبيكم إبراهيم على وثنيتكم؟ فاعتبروا مما يتلى عليكم على لسان نبيكم.

ثم تمضي الآيات لتخبرنا أن سؤال إبراهيم لقومه (ما تعبدون) كان سؤال إدانة لهم وتقريع لا سؤال استفهام. إذ كان يعلم أن أباه وقومه يعبدون الأصنام، ولكنه أراد إلزامهم الحجة أن لا وجه لعبادتها لعدم نفعها لهم. وهو بهذا أراد أن يشرك أبصار القوم مع بصائرهم وحواسهم

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٣١٧.

علَّهم يرشدون. لكن القوم كذبوه وأبوا أن يستجيبوا له استكباراً، ولو كانوا أهل علم وفطنة لما فعلوا ذلك، فأجابوه بإقرار عجز آلهتهم أن تجلب خيراً أو أن تدفع شراً، ومع ذلك بقوا يقيمون على عبادتها لأنهم مدينون لتقليد الآباء والأجداد.

ثم تمضي الآيات لترينا تبرؤ إبراهيم ﷺ من أبيه وقومه ومن آلهتهم لأنهم قوم لا يرجون لله وقاراً مع إقامة الحجة عليهم. ثم عرَّفهم بالله عز وجل بقوله رب العالمين رب السموَات والأرض وما بينهما، ورب المشرق والمغرب وربكم ورب آبائكم الأولين الذي له الفضل على الخلائق في الهداية والإطعام والشفاء من المرض بأخذ الأسباب الموجبة وبيده غفران الذنوب في الدنيا والآخرة، وهو رازقي بما سخر ويسر من أسباب الرزق وهو الذي يميتني إذا حل أجلي، والذي يحييني مرة أخرى يوم القيامة والذي أطمع في غفرانه عما سلف مني وهذا شأنه مع الخلائق كلها.

واللافت للانتباه هنا أن موسى ﷺ عرَف فرعون على الله رب العالمين من خلال إظهار ربوبيته في الخلق كما تقدم ذكره. وها هو إبراهيم ﷺ يكررها في تعريف قومه على الله مما يدل على وحدة الرسالات، وأن دعوة الرسل واحدة ومتكاملة يكمل بعضها بعضا. [1]

ثم تمضي الآيات بتسلسلٍ وتخبرنا عن توجه إبراهيم ﷺ بالدعاء إلى الله عز وجل فقال: رب هب لي علماً ومعرفةً وحِكمةً بحدود الله وأحكامه وألحقني بالنبيين من قبلي في الجنة، واجعل لي ثناءً حسناً في الآخرين، وذكراً جميلاً يبقى أثره بين الناس إلى يوم القيامة، واجعلني من عبادك الذين يدخلون جنة النعيم، ولا تُذلني يوم القيامة يوم لا ينفعُ أحداً ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، ولا أولاده إلا من جاء إلى الله بقلب مؤمن سليم، ومن كل كفر وشرك[2].

ثم تتدرج الآيات لتعرض جانباً من صور ومشاهد أهل الجنة من المؤمنين، وأهل النار من

---

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٢٣.

(٢) تيسير التفسير: الشيخ إبراهيم القطان، ٣/ ٣١٦.

الكفار والمشركين، بما يتناسب مع موضوع السورة وسياق القصة أيضاً. فأشارت إلى أحوال أهل الجنة وما يلاقون من نعيم مقيم، وحال أهل النار وما يلاقونه من عذابٍ شديد.

فالمؤمن ينعم في الجنة جزاء إيمانه وتصديقه لرسل الله عليهم السلام. والكافر يحبط عمله، ويعذب في النار جزاء كفره وتكذيبه لرسل الله، ويفيد قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾. أن الله عز وجل قرب الجنة وأدناها لتكون بارزة للمؤمنين، ليشموا رائحة نعيمها قبل أن يدخلوها، وأظهر النار للكفار قبل أن يدخلوها ليشتد حزنهم جزاء شركهم. وبعد ذلك عرضت الآيات جانباً من حوار الكفار والمشركين مع أوليائهم من شياطين الإنس والجن، فيتخاصمون معهم بسبب ما هم فيه من الضلال، ويعترف الأدنى من الكفار بغفلته وجهله في مساواة الأعلى من شياطينهم بالعبادة مع رب العالمين. ويقولون لهم لسنا ندري كيف جعلنا أمركم مطاعاً علينا. ثم يصور لنا مشهد الكافرين حين يُلقَون في الجحيم على وجوههم هم والذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر والشرك، وعندها يتمنون لو عادوا للحياة من جديد ليعملوا صالحاً، ويعتبروا مما يتلى عليهم من الرسل، وليعملوا بطاعة ربهم. ولكن هيهات وأنى لهم أن يعودوا للحياة ثانية، والله تعالى يعلم أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون. (١) وفي مشهدٍ آخر نرى ما يوجه إليهم من تقريع وتوبيخ: أين آلهتكم التي كانت أرباباً من دون الله؟ هل يسمعونكم أو يستجيبون لكم لنجدتكم ؟ هل يستطيعون إنقاذكم من نار جهنم ؟

ماذا تحقق لكم من نفع في تقليدكم لآبائكم الأولين فيما كانوا يفعلون؟ إنكم وإياهم في جهنم، فالنار أولى بكم فذوقوا وبال أمركم وليس لكم من شفيع، وبعد هذا المشهد لأهل النار تختتم قصة إبراهيم ﷺ بمحور السورة المتكرر﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾. لعل المقصود بالخطاب هنا قوم إبراهيم ﷺ للإشارة إلى قلة المؤمنين بدعوته، فما آمن به من قومه إلا نفر قليل في أرض بابل بالعراق رغم طول مقامه بين

(١) مختصر تفسير ابن كثير: الشيخ محمد علي الصابوني٢/ ٦٥٢.

أظهرهم، وفيه إضاءة أيضاً لقلة المؤمنين برسالة محمد ﷺ من أهل مكة، ومما يصدق هذا الرأي أن النبي ﷺ عاش في مكة يدعو أهلها إلى الإسلام ثلاث عشرة سنة لم يتجاوز عدد المؤمنين برسالته بضع عشرات، وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة. وكانت نعمة الله عليه عظيمة بعد الهجرة، حيث امتد الإسلام ليشمل في سنوات بسيطة الجزيرة العربية بأكملها فكانت قاعدة لانطلاق الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩ ﴾. دعوة للرسل في الصبر على المكاره ومدح الثبات على العقيدة والإيمان بالفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر. وإن الله هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها مقطع قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء

١- بيان أن العقيدة ليست من الأمور التي ينبغي فيها تقليد الآباء الأولين من غير دليل أو برهان. فالتقليد بغير عقل واقتناع هو شأن الكافرين، ﴿ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]. ﴿ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤]. فأهل الكفر والشرك - صم بكم عمي فهم لا يعقلون - صمٌ عن سماع دعوة الحق، بكمٌ عن إجابة رسل الله، عُميٌ عن رؤية آيات الله الباهرة في الكون.[1]

٢- تأكيد القرآن الكريم للمؤمنين أن لا مجاملة في العقيدة لأحدٍ ولو كان من ذوي القربى. كما حصل لإبراهيم عليه السلام حين تبرأ من أبيه لشركه بالله، وما وقع لنوح عليه السلام مع ابنه وامرأته عند الطوفان، وما تحقق للوطٍ عليه السلام مع امرأته من الشرك قبل الهلاك. فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله وليست قرابة النسب.

---

(١) روح الدين الإسلامي: عفيف طباره، ص٢٧١.

ولقد بينت آيات القرآن عدم جواز الاستغفار للمشركين ولو كانوا من أولي القربى. فإبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه بناء على موعدة وعدها إياه - فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه. وتعد رابطة العقيدة بين المؤمنين إحدى مقومات التربية في الإسلام ولا تقوم صلة بين اثنين إلا على أساسها. (١)

٣- إن في قول إبراهيم عليه السلام في دعائه ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾. قد يحتمل تأويل اللسان بالذكر الحسن، بمعنى واجعل لي ذكراً حسناً في الأمم التي ستأتي بعدي، وقد يحتمل التأويل إجعل لي من ذريتي من يصدقني فيما دعوت إليه ويذكرني بخير. فيكون المقصود بها خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، فكانت الاستجابة بعد آلاف السنين. وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ ﴾(٢) [البقرة:١٢٩].

٤- إنّ في قول إبراهيم عليه السلام يوم لا ينفع مال ولا بنون، ما يفيد أن المال إذا كان مصدره حلال وصُرف في وجوه البر والإحسان، مع إقامة شرع الله فيه من زكاةٍ وصدقاتٍ ونحو ذلك فهو مالٌ يُنتفع به في حياة صاحبه وعند موته، وهذا من أوجه حسن التصرف بالملكية الذي يتحقق فيه أدبيات استخلاف الإنسان لمال الله، ويعد ضابطاً لعلاقته بالمال وصيانته وإنفاقه، وخلاف ذلك فلا يتأتى عن الملكية إلاّ الخسران المبين في الدنيا والآخرة بحيث لم ينفع المال صاحبه لو افتدى ملء الأرض ذهباً.

٥- لمَّا كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين، أمر الرسول ﷺ المصلي أن يقول في تشهده ما ثبت في الصحيحين (اللهم صلي على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما صليت على إبراهيمَ وآل إبراهيم، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركت على إبراهيمَ وآل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد) متفق عليه، صحيح البخاري ٣٣٧٠ ومسلم ٤٦٠/ ٦٦.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢١٨، ٢٢١.
(٢) المرجع السابق، ص٢٢٠، وقصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، ص٢٨٠.

وإن في هذا من الهدايات ما يؤكد على وحدة النبوة والرسالة وتكاملها، ودليلاً على وجه الارتباط القوي بين إبراهيم عليه السلام ومحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وإن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. ففي هذه الآية الأمر بالصلاة على النبي ﷺ وهي مكملة لأمر النبي ﷺ بالصلاة على إبراهيم عليه السلام مما يومئ إلى وحدة رسالة الإسلام.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق حول وجه الارتباط بين إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشكل والجوهر، ما ورد في حديث الإسراء أن النبي ﷺ قال: (ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولد به)[١].

توطئة في بيان قصة نوح عليه السلام في سورة الشعراء ووجه العلاقة مع غيرها

ورد ذكر قصة نوح عليه السلام في مواضع متعددة من سور القرآن الكريم وقد تفاوتت طولاً وقصراً بما يتفق مع موضوع السورة وسياقها ومشاهد لقطاتها والعبرة المتوخاة منها. وتكرر اسمه في القرآن ثلاثاً وأربعين مرة في ثمانٍ وعشرين سورة[٢].

ويلاحظ أن السور التي ذكرت مشاهد طويلة من قصته هي سور مكية هدفها إثبات نبّوة محمد ﷺ. وبيان أن القرآن منزل من الله عز وجل معجز بسرد نبأ الأقدمين من الرسل للعظة والاعتبار[٣] وقد وردت أجزاء من قصة نوح عليه السلام في سور كثيرة منها: الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر، وأنزلت في شانه مع قومه سورة بتمامها وأشير إلى مضمون قصته في سور أخرى للعبرة. [٤] وقد تحدثت سورة الأعراف (٥٩-٦٤) عن نبوة نوح ودعوته لقومه، وتفنيد شبهات القوم له. وعجب الملأ من القوم أن يرسل

---

(١) صحيح البخاري٣٣٩٤ وصحيح مسلم٤١٧ وأحمد٧٧٩٤.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٨١٥.

(٣) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي١/ ١٥١.

(٤) قصص القرآن: د. محمد بكر إسماعيل، ص٤٢.

الله بشراً من جلدتهم لهدايتهم.

ثم جاءت سورة يونس (٧١-٧٣) وأبرزت مشاهد من مواجهة نوح ﷺ لقومه، بالتحدي والثبات ومحاججتهم بالحجج والبراهين الدالة على صدق رسالته وتكذيب القوم له.

ثم جاءت سورة هود (٢٥-٤٩) وعرضت مشاهد مطولة من قصته وأبرزت دعوته لقومه، وعدم تصديقهم له، وطلبهم الاستعجال بإيقاع العذاب بهم فكان الطوفان.

ثم جاءت سورة المؤمنون(٢٣-٣٠) لتبرز أن الله بعث نوحا إلى قومه نبيا ورسولا لهدايتهم، وإنكار قومه عليه ذلك مع القدح بدعوته بإثارة الشبهات ضده. واستنصاره بخالقه ودعوته أن يهلك الكافرين من قومه لضلالهم وفسادهم.

ثم جاءت سورة الشعراء (١٠٥-١٢٢) فأخبرت بتوسع أن الله عز وجل أرسل عبده ورسوله نوحاً ﷺ لأهل الأرض من قومه. كأول رسول بعثه الله بعد آدم[١] بسبب شيوع الكفر فيهم إذ كان الشرك طارئاً شاذاً غريباً أول ما تحقق في قوم نوح وكان انحرافهم عبر أجيال متطاولة متعاقبة. انتقلوا خلالها من التوحيد إلى الشرك بالتراخي والتدرج. فبعثه الله ناهيا ومحذرا، فكذبوه وما زادهم ذلك إلا فراراً من الهدى، وإعراضاً عن الحق، وظلوا يعبدون أصنامهم تعنتاً وشططاً، وأوصى بعضهم بعضا بالعكوف لها، غير مبالين بما توعدهم به نبيهم ﷺ وكفوا عن مجالسته والسماع لنصحه واتهموه بالضلال والكذب والجنون، وكانوا إذا

(١) ورد في الحديث (بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام) رواه الطبراني في الكبير٨/ ١٣٩-١٤٠ رقم٧٥٤٥ وابن حبان٦١٩٠، (وكان بعد تلك القرون الصالحة أن طرأت على أهل الأرض عبادة الأصنام وهي بالأصل أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا وعبدت بعد هلاكهم) البخاري٤٩٢٠ كتاب التفسير باب(وداً ولا سواعاً ولا يغوث). والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام بعث الله نوحاً ﷺ يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض وقد ثبت ذلك في الصحيحين في حديث الشفاعة (يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض) متفق عليه صحيح البخاري٣٣٤٠ ومسلم١٩/ ٣٢٧.

رأوه وضعوا أصابعهم في أذانهم، وغطوا وجوههم بثيابهم، ولكن نوحا ﷺ كان يغشاهم في مجالسهم ليسمعهم كلمة الحق رغم أنوفهم، ويجادلهم في شان أصنامهم ليريهم مدى ما هم فيه من ضلال وجهل وعمى.

ومع هذا لجوا في الجدل وأمعنوا في المراوغة والتكذيب(1) ونزّل الله تعالى تكذيبهم له بمنزلة تكذيبهم لعموم الرسل لقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾(2). وأمام عناد قومه وإصرارهم على تكذيبه استنصر ربه فنجاه والذين آمنوا معه وأغرق الكافرين وهذا واحد من المشاهد التي أشارت إليها سورة الشعراء.

ثم جاءت سورة العنكبوت(١٤-١٥) فانفردت دون غيرها من السور، بذكر المدة التي استغرقها نوح ﷺ، بدعوة قومه وهي ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم جاءت سورة الصافات(٧٥-٨٢) وعرضت اللقطات السابقة التي تقدم ذكرها من بداية الدعوة وحتى الطوفان، مع الثناء على نوح ﷺ لطول صبره وجلده وحسن حججه وقوة براهينه، وإعراضه عن استهزائهم في حلم وأناة صابرا على أذاهم صامدا للغوهم.

ثم جاءت سورة القمر (٩-١٧) لتحدثنا عن دعاء نوح ربه ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾، وترينا لقطات من مشاهد هلاك القوم كآية باهرة.

ثم جاءت سورة نوح (١-٢٨) فأخبرت أن الله عز وجل أمر نوحاً بإنذار قومه ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾. وكشفت عن دعوته لهم بالعبادة والتقوى والطاعة، ووعده لهم بالمغفرة إن فعلوا ذلك.

ثم عرضت استخدام نوح ﷺ مختلف الأساليب في دعوته حتى الكونية منها، فلفت أنظارهم كيف خلقهم أطواراً وأنبتهم من الأرض، وخلق سبع سموات، وجعل القمر نوراً والشمس سراجاً. (3) وهذا الشاهد مألوفٌ ومشاهدٌ في يومنا هذا، حيث يعمد الدعاة إليه

(١) المرجع السابق: ص٤٣.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: الشيخ محمد علي الصابوني، ٢/ ٦٥٢.

(٣) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ١/ ١٥٦.

لبيان عظمة الله في الخلق بكشف أسرار الإعجاز العلمي في القرآن. ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. حيث اقتضت سنة الله تعالى أن تكون معجزة الإسلام في القرآن الكريم. يلفت العقل إلى النظر والتأمل، بحثاً عن أسرار الكون ومظاهر عظمة الله في الأنفس والآفاق. مع وجوب التفكر في خلق الله للكون، فأثنى على أولئك الذين ينظرون فيعتبرون، وذم أولئك الذين تعمى بصائرهم عن التأمل، فيمرون على آيات الله في الكون غافلين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كل قصة من القصص اللاحقة في هذه السورة تبدأ بنفس البداية التي وردت فيها قصة نوح ﷺ فهي على الترتيب:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ الشعراء/ ١٠٥. ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ الشعراء/ ١٢٣. ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ الشعراء/ ١٤١. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ الشعراء / ١٦٠. ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ الشعراء / ١٧٦.(١)

وتومئ هذه الآيات بالكلية أن كل قوم كذبوا نبيهم فكأنما كذبوا الرسل كافة. كما تصب هذه الآيات الكريمة في خدمة مقدمة السورة وخاتمتها. وفيها إشارة تفيد أن أهل الكفر والشرك على وتيرة واحدة، مهما تباعد الزمن وتطاولت الدهور واختلفت العصور، وقد سبق عليهم القول بهلاكهم وعذابهم لكفرهم. كما ترينا أن دعوة الأنبياء والرسل واحدة، ومصير المؤمنين واحدٌ ومصير الكافرين واحد في كل دعوة، والله ينتصر لرسله متى شاء وينتقم من أعدائه المكذبين متى يشاء، مع اختلاف صورة الهلاك من قوم لآخر، فقوم نوح أهلكوا بالطوفان، وقوم عاد بالريح العاتية، وقوم ثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف، وقوم فرعون بالغرق. وقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن الكريم، تخفيفاً عن الرسول ﷺ، وتحذيراً وعبرةً للكافرين. وهذه آية باهرةٌ معجزةٌ للناس كافةً إلى قيام الساعة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٣٠.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة نوح عليه السلام في سورة الشعراء

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)
۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ
مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
(١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢) ﴾

قراءات:

- (قرأ يعقوب واتباعك الأرذلون. وقرأ الباقون: واتبعك الأرذلون). [١]

أن نبأ نوح في القرآن الكريم هي واحدة من القصص القرآني. التي قصها الله على رسوله محمد ﷺ، وكان غافلا عنها غير عالم بتفصيلاتها وأحداثها، قبل أن تنزل وتخبره عن أحداث الماضيين من الرسل والأقوام، بوصفها من أنباء الغيب.

وقد عرض الله عز وجل آية من آياته في قصة نوح عليه السلام وقومه، إذ كانت له العاقبة ولقومه الهلاك، وفي ذلك معجزة شاهدة على صدق الرسل فيما يقولونه عن الله.

كان قوم نوح يعبدون الأصنام بعد أن طرأ الشرك عليهم. بتعاقب الأجيال واتخذوها آلهة يرجون منها الخير والبركة. وقد أثبت القرآن الكريم خمسة أوثان لهم، كانوا يقدسونها وهي(ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر). على حسب ما يملي عليهم الجهل، ويزين لهم الهوى، فأرسل الله عز وجل إليهم نوحاً عليه السلام، فأثبت لقومه نبوته ورسالته في دعوة امتدت ألف سنة إلا خمسين عاماً. اعتاد أن يخاطبهم بلطف ولين قائلاً: أنا رسول من الله إليكم، أمين فيما أبلغكم عنه فاتقوا

---

(١) تيسير التفسير: الشيخ إبراهيم القطان، ٣/ ٣١٩.

الله بترك الشرك والكفر وعبادة الأصنام. أطيعوني فيما أمركم به، وقاية لأنفسكم من عذاب الله، وما أنا إلا نذير لما أمرني الله به إليكم. ولا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم بدعوتكم للإيمان، بل أدخر ثواب ذلك عند الله. فأجابه قومه بغلظةٍ وقسوةٍ واستكبار: لا نستجيب لدعوة يستوي فيها الشريف والوضيع. ولن نؤمن لك وقد اتبعك الأرذلون منا الأقل جاهاً ومالاً والأخس نسباً وصنعة. وترينا الآيات مكر القوم إذ عرضوا عليه من باب المكر والمكيدة إن شئت أن نتبعك فما عليك إلا طردهم واستصغارهم وذلتهم لأننا لا نرغب أن نتأسى بهؤلاء الأرذلين لقلة نصيبهم من نعيم الدنيا وزخرف الحياة وتواضع ألوان معايشهم. فأجابهم على سفاهة قولهم قائلاً: ألا إنكم قوم تجهلون، ما كان لي وما ينبغي أن أطردهم من رحمة الله، وأنا مكلف بدعوتكم للإيمان وليس من شأني النظر في باطن أمورهم وعلم ذلك عند الله. فردوا عليه بإنكار دعوته والاستهزاء به والتكذيب برسالته لبشريته، فهو من جلدتهم وأخوهم في العشيرة والنسب. ثم تخبرنا الآيات توجه القوم له بالتهديد والترهيب: لئن لم تتوقف عن دعواك هذه وتترك قدح ما ألفناه من آلهة الآباء الأولين لتكونن من المرجومين بالحجارة موتا، واعلم لو كان في دعوتك خيرا ما سبقنا إليها أحد.

وتمضي الآيات لتظهر لنا حكمة تعامله مع قومه فجادلهم بالحجج والبراهين وجاءهم في إبلاغ الدعوة، بكل الأساليب والوسائل كالترغيب والتحبيب والترهيب سراً وجهراً ليلاً ونهاراً.

ولم يزل صامداً في دعوته لهم، فأنذرهم بالعقاب فعموا وصموا، ورغبهم في الثواب فوضعوا أصابعهم في آذانهم. [1] وكلما زادهم دعاءً وتذكيراً زادهم فراراً وإعراضاً، وإصراراً على الباطل، واحتقاراً لأتباعه من الضعفاء المسترذلين حسب زعمهم. [2]

ثم تمضي الآيات لتبرز لنا مشهد اشتداد دعوته عليهم حتى ضاقت صدورهم وغلبت

---

(١) قصص القرآن: محمد أحمد المولى، ص١٥.

(٢) العقيدة الإسلامية: عبد الرحمن الميداني، ص٤٢٠.

عليهم شقوتهم، فطالبوه أن يعجل عليهم بما يعدهم من العذاب إن كان صادقاً في دعوته. ولما يئس من حمل القوم على الإيمان فزع نوح ﷺ إلى ربه شاكيا ملتجئاً ودعا بهلاك الملأ الكافر من قومه لضلالهم وفسادهم، فاستجاب الله دعاه، وأمره أن يشرع من فوره بصنع سفينة النجاة له وللقلة التي آمنت من قومه. وتُخبرنا الآيات أنه لم ينج من سخرية قومه واستهزائهم له، كلما وقعت أعينهم عليه أثناء صناعته للسفينة. ومع هذا كان صابراً على أذاهم، وعند حلول الأجل الذي قدره الله عز وجل للطوفان، أمره بشحن السفينة من كل زوجين اثنين. ثم جرى الطوفان الذي أغرق القوم بالكلية وكان من أعيان المغرقين امرأته وولده. وأبحرت السفينة وسط أمواج البحر العالية باسم الله مجراها ومرساها ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

ثم تختتم قصة نوح ﷺ بمحور السورة المكرور في كل قصة من سورة الشعراء: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢١-١٢٢]. للدلالة على قلة المؤمنين في دعوة نوح ﷺ وهذا شأنهم في دعوات الرسل كافة، وإنَّ في هلاك قومه عبرة وعظة بالله القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه، ثم يفيد الخطاب قوم النبي ﷺ في مكة وما كان أكثر الذين تتلو عليهم يا محمد من قومك بمؤمنين.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها مقطع قصة نوح ﷺ في سورة الشعراء

١- بيان تجرد الرسل عليهم السلام عن الغرض الدنيوي والمصلحة الشخصية في دعوتهم بقولهم لأقوامهم بلسان واحد في كل قصة: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾. فقد تكررت هذه الآية في سورة الشعراء وحدها خمس مرات:(١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠). وهي تفيد إثبات نبوتهم بإقامة الحجة على الكافرين لحملهم على الإيمان طواعية، قبل أن يسألوا يوم القيامة من ملائكة العذاب: ألم يأتكم رسلٌ ينذرونكم ويحذرونكم من هذا العذاب الشديد الذي تلاقونه اليوم؟. ولقد جاءت هذه الآية لتخدم محور السورة وتعلل لها وتدلل، وكررت لتكون أبلغ في التحدي والتبكيت.

٢- القدح في وحدة سلوك الكفار المذموم، بإثارة الشبهات ضد رسلهم، من نوح ﷺ إلى محمد ﷺ. فهذا السلوك المرضي هو دأبهم وديدنهم على امتداد الأمم السابقة كلها. ومن صور إثارتهم للشبهات:

- نعت الرسل بقوادح القول كالتكذيب والجنون والتلبس بالجن والسحر والسفه والطيش والغفلة والحذق بنظم الشعر ونحوه.
- مطالبة الرسل الاستعجال بالعذاب إن كانوا صادقين.
- الطعن في بشرية الرسل من باب الغرابة والاندهاش، إذ كان قولهم لكل نبي ورسول: ما أنت إلا بشرٌ مثلنا وواحد منا، ألفناك منذ طفولتك تأكل مما نأكل وتشرب مما نشرب، ويجري عليك ما يجري علينا من متاع الدنيا ومن خلق وموت، ولو شاء الله هدايتنا لأنزل علينا ملائكة، ولو أعملوا العقل لتبين لهم أنَّ بشرية الرسول خير لهم وأكثر أنسا لنفوسهم.
- تقليدهم لآبائهم الأولين في معبوداتهم وآلهتهم من غير تبصر وتدبر.
- الاستهزاء بالله وكتبه ورسله، ومعلومٌ أن من استهزاء بواحد منها فهو مستهزئٌ بجميعها فكيف إذا كان الاستهزاء بها متلازم؟
- استضعافهم لرسل الله لقلة نصيبهم من متاع الدنيا وزخرف العيش.

٣- إن المتأمل لآيات القرآن الكريم في سورة الشعراء يرى أن الفقراء دوما هم السابقون إلى الرسل والرسالات وإلى الإيمان، لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغة ولا خوف على مصلحة أو وضع اجتماعي أو أي مكانة أخرى، ومن ثم فهم الملبون السابقون، الأكثر استجابة لدعوة الأنبياء من علية القوم الأكثر ثراءً الذين تقعد بهم كبرياؤهم ومصالحهم التي احتصلوا عليها في غفلة من الزمن فيأنفون أن يسويهم التوحيد بغيرهم من الرعية.[1]

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٢٦.

توطئة في بيان قصة هود عليه السلام في سورة الشعراء وعلاقتها مع غيرها

ذكرت قصة هود وقومه عاد في القرآن الكريم، بعد قصة نوح عليه السلام. بشكل يتفق مع التسلسل التاريخي للأحداث ولقد فصلت قصته بتوسع مع قومه في عشر سور، وبإشارات موجزة بشكل متفاوت في ثماني عشرة سورة.

وتكررت كلمة (هود) في هذه السور سبع مرات، وكلمة (عاد) أربعا وعشرين مرة، [1] وفيما يلي موجز لأبرز ما جاء في هذه السور من نبأ هود عليه السلام وقومه عاد، لإبراز وشائج الوئام والترابط بينها بما يتوافق ومحور السورة.

ففي سورة الأعراف تحدثنا الآيات (٦٥-٧٢) عن دعوته لقومه عبادة الله وحده، وهي دعوة الأنبياء كافة لأقوامهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم، وإنكارهم لدعوته، ثم نجاة هود عليه السلام والقلة التي آمنت معه. [2]

وفي سورة هود تحدثنا الآيات (٥٠-٦٠) عن إثبات نبوة هود، واتهام القوم له بالسفه والجنون.

وفي سورة المؤمنون تمضي الآيات (٣١-٤١) دون ذكر اسم هود وعاد، وتخبرنا عن إنكار القوم لنبوة بشر من جنسهم، وتقف عند هلاك القوم بالصيحة.

وفي سورة الشعراء تتوسع الآيات (١٢٣-١٤٠) في ذكر قوم هود وتخبر أن عادا استكبروا في الأرض وبغوا وظلموا، وجعلوا من قوتهم أداة لظلم الآخرين، ثم تبرز إثبات نبوته وتكذيب القوم له، وإنكار نصحه لهم وعدم قبول دعوته، لمخالفتها عقيدة الآباء الأولين، أوعظ أم لم يكن من الواعظين. وتبرز غرابة بناء القوم للأبراج والقصور، وتكذيبهم للبعث.

وفي سورة الأحقاف تحدد الآيات (٢١-٢٥) المكان الجغرافي لأرض القوم في الأحقاف، ثم تبرز استعجالهم العذاب، فكان العارض الممطر الذي أهلك القوم بالريح المدمرة.

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص٨٣٠، ٦٠٥.
(٢) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ص١/ ١٢١٨.

وفي سورة الذاريات أخبرت الآيتان (٤١-٤٢) عن مكر الله بالقوم لكفرهم، فحبس عنهم المطر وأصابهم بالقحط، وأرسل إليهم ريح العقيم فكان هلاكهم.

وفي سورة القمر جاءت الآيات (١٨-٢٢) لتخبر عن تعذيب القوم وهلاكهم بالريح الصرصر، شديدة الصوت والبرد، قيل أيضاً شديدة الحر، مع وصف النحس المشؤوم.

وفي سورة الحاقة أشارت الآيات (٦-٨) إلى هلاك القوم بالريح الصرصر العاتية لشدة سرعتها واستمرارها لسبع ليال وثمانية أيام، فكانت حاسمة لخبرهم وآثارهم.

وفي سورة الفجر تتحدث آياتها (٦-٨) عن قوة القوم وشدة بطشهم، ووصف براعتهم في نحت البيوت والأبراج والقصور الشامخة.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة هود عليه السلام وقومه عاد في سورة الشعراء

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾
إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾

قراءات:

- (ورد في تفسير القرطبي ١٣/ ١٢٥: وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: خُلُقُ الأولين في قراءة أخرى بفتح الخاء وسكون اللام)[1].

(١) التبيان في إعراب القرآن، العُكبري، ٢/ ٩٩٩.

بعد أن استوت سفينة نوح عليه السلام على جبل الجودي، عادت الحياة للأرض من جديد فعمرها نوح ومن آمن معه وبالتراخي تفرقوا في مختلف الأمصار فمنهم من استوطن الشام ومنهم من نزل العراق، ومنهم من سكن مصر، واتخذ قوم عاد لهم سكناً في الأحقاف، وكانت أرضهم قاحلة يقل فيها الماء، ويعتمدون في السقيا على مطر السماء.

أقامت عاد الأولى في الأحقاف كما تقدم في جنوب الجزيرة العربية، شمال حضرموت بين اليمن وعُمان قرب صحراء الربع الخالي على وجه التحديد.

حباهم الله عز وجل نعماً وافرة فجروا العيون ووظفوها في فلاحة الأرض، وأمدهم بأنعام وبنين وجنات وعيون، وزادهم في الخلق بسطة، وجعلهم أشد أهل زمانهم في الشدة والبطش.

كانوا جفاة كافرين عتاة متمردين في عبادتهم لأصنامهم (صمدا وصمودا و هرا) وهم أول من عبد الأوثان بعد الطوفان، فاتخذوها آلهة بعد أن ساءت أخلاقهم وفسدت فطرتهم أرسل الله لهم رسولا من أنفسهم من أوسطهم نسبا، وأعرقهم حسبا، وأفصحهم لسانا فدعاهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، ورغبهم في طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك بالعقوبة الإلهية، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه واتهموه بالسفه والكذب والجنون، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. (١)

بوأهم الله أرضاً تدر عليهم الخيرات، ومكن لهم في ديارهم يبنون القصور الشامخات العالية، وينحتونها عند تقاطع طرق القوافل التجارية الهامة. كعلامات فارقة لإظهار حذقهم ومهارتهم، وبلغ بهم الغلو في الإسراف أن أنفقوا عليها ما لم ينفقه أحد من شعوب زمانهم.

وليس لهم نفع فيها غير التفاخر والمباهاة، لعلهم يعمرونها سنين متطاولة، كأنهم باقون مخلدون لا يدركهم الموت. عثوا في الأرض فساداً، فأذل القوي منهم الضعيف عند الخصومة

(١) قصص الأنبياء: للإمام الحافظ ابن كثير، ص٦٥.

والاحتراب، وبطش القريب بالغريب بلا رحمة ولا شفقة لفسقهم وفجورهم. فأنكر عليهم نبيهم هود عليه السلام ذلك. وشرع يذكرهم نعم الله عليهم إذ جعلهم وارثين للأرض من بعد قوم نوح، وزادكم قوة على قوتكم، وأنعم عليكم بالبنين والأنعام والواحات الخضراء في جوف الصحراء، وهي نعم تقتضي منكم أن تشكروه فلا تقابلوها بالكفر، ثم بين لهم سفاهة عبادتهم بالحجج المقنعة والبراهين الساطعة، وينصحهم أن يفكروا بعقولهم فيما يدعوهم إليه، ويتدبروا لأنفسهم ويعتبروا لعلهم يهتدون قبل فوات الأوان.

فآلهة هذا شأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع شراً ليست جديرة بالعبادة، وأن الاشتغال بها إتعاب للبدن في غير فائدة، فاتقوا الله بالكف عنها، وأطيعوه، ثم أبلغهم أمانة نقل الرسالة إليهم فإني لكم نذير وما أريد منكم أجراً ولا جُعلاً على دعوتي لكم. (١) ومن عمل صالحاً واتقى فلنفسه، ومن أساء ولم يزل مصراً على كفره ومخالفته لأوامره، فإن الله صارعه ومهلكه بالعذاب، ولن يضيرني إعراضكم ولا أبالي بما تأتمرون علي وتنعتوني به من قوادح الصفات، فلست أبالي مخلوقاً سوى الله، ولا أتوكل إلا عليه، وهذا ليس بعجيب على هود عليه السلام في شدته وصلابته أمام قومه، فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وهذا شأن رسل الله في قوة الشكيمة كافة. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا تعجيزاً وتيئيساً عله يتوقف عن دعوته لهم حسب ظنهم: ما نظن إلا أن أصابك غضب بعض آلهتنا بسوء فمس عقلك فاعتراك جنون بسببه. (٢)

ثم تمضي الآيات فتصور لنا ردهم عليه بقولهم سواء أوعظت أم لم تكن من الواعظين – فإننا لن نخالف آباءنا الأولين في عبادتهم، ولن نعبد إلهك الذي تدعوننا إليه، فإن كنت صادقا فيما تدعوننا إليه فأتنا بالعذاب الموعود، وما أنت إلا مبتدع متقول لم نسمع بدعوتك في آبائنا الأوائل. وما أنت إلا سفيه طائش، فاسد العقل، تعيب آلهتنا التي وجدنا عليها آباءنا، فمن أنت ومن تكون فينا؟ وبأي شيءٍ تميز علينا حتى يخصك الله بالرسالة من بين أظهرنا؟ هلاّ اختار لها

(١) مختصر تفسير ابن كثير: الشيخ محمد علي الصابوني، ٢/٦٥٤.

(٢) قصص القرآن: للإمام الحافظ ابن كثير، ص٦٦.

عظيماً من أعيان القوم وعلية صفوتهم ذا مال وسعة وجاه وسيادة؟[١] وإن دعوتك باطلة وما هي إلا حياتنا الدنيا، نعيش كما عاش الأوائل ونموت كما ماتوا وما نحن بمعذبين. [٢] فأجابهم هود عليه السلام في مشهدٍ آخر من مشاهد رده: يا قوم ليس بي سفاهة عقل ولا حماقة رأي، وما جربتم عليَّ من كذب، ولقد لبثت فيكم عمرا طويلا فلم تروا مني إلا خيرا، وما العجب في أن يختص الله واحدا منكم من أهل جلدتكم ولسانكم لتبليغكم أمر ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة. وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ولكني أراكم قوما تجهلون. [٣] ولم يزل في مواصلة الدعوة يحبب لهم الإيمان بالله، والقوم معرضون عنه مكذبون له، حتى أخذهم الله بعذابه فأهلكهم بريح صرصرٍ عاتية شديدة الهبوب، صرعت القوم وهم في اضطراب من أمرهم من هول المفاجأة، وكان أَول ما ابتدأهم العذاب أن رأوا عارضا في السماء ظنوه سقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب. ريحٌ عقيمٌ لا جدوى منها في خير، حسبوه رحمة فإذا هو العذاب بعينه. فلم تبق منهم أحداً. وقد ثبت في الصحيحين عن الرسول ﷺ : (نُصرت بالصَّبا[٤] وأُهلِكت عادُ بالدَّبُور)[٥].

واختتمت قصة هود عليه السلام بمحور السورة المتكرر في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾. وفيها إشارة إلى أن معجزة هلاك القوم ما وقعت إلا لقلة المؤمنين برسالة هود عليه السلام، وفي آية الإهلاك لدلالة على صدق الرسالة فمن عزته تعالى أن يهلك أعداءه ويقهرهم، ومن رحمته أن ينتصر لأوليائه، لعل قريشا في مكة تتعظ وتعتبر من قوم عاد الأشد منهم قوة وبطشاً، فإن ربك لهو العزيز الرحيم.

---

(١) قصص القرآن: د. محمد بكر إسماعيل، ص٥٠.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير: الشيخ محمد علي الصابوني، ص٦٥٤.
(٣) المرجع السابق: ص٥٠.
(٤) الصَّبا: الريح الشرقية والدَّبُور: الريح الغربية.
(٥) صحيح البخاري٣٢٠٥، ومسلم٩٠٠/١٧.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها مقطع قصة هود في سورة الشعراء

١- عدم جواز التطير من هبوب الريح وصوته، على خلفية موروث تاريخي، يرتد إلى هلاك قوم هود ﷺ، بالريح الصرصر العاتية. خشية معاودة الهلاك ثانية وانقلاب الزمان بأهله صرعى كما حدث مع عاد في السحيق من الأزمنة، وفي هذا الاعتقاد منافاة لأدب الإيمان بالقضاء والقدر، وحسبنا التأسي بالحديث الشريف إذا عصفت الريح قال النبي ﷺ : (اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به)(1).

٢ - لقد ذكر الله عز وجل إهلاك قوم هود في غير ما آية مجملاً ومفصلاً، بالصيحة ثم بالريح الصرصر العاتية، ما يدلل على وحدة تكامل الآيات وشدة ترابطها، في المضمون والسياق والهدف والغرض، بحيث تردف بعضها بعضا، بشكل متكامل وهي في الكلية آية دالة على العظة والاعتبار، للناس كافة في مختلف الأزمان للتعبير عن قدرة الله تعالى في تدبيره للكون.

٣ - عدم الركون إلى القوة المادية والتعويل عليها وحدها. دون تقوى الله، حتى لا تدفع صاحبها إلى الاستكبار والاستبداد والغطرسة والبطش، وهذا شأن قوم هود ﷺ (عاد) التي لم يخلق مثلها في البلاد، الأكثر بطشا في زمانها فكفرت بأنعم الله اغترارا بعزة قوتها. وهذا الشاهد مكرورٌ في كل زمان ومكان ينسحب على الطغاة والجبابرة الذين يعتزون بجبروتهم، والدول القوية الظالمة التي تركن إلى قوتها دون اعتراف بفضل الله عليها، وتأخذ الدول الأخرى بالظلم والعدوان ولا تسعى لنصرة الضعيف.

٤ - إن من أهم القضايا العقدية في مقطع قصة هود ﷺ، في سورة الشعراء تكذيب قومه له وإنكار نبوته، وإن في قولهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ إقراراً منهم بإنكارهم للغيب. وعدم

(١) الترمذي٣٤٤٩ وابن ماجه٣٨٩١.

الإيمان باليوم الآخر الذي توعدهم به، فانتحلوا لأنفسهم ألواناً من الكفر، بسبب تحكيم عقولهم الوثنية التي تقوم على الجهالة والغي والتعصب، في أمور الغيب مما أوقعهم في خطأ تخيلاتهم للدار الآخرة، وما فيها من بعث وحساب لقياسهم أمور الغيب قياسا تاما على الأمور المحسوسة الدنيوية، وتوهموا أن الأشياء التي يشاهدونها بالحواس ينبغي عدم التسليم والتصديق بها، فهي ممتنعة الحدوث بزعمهم لأنهم لم يروا حياة بعد موت لأحد في دنياهم.

وإن من أسباب الضلالات الاعتقادية عندهم، عزوفهم عن مصادر الوحي الرباني لانحرافهم النفسي عن منهج التفكير السليم، والخلق القويم، فكان في تقليدهم لآبائهم الهلاك والدمار.

ولو أعملوا عقولهم على فطرتها الإيمانية من غير تعصب وهوى، لعلموا أن الكون مخلوق لله ومملوك له، ومطيع لقوانين الخلق الرباني، وكل شيء فيه خاضع لمشيئته وإرادته، حيث تقف قوانين الكون عاجزة أمام قدرته سبحانه وتعالى، كعجز آلهتهم عن تقديم نفع لهم أو دفع شر عنهم في الدنيا والآخرة.

وبقراءة تحليلية لدوافع منكري البعث نرى أنها ظاهرة ممتدة في التاريخ من عهد نوح عليه السلام إلى يومنا هذا، مما يخدم محور السورة﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. إذ يمكن حصر فئات المنكرين في ثلاث مجموعات:

أ- مجموعة تجمع بين إنكار الخالق وإنكار البعث معا، كالوجوديين الماديين في عالمنا المعاصر، وهؤلاء في عددهم أقل من ثلثي سكان العالم بقليل.

ب- مجموعة تعترف بوجود الخالق ولكنها تشرك به لعبادتها الأوثان والأصنام، وما وجدوا عليها آباءهم الأولين في طقوس عبادتهم لها، وهذا شأن الأقوام السابقة، منذ نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ.

جـ- مجموعة تعترف بوجود الخالق ووحدانيته، ولا يشركون معه أصلا، ولكنهم ينكرون البعث الجسدي، ويثبتون الحياة الأخرى بشكل روحاني فقط.[١]

٥- لقد أجمع أهل الملل والشرائع السماوية أن البعث حق لا شك فيه، ومن الأمور المقررة المقضية بقضاء الله وقدره، وواقع لا محالة، ستعود فيها الحياة من جديد إلى الأجساد التي تحللت تراباً. والإيمان باليوم الآخر ضرورة لحل مشكلة الجنوح الإنساني لدفع الإنسان إلى فعل الخير والارتقاء في سلم الفضائل، وهذا من أسلوب التربية بالترهيب.

ومن لطائف الاستدلال القرآني في مناقشة منكري البعث أن الله سبحانه وتعالى قد بيّن في غير موضع من القرآن أن إعادة الخلق أهون من ابتدائه، ثم صرفهم إلى النظر في أنفسهم وفي مظاهر قدرته في الخلق، وإن في ذلك لحجة تدل على كمال قدرة الله عز وجل[٢].

٦- إن الناظر لبطون كتب التفسير يرى أن للعلماء قديما وحديثا عدة أقوال في (عاد)، بسبب اللبس في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ ﴾ [النجم: ٥٠-٥١]. وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ ﴾ [الفجر: ٦-٨].

مما يحمل على طرح السؤالين التاليين: هل هناك عادٌ واحدة أم اثنتان؟ ما حقيقة مدينة إرم؟

وللإجابة على السؤال الأول نقول: اختلف المفسرون في قوله تعالى﴿ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴾ فذهب بعضهم إلى القول أن الأولى هنا تفيد التمايز للفصل والتفرقة بين قبيلتين إحداهما عاد الأولى التي شهدت عذاب الصيحة، والثانية عاد الآخرة التي قضت بالريح الصرصر العاتية.

(١) العقيدة الإسلامية: عبد الرحمن الميداني، ص٦٦٧.

(٢) المرجع السابق: ص٦٦٩.

وقد تبنى هذا الرأي ابن كثير في تفسيره وكتابه قصص الأنبياء، (١) ودار في فلك هذا الرأي أبو السعود في تفسيره، وقد اختلفوا في عاد الثانية، فرأى بعضهم أنها ثمود وقيل غير ذلك.

ومن أنصار هذا من المحدثين الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء. وبالمقابل نرى الشيخ ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير يميل إلى الاعتقاد أن المراد بقوله تعالى ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ يراد به بيان قدم قبيلة عاد في جذور التاريخ الموغلة في القدم، بوصفهم إحدى قبائل العرب البائدة كثمود وطسم وجديس.

ويرى لفيف من العلماء الأقدمين والمحدثين في رأي آخر أن أولى الآراء بالصواب أن عادا قبيلة واحدة كان عذابها على مرحلتين الصيحة التي كانت مقدمة للثانية الريح الصرصر العاتية، التي سخرها الله عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحدا. (٢)

وللإجابة على السؤال الثاني حول حقيقة مدينة (إرم عاد) نقول أن للعلماء المتقدمين والمتأخرين فيها عدة أقوال، ومما تجدر الإشارة إليه ابتداء أن كتب أهل الكتاب من يهود ونصارى لم تتعرض إلى ذكر قوم (عاد) إذ ليس لها مصدر إلا القرآن الكريم.

ومع هذا ومن باب الغرابة والاندهاش نرى أن بعض كتب التفسير وقصص الأنبياء، استقت نقولاً متطاولة من الخرافات والأساطير عن الإسرائيليات حول قوم عاد ومدينتهم (إرم) من غير دليل ولا حجة، فمنهم من توهم وأطال الوصف عن عجائب مدينة (إرم) الواردة في سورة الفجر كقولهم: أن المدينة بنيت لبنة لبنة من ذهب وفضة ونحاس، وهي في حالة تنقل دائم بين أمصار الأرض وحواضرها، وليست مستقرة في مكان واحد، فتارة هي في اليمن وأخرى في الشام وثالثة في الحجاز، وهي في حالة تجوال مستمر من مكان لآخر على

(١) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص٧١.

(٢) قصص القرآن الكريم: د. فضل حسن عباس، ص٢١٠، والقصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ١/ ٢٢٣.

امتداد الأرض، مهما تناءت الديار وتباعدت الأمصار.

ويرى ابن كثير أن المراد في ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ إرم عاد الأولى، الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام إلى جوار قصورهم، [1] وهناك بعض الباحثين من يرى أيضا أنها مدينة خرافية أسطورية لا حقيقة لوجودها ولعل المراد في (إرم) أحد أجداد عاد الذي سميت القبيلة باسمه، وكلمة (ذات العماد) صفة لعاد القبيلة. [2] ومن أنصار هذا الرأي ابن خلدون.

وبالمقابل هناك من يؤكد وجود مدينة اسمها (إرم) الواردة في الآية، بلغ أهلها حسب الوصف القرآني درجة عالية في فنون النحت وعمارة الأبراج العالية والقصور الشاهقة مما استحق ذكرها في القرآن، لكنها ليست أسطورة كما ورد في الإسرائيليات ونرى أن ظاهر الآية يشير إلى ذلك من غير تكلف وتعسف في التأويل.

كما أن (إرم) في اللغة تفيد المجموعة من الحجارة المرفوعة العالية، وهذا يتفق مع هيبة بناء القوم للأبراج والقصور العالية في كل مكان مرتفع حسب ما ورد في سورة الشعراء وعليه فإن المراد بـ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ هي صفة المدينة الحقيقية عكس الشاهد الذي تقدم.

ومع هذا كله رجح فريق آخر من الباحثين في علم الآثار مؤخرا بناءً على تنقيبات أثرية قاموا بها، أن (إرم) تتوضع في منطقة (جبال رم) شمال الحجاز جنوب الأردن قرب البتراء، حيث وجدت في المنطقة آثار جاهلية قديمة، [3] وبقراءة موضوعية تحليلية لهذا الرأي نرى رغم التشابه بين كلمتي (إرم) و (رم) والتشابه في جغرافية المنطقتين إذ أن كليهما رمال قاحلة لا أنيس فيها ولا ديار إلا أن ظاهر سورة الأحقاف ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ ينفي هذا الاعتقاد بالكلية ويثبت وجود آثار القوم بالأحقاف جنوب شبه الجزيرة العربية.

(١) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص٦٧.

(٢) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ١/ ٢٣١.

(٣) مع الأنبياء في القرآن الكريم: عفيف عبد الفتاح طبارة، ص٨٦.

توطئة في بيان مقطع قصة صالح ﷺ في سورة الشعراء وعلاقتها مع غيرها

وردت قصة نبي الله صالح ﷺ في عدة سورٍ، وتكرر اسمه تسع مرات، في حين وردت كلمة (ثمود) ستاً وعشرين مرةً. [(١)] وتراوحت مشاهد قصته مع قومه في سور القرآن الكريم بصور ولقطات متفاوتة، بين البسط في التفاصيل إلى التوسط والاعتدال إلى الاكتفاء بالإيجاز بإشارات خاطفة أو مجرد الذكر فقط، حسب ما يقتضيه السياق القرآني من الحكمة والاعتبار.

ففي سورة الأعراف أخبرت الآيات (٧٣-٧٩) نبأ دعوته لقومه وطلبه لهم عبادة الله وحده. وتقديمه الناقة معجزة له، واستهزاء الملأ من القوم به وبالذين آمنوا معه، وإقدامهم على قتل الناقة. [(٢)]

وفي سورة هود أخبرتنا الآيات (٦١-٦٨) عن إثبات نبوته فيهم، وما خصه الله من معجزة الناقة، وإهلاك القوم بالعذاب حيث أخذهم الله بالصيحة.

وأخبرتنا سورة الحِجْر في الآيات (٨٠-٨٤) عن موطن القوم الجغرافي والتي منها اشتق اسم السورة.

وفي سورة الشعراء أخبرتنا الآيات ١٤١-١٥٩ عن دعوته لقومه بتقوى الله وطاعته ولزوم أمره واجتناب نواهيه، وأبرزت مظاهر ترف القوم وطلبهم لمعجزة مادية وعقرهم للناقة.

وفي سورة النمل أخبرت الآيات ٤٥-٥٣ عن دعوته لقومه وتطيُّر الكافرين به وبالمؤمنين الذين معه على قلة عددهم، واستعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، وإبراز مكرهم وما هم عليه من الإفساد في الأرض، فكان عاقبة مكرهم الدمار والصيحة.

وفي سورة القمر أخبرت الآيات ٢٣-٣٢ إلى دعوته في قومه وعقرهم للناقة، ومعاقبتهم بالصيحة.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص١٩٦-١٩٧ و ٥٠٤- ٥٠٥.

(٢) القصص القرآني: د. صلاح الخالدي، ١/ ٢٦٧.

أما السور التي تناولت إشارات خاطفة لقصته عليه السلام فكانت (الإسراء٥٩، فصلت١٧-١٨، الفجر٩-١٠، الذاريات٤٣-٤٥، التحريم٥١). وهي في مجملها تخبر عن نبوته ومعجزة الناقة وأخذهم بالصاعقة، وبالمقابل نرى ورود اسم قومه (ثمود) مجرد ذكر فقط في السور التالية:

(التوبة٧٠، إبراهيم٩، الحج٤٢، الفرقان٣٨، العنكبوت٣٨، ص١٣، غافر٣١، ق١٢ البروج١٨). [١]

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة صالح عليه السلام في سورة الشعراء

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

قراءات:

- (وردت كلمة فارهين في قراءة أخرى فرهين وهي في موقع حال)[٢].

أورث الله عز وجل ثمود منطقة الحِجر شمال شبه الجزيرة العربية لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الحِجر: ٨٠]. وهي ديار ممتدة تتوضع بين الحجاز وتبوك

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٢٦٩

(٢) التبيان في إعراب القرآن، العُكبري، ٢/ ١٠٠٠.

على طريق الشام. فاستخلفهم على أرضها، واستعمرهم فيها، وجعلهم خلفاء من بعد عاد، وفجروا عيون الماء، وغرسوا الأرض زرعاً ونخلاً. ونحتوا من جبالها بيوتاً وقصوراً فارهة للدلالة على تميزهم وحسن دربتهم ومحكم صنعهم في فنون العمارة. لقوله تعالى: ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾ [الفجر: ٩]. وأوسع لهم في رزقهم فعاشوا في حياة رغيدة. إلا أنهم لم يشكروا الله على آلاء نعمته، فكفروا بأنعمه وازدادوا عتواً وفساداً في الأرض، فانحرفوا عن الإيمان وأشركوا بالله أصناماً متعددة عُرف منها: (ود) و (جد) و (هد) و (شمس) و (مناف) و (مناة) و (اللات). [١] نحتوها بأيديهم وصنعوها على أعينهم، محاكاة لتقاليد آبائهم الأولين وبلغ بهم الغرور أن ظنوا أنهم في هذا النعيم خالدون، وفي تلك السعة من جميل الحياة متروكون. فبعث الله عز وجل رجلاً من صفوتهم، عاش بين أظهرهم حكيماً لهم، وهو عبده ورسوله صالح عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، والتوجه بالتوحيد المطلق له في كل جوانب حياتهم ليسعدوا في الدنيا والآخرة، وحذرهم من العبودية لغير الله، ومما هم فيه من الظلم والضلالة، وما ألفوه من خرافات وأساطير، ليرسخ العزة والكرامة والطمأنينة في أنفسهم.

وطلب إليهم في مشاهد متعددة أن يتقوا الله بوجوب طاعته، وأن يطيعوه فيما بلغهم، وأخافهم بأسه وبطشه وغضبه إن هم ظلموا وتجاوزوا حدود الله. وأبان لهم أنه لا يسعى إلى رياسة دنيوية فيهم، ولا يطلب أجراً على دعوته لهم على عظم ما فيها من نفعٍ لهم في دنياهم وأخراهم.

فما كان جواب قومه إلا أن صموا آذانهم، وأنكروا نبوته وهزئوا ببعثته ودعوته فيهم وأظهروا التعصب لآلهتهم. وأغلظوا له القول وأجابوه، ما هذا الذي تدعوننا إليه، مما لم نسمعه في تاريخ آبائنا الأولين. إننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب، وليس لك أن تدعي النبوة وأنت بشرٌ مثلنا، واتهموه أن شيطاناً نفث فيه سحره، فأصبح يتخيل أموراً من الباطل وينطق بها لا

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي ١/ ٩٢.

يعرف. وإنك بهذا قد أتيت شيئا نكراً. (١) ثم تواصلوا في كيدهم ومكرهم فقالوا: قد كنت فينا قبل زعمك بالنبوة مرجواً، عزيزاً كريماً سديد الرأي رشيداً حليماً، ادخرناك لملمات الدهر وعوادي الزمن، بيد أنك في دعوتك نطقت منكراً من القول وزوراً، وإنا بالذي تدعوننا إليه منكرون، إلا أن تأتينا بآية خارقة لتكون لنا برهانا ساطعا على صدق ما تقول وتزعم.

ومرَّت الأيام ولم يزل هذا مطلبهم، لِعتوهم عن أمر ربهم وكفرهم بالنذر. ولما رأى استعجالهم الشك بدعوته دون اليقين. أخذ منهم موثقاً وعهداً لئن أجابهم إلى ما سألوه ليكونن من المؤمنين فوافقوا. ثم تمضي الآيات لتبرز طلبهم للمعجزة فأشاروا إلى صخرة عندهم وطلبوا إليه أن يريهم منها آية، فقام فصلى ثم دعا الله عز وجل أن يجيب الملأ من القوم على سؤالهم فانفطرت تلك الصخرة عن ناقة وكانت المعجزة. (٢) وقال لهم في مشهدٍ آخر هذه آية قاهرة لكم، فذروها تأكل وترعى حيث شاءت وترد ماء العين يوما بعد يوم ولكل نصيبه من الماء. وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء. فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر، فلما طال عليهم الحال، زين الشيطان لتسعة رهطٍ من القوم، فاجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على عقر الناقة نكاية بنبي الله صالح ﷺ. وتصدى للمهمة واحدٌ منهم بالتشاور، والتنسيق مع هؤلاء الرهط التسعة بمباركة جمهور القوم وترحيبهم. فعقروها بسيوفهم رغم تحذيرهم بالعذاب وتوعدهم بالهلاك. فلما وقع من أمرهم ما كان أسرع نفراً من ملأ القوم إلى صالح ﷺ يعتذرون، إلاّ أنه لم يلتفت إلى مسوغات تبريرهم، فأنكر عليهم عقر الناقة بالكلية. وتوعدهم بالعذاب على استخفافهم وسؤالهم له التعجيل بعذابهم. فقال لهم نبيهم ﷺ: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴾ [هود: ٦٥]. أي انتظروا العذاب بعد ثلاثة أيام وبعد انتهاء الأجل أخذهم الله بالعذاب الذي وعدهم به، وزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، ثم جاءتهم الصيحة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، وأصبحت بيوتهم أطلالا أثرا بعد عين خاوية بما ظلموا.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٣٢.
(٢) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص٧٦.

ثم اختتم مقطع القصة بمحور السورة المتكرر﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾. إذ تبرز الآيات السابقة في مشهدٍ جديد قدرة الله في تدبير الكون خلقاً وإهلاكاً، وإن في قصتهم لآية للعظة والاعتبار، فأصابتهم سنة الله في الاستئصال، فهم الذين اقترحوا الآية وأجابهم الله، وسنة الله في الكون أن من كفر بعد أن جاءته آية اقترحها أن يستأصل فكيف بالذي اعتدى على الآية نفسها. [1]

ولعل من باب الاتعاظ لمّا مر النبي ﷺ ببيوتهم الخاوية في غزوة تبوك، أسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم. وخاطب القوم: (إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم)[2]. وفي الحديث أيضاً: (لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم)[3].

وإن في تقريع الحديث الشريف لمنازل القوم على كفرهم لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين. والله ناصر أولياءه على أعدائه رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين، وكل آيات محور السورة المتكرر يصب في التأكيد على رسالة محمد ﷺ، وتحذر المكذبين به وتردف بعضها بعضاً حتى خاتمة السورة.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها مقطع قصة صالح عليه السلام في سورة الشعراء

١ - إبراز بعض مظاهر قدرة الله تعالى في الخلق كمعجزة الناقة.

٢ - وجوب الاعتدال في المعايش والنهي عن الإسراف والبطر والتبذير، فالغلو في الإسراف من أسباب فساد الأفراد وسقوط الممالك على امتداد التاريخ. وهي من مظاهر الذنوب

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٤١.

(٢) رواه أحمد ٢/ ١١٧.

(٣) صحيح البخاري ٣٣٨٠ ومسلم ٢٩٨٠/ ٣٨.

والمعاصي، التي إذا انتشرت في أمة كانت سبباً في شقائها وهلاكها. وهذا مشاهد من حال قوم صالح عليه السلام، لمن رأى منازلهم في العُلا والتي لا زالت تدهش من يراها.

٣ - ذم الاستعلاء في الأرض لأنه يورث الظلم بكل صوره، وعاقبته الذل والهلاك. وهذا ما كان من نبأ قوم فرعون ونوح وهود وصالح ومن جاء بعدهم من الأنبياء. وكل آية في عاقبة المكذبين تختلف عن أختها لاستعلائهم وشركهم وكفرهم.

٤ - استدل الفقهاء بقوله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ على جواز المهيأة في بعض الأموال المشتركة، قال بذلك الإمام النسفي.[1]

٥ - إن في قول صالح عليه السلام لقومه: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ وجوب الطاعة بالكلية لله ولرسوله وللمؤمنين في كل زمان ومكان، ثم لجماعة المسلمين وإمامهم، ولا يجوز أن تعطى لكل مسرف مفسد غير صالح، ولكل صاد عن سبيل الله غير ملتزم بالإسلام، لقوله تعال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩].

وطاعة الأمة لحاكمها ليست عمياء أو مطلقة، وإنما هي طاعة لله ورسوله خالية من أي مصلحة أو منفعة أو ارتزاق، وليس فيها معصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

٦ - من المعروف أن الناقة كانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها كفايتهم يوماً آخر ومع ذلك قام أشقاهم بعقرها نكايةً بنبيهم، فأخذ الله القوم بجريرة قتل أحدهم للناقة لمباركتهم فعله، فانسحب عليهم قول النبي ﷺ (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينةٍ، فسار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذاً استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٤٢

جميعاً)[١]. يضرب الرسول ﷺ في هذا الحديث مثلاً لأولئك الذين يسيرون في هذه الحياة حسب أهوائهم وشهواتهم، كما يضربه لأولئك الذين رأوا المنكر فسكتوا عنه كأن الأمر لا يعنيهم، وهنا يصور النبي ﷺ المجتمع بما فيه من أخيارٍ وأشرار بركاب سفينةٍ تسير في بحرٍ متلاطم الأمواج، فإن تُرِكَ الأشرار على إرادتهم وطيشهم دون ردعهم بالقوة، هلك ركابُ السفينة جميعاً، وإن مُنِعوا وأُخذوا على أيديهم نجوا جميعاً. ولعل ما يرشد إليه هذا الحديث في قصة صالح ﷺ أن الحياة كحال ركاب السفينة وإنّ المجتمع فيه الصالح والطالح، فإن تُرِكَ أهل الشر والفساد يسرحون ويمرحون ويفعلون ما يحلو لهم دون أن نوجه لهم النصح أو نمنعهم عن اقتراف الموبقات والآثام هلكنا جميعاً، وإن منعناهم نجونا جميعاً فكان في ذلك نجاتنا ونجاتهم وحياتنا وحياتهم. ومما يرشد إليه الحديث أيضاً في سياق قصة صالح ﷺ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمنع العابثين والمرتكبين للفواحش ما ظهر منها وما بطن امتثالاً لأمر الله من أجل نجاة المجتمع بالكلية.

توطئة في بيان مقطع قصة لوط ﷺ في سورة الشعراء وعلاقتها مع غيرها

مما تجدر الإشارة إليه ابتداءً من قصص الأنبياء التي تقدمت قصة لوط ﷺ في سورة الشعراء، يتبدى لنا بوضوح أن خطيئة أقوام هؤلاء الأنبياء الذين قضت إرادة الله عز وجل بهلاكهم، كفرعون وقوم إبراهيم ونوح وهود وصالح كان الشرك بالله، أما خطيئة قوم لوط فقد جمعت الشرك بالله وفاحشة إتيان الذكران من العالمين، التي لم يسبقهم إليها أحدٌ من الخلائق، وورد ذكر لوط ﷺ في القرآن سبعاً وعشرين مرة. [٢] في طائفةٍ من السور منها: (الأعراف وهود والحجر والأنبياء والحج والشعراء والعنكبوت والصافات وص وق والقمر والشمس والتحريم).

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٩٤ و ٢١٦، ٢١٧. (القائم على حدود الله تعالى) معناه: المنكر له، القائم في دفعها وإزالتها، والمراد بالحدود: ما نهى الله عنه. (استهموا): اقترعُوا.

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٥٢-٧٥٣.

وقد امتدت قصته ﷺ في هذه السور بشكل متفاوت، بين التوسط في بيان ذلك، فالإيجاز بإشارات خفيفة سريعة، وهي بالكلية تتفق مع السياق العام والخاص للسور التي ذكر فيها. والأمر اللافت للنظر في مجمل سياق قصة لوط ﷺ. أن الله عز وجل أطلق على قرى قوم لوط المؤتفكات. وهي جمع مؤتفكة ومشتقة من الإفك، وتفيد معنى المصروف عن الحق إلى الباطل[1]. وفي هذا إشارة إلى كذبهم وظلمهم وانحرافهم السلوكي والعقلي بسبب قلبهم للموازين، فأصبح الحق هو الباطل والباطل هو الحق، والصحيح من الخلق في منزلة الغريب المستهجن، والشاذ هو السائد المألوف، وقوم هذا شأنهم لا يصلحهم الإنذار، فهم غافلون معرضون ظالمون لأنفسهم، علتهم فيهم منهم وإليهم، وهم مستغرقون في الإعراض والتآمر والمكر على لوط ﷺ ورسالته، لهذا كان الإهلاك بصوره المتعددة التي عصفت بهم تصديقاً للوعد الذي وعدهم به لوط ﷺ. وفيما يلي وصف لما ورد في بعض السور من مشاهد قصته.

تناولت سورة الأعراف بآياتها (٨٠-٨٤) إبراز فاحشة قوم لوط، وإسرافهم فيما هم فاعلون، وسعي قومه لطرده ومن آمن معه لأنهم أناس يتطهرون، بدلا من أن يستجيبوا لمنطق الهدى والعقل والفطرة، وانتهت الآيات بالإخبار عن نجاة الله له وهلاك القوم لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[الأعراف:٨٤].

ثم جاءت آيات سورة هود (٧٦-٨٣) فأخبرت عن زيارة الملائكة لإبراهيم ﷺ وبشارته بولده إسحق. ومجادلته لهم في قوم لوط، وأبرزت الآيات نفسية قوم لوط ﷺ عند نزول الملائكة في ضيافته وما أصابه من ضيق وحرج.

وفي سورة الحجر أخبرت الآيات (٥٧-٧٧) عن ضيف إبراهيم وهلاك قوم لوط بالصيحة مشرقين، فقلبت قرى القوم عاليها سافلها، وأُمطروا بحجارة من سجيل، فمن عزته سبحانه وتعالى أن يستأصل من شاء، ومن رحمته أن ينجي رسله والمؤمنين.

(١) المفردات: الراغب الأصفهاني، ص٨٠.

وأخبرت سورة الشعراء (١٦٠-١٧٥) دعوة لوط إلى قومه عبادة الله تعالى لا شريك له، ونهيه لهم عن تعاطي المحرمات والفواحش من المنكرات والأفاعيل المستقبحة، ولما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم، تبرأ من عملهم، وسأل الله النجاة ومن معه من المؤمنين.

وأخبرت آيات سورة النمل (٥٤-٥٨) إنكاره ﷺ على قومه إتيان الفاحشة وهم مبصرون قبحها وقذارتها. واستهزاء القوم به وبدعوته.

وأخبرت آيات سورة العنكبوت (١٨-٣٤) تقريعه ﷺ لقومه ثم تبين مجيء رسل الله إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام، وإخبارهما بمصير القوم الفاسقين، وفي هذا بيان لعاقبة مكر الكافرين.

وأخبرت آيات سورة الصافات (١٣٣-١٣٨) عن إثبات نبوة لوط ﷺ، ونجاته ومن آمن معه، وهلاك القوم مصبحين.

وأخبرت آيات سورة الذاريات (٣١-٣٧) عن ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم، وهلاك القوم بحجارةٍ من طين مسومة معلمة مكتوب على كل حجرٍ اسم صاحبه الذي يصرعه.

وأخبرت آيات سورة الأنبياء (٧٤-٧٥) عن لوطٍ في إشارة موجزة متسقة مع موضوعها وأبرزت ما أنعم الله به عليه من الحكمة والعلم والرحمة.

وفي سورة الحاقة أتت الآيتين (٩-١٠) على ذكر الماضين من المكذبين، مع تخصيص تسمية قرى لوط بالمؤتفكات ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾ ووردت تلك التسمية أيضاً في سورة النجم: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم: ٥٣-٥٥]. وتفيد الآية الكريمة الإشارة إلى قلب قرى قوم لوط رأساً على عقب، بعد أن أنذروا فكذبوا فعوقبوا وحاق بهم ما كانوا يمكرون.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة لوط عليه السلام في سورة الشعراء

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ
الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ
لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ
﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ
مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

أرسل الله لوطاً عليه السلام إلى عدة قرى عامرة بالسكان، من حواضر أرض الغور من بلاد الشام، منها سدوم وعمورة، على الشاطئ الجنوبي الشرقي من البحر الميت، في منطقة ممتدة اليوم بين غور المزرعة وغور الصافي، والمنطقة جغرافياً من أعمال الكرك بالأردن. ومما تجدر الإشارة إليه أن لوطاً عليه السلام، قد هاجر مع إبراهيم عليه السلام من أرض العراق بعد واقعة تحطيمه للأصنام كما تقدم ذكره، إلى أرض كنعان بفلسطين، في القرن التاسع عشر ق. م. [١] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧١]. وكان لوط قد نزل هذه الديار بأمر إبراهيم عليه السلام وإذنه. [٢]

ويتضح لنا من سياق ما تقدم: أن لوطاً عليه السلام كان غريباً عن القوم الذين نزل بأرضهم، لم يك من جلدتهم، كان ضعيفاً بمقياس الدنيا المادي أمامهم في قوة العصبية والعشيرة، ليدفع عنه اعتداء القوم عليه، لو أرادوا به شراً، مع علمه اليقيني من تأييد الله لرسله بالنصر على أعدائهم، وليس أدل على ذلك من قوله:﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود: ٨٠]. عند رؤيته هرولة الملأ من قومه إليه، وازدحامهم أمام باب بيته لمّا علموا بنزول

(١) العرب واليهود في التاريخ: د. احمد سوسة، ص٤٩٩.

(٢) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١١٩.

الضيوف الغرباء في بيته، في وقت تمنى لو لم ينزلوا في ضيافته لعدم قدرته الدفاع عنهم، ولم تتوقف مخاوفه من القوم، إلا عندما عرّف الضيوف على أنفسهم بأنهم ملائكة قدموا لتعذيب القوم وهلاكهم، فاطمأنت نفسه وزال ضيقه وحرجه، وفي الحديث: (رحمة الله على لوطٍ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد يعني الله عز وجل، فما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه)[1].

إن الناظر للآيات القرآنية يقف على مشاهد مرذول قوم لوط، فقد كانوا أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحدٌ من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث. [2]

ولم يكن بينهم رجل رشيد، يسعى إلى تصويب ما اعوج من أمر أخلاقهم الشاذة، في وطء الذكور للذكور مع وجود النساء، فدعاهم إلى عبادة الله عز وجل، وحده لا شريك له، مخبراً أنه رسول الله فيهم، أمين على تبليغ رسالته، كارهاً مبغضاً لما هم فيه من الفاحشة، لا يطلب أجراً على دعوته. ثم تمضي مشاهد هذه الآيات لتخبرنا ما كان من جواب قومه أن أنكروا دعوته فيهم واستخفوا به، وهددوه إن لم ينته ليكونن من المطرودين خارج قراهم وحواضرهم. ولم يزل يخاطبهم بمنطق المروءة والحياء، فلما تيقن أنهم لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به، ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم، فلا هم نادمون على ما سلف من ماضيهم، ولا ينشدون في المستقبل تحويلاً تبرّأ منهم وسأل الله النجاة والقلة المؤمنة معه. [3]

وهنا ترصد الآيات مشهد صورة الملائكة الذين وفدوا إليه على هيئة بشر وأمرهم له أن يخرج عنهم ليلاً. ونصيحتهم عدم النظر إلى ما خلفه من أحداث. وجعلوا الصبح ميقاتاً لهلاكهم، فلم يلتفت من أهله أحدٌ إلا امرأته، فأخذها من العذاب ما أخذ الظالمين فكانت

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٢٣٢ والترمذي٣١٢٧.

(٢) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٢٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٢.

من الغابرين. (١) فقد كان هواها مع القوم تقر انحرافهم، وكانت عيناً لهم على ما يكون عند بعْلِها من الضيفان. (٢) فلما جاء أمر الله بوقوع العذاب، جعل قرى القوم عاليها سافلها. وأمطر عليهم حجارةً من سجيل، مكتوبٌ على كل حجرٍ اسم من رُمي به، وتم خسف الأرض بالقوم الكافرين، بظاهرة تشبه الزلازل والبراكين، وما يصاحب ذلك من تصدع وانهيارات وانكسارات وصعود وهبوط لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الشعراء: ١٧٣]. ولهذا عُرف البحر الميت عبر التاريخ بأسماء تتناسب مع هذه الآية القاهرة، كالبحيرة المنتنة والبحيرة المقلوبة والبحيرة المخسوفة وبحيرة لوط، ولم يزل يخفي في باطنه في ساحله الجنوبي الشرقي بعض أطلال القوم. (٣)

وترك الله دمار القوم آية واضحة وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحجر: ٧٧]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر: ٧٥]. تركها الله عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة، وخشي الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، وترك معاصيه، وخاف أن يشابه من تشبه بقوم لوط. (٤)

وبعد أن مضت الآيات على نحو ما تقدم من المشاهد المتعددة، تختتم قصة لوط عليه السلام في سورة الشعراء، بمحور السورة المتكرر: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾. فهذه الآيات تشير إلي قدرة الله تعالى وعظمته، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله واتبع هواه وعصى، ودليلٌ على رحمته بعباده المؤمنين وإن قل عددهم الذين أخرجهم من الظلمات إلى النور وأيدهم بنصره. (٥) وفيها إشارة لقوم

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٣٥.

(٢) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٢٦.

(٣) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٣٥.

(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٣٥.

(٥) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٢٧.

النبي ﷺ من كفار قريش، أن يفيدوا من قوم لوط عليه السلام العظة والاعتبار، لئلا يستحقوا سخط الله بكفرهم، ودعوة لهم بالدخول في الإسلام، وإلا سيصيبهم ما أصاب الماضيين من أقوام الأنبياء والرسل.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها مقطع قصة لوط عليه السلام في سورة الشعراء

١ - إن في قصة لوطٍ مع قومه، دعوة للاعتبار مما جرى لهم بسبب فسقهم وشذوذهم، فإتيان الذكور لجنسهم، قضاء للشهوة في غير موضعها، فالله عز وجل فطر ميل الجنسين كلاهما للآخر، بهدف تكوين الأسرة، التي تنشأ عن زواج الرجل بالمرأة بوصفها نواة المجتمع الأولى، فبصلاحها يصلح المجتمع وبفسادها يفسد، وإن الغاية من اجتماع الرجل بالمرأة يحقق الحكم والهدايات التالية:

أ - حفظ التناسل البشري من الانقراض.

ب - إشباع الرغبة الجنسية بشكل مشروع.

ج - تعاون الزوجين على تربية الأولاد التربية السوية.

د - تنظيم علاقة الزوجين على أساس تبادل الحقوق والواجبات.

هـ- توفير جو المودة والرحمة والسكن النفسي بين الزوجين.

وإن في هذه العلاقة ما يوافق العقل والفطرة، أما سلوك قوم لوط فهو ضرب من ضروب تجاوز الحد في العدوان على شرع الله.

وإن في قولهم لا أرب لنا في نسائنا لقضاء شهوتنا، دليلاً على تحجر عقولهم وخروجهم عن فطرة الحياء، فاستحقوا لعنة الله وغضبه، فاجتمعت عليهم أكثر من آية من آيات الإهلاك والاستئصال، وإنّ في ذلك لعبرة وعظة.

٢ - إن إتيان الرجال شهوة من دون النساء، شذوذ مخالف للفطرة، وانحراف في نفسية الفاعل والمفعول به، يتأتى عنه مضار ذات أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وصحية ونفسية وخلقية وسلوكية، مدمرة للمجتمع الذي تتفشى فيه، تسارع في تصدعه وانهياره وتسوده أمراض عديدة منها السيلان والزهري والإيدز وغير ذلك.

وقد شدد الإسلام على تطهير المجتمعات البشرية من بؤر أهل الشذوذ، حفاظا على سنن الله في الكون، وفي الحديث: (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)[١]. وعلى خلفية هذا الحديث ذهب طائفة من الأئمة والعلماء كالشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما، إلى رجم اللائط، ويرى أبو حنيفة أن اللائط يُلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فُعل بقوم لوط.[٢]

٣ - تصويب ما علق ووقر في الأذهان من مفاهيم خاطئة موروثة، تقادم عليها العهد في تداولها، حتى جرت على الألسن كأنها حقيقة مسلم بها، وهي قرن الشذوذ الجنسي اللواط باسم لوط ﷺ، وهذا أمر مستقبح مستهجن منكر، غير مقبول ألبتة تأدباً مع الله عز وجل أولاً، ثم مع عبده ورسوله لوط ثانياً، فليس من الجائز إسقاط اسم النبي على فاحشة قومه ليصبح مثلاً في ذلك. وبنظرة فاحصة تحليلية في قواميس اللغة يتضح أن لوطاً اسم أعجمي غير عربي، وهو ليس اسماً عربياً مشتقاً، أما كلمة اللواط فهي عربية مشتقة: (لاط، يلوط، لوطاً، ولواطاً).

واللواط في اللغة هو اللصوق والالتصاق، كأن تقول: لاط الشيء بقلبي، إذا لصق به والولد ألوط بالقلب أي ألصق بالقلب. وتأسيساً على ذلك سمي فاحشة الذكر بالذكر لواطاً لأنهما يلتصقان معاً عند ارتكابهما تلك الفاحشة الشاذة، ولا صلة بين اللواط واسم

---

(١) رواه أحمد ١/ ٣٠٠ وأبو داوود٤٤٦٢ والترمذي١٤٦١ وابن ماجه٢٥٦١.

(٢) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٢٦-١٢٧.

نبي الله لوط عليه السلام(١).

٤ - التحذير من مطالب المنظمات والهيئات الدولية التابعة للأمم المتحدة، التي تسعى جاهدة عبر مؤتمراتها الدولية إلى إشاعة هذه الرذيلة بدافع من المنظمات الصهيونية، على خلفية المناداة بحقوق الإنسان واحترام حرية الفرد الشخصية.

ولعل الجانب الخفي وراء هذه الدعوات المشبوهة مؤطرة بمرجعيات بروتوكولات حكماء صهيون الهادفة إلى نشر الفساد والرذيلة في العالم.

وإذا كانت الحرية المطلقة في عيون الغرب مقبولة بما فيها من شذوذ، فإن الحرية في الإسلام ملتزمة بالضوابط الشرعية. وعليه فإن من واجب المسلمين شعوباً وحكومات إنكار هذه الدعوات ومقاومتها بشتى الأساليب والوسائل، احتراماً لسنن الله في الكون.

توطئة في بيان مقطع قصة شعيب عليه السلام في سورة الشعراء وعلاقتها مع غيرها

إن شعيباً عليه السلام هو نبي من أنبياء العرب، مصداقاً للحديث الشريف:(الأنبياء العرب أربعة هود وصالح وشعيب ومحمد ﷺ)(٢).

ورد ذكره في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة. (٣) خمس منها في سورة الأعراف، وأربع في سورة هود، ومرة واحدة في كل من الشعراء والعنكبوت.

وردت قصته عليه السلام في مواضع متعددة، وجاءت في سورة الشعراء في خاتمة قصص الأنبياء علماً أن مكانها التاريخي قبل قصة موسى وبعد قصة لوط عليهما السلام.

فتقدم عليها نبأ موسى وتوافق ترتيبها بعد نبأ لوط، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩]. فلم يكونوا ببعيدين عن قصة شعيب لا مكاناً ولا زماناً. (فالتسلسل

---

(١) مواقف الأنبياء في القرآن: د. صلاح الخالدي، ١/ ١٥٣.

(٢) أخرجه ابن حيان في صحيحه٢/ ٧٦ رقم٣٦١.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٧١.

التاريخي للأحداث ليس مطلوباً لذاته، ولعل الحكمة تقتصر على خبر العبرة والاتعاظ من نهاية الشرك والتكذيب بالإهلاك والاستئصال). [(١)] وعليه فإن الترتيب التاريخي في قصص سورة الشعراء ليس مطلوباً لذاته.

ولعلماء التفسير قولان حول إرسال شعيب ﷺ إلى قومه، أصحاب الأيكة وقوم مدين. فمنهم من يرى أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين، ومنهم من يرى أنهما أمتان بعث الله إليهما شعيباً، فأرسل إلى مدين مرة لقوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [هود: ٨٤]. فأخذهم الله بالصيحة، ومرة ثانية إلى أصحاب الأيكة، فأخذهم الله بعذاب يوم الظلة، لقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٧٦]. ومن المفسرين من يرى أيضاً: أن شعيباً أرسل ثلاث مرات، مرة لأهل مدين وثانية لأصحاب الأيكة وثالثة لأهل الرس. [(٢)] ويرى ابن كثير بالقول الفصل أن الرأي الأول هو الأظهر والأولى بالصواب فهم أمة واحدة، وإن تعددت فيهم ألوان العذاب، وقد رد على الأقوال الأخرى وفنّدها وبيّن ضعفها. [(٣)].

وبنظرة تأملية لقصة شعيب في القرآن الكريم. نرى ورود إهلاك قومه في أكثر من موضع. وفي كل مرة يرد ذكر العذاب بما يتفق وسياق السورة، وقد أطلق القرآن على عذاب القوم ثلاثة أسماء هي **الرجفة** وتعني الاضطراب الشديد الذي يشبه الزلزال القوي، وما يصاحبه من تموجات وصعود وهبوط وارتدادات أرضية، و**الصيحة** التي جاءتهم من السماء وكانت مصحوبة مع رجفة الأرض القوية، وعذاب **يوم الظلة** وهي السحابة التي استظلوا تحتها وظنوها خيرا لهم، فكانت عليهم شرراً ولهباً وناراً.

وقد تفاوتت قصة شعيب في سورة القرآن بين التوسط، كما هو في سور الأعراف وهود والشعراء، إلى الإيجاز الشديد كما هو في سورتي الحجر والعنكبوت.

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ص٦/ ٢٣٦.

(٢) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٤٨.

(٣) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٣٤.

ففي سورة الأعراف أخبرت الآيات (٨٥-٩٣) أن الله عز وجل أخذهم بالرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. وقد ورد ذكر الأنبياء في هذه السورة مرتباً ترتيباً زمنياً، فذكر خبر آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام. وذكرت قصته معطوفة على ما قبلها.

وفي سورة هود أخبرت الآيات (٨٤-٩٥) أن الله سبحانه وتعالى أخذهم بالصيحة جزاء كفرهم وسخريتهم، أخذَ عزيزٍ مقتدر فأصبحوا في ديارهم جاثمين. وقد جاء ذكر شعيب بعد نبأ نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط.

وفي سورة الشعراء أخبرت الآيات (١٧٦-١٩١) عن تكذيب القوم لنبيهم واتهامه بالسحر، فأخذهم الله عذاب يوم الظلة. وكان ترتيب قصته بعد نبأ موسى وإبراهيم وهود وصالح ولوط عليهم السلام.

وفي سورة الحجر أخبرت الآيتان (٧٨-٧٩) عن ظلم أصحاب الأيكة وانتقام الله منهم. والأيكة مشتقة من الأيك، والجمع أيكة، وهو الشجر الملتف على هيئة الغابة.

وفي سورة العنكبوت أخبرت الآيتان (٣٦-٣٧) إثبات نبوة شعيب في قومه، وهلاكهم بالرجفة.

ومما تجدر الإشارةِ إليه، ونحن في نهاية قصص الأنبياء في سورة الشعراء، تشابه تساؤلات قوم شعيب واتهاماتهم له، بما جرى للأقوام السابقة مع أنبيائهم، كالتكذيب والاتهام بالسحر والسفه ونفي بشرية الرسل، والاستهزاء به والمطالبة برؤية آيات قاهرات على صدق النبوة. مما يدل على وحدة الرسالة والرسالات من ناحية، وغلظة قلوب الكافرين وشدة ألفاظهم على رسلهم ووحدة حالهم في تعنتهم. ولا يفوتنا التنبيه هنا أن القصة القرآنية ضربٌ من ضروب تاريخ دعوة الأنبياء والرسل إلى الله. وردت من أجل تسرية فؤاد النبي ﷺ، وليأخذ أهل قريش العظة والعبرة من مصير الأقوام الهالكة. وقد سكت القرآن لحكمة ربانية، عن ذكر تحديد المكان أو الزمان أو الأسماء في القصص القرآني، وكل ذلك من مبهمات القرآن.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لمقطع قصة شعيب عليه السلام في سورة الشعراء

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ
وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ
أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

قراءات:

(هناك قراءة أخرى: أصحاب لَيْكَةَ بدون ألف بياء بعد اللام وفتح التاء، ولَيْكَةَ هنا اسم القرية، في حين قرأ الآخرون: الأَيْكَةَ)[1].

استوطن أهل مدين والأيكة شمال الحجاز جنوب الأردن. في المنطقة الممتدة بين مدينتي معان والعقبة. في أقصى الجنوب الشرقي من بحيرة لوط. كانوا أمة واحدة توزعت مساكنهم في منطقتين جغرافيتين هما مدين والأيكة. أعتبروا من أسوأ الناس معاملة في بيوع التجارة. يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيها يقطعون الطريق ويتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك. عكفوا على عبادة الأيكة وهي غيضة كثيفة بالأشجار. بعث الله إلى مدين والأيكة أخاهم شعيباً، أشرفهم نسباً وأرجحهم عقلاً وأرشدهم رأياً، بدأهم بما بدأ به كل رسول قومه من أصل العقيدة، ثم أخذ يواجههم بما هو من خاصة شأنهم، [2]دعاهم إلى توحيد الواحد القهار. كما فعل المرسلون من قبله، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ١٣٤، والتبيان، العُكبري، ٢/ ١٠٠٠.

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب٦/ ٢٣٦.

ونصح لهم الحكمة والموعظة الحسنة، وأخبرهم أنه أمين على نقل الرسالة ولا يسألهم على دعوته أجراً فأجره على الله. وحذرهم عاقبة ظلمهم وفسادهم في الأرض، وذكرهم نعمة الله عليهم، وأخافهم نعمته وعذابه إن خالفوا ما أرشدهم إليه، ونهاهم عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف في الكيل والميزان، [1] وأظهر لهم فساد اعتقادهم، وتقدم لهم ناصحاً في مشهد مؤثر حيث ابتدرهم بالقول: لا يحملكم مخالفتي وكراهيتكم إلي وبغضكم ما جئتكم به من رب العالمين. الاستمرار تعنتاً على ضلالكم وجهلكم. فاعتبروا واتعظوا بما وقع للمكذبين من الأقوام الهالكة كقوم نوح وهود وصالح، فما كان جواب قومه رغم مكانته فيهم، أن أغلظوا له الرد، وأنكروا دعوته واستهزؤوا به وسخروا منه ومن القلة التي آمنت معه، وأنذروه ومن معه وتوعدوه بالطرد خارج حواضرهم. وسألوه التعجيل بالعذاب إن كان من الصادقين، وخصوه بالقول لولا قبيلتك وعشيرتك لكنت مستضعفا مضطهداً مهجوراً.

ثم تمضي الآيات لتخبرنا استهجانه ﷺ لمقالتهم، ولما يئس من هدايتهم، استنصر ربه ودعا أن يجزيهم على عنادهم وكفرهم، وأن يعجل بعذابهم، فاستجاب الله دعاءه، فاجتمع عليهم ثلاثة أنواع من العذاب الصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة.

ويرى ابن كثير في طريقة العذاب ومراحله: (أن الله عز وجل سلط عليهم حرّاً شديداً، ففروا هاربين إلى البرية، فأظلتهم سحابة ظنوها دافعة لهم من شدة الحر. فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكامل عددهم عن آخرهم، رمتهم بشررٍ وشهبٍ ونارٍ وصواعق ثم اهتزت الأرض تحت أقدامهم واضطربت، وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت أرواحهم). [2]وكان ذلك (يوم الظلة) فالظلة سمة اليوم المعلوم لهلاكهم. [3]ولما رأى هلاك القوم نعاهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً. نصحتكم وحرصت على هدايتكم فأبيتم ذلك، وها أنا لست

---

(١) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٣٠.

(٢) المرجع السابق: ص١٣٤.

(٣) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٣٧.

أسيفاً بما وقع لكم. (١)

ولم تزل الآيات تمضي بتسلسل حتى انتهت بمحور السورة المتكرر الذي اختتمت به قصص الأنبياء السابقة: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

إن في آيات محور السورة المتكرر من البداية حتى خاتمة السورة، دعوة تأملية للنظر في عاقبة مكر الأقوام المكذبة لرسلها. على امتداد تاريخ البشرية من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ. وهي تشير صراحة إلى نصر الله رغم قلة المؤمنين في دعوة كل رسول. وكثرة الكافرين الذين لا يؤثر فيهم الإنذار ولا الحجج فهم لا يؤمنون بالآيات حتى لو رأوها.

وإن في آيات الإهلاك دلالة على قدرته سبحانه وتعالى في الكون الخاضع لمشيئته وإرادته، العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده من المؤمنين وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها، ودود عليهم فمن أسرع بالتوبة إليه تاب عليه وغفر ذنوبه.

كما وتصب آية المحور من بداية السورة وحتى الخاتمة، التأكيد على إثبات نبوة محمد ﷺ وتسليته أمام استهزاء وتنقص وتهكم قريش له. وله في نبأ الأنبياء السابقين أسوة حسنة. وفيها تحذيرٌ للمكذبين من قومه أن مكرهم سيحيق بهم عقاباً. كعاقبة أقوام الأنبياء السابقين الذين كانوا في سكرتهم يعمهون.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي يرشد إليها مقطع قصة شعيب عليه السلام في سورة الشعراء

١ - أخذت قضية المال مساحة غير قليلة من دعوة شعيب عليه السلام. فأراد أن يقيم في أموال القوم مراد الله حسب قواعد شرعية رشيدة. (٢) فأبوا عليه وأنكروا واشتد نيلهم به.

---

(١) قصص الأنبياء: للإمام ابن كثير، ص١٣٥.

(٢) قصص القرآن الكريم: د. فضل حسن عباس، ص٤٦٩.

ولما كانت دعوة الرسل واحدة في أُصولها، نرى عظمة ما تنزل به القرآن الكريم من نظام اقتصادي صالح للبشرية، في كل زمان ومكان. لإقامة مجتمع الكفاية والعدل، وتنظيم علاقة الإنسان بالمال وصيانته وإنفاقه.

فالمال مال الله ونحن مستخلفون فيه، وهو ضرورة من ضرورات الحياة لا غنى عنه، إلا أنه بالمقابل ليس غاية في حد ذاته وليس هدفاً للحياة، لأن للحياة قيماً أجلّ من المال.

وعليه وقعت الحرمة في البيوع الفاسدة والتلاعب بالميزان في العمليات التجارية كافة. فالمال الذي يتأتى لصاحبه من وفاء الكيل والميزان من المنظور الشرعي، خيرٌ من أخذ أموال الناس بالتطفيف. والقليل من المال الحلال خيرٌ وأحبُّ عند الله من الكثير الحرام. فالحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام ممحوق وإن كثر. وفي هذا دعوة للأمانة والاستقامة في البيع والشراء. وترك الغِش والتلاعب بالميزان لأنه صورة من صور الإفساد في الأرض.

٢ - المالُ ليس أساساً لتقييم الناس والتفاضل بينهم، فلا يقيم الإنسان بما يملك. وإنما يقيم بتقواه واستقامته. وحكمة ذلك شرعاً من منظور الفكر الاقتصادي في الإسلام ضبط طغيان المال على نفسية صاحبه لقوله تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ [العلق: ٦]. حتى ينتصر الحق على الباطل كما انتصر شعيب على الملأ من قومه الأكثر جاهاً ومالاً إذ لا عبرة للملكية مع الكفر.

٣ - بيان أثر الصلاة الإيجابي على سلوك الإنسان. فقد لاحظ القوم تأثير صلاة شعيب والقلة المؤمنة معه. فأصبحت نفوسهم تعاف المعاصي وتأبى أن تتردى في مهاوي الضلالة.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي عمود الدين ومن مقتضيات العقيدة. ومن صور العبودية لله، مما دفع الملأ من قومه مخاطبته:﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود: ٨٧]. ومع هذا بقوا على ضلالهم وكفرهم تعنتاً وتقليداً لآبائهم.

٤- وجوب أن تتميز الدعوة لله بالحكمة والموعظة الحسنة. والمجادلة بالتي هي أحسن والتلطف في الكلام باللين، والموادعة، حتى يستميل الداعية القوم إليه أسوةً بدعوة الأنبياء والرسل في قومهم.

توطئة في بيان المقطع الأخير وعلاقته مع غيره من المقاطع

مما تجدر الإشارةِ إليه أنه بنهاية نبأ شعيب ﷺ، انتهى القصص القرآني في سورة الشعراء بما فيها من عظيم العظة والاعتبار لأولي الألباب، ومن اللافت عودة السياق ثانية إلى موضوع السورة التي تضمنته المقدمة. فانصبت الخاتمة والمقدمة بما بينهما من تجانس ووئام على تثبيت فؤاد النبي ﷺ وإقامة الحجة على أن القرآن من عند الله عز وجل، وأن محمداً عبده ورسوله وخاتم الأنبياء والمرسلين، مع التأكيد على وجوب صدق الاعتقاد بالقرآن والنبوة معاً، وجوباً عقلياً وشرعياً بلفت الأنظار إلى آيات الله في الكون.

وتوافقت المقدمة والخاتمة على إبراز أن القرآن معجز يتحدى به لا يعارض بكلام مثله، ولم يقاربه من كلام الآدميين كلام، لم تعهد العرب أسلوبه في سالف أيامها، ولهذا أرادت آياته أن تُسمع البشرية الحق سماع تدبر واعتبار وتبصر، لا سماع محاكاة وتقليد للآباء الأولين الذي كانت عليه الأقوام البشرية الماضية على امتداد تاريخها.

كما أشارت المقدمة والخاتمة إلى بيان قدرة الله تعالى في الخلق، وهو القادر على كل شيء وبيده سبحانه تدبير الكون وما عليه من خلائق، المحيي والمميت، الغفور، الرحيم، لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، شديد العقاب للمكذبين به وبرسالته.

وهذا في منزلة الترغيب للمؤمنين والترهيب بالوعيد والإنذار للكافرين من قريش لعلهم يهتدون وينأون بأنفسهم عن حماقة الملأ منهم، كأبي لهبٍ وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وغيرهم، ممن بارزوا الله في العداوة.

وتفيد المقدمة والخاتمة أن بداهة العقل تحكم أن القرآن حكمٌ على غيره من الكتب

السماوية، وحكمٌ على اللغة والشعر، وما يجدد الله فيه من آيات يؤكد على رسالة الإسلام بمعناه العام والخاص، دين البشرية حتى قيام الساعة، فليس للمؤمنين بالله أن يكونوا مغلوبين على أمرهم، فهو المعز لأوليائه المذلُّ لأعدائه.

ولعل الحكمة العظيمة التي يستأنس بها من المقدمة إلى الخاتمة، تكرار محور السورة، وما شمله من نبأ مصارع المكذبين للرسل على مدار الرسالات السماوية.

وأهم ما يميز الخاتمة عن المقدمة أمر الله عز وجل للنبي ﷺ أن يصدع بأمر الدعوة جهراً للأقربين من عشيرته بعد سريتها لثلاث سنوات. وأن يعرض عن المشركين المؤثرين للضلالة على الهدى، وأن يصبر على أذاهم كصبر رسل الله السابقين مع أقوامهم حتى جاءهم نصر الله.

ثم انعطف خطاب الخاتمة إلى استحالة تنزل الشياطين بالقرآن لأنه وحي من السماء وهذا ليس بحاصل لهم ألبتة، وزائل عنهم بالمطلق، وضرب من ضروب المستحيل. وقد أخبر الله تعالى في الخاتمة عن تخاصم أهل النار مع شياطينهم من الإنس والجن. وتوقفت الخاتمة عند اسم السورة وأبرزت مرتبتين للشعراء بحسب طاعتهم ومعاصيهم:

- الشعراء الغاوون: وهم أخس من أن نشتغل بهم وأسخف من أن نفكر فيهم لنظمهم الشعر القبيح الذي لا يلتمسون فيه وجوه الخير بالكلية، مفتونون بالباطل من القول والفعل.

- الشعراء المؤمنون: وهم المستثنون من عموم الشعراء المرذولين، الذين أُستحسن خلقهم وإيمانهم فأتبعوا قدوة، واستملح نظمهم للشعر في الدفاع عن الدين، فَقُصِدوا من المؤمنين حباً وشغفاً بشعرهم، لا يصدر عنهم من الأفعال إلا كل خير في الدنيا والآخرة مجزيون بمحبة الله ورحمته. ويتضح مما تقدم وضوح الصلة والترابط بين آيات الخاتمة وسياق السورة في مقاطعها الثمانية، وما ذكر في المقدمة يصب في خدمة محور السورة وخاتمتها.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الأخيرمن سورة الشعراء

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ
نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾
فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم
مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ
﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾
إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ
ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ
وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾
وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟
مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

قراءات:

-(قرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي: نزل به الروح الأمين بتشديد الزاي المفتوحة ونصب الروح الأمين، والباقون: نزل به الروح الأمين: بفتح الزاي دون تشديد، ورفع الروح الأمين. وقرأ ابن عامر: أولم تكن لهم آية، بالتاء ورفع آية، اسم تكن، والباقون: أولم يكن لهم آيةً بالياء، ونصب آية، خبر يكن). [١]

---

(١) تيسير التفسير: الشيخ إبراهيم القطان، ٣/ ٣٢٦.

- (وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ قرأ الحسن: الأعجميين)(١).

يقول الله تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أن القرآن الذي يتلى عليكم وما فيه من الرسل والرسالات، منزل من الله رب العالمين، نزل به جبريل عليه السلام، وهو الملك المكلف بالرسالات السماوية.

فخبره صادق وحكمه نافذ إلى قيام الساعة، لينذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، ويبشر به المؤمنين المتبعين له، أنزله بلسان القوم ولغتهم، عربياً فصيحاً ليكون قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، لدفع معذرتهم وحجتهم، فهو وإن كان بلغتهم فليس من جنس كلام البشر.

ويخبر تعالى أن كتب الأولين من الأنبياء كالتوراة والإنجيل بشرت بالنبي ﷺ وبقرآنه يعلمه المنصفون العدول من علماء بني إسرائيل، كما جاء على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦]. وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ومع هذا فإن الملأ من مشركي مكة، لم يؤمنوا به لمرض في أنفسهم كبراً وعناداً، وحفاظاً على مكانتهم وزعامتهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية من ناحية أخرى. فأعرضوا عن القرآن كأن ألسنتهم فيها عجمة اللغة، باتوا معها لا يفقهون آيات نذير القرآن لهم، فأغلظوا القول للقرآن والرسول وأثاروا حولها مرذول الشبهات.

وزعموا منكراً من القول وزوراً أن القرآن شعر، وأن النبي ﷺ: (شاعرٌ وقيل ساحر وقيل إفكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، وقيل افتعله من تلقاء نفسه عن أساطير الأولين وكتبهم وقيل أن له تابعاً من الجن أو الشياطين أو الكهنة، يدور في فلكهم حيث داروا فأوقعوه أسيراً

(١) التبيان في إعراب القرآن، العُكبري، ٢/ ١٠٠١.

لهم، وقيل تارة أنه كذاب وتارة أخرى أنه مجنون، وتارة ثالثة أن بعض آلهتهم أصابته بسوء فأصبح يقول بها لا يعرف مع استحالة نبوته كبشر). فنزه الله سبحانه وتعالى رسوله عن هذه الافتراءات. ولعل في تعددها وإضطرابها دليلاً على بطلانها وعدم صحتها، وهذا مكرور في تاريخ دعوة الأنبياء والرسل، ونبي الله ﷺ ليس بدعاً في ذلك. مما يدعم وحدة خطاب رسل الله في الدعوة لله.

وتبرز الآيات مشهد تشابه افتراءات أهل الكفر بالرد على رسل الله. وما كان إنكارهم لشبهة تزيلها الحجة، بل هو إنكار عناد ومكابرة، لا يفيقون منه حتى يعاينوا العذاب بأنفسهم عندئذ يتبدى عليهم الحسرة والندم على ما فات منهم ويتقلبون في النار من حال إلى حال ويقولون نادمين، يا ليتنا أطعنا الله ورسوله ويوم القيامة ليس للظالمين والكافرين من ناصر ولا معين ولا شفيع. ويتمنون لو أنهم مؤخرون كرة أخرى في الدنيا ليكونوا من المؤمنين ولكن هيهات أن يستجاب لهم. ويقال لهم في مشهدٍ توبيخي: ألم نمكنكم في الأرض، ونطيل أعماركم فيها، وجاءكم الرسول يحذركم من هذا العذاب، فذوقوا في جهنم ما وعدتم به من عذاب شديد.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨]. فيها إخبار من الله عز وجل ألا يهلك أمة حتى يبعث فيها رسولاً مبشراً ومنذراً، ليقيم عليها الحجة ويكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم من الأمم.

وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٠]. وقوله تعالى: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٢١]. في هذه الآيات رد على افتراءات قريش حين زعموا أن الشياطين هي التي توحي إلى النبي ﷺ بالقرآن، فبرأه سبحانه وتعالى لأن الشياطين لا تنزل على الأنبياء، بل على كل كاذب فاجر من الآثمين المنحرفين، الذين يختلقون من عندهم ما يقولونه لأتباعهم بشيء من التفخيم والتهويل والتدليس. فسجاياهم الفساد وإضلال العباد وأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، فالسماء ملئت حرساً شديداً وشهباً.

وبالمقاربة نرى أن القرآن فيه نور وهدى والشياطين لا يتأتى عنهم إلا الفساد والشرور وهم لا ينزلون إلا على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة.[١] الذين يلجأ الناس إليهم ويزعمون علم الغيب، ويركنون إلى نبوءاتهم وأكثرهم كاذبون. وفي قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ الشعراء/ ٢١٣. دعوة للنبي ﷺ أن يخلص العبادة لله وحده وفيها بيان لمقام محمد ﷺ في العبودية ونقل الرسالة، وإن هو إلا بشر يوحى إليه، وعليه إتمام الدعوة على أكمل وجه لا يشرك به سواه، وهذا إخبار من الله تعالى أن من أشرك به عذبه أياً كان وكائناً من كان، وحين يكون الرسول ﷺ متوعداً بالعذاب، لو دعا مع الله إلهاً آخر، وهذا محال ولكنه فرض للتقريب من ناحية، وبيان خضوعه ﷺ لأوامر ربه من ناحية أخرى، وهو أكرم خلق الله وسيد البشرية، فكيف يكون غيره؟!.[٢]

ثم تمضي آيات الخاتمة لنرى أمر الله لرسوله أن ينذر عشيرته الأقربين، ليكونوا عبرة لمن سواهم، لئلا يتهددهم العذاب لو بقوا على شركهم. وإن حكمة البدء بإنذار الأقربين علامة على صدق الداعية في دعوته، وعلى جديته فيها. وقد روي أنه لما نزلت هذه الآية، أتى النبي ﷺ (الصفا) فصعد عليه ثم نادى: (يا صباحاه ! فاجتمع الناس إليه، فقال: يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟ قالوا: نعم: قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال: أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ فأنزل الله تعالى: تبت يدا أبي لهب وتب)[٣].

ثم تمضي الآيات لتخبر عن أمر الله لرسوله ﷺ، اعتماد اللين والموادعة واللطيف من القول في دعوته. والصبر على أذى الكفار والمشركين، والتوكل على الله العزيز الناصر لأوليائه القاهر لأعدائه. واتجه الخطاب القرآني لإخبار رسول الله عناية الله وحفظه له، ورؤيته لعموم أحواله

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٤٣. والأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٥٩.

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٤٣، والأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٥٩.

(٣) صحيح مسلم/ ٢٠٤.

كلها في صلواته ودعوته في حله وترحاله. وهذا في منزلة إيناس وتسرية ورعاية للنبي ﷺ.

وتمضي آيات الخاتمة حتى تصل إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ الشعراء/ ٢٢٤. حتى تمام السورة، ولقد جاءت هذه الآيات للرد على من يزعم من العرب أن القرآن شعرٌ، وأن رسول الله ﷺ شاعرٌ، مع أن منهج الرسول ومنهج الشعراء مختلفان.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان بن ثابت بشأن كفار قريش:(اهجهم وجبريل معك). وقال محمد بن إسحاق: لما نزلت الآية جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه وكعب بن مالك، إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنّا شعراء، فتلى النبي ﷺ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، قال أنتم: ﴿ وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾، قال أنتم. ويستفاد من هذا الثناء على فئة الشعراء المؤمنين.

واختتم الله السورة بالتهديد العظيم والوعيد الشديد لكل ظالم، وما سينتظرهم من الهلاك وأن عاقبة التكذيب الهلاك، لقوله تعالى:﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[1]الشعراء/ ٢٢٧.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الأخير

١- التأكيد على أهمية الإعلام كوسيلة من وسائل الدعوة إلى الله، فالإعلام سلاح ذو حدين سلباً وإيجاباً. فهو إما أن يستخدم في تضليل الناس، وإما في هدايتهم. لهذا افتتح المقطع الأخير بقوله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾.

ولعل الحكمة في ذلك أن الشعراء في عهد النبوة كانوا أهم أدوات الإعلام في زمانهم. فقد يكونون سبباً في الإغواء والصد عن سبيل الله، وقد يكونون منابر للهدى وإيصال كلمة الحق.

والللافت للانتباه هنا أن المقطع الأخير يدفع باتجاه الدعوة إلى الله كالمقدمة وباقي مقاطع

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٤٣، والأساس في التفسير: سعيد حوى، ٧/ ٣٩٦٩.

السورة بها يخدم محورها.

وعطفاً على ما تقدم ينبغي على الدعاة في أيامنا هذه استخدام أفضل الأساليب والطرق في الدعوة، مع امتلاك أدوات الإعلام المختلفة المسموعة والمقروءة والمرئية، لتكون أدوات بناء لا معاول هدم كالترويج للمعاصي وإثارة الشهوات.

٢- محاربة الإسلام لمنهج الشعراء الغاوين لفحشهم وكفرهم وبذاءة ألسنتهم، لتتبعهم طريق الشيطان لهوى النفس، فتارة يمزقون الأعراض بالهجاء، وتارة يتطاولون على المؤمنين بالتهكم والسخرية وتارة يأتون المجون في كل شعب من شعاب شعرهم.[١]

فالآحاد من هذه الفئة الضالة المضلة بعيد عن سلامة الفطرة، تقوده تخيلاته إلى انتهاج سلوك قبيح، يوجه إرادته لتسلك مسلكاً شاذاً، صفاته ذميمة يتغاضى عن نقائصه وعيوبه، مفتون بالخُيلاء والعجب، طالبٌ للجاه والسلطان والمنافع الخاصة يؤثر مصلحته بالمقاتلة ووسائل المكر والخديعة. لا يتغيا الإصلاح فيه من خوارم المروءة ما لا يمكن حصره، كالكذب والفحش والسب واللعن والمخاصمة وتتبع عورات الآخرين والغيبة والنميمة، ظالم لنفسه بالاستغراق في المعاصي والذنوب. وهذا الذم ينسحب على الشعراء الغاوين المتقدمين والمتأخرين فالعبرة من الآية الكريمة في سياقها عموم اللفظ لا خصوص السبب.

ولو تُرِك هذه الضرب من الشعراء لأنفسهم من غير تنبيه وإرشاد وتوبيخ وقدح، لاستمروا في الضلالات يتيهون، فاقتضت حكمته سبحانه وتعالى، أن ينزل بشأنهم قرآناً يتلى، لبيان فساد طويتهم لعلهم يرشدون للجادة.

٣- الثناء على فئة الشعراء المؤمنين للمتقدمين والمتأخرين منهم في كل زمان ومكان.

إذ تفيد آيات خاتمة سورة الشعراء(٢٢٤-٢٢٧) تخصيص الاستثناء من عموم الشعراء

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٦/ ٢٤٥.

الغاوين، الذين لا يجيدون غير صناعة الكلام، وقد سلف في هذا ما يغني عن الإعادة.

وقد استثني من سياق العام نص خاص يفاد منه تخصيص فئة الشعراء المؤمنين من استثناء عموم الآيات.

ولعل من لطائف التعابير القرآنية أن الخاص يرد ليوضح ويفسر مفهوم اللفظ العام، والأخير يحمل على الخاص، كما يحمل المطلق على المقيد، والمجمل على المبين. وكأن الخاص هنا استثني له حُكمٌ من حكم اللفظ العام لوضوح قرينة التخصيص.[(١)] وضروب التخصيص في القرآن الكريم متنوعة فهناك تخصيص الاستثناء كما تقدم، وتخصيص الوصف وتخصيص الغاية والتخصيص المتصل، والتخصيص المنفصل، ويكون التخصيص في الأخبار وغيرها، وتراعى فيه قرينة سابقة أو لاحقة أو مقارنة، وأدلته الكتاب والسنة والحس والعقل.[(٢)]

٤- إن في قوله تعالى﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. إشارة منه سبحانه وتعالى إلى أن الإيمان يجب أن يكون مقروناً بالعمل الصالح، والإيمان بالله والعمل الصالح يترتب عليه مرضاة الله ومكافأة صاحبه نعيم الدار الآخرة. ومن شروط الإيمان التوكل على الله والالتجاء إليه في جميع الأحوال والأوقات. والإنسان المؤمن ليس هناك ما يدعوه لليأس والجزع وإن تقلبت عليه عوادي الأيام، لأن الإيمان ينير له ظلمات الحياة وتصغر أمامه الأهوال والمصائب وهذا من ضروب الحكمة.

قال الرازي: الحكمة عبارة عن التوفيق بين العلم والعمل، فكل من أوتي توفيق العلم بالعمل فقد أوتي الحكمة وأحكمته التجارب.[(٣)] والحكمة هبة إلهية لا تنال إلا بطريق التقوى والعمل الصالح. والتقوى هنا لفظ جامع يراد منه فعل كل خير واجتناب كل

---

(١) مناهل العرفان: الزرقاني، ٢/ ١٨٤.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٨٤، والبرهان في علوم القرآن: الزركشي، ٢/ ١٥-١٦.

(٣) مفاتيح الغيب: الفخر الرازي، ٦/ ٧٣٣.

شر. وفي هذا تنبيه للمقام الرفيع الذي أعطاه الله للمسلم الذي يزاوج بين الإيمان والعمل الصالح. وفي الآية الكريمة إشارة إلى عدم تكامل الإيمان إلا بالعمل الصالح، وهذا الاقتران مألوف في آيات القرآن كلها وإشارة إلى سلوك طريق الصالحين الذين أتاهم الله العقل والرشاد.

٥- إن في قوله تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ الشعراء/ ٢٢٧. دعوة من رب العالمين للوقوف في وجه الظلم كافة بضروبه الثلاثة: الظالم لدينه والظالم لنفسه والظالم للآخرين، والمسلم مطالب بالعزوف عنه امتثالاً لله ولرسوله. والظالم هو الذي يتبع هواه وكان أمره فرطاً لسواد صحيفة حياته. وتفيد هذه الآية التحذير من الاغترار بسطوة الملك والجاه والسلطان الذي يولد في صاحبه الظلم. وفي الآية تأكيد على محاربة الظلم لتجاوزه الحد في العدوان أياً كانت صوره ومصادره. وعدم الاستسلام له ودفعه عن النفس بالمقاتلة والدعاء. فدعوة المظلوم مستجابة وأبواب السماء مشرعة لها، وتفيد الآية الكريمة أيضاً وجوب العمل على نصرة المستضعفين، والدعوة للعدل الذي هو وضع الأمور في موضعها الصحيح على أساس المساواة وهو سر بقاء الدول وقوتها. في حين نرى الظلم يقف وراء زوال الممالك وانهيار الحضارات على امتداد التاريخ.

والظلم ظلمات عقباه الندم، وينبغي للظالم أن يتوقف عن ظلمه ويتحلل من المظلوم في دنياه.

فالذنب لو كان بين العبد وربه، فإن الله تعالى كريم يتجاوزه، وإذا كان بين الإنسان وأخيه فلا خيار له سوى رضاه فإن لم يفعل كان مفلساً يوم القيامة، لا حسنات له. وليعلم الظالم إذا دعته قدرته على ظلم الآخر فليتذكر قدرة الله عليه، والله يُملي له ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ومن أعان ظالماً على ظلمه باء بغضب من الله ومن قبض على ظلم فهو من سوء خاتمته، وإن في قصص مصارع الظلمة من المتقدمين والمتأخرين لآية.

الخاتمة

تناولت سورة الشعراء العديد من مقاطع قصص الأنبياء والرسل، وعرضت لنا جانباً من حياتهم ومواقفهم مع أقوامهم، وما انتهى به أمر الدعوة من إهلاك الكافرين ونصرة المؤمنين.

ولقد امتازت القصص على شريف المقاصد والأغراض وسموّ الغايات، واشتملت على مسالك الحكمة والاعتبار والتدبر، وانتظم فيها فصول في الأخلاق والتربية والآداب والدعوة والثبات على المبدأ والصبر والتهذيب، بالترغيب تارةً والترهيب تارةً أخرى، لحمل أهل مكة خاصةً على الإسلام، وجعل المسلمين عامةً يقتدون بسيرة رسل الله، فيما أخبر عنهم وأثنى عليهم سبحانه وتعالى، من جميل الدعوة وحسن الخلق، والصبر والتضحية.

عسى أن ترعوي هذه الأمة عن أمور عوقبت بها الأمم السابقة لمخالفتهم رسلهم، لكونها خير أمة أخرجت للناس. ففي هذه القصص منهج تربوي يقوم على أسس عقدية وأخلاقية تهدف إلى هداية الإنسان لما فيه من صلاح أمره في الدنيا والآخرة، وفيها دعوة لمخالفة الشيطان واتخاذه عدواً، وقهر النفس الأمارّة بالسوء وكبح جماح هواها.

ومن اللافت للانتباه في القصص القرآني، توظيف القرآن الكريم لكلمتي الخبر والنبأ للتعبير عن الماضي، فاستعمل النبأ والأنباء في الأخبار عن الأحداث والقصص البعيدة زماناً ومكاناً، في حين استعمل الخبر والإخبار في الكشف عن الوقائع والأحداث قريبة العهد بالوقوع في تسلسلها التاريخي، أو تلك التي لا تزال مشاهدها قائمة ماثلة للعيان. (١)

وتعكس هذه القصص مرآة عصر كل نبي ورسول في زمانه ودعوته في قومه، وتُبرز في مشاهد ولقطات مؤثرة قلة المؤمنين بكل دعوة، مصداقاً لقوله تعالى في محور السورة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ولقد شاء الله سبحانه وتعالى اختبار مشاهد هذه القصص بالقدر الذي يخدم الدعوة ويفتح للناس أبواباً واسعة، للتأمل والعظة بما يخدم المقاصد والأهداف.

(١) قصص القرآن: د. محمد بكر إسماعيل، ص٧.

وقد أظهرت مقاطع القصص في سورة الشعراء، أن الأقوام التي تقدم ذكرها، لم تهلك إلا بعد أن كفرت بأنعم الله وصدت عن دعوة الإيمان، فأذاقها الله لباس الموت والهلاك بسبب طاعتهم لشياطينهم والاقتداء بهم واتباعهم.

وجملة القول في غلبة القصص القرآني على مجمل الآيات في سورة الشعراء، دليل صريح على عظمة التعريف بالإعجاز الغيبي في الكشف عن ماضي الحوادث للأنبياء وأقوامهم، لنعلم بالكلية أن الله عز وجل قص على عبده ورسوله ﷺ أخبار الماضين من الرسل والأمم الخالية لحكم مستطيلة ومتطاولة يصعب حصرها.

ويكفي المرء أن يقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: (وَاتْلُ، وَاذْكُر، وَمَا كُنتَ، وَإِذْ قَالَ) ليعلم كم مرة أخبر الله عز وجل رسوله بأنباء غيب الماضي. فهي لم ترد للسرد التاريخي وإنما للعبرة والعظة، من أجل تحقيق أهدافٍ تربويةٍ دعوية، لعل الناس يتفكرون ويتعظون ويعتبرون، ولا يأخذ بهذا إلا أولو الألباب والأبصار، ومن لم يتفكر ويتعظ بما جرى للأولين فهو أعمى البصر والبصيرة والعلة فيه ومنه.

ولعل من فضائل هذه القصص تسرية النبي ﷺ، وتثبيت فؤاده في الدعوة، والصبر على ما يواجهه من صعاب، بما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[1] [هود: ١٢٠].

وانتهت السورة إلى ذم الشعراء الغاوين الذين غرقوا في الضلالة فضلوا وأَضلوا، وكان لهم الرياسة في الفساد في كل زمانٍ ومكان، مصداقاً للحديث الشريف (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً)[2] واستُثني من الذم الشعراء المؤمنون.

---

(١) قصص الأنبياء: أبو إسحاق النيسابوري الثعلبي، ص٣.

(٢) مختصر صحيح البخاري، د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز، ص٦٧٨، رقم الحديث ٢١٠٨ عن ابن عمر ﷺ باب ما يكره من الشعر.

ولعل من الحكمة الإشارة إلى بيان وجه الارتباط، بين سورة الشعراء وسورة الفرقان التي قبلها وسورة النَّمل التي بعدها وسورة القصص التي تليها، في كونها سور مكية اجتمعت فيها ضوابط وخصائص وأغراض القرآن المكي الموضوعية.

كما تعاضدت هذه السور في إبراز منزلة القرآن وعظمة مُنزِّله وسعة ملكه وسلطانه وإثبات النبوة وسرد المعجزات والآيات الكونية وذكر بعض قصص الأنبياء والرسل.

وتُعد سورة الفرقان تمهيداً لسورة الشعراء في حين تعتبر سورة النمل تتمةً لها، إذ جاء فيها زيادة على ما تقدم من قصص الأنبياء، قصص داود وسليمان مع تفصيل وبسط لقصتي لوط وموسى عليهما السلام.

كما يتجلى وضوح العلاقة بين سورة الشعراء وسورة القصص التي تلي سورة النَّمل، في تشابه كل منهما في فواتح السورة، إذ افتتحت كل منهما بقوله تعالى: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ ﴾ وقد اشتملت على تفصيل لما ذُكر قبلها إجمالاً من شأن موسى عليه السلام مُنذ وُلد.

وفي هذا دروس وعبر شأن قصص القرآن في عموم سوره بهدف تقويم الأخلاق وتزكية النفوس وتهذيب الطباع لما فيها من المواعظ والعبر والدعوة إلى الحق والهداية، وهذه بالكليَّة من أمَّهات المقاصد التي يدعو إليها القرآن الكريم وأسماها.

سورة النمل

بين يدي السورة

(أ) أسماؤها:

أشهر أسمائها (سورة النمـل)، وتسمى أيضا (سورة سليمـان)، وذكر أبو بكـر بن العربي[1]: أنهـا تسـمى (سورة الهدهـد). ووجه الأسماء الثلاثة: أن لفظ النمل، ولفظ الهدهـد لم يذكرا في سورة من سور القرآن غيرها، وأما تسميتها بسورة سليمـان فلأن ما ذكـر فيها من ملك سليمان مفصلاً لم يذكـر مثله في غيرها.[2]

(ب) هل السورة مكية أم مدنية؟ وما عدد آياتها؟

وهذه السورة مكية بالاتفاق، وعدد آياتها: ثلاث وتسعون آية، وقيـل: أربع وتسعون، وقيـل: خمس وتسعون آية.[3]

(ج) محور السورة:

سورة النمـل من السور المكية التي تهتم بنواحي العقيدة، وأصـول الإيمـان من توحيد الله - عز وجـل- والاعتقاد بكتبه ورسله، والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من ثواب وعقاب والإيمان بالوحي وأن الغيب كله لله، لا يعلمه سواه والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم، والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله.[4] وهي إحدى ثلاث سـور نزلت متتالية- ووضعت حسب نزولها في المصحـف متتالية - وهي(الشعراء - النمل - القصص).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٤٨.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١٨/ ٢١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٥٤.

(٤) في ظلال القرآن الأستاذ/ سيد قطب ٥/ ٢٦٢٤.

ويكاد يكون منهجاً واحداً في سلوك مسلك العظة والإعتبار ممن سبق من الأمم فنجد حلقة من قصة سيدنا موسى ﷺ تأتي في مقدمة السورة ورؤيته للنار، ونداء الله تعالى له، وتكليفه بالرسالة إلى فرعون وقومه، وكيف كان جزاؤهم عندما كذبوا وأعرضوا عن منهج الله تعالى.

ثم نجد قصة سيدنا داود وسليمان عليهما السلام وما آتاهما الله من النعم، وهي نعمة العلم والملك والنبوة وتسخير الجن والطير لسليمان ﷺ وقصته مع ملكة سبأ وكيف دعاهم إلى عبادة الله الواحد القهار. ثم تأتي قصة قوم ثمود وما آل إليه مصيرهم عندما كذبوا رسولهم ثم تختم السورة هذه القصص، بقصة قوم لوط وكيف أن الله - عز وجل أهلكهم. وفي ذكر هذه القصص تسلية للنبي ﷺ وتنشيطا له، وتعريفاً بعلو منصبه. ثم تختم السورة بالحديث عن توحيد الله - عز وجل -وضرب المثل لتثبيت المعاني في أذهانهم فقال سبحانه﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

ثم يختم السورة بإيقاع يناسب جوها وموضوعها: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾(1)

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

سميت هذه السورة بسورة النمل نظراً لورود قصة النمل مع سيدنا سليمان ﷺ فيها وذلك لأخذ العظة والاعتبار من قصص السابقين، وكيف أن الله أعطاه ما لم يعط أحداً من العالمين حينما قال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

---

(1) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٢٥.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

ابتدأت هذه السورة الكريمة بذكر القرآن الكريم، وهو المعجزة الخالدة تحداهم الله - عزوجل - أن يأتوا بمثله - وهم أرباب الفصاحة والبيان - فعجزوا، وهذا خير دليل على صدق النبي ﷺ، وختمت هذه السورة المباركة بذكر القرآن الكريم حيث أمره الله تعالى أن يتلو القرآن ففيه الهدى والنجاة لمن أراد النجاة في الآخرة، أما من يضل عن الطريق فلا يملك من أمرهم إلا أن يقول: ما أنا إلا نذير مبين.

المناسبة بين إفتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

لما ختم الله سبحانه سورة الشعراء بتحقيق أمر القرآن، وأنه من عند الله، ونفي الشك عنه وتزييف ما كانوا يتكلفونه من تفريق القول بنسبته إلى السحر، والأضغاث، والافتراء والشعر وكل ذلك ناشيء عن أحوال الشياطين، ابتدأ سبحانه هذه بالإشارة إلى أنه من الكلام القديم المطهر عن وصمة تلحقه بشيء من ذلك تلام بوصفه بأنه منظوم مجموع لفظا ومعنى، لا فصم فيه ولا خلل، ولا وصم ولازلل، فهو جامع لأصول الدين ناشر لفروعه(١).

المناسبة بين مضمون هذه السورة ومضمون ما قبلها:

تعتبر سورة النمل كالتتمة لسورة الشعراء حيث زاد سبحانه وتعالى - فيها ذكر داود وسليمان، وبسط فيها قصة لوط - عليه السلام - أبسط مما هي قبل، وقد وقع فيها ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ الآية.

وذلك كالتفصيل لقوله تعالى: ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١] وقد اشملت كل من السورتين على ذكر القرآن، وكونه من الله تعالى، وعلى تسليته ﷺ إلى غير ذلك(٢).

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٥/ ٤٠٦.

(٢) روح المعاني للآلوسي ١١/ ٢٣١.

مناسبة السورة لما بعدها:

لما ختم الله - تبارك وتعالى - سورة النمل بالوعد المؤكد بأن يظهر آياته فتعرف، وأنه ليس بغافل عن شيء تهديداً للظالم، وتثبيتاً للعالم، وكان من الأول ما جاء في سورة النمل من الأساليب المعجزة من خفايا علوم أهل الكتاب فلا يقدرون على رده، ومن الثانى ما صنع بفرعون وآله فقال في سورة القصص﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾[القصص: ١-٣]. (١)

بيان إعجاز القرآن الكريم

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

ابتدأت سورة النمل بالأحرف المقطعة، للتنبيه على المادة الأولية التي تتألف منها السورة الكريمة، والقرآن كله، وهذه الأحرف معروفة عند العرب، ومع هذا عجزوا أن يألفوا كتابا مثله، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا يقول تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[هود: ١٣].

ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا يقول تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[البقرة: ٢٣].

وقد اختلف المفسرون في الأحرف المقطعة التي في أوائل السور:

فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه، فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها، وقالوا: هي سر الله في القرآن الكريم، ونسب هذا القول إلى أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود - رضي الله عنهم - والشعبي والثوري والربيع بن خُثيم. (٢)

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٥/ ٤٦٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٥٤.

ومنهم من فسرها واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة: فعن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: اسم الله الأعظم إلا أنا لا نعرف تأليفه منها، وقيل: هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب - حين تحداهم بالقرآن وهو مؤلف من نفس الحروف التي منها بناء كلامهم - ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، وقيل هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها[١]

قال ابن جرير بعد أن ذكر هذه الآراء: ولا منافاة بين الواحد منها وبين الآخر، وإن الجمع ممكن فهي أسماء للسور، ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السور، فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، كما افتتح سور كثيرة بتحميده وتسبيحه، وتعظيمه[٢].

قال الحافظ ابن كثير: مجموع هذه الحروف التي في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً مجموعه في قولك: (نص حكيم قاطع له سر) وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك[٣].

أما عن الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور:

قالوا: إنما ذكرت هذه الأحرف التي ذكرت فيها بيانا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثل هذا مع أنه مركب من الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها.

قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت، كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدي فيها بالصريح في أماكن وجاء منها على حرف واحد (ص، ن، ق) ومنها ما جاء على حرفين مثل (حم) ومنها ما جاء على ثلاثة أحرف مثل (الم)، (الر) ومنها ما جاء على أربعة أحرف مثل (المص)، (المر) ومنها ما جاء على خمسة أحرف مثل (كهيعص)، (حم عسق).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٥٥ ١/ ١٥٥.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٩٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٧٦.

قال ابن كثير: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة يقول سبحانه ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: ١-٢]، ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ ﴾ [آل عمران: ١-٢]، ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ﴾ [النمل: ١-٢].

وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر.

والقرآن الكريم فيه الهداية والبشارة لمن آمن وعمل صالحاً يقول سبحانه ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: ٢] إذ القرآن ليس كتاب علم نظري أو تطبيقي، ينتفع به كل من يقرأه ويستوعب ما فيه، إنما القرآن يخاطب القلوب أول ما يخاطب ويسكب نوره وعطره في القلب الذي يتلقاه بالإيمان واليقين، وكلما كان القلب ندياً بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن، وأدرك من معانيه ما لا يدركه منه القلب الصلد الجاف[1].

وقد جعل الله تعالى في القرآن النفع به للمؤمنين فجعله شفاءاً يقول سبحانه ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٤٤ ﴾ [فصلت: ٤٤].

ويقول سبحانه ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ۝٨٢ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كون القرآن شفاء لكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ ﴾ [يونس: ٥٧].

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٢٦.

فالقرآن يذهب ما في القلوب من أمراض كالشك والنفاق والشرك والزيغ، والميل، فهو يشفي من ذلك كله وهو أيضا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه وليس هذا إلا لمن آمن به وصدق واتبعه فإنه يكون شفاءاً في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم لنفسه فلا يزيده القرآن إلا بعداً وكفراً، والآفة من الكافر كفره وعناده واستكباره وليست الآفة من القرآن كما قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٥].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

يتضمن المحور ذكر قصص السابقين وبيان عاقبتهم، وإنما يكون ذلك من خلال القرآن الكريم فهو وسيلة البلاغ لذلك بدأ الله تعالى بتعظيمه وبيان فضله ليهيء النفوس لسماع ماجاء به من الأخبار الصادقة والجليلة.

الهدايات المستفادة من المقطع:

١-بيان أن هذا القرآن الكريم من عند الله تعالى.

٢- الدلالة على أن القرآن الكريم معجز تحدى الله به العرب.

٣- تضمن القرآن الهداية لمن صدقه وآمن به وعمل بما فيه.

بيان صفات المؤمنين وجزاؤهم وصفات الخاسرين وجزاؤهم

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ
ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ ﴾.

مناسبة هذا المقطع بما قبله:

لما بين الحق - تبارك وتعالى -: أن القرآن هدى وبشرى للمؤمنين، شرع سبحانه في بيان وصف الإيمان بما يصدقه من الأمور الظاهرة - إذ أن وصف الإيمان لا يظهر - فقال سبحانه ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ ﴾. وذلك تأكيداً بأن ادعاء الإيمان لا يقتصر على اللسان فحسب بل لأن العمل ووجود الوصف يتطلبه من المؤمن وهكذا يوضح للمكلفين هذا الجانب المهم.

ولما أُفهم من هذا البيان أن هناك من يكذب بها وكان أمرها في الطباع مركوزاً راسخاً لما عليها من الأدلة الباهرة في العقل والسماع، وتشوقت النفس إلى معرفة حالهم فقال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ ﴾.

تمضي بنا الآيات في وصف أولئك المؤمنين الذين جاءهم الكتاب المبين فيقول سبحانه: أولئك هم المداومون على إقامة الصلاة بفروضها وسننها وهيئاتها في أوقاتها، والإقبال عليها بالخشوع والخضوع لله تعالى.[1]

والصلاة هي سبب للرزق، وذهاب الأسقام والأوجاع يقول سبحانه ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢ ﴾ [طه: ١٣٢].

وكان المصطفى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة إذ هي تذهب بالغم والحزن وتقرب العبد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٦٤.

من ربه، وكفا بذلك نعمة أنعمها الله على عباده المؤمنين.

ثم تضيف الآية الكريمة وصفاً آخر للمؤمنين، وهم أنهم يؤدون حق الزكاة، فيطهروا نفوسهم من رذيلة الشح، ويستعلون بأرواحهم على فتنة المال، ويصلون إخوانهم في الله ببعض ما رزقهم الله، ويقومون بحق الجماعة المسلمة التي هم فيها أعضاء، ويصير المجتمع المسلم مجتمعاً متكافلاً يساعد الغني فيه الفقير.

وهم مع ذلك هم بالآخرة والمغيبات يؤمنون بها عن يقين فإذا الخوف من الله يغمر قلوبهم ونفوسهم، وهؤلاء هم المؤمنون الذاكرون لله، القائمون بتكاليفه، المشفقون من حسابه وعقابه، الطامعون في رضائه وثوابه، هؤلاء هم الذين تنفتح قلوبهم للقرآن، فإذا هو هدى وبشرى، وإذا هو نور في أرواحهم، ودفعة في دمائهم وحركة في حياتهم، وإذا هو زادهم الذي يبلغون، وريهم الذي به يشتفون[١].

ثم تذكر الآية جزاء من يكذب ويكفر بالواحد القهار فيقول سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النمل: ٤].

فالإيمان بالآخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات، ويضمن القصد والاعتدال في الحياة، والذي لا يؤمن بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة، إذ إنه يظن أن متاع الحياة الدنيا هو منتهى القصد والغاية التي يبذل في سبيلها كل شيء، وينسى أن هناك يوم آخر يحاسب فيه الله العبد المؤمن على إيمانه والكافر على كفره.

والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق النفس البشرية على هذا النحو، وجعلها مستعدة للإهتداء إن تفتحت لدلائل الهدى، مستعدة للعماء إن طمست منافذ الإدراك فيها، ومشيئته سبحانه نافذة في حالتي العمى والهدى فالذين لا يؤمنون بالآخرة زينت لهم الحياة الدنيا

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٢٧.

وشهواتهم وكفرهم فهم في غيهم حائرون لا يهتدون وأولئك في الآخرة هم الأخسرون(١).

ثم تذكر الآية الكريمة أن القرآن وهو الكتاب المبين الذي ذكر الله فيه قصص الغابرين إنما هو من لدن حكيم عليم لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي هذا دليل على صدق النبي ﷺ إذ إنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولم يعلمه معلم فمن أين له ذلك فحتماً أن يكون من لدن حكيم عليم.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

في هذا المقطع بيان صفات وعاقبة المؤمنين والكافرين، ليقتدى بالمؤمنين، ويجتنب سبيل الكافرين.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* أن الإيمان بالله تعالى يقتضي التصديق بكل ما أمر الله به من العمل المؤكد للإيمان باليوم الآخر.
* أن الذي لا يؤمن بما يستلزم التصديق بالآخرة سيكون من الخاسرين.
* أهمية الصلاة والزكاة في الإسلام، وأن من لا يؤدي تلك الفريضة فلاحظ له في الإسلام.
* عظمة يوم القيامة ومافيه من غبن، وحسرة على الصنف المعرض عن أمر الله.

ثم تمضي الآيات بعد ذلك لتبين لنا قصة سيدنا موسى عليه السلام.

فتعرض لنا نداء الله له بوادي طوى، وكيف أن الله اختاره لحمل الرسالة العظيمة وإبلاغها إلى فرعون وقومه، وكأنما يقول للرسول ﷺ إنك لست بدعاً من الرسل في هذا التلقي فها هو ذا موسى يتلقى التكليف ويناديه ربه لحمل تلك الرسالة، وليس ما تلقاه من قومك بدعاً في التكذيب، فها هم أولاء قوم موسى تستيقن نفوسهم بآيات الله. ولكنهم يجحدون بها ظلماً وعلواً فانظر كيف كانت عاقبة المكذبين.

(١) المرجع السابق.

نداء الله لموسى بوادي طوى

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ
﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ
لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً
قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع بما قبله:

لما وصف الحق تبارك وتعالى القرآن الكريم بأنه كتاب مبين وأنه من لدن حكيم عليم، بدأ سبحانه في سرد قصة سيدنا موسى عليه السلام تسلية لقلب النبي ﷺ وتثبيتا له وليكون سرده لقصص الأولين أكبر دليل على أنه من لدن حكيم عليم، إذ من أين لمحمد الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجلس إلى معلم بمثل قصص الأولين فقال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ الآيات.

تعرض الآيات هذه الحلقة السريعة من قصة سيدنا موسى عليه السلام فيقول الحق سبحانه اذكر يا محمد إذ قال موسى لأهله إنى آنست ناراً وقد تكررت هذه القصة في سورة طه فيقول سبحانه ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ [طه: ٩-١٠].

قال ابن عباس وغيره: هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر وكان قد أخطأ الطريق، وكان موسى عليه السلام رجلاً غيوراً، يصحب الناس بالليل ويفارقهم غيرة منه لئلا يروا امرأته، فأخطأ الرفقة لما سبق في علم الله تعالى، وكانت ليلة مظلمة شاتية باردة،

وقد حاد عن الطريق، وتفرقت ماشيته، وفي تلك اللحظة رأى موسى ناراً من بعيد، فقال لأهله: امكثوا إني آنست نارا[1].

وعبر هنا بالسين في قوله﴿ ءَاتِيكُم ﴾وفي سورة طه ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم ﴾.

لأن العدتين على سبيل الظن أو لأنه إن لم يظفر بها فلم يعدم أحدهما بناءاً على ظاهر الأمر وثقة بسنة الله عز وجل أنه لا يكاد يجمع حرمانين على عبده[2].

فلما توجه موسى عليه السلام نحوها، فإذا النار في شجرة، فوقف متعجباً من حسن ذلك الضوء وشدة خضرة تلك الشجرة، ولا كثرة ماء الشجرة ولا نعمة الخضرة تغيران حسن ضوء النار. [3]

وقد ورد هذا الموقف أيضاً في سورة القصص بقوله سبحانه ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [القصص: ٢٩] والجذوة: الجمرة الملتهبة.

فلما آتاها موسى عليه السلام ناداه الملك سبحانه ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ وفي سورة طه يقول سبحانه ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾[طه: ١١-١٢].

إنه النداء الذي يتجاوب به الكون كله، وتتصل به العوالم والأفلاك، ويخشع له الوجود كله، وترتعش له الضمائر والأرواح، النداء الذي تتصل به السماء بالأرض، ويرتفع فيه الإنسان الفانى الضعيف إلى مقام المناجاة بفضل من الله.

﴿ نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ إنها لم تكن ناراً من التي نوقدها – على الأرجح – إنما كانت ناراً مصدرها الملأ الأعلى. ناراً أوقدتها الأرواح الطاهرة من ملائكة الله للهداية

(١) تفسير الطبري ١٦/ ١٤٢– آية / ١٠ من سورة طه. والأثر صحيح.

(٢) روح المعاني للآلوسي ١١/ ٢٣٨.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ١٤٢.

الكبرى - إيذاناً بفيض من البركة العلوية على من في النار ومن حولها [١] .

وأصبحت هذه البقعة بقعة مباركة مقدسة كما قال تعالى في سورة القصص ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القصص: ٣٠]

ولهذا أمره سبحانه وتعالى أن يخلع نعليه لينال بركة هذا المكان.

ثم يأتي بقية النداء الذي اشتمل على تنزيه الله وإعلان ألوهيته بقوله ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ فكشف الله لعبده أن الذي يناديه هو رب الأرباب وملك الملوك سبحانه - فيجب تنزيهه والإقرار بالعبودية له سبحانه - وكان هذا النداء للاصطفاء وليختاره الله سبحانه ليكون نبياً مرسلاً يقوم بتبليغ رسالته إلى فرعون وقومه ثم أخذ سبحانه يبين له المعجزات الدالة على صدق نبوته فقال سبحانه ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ هذا باختصار عن سورة طه ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه: ٧١-٨١].

فقد أمره سبحانه بأن يلقي عصاه، وهي التي له فيها منافع كثيرة منها: ما ذكره، ومنها: ما أجمله فلما ألقاها فإذا هي تدب وتسعى وتتحرك حركة سريعة كحركة ذلك النوع الصغير من الحيات ﴿ ٱلْجَآنّ ﴾ ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ ﴾ وأدركت موسى عليه السلام طبيعة البشر، وأخذته هزة المفاجأة فناداه جل وعلا ليطمئن قلبه ﴿ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ وفي سورة القصص ﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١].

أمره ربه - سبحانه - أن يثق به كل الثقة، وأن يتوكل عليه كل التوكل إذ إنه نبي مرسل ينبغي ألا يخاف إلا من الله سبحانه.

ثم استثنى سبحانه منهم بقوله ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٢٩.

فالاستثناء هنا منقطع، وفيه بشارة عظيمة لبني آدم، وذلك أن من عمل شيئاً ثم أقلع عنه، ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه فيقول سبحانه ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢].

وقوله سبحانه ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء: ١١٠].

ثم أخذ سبحانه في ذكر آية أخرى تدل على صدق موسى في نبوته، وهي أن يدخل يده من فتحة صدره تخرج بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان يتلألأ كالبرق الخاطف فقال سبحانه ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ وفي سورة طه ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [طه: ٢٢] وفي سورة القصص ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [القصص:٣٢].

ثم أجمل المولى تبارك وتعالى بقية المعجزات التي أعطاها موسى لتكون براهين على صدق دعوته﴿ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

وهذه الآيات منها ما ورد في سورة الأعراف ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

والسنين كما في قوله تعالى﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٠].

والفلق كما في قوله تعالى﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وإلى ما ذكرت نضيف العصا واليد فتصير المعجزات تسعاً كما ذكرت مجملة في هذه الآية ولكن بعد مجئ هذه الآيات على صدق سيدنا موسى في دعواه كذبوا فانظر يا محمد - ﷺ -

كيف كان عاقبة المكذبين.

ثم تجمل الآيات مجئ سيدنا موسى وتلبية هذا النداء إلى فرعون وقومه والتي جاءت مفصلة في سورة أخرى منها سورة الشعراء.

فلما جاءتهم هذه الآيات الكثيرة العدد، القوية في الحجة ومع هذا قالوا عنها: هذا سحر مبين، قالوا ذلك لا عن اقتناع به، ولا عن شبهة فيه، إنما قالوا ظلماً وعلواً مع أن قلوبهم متيقنة أنه الحق الذي لا شبهة فيه (١).

وكذلك كان كبراء قريش يستقبلون القرآن ويوقنون أنه الحق الذي لا مرية فيه، ولكنهم يجحدون، وذلك لأنهم يريدون الإبقاء على ديانتهم وعقائدهم، لما وراءها من أوضاع تسندهم، ومغانم تتوافد عليهم، وهي تقوم على تلك العقائد الباطلة، التي يحسون خطر الدعوة الإسلامية عليها، ويحسونها تتزلزل تحت أقدامهم، وترتج في ضمائرهم، ومطارق الحق المبين تدمغ الباطل الواهي المريب (٢).

فانظر كيف كان عاقبة المفسدين، وعاقبة فرعون وقومه معروفة، كشف عنها القرآن في مواضع أخرى، وإنما يشير إليها هذه الإشارة لعلها توقظ الغافلين من الجاحدين بالحق المكابرين فيه، إلى عاقبة فرعون وقومه قبل أن يأخذهم ما أخذ المفسدين.

ولنذكر هنا هلاك فرعون وقومه والتي ذكرها الله تعالى في قوله ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٠- ٩٢].

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٠.

(٢) المصدر السابق.

وفي سورة الشعراء: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

فقد أغرق الله فرعون وقومه لأنهم جحدوا الآيات وكفروا بالله سبحانه وهذه نهاية الظالمين.

ثم تمضي الآيات في ذكر قصة أخرى تسلية لقلب النبي محمد ﷺ ولكنها قصة مختلفة عن سابقتها فالأولى كذب فرعون وقومه أما هذه القصة فما أن جاءتهم الآيات إلا أن أذعنوا وآمنوا بالله الواحد القهار وهي قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ.

مناسبة المقطع بمحور السورة الكريمة:

أنها قصة عظيمة من القصص القرآني المتكررة في ثنايا كتاب الله بدأها ببيان رسالة موسى ومعجزاته وقوة دلائله وبيناته ليكون تكذيبهم بعد أشنع في الميزان الفطري والعقلي وتكون عقوبتهم هي الحكم العادل الذي يستحقونه، وعبرة لمن تسول له نفسه السير على هذا المنوال، الذي عاقبته الوبال.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* فيه دليل قاطع على نبوة محمد ﷺ، حيث لم يكن في قلب الحدث المتعلق بموسى عليه السلام، إذ ذاك.
* الدليل على اصطفاء الله لموسى عليه السلام كما أخبر الله بذلك.
* الإعداد الرباني العملي لمواجهة الطاغية فرعون وقومه، وتدريبه على العصا التي تنقلب ثعبانا، بقدرة الله تعالى.
* إظهار قدرة الله جلية أمام موسى عليه السلام ليأنس بها ويكون ثابت الجنان في دعوته لفرعون.
* وفيه أن الله يمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته وهذه سنة الله فيهم.

بيان ما أوتي داود وسليمان عليهما السلام

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ
ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ
أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع بما قبله:

لما ذكر الحق تبارك وتعالى في بداية السورة أنه كتاب مبين، وأنه من لدن حكيم عليم فأخذ يقص على العرب مالا علم لهم به من قصص السابقين، فابتدأ بنبذة موجزة عن حلقة من قصة موسى ﷺ، ثم أتبعها بقصة داود وسليمان ﷺ وكيف أن الله امتن عليهما بنعم عظيمة ونجد أن هذه السورة قد بسطت القول في قصة سليمان ﷺ مع الهدهد وملكة سبأ.

وفي هذه القصة نتعلم منها فضل العلم فيقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾. ففيها دليل على شرف العلم ومكانته وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلاً على كثير من عباد الله المؤمنين قال تعالى ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١][1].

وفي هذه القصة أيضاً: استعراض لنعم الله على العباد وآياته في الكون واستخلافه للناس وهم يجحدون بآيات الله ولا يشكرونه، وفيها نموذج للعبد الشاكر، الذي يسأل ربه أن يوفقه إلى شكر نعمته عليه، المتدبر لآيات الله الذي لا يغفل عنها، ولا تبطره النعمة ولا تطغيه القوة.

تمضي الآيات في هذه القصة مجملة ما آتاه الله داود ﷺ، فقد كان رجلاً صالحاً قوياً في

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ١١٠.

عبادة ربه إذ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وكان يقوم نصف الليل، وكان دائم الرجوع إلى ربه فقال سبحانه ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧].

وقد أعطى الله داود عليه السلام فضلاً على عباده المؤمنين فقد أتاه الله النبوة والزبور والعلم كما في هذه الآية.

وقد سخر الله عز وجل له الجبال يسبحن معه والطير فيقول سبحانه ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ: ١٠].

ويقول سبحانه ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [ص ١٨-١٩].

فكانت الجبال تسبح مع داود عليه السلام وكانت الطير تساعده على ذلك فقد أعطاه الله صوتاً حسناً فكان إذا سبح تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات وفي الصحيح: (أن الرسول ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقرآته ثم قال ﷺ: **(لقد أوتى هذا مزمار من مزامير آل داود)**[(١)].

قال وهب بن منبه: كان الماء الجاري ينقطع عن الجري، وكانت الوحوش تتزاحم لحسن صوته[(٢)].

وكان من نعم الله عليه أن ألان له الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً، ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله مثل الخيوط ولهذا قال سبحانه:

﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ:١١].

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٩٢٥ح٤٧٦١، وصحيح مسلم ١/ ٥٤٦ح٧٩٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٦٧.

وهي الدروع، وكان داود ﵇ أول من صنعها فأمره الله سبحانه أن تكون سابغات أي: واسعة متينة.

وكانت قبله صفائح فأمره ربه أن يجمع بين الخفة والحصانة [١] ثم أمره ربه أن يقدر في السرد فقال: (وقدر في السرد) أي لا تدق المسمار فيقلق في الحلقة ولا تغلظه فيقسمها بل أرجعه بقدر وهذا هو ما عبر عنه الله بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء ٨٠] وهي اتخاذ الدروع.

وفي هذا دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم، إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخالي من الامتنان[٢] فقد ورد عن النبي ﷺ: (**ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده**) [٣].

وقد أتاه الله أيضاً قوة في ملكه حتى أصبحت له الهيبة وإلقاء الرعب منه في القلوب.

قيل ذلك لكثرة جنوده، وقيل بالنصر والتأييد فيقول سبحانه ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠].

وقد أتاه الله أيضا الفصل في القضاء، وقيل هو: البينة على المدعي، واليمين على من أنكر وقيل: البيان الفاصل بين الحسن والباطل، وهذه الأقوال متقاربة فقد آتاه الله فصلاً في القضاء بحكمة بها يفرق بين الحق والباطل.

وقد حكى القرآن الكريم مشهداً من قصة حكم فيها داود ﵇ فيقول سبحانه

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ١٦١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/ ١٦١.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٧٣٠ح١٩٦٦، سنن ابن ماجه ٢/ ٧٢٣ مختصراً، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ١٢٧.

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص: ٢١-٢٤].

قال ابن كثير: وقد ذكر المفسرون هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت عن المعصوم حديث يجب اتباعه، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عزوجل، فإن القرآن حق وما تضمنه فهو حق أيضاً[1].

ذكرت الآيات خبراً تقريرياً عن أبرز النعم التي أنعم الله بها على داود عليه السلام، وهي نعمة العلم. فأما عن داود فذكرت نعم الله عليه في سور أخرى على نحو ما ذكرت سابقاً. وأما سليمان عليه السلام ففي هذه السورة تفصيل ما علمه الله من منطق الطير، وما إليه بالإضافة إلى ما ذكرت في سور أخرى فنجد أن الله قد سخر له الريح عاصفة تجرى بأمره حيث أراد فيقول سبحانه ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ ﴾ [سبأ: ١٢]. أي: تغدو مسيرة شهر وتروح مسيرة شهرين في يوم[2].

وقيل: جعل الله الريح مسخرة لسليمان تجري بأمره إلى الأرض المباركة يعني الشام، يروى أنها كانت تجري به وبأصحابه إلى حيث أراد. .

وكذلك سخر الله تعالى النحاس فأصبح سائلاً يجري فيقول سبحانه ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ ﴾ [سبأ:١٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٧.

(٢) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٩. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٦٩.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أسيلت له مسيرة ثلاثة أيام كما يسيل الماء، وكان بأرض اليمن، ولم يذب النحاس لأحد قبله، وكان لا يذوب ومن وقته ذاب، وإنما ينتفع الناس به إلى اليوم بما أخرجه الله تعالى لسليمان.

قال القرطبي: والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان في معدنه عينا تسيل كعيون المياه دلالة على نبوته. [١]

كذلك جعل الله الجن مسخرة لأمره فيقول سبحانه ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ: ١٢].

فقد سخر الله له الجن يطيعه ويأتمر بأمره، وينتهي لنهيه، فيعمل بين يديه ما يأمره طاعة له بإذن ربه، ومن يذل ويعدل من الجن عن أمرنا نذقه من عذاب السعير في الآخرة.

فكانوا يصنعون له التماثيل والمحاريب فيقول سبحانه ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ [سبأ: ١٣].

فكانوا يصنعون له التماثيل ويصورون له الصور، وقيل إنها صور الأنبياء والعلماء وكانت تصور في الساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهاداً كما جاء في حديث: **(إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور)**[٢].

وقيل: في هذا دليل على أن التصوير كان مباحاً ثم نسخ بشرع سيدنا محمد ﷺ.

وقد وردت الأحاديث الكثيره الدالة على حرمة التصوير كما في حديث **(إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله - عز وجل)** كما في صحيح البخاري[٣] وبألفاظ متعددة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٧٠.
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٧٠، ح٥٧٧٩.
(٣) صحيح البخاري ح(٦١٠٩).

واستثنى العلماء لعب البنات لما روي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: (كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لى صواحب يلعبن معى فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن منه فيسربهن إلى فيلعبن معي)[١].

قال العلماء: وذلك للضرورة إلى ذلك وحاجة البنات حتى يتدربن على تربية أولادهن ثم إنه لا بقاء لذلك، وكذلك ما يصنع من الحلوى أو من العجين لا بقاء له[٢].

وكذلك كانوا يعملون له المحاريب وهي أشرف مكان في الدار والمسجد، وكانوا يصنعون له أيضاً الجفان وهي القدر العظيمة والحوض العظيم الكبير الذي يجبى فيه الشيء.

وقدور راسيات قد نحتت من الجبال الصم ما عملت له الشياطين أثافيها منها منحوته ثوابت لا تحمل ولا تحرك لعظمتها[٣].

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٢].

فقد كانت الشياطين يغوصون تحت الماء يستخرجون له الجواهر من البحر.

وقد آتاه الله سبحانه الفهم فكان له نصيبه أيضاً في فصل القضاء والخصومات بين الناس.

فيذكر الله سبحانه في سورة الأنبياء طرفاً من قضية حكم فيها داود عليه السلام إلا أن حكمه لم يكن صائبا في هذه المرة فاستدرك عليه سليمان وطلب منه أن يغير هذا الحكم فيقول سبحانه: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ

(١) صحيح البخاري١/ ١٦٥ح ٤١٧، ومسلم ١/ ٣٧٥ ح٥٢٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ٢٧٤.
(٣) تفسير الطبري ٢٢/ ٧٢.

وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

فقد أفسدت الغنم بستان من الكرم قد أنبتت عناقيده فقضى داود عليه السلام بالغنم لصاحب الكرم فطلب منه سليمان أن يغير هذا الحكم فقضى بأن يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، ودفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها وهذا هو قول الله تعالى ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ فهو سبحانه أثنى على سليمان ولم يذم داود عليه السلام.

قال ابن كثير: أما الأنبياء فهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، أما من سواهم فقد ثبت في الصحيح عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**)[1].

تبدأ القصة هنا في سورة النمل بمدح العلم وبيان فضله، وفضل من يؤتاه من عباد الله المؤمنين.

والعلم كله هبة من الله عز وجل يؤتيه من يشاء، وينبغي ألا يكون العلم بعيداً عن الله عز وجل.

فالعلم الذي يبعد الإنسان عن ربه علم فاسد، زائغ عن مصدره وعن هدفه، لا يثمر لصاحبه سعادة لنفسه ولا للناس، إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار، وها هو الواقع يؤيد صدق ذلك، فقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم، بتحطيم الذرة واستخدامها، ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذي لا يذكر أصحابه الله، ولا يخشونه، ولا يحمدون له؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية في قنبلتي (هيروشيما) (وناجازاكي) وغير الخوف والقلق الذي يؤرق جفون الشرق والغرب ويتهددهما بالتحطيم

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٧٦ ح٦٩١٩، صحيح مسلم ٣/ ١٣٤٢ح١٧١٦.

والدمار والفناء؟[1].

وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان تمضي بنا الآيات لتبين أن سليمان عليه السلام ورث أباه داود في الملك والنبوة والعلم ثم تذكر الآيات تحدث سليمان بنعم الله عليه وهذا من باب ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ لا مباهاة ولا فخر ثم يعقب على هذا بقوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ فهذا الذي أوتيه سليمان من تعليمه منطق الطير وغير ذلك من النعم - أمر لا يقدر عليه إلا الله سبحانه.

وقد ورد في سورة النمل في قصة سليمان تفصيل لم يذكر في سور غيرها فقد علمه سبحانه منطق الطير وهي لغاتها ومنطقها، وهذا على سبيل الخارقة التي تخالف قوانين البشر، لا على طريق المحاولة والاجتهاد، فكان يعرف لغاتها وهو أمر لم يعطه أحد من البشر، ومن زعم من الجهلة أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول وليس الأمر كما زعموا بل لم تزل البهائم وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا على هذا الشكل ولكن الله سبحانه أفهم سليمان ما يخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها.

نعود إلى تفصيل قصة سليمان عليه السلام فيقول سبحانه ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

فهذا هو موكب سليمان محشود محشور، يتألف من الجن والإنس والطير، والإنس معروفون، أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم في القرآن، وهو أنه خلقهم من مارج من نار وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم يقول سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾.

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٤.

وأنهم قادرون على الوسوسة في صدور الناس بالشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية، وأن منهم المؤمنون ومنهم الكفار كما ورد ذلك في سورة الجن فيقول سبحانه ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ [الجن ١-٢].

ويقول سبحانه ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن ١٤-١٥].

وكانت الجن مسخرة لسيدنا سليمان يبنون له التماثيل والمحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة كما ذكرت سابقاً.[١].

وقد سخر الله عز وجل لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير، كما سخر له طائفة من الإنس، ولم يكن كل أهل الأرض من الإنس جنداً لسليمان - إذ إن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات - فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له، إنما كانت طائفة في كل أمة.

ومما يدل على ذلك أن الهدهد لما غاب علم سليمان بفقده فلو كانت جميع الهداهد مسخرة له لما علم سليمان بفقد واحد من ملايين الهداهد ولما قال: مالى لا أرى الهدهد؟

فهو إذن هدهد خاص بذاته وشخصه، وكان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير وكان فيما يزعمون يأتيه طائفة من كل صنف من الطير، فنظر فرأى من أصناف الطيور كلها من حضره إلا الهدهد فقال: ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ الآية[٢].

وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير وهو موكب عظيم، وحشد كبير يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له، قال مجاهد: جعل على كل

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٥.

(٢) المرجع السابق ٥/ ٢٦٣٦، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ١١٨.

صنف وزعة يردون أولها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملك اليوم [١].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾الآيات.

تمضي بنا الآيات لبيان موقف آخر لسليمان عليه السلام وهو حديثه عن النملة، وهي معجزة أخرى لسليمان عليه السلام، فقد سار موكبه على هذا النحو المنظم الدقيق، حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة لها صفة الإشراف والتنظيم على باقي النمل قالت للنمل بلغة التفاهم بينهم: ادخلوا مساكنكم حتى لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون. وفي هذا بيان لفضل سليمان وجنوده وعدلها إذ إنهم لا يحطمون ضعيفاً إلا لكونهم لا يشعرون إذ لو شعروا لم يحطموه، كما جاء في قوله تعالى ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ ﴾ [الفتح: ٢٥]، وهذا ثناء على جند محمد ﷺ التفاتاً إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن. إلا أن المثني على جند سليمان هي النملة بإذن الله تعالى، والمثنى على جند محمد ﷺ هو الله عز وجل، لما لجنود محمد ﷺ من الفضل على جند غيرهم من الأنبياء، كما لمحمد ﷺ فضل على جميع النبيين صلى الله عليهم أجمعين [٢].

فأدرك سليمان – عليه السلام – ما قالت النملة وهش له وانشرح صدره بإدراك ما قالت، فهي نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس، لاستغلاق التفاهم بينهم وقيام الحواجز، وانشرح صدره لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة مثل هذا الإدراك، وأن يفهم عنها النمل فيطيع. [٣]

فلما أدرك سليمان هذا ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ﴾ والتبسم غالباً ضحك للأنبياء، أما ما روي أن النبي ﷺ كان يضحك حتى تبدوا نواجذه فهذا محمول على أنه أحياناً كان يضحك حتى تبدوا نواجذه الشريفة، أما في الغالب الأعم فقد كان

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١١٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١١٤.

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٦.

ضحكه التبسم. [١]

ودعا سليمان ﷺ بأن يلهمه الله عزوجل شكر هذه النعمة التي منَّ بها عليه، وهي: تعليمه منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك والإيمان بك، ﴿ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَـٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ ﴾ فالعمل الصالح هو فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته ويتضرع سليمان إلى ربه بأن يوفقه إلى شكر نعمته، وأن يوفقه إلى العمل الصالح، وأن يدخله في عباده الصالحين، فهذا سليمان الذي أنعم الله عليه بنعم لم يعطها لأحد من خلقه ومع هذا فهو غير آمن من مكر الله حتى بعد أن اصطفاه، صار خائفاً أن يقصر به علمه وأن يقصر به شكره. [٢]

ونقف هنا أمام خارقتين لخارقة واحدة: خارقة إدراك سليمان بتحذير النملة لقومها وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده، فأما الأولى: فهي مما علمه الله لسليمان، وسليمان إنسان ونبي، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية في مقالة النملة، فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر، وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه، وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة، أما أن تدرك النملة أن هذه الشخوص هي سليمان وجنوده، فتلك هي الخارقة الخاصة التي تخرج عن المألوف، وتحسب في عداد الخوارق. [٣]

مناسبة المقطع لمحور السورة الكريمة:

وهذا هو دأب القرآن الكريم في إظهار النعمة التي يمن الله بها على أنبيائه تذكيراً لهم وبياناً لأهمية هذه النعمة، ولتكون نصب عيني ذلك المرسل من الأنبياء، ولتأخذ منحى الاعتبار والعظة فيما يعطي الله من شاء ويمنع من شاء.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١١٧- وانظر حديث النواجذ في مسلم رقم (٤٧٩) والترمذي رقم (٢٩٦٩).

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٧.

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٧.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* فضل العلم وأنه من أعظم نعم الله التي يمتن بها على عباده.
* بيان فضيلة داود وسليمان واختصاص الله لهما بخصائص ليس لغيرهم.
* تسخير الله تعالى جميع الكائنات لهذا الإنسان ليسير على منهج الله تعالى.
* التأمل والتفكر في أصناف هذا الخلق.
* الحكمة الإلهية التي حبكت هذا المشهد العجيب الدال على الوحدانية.
* إظهار القدرة الإلهية على جعل الناطق من البشر يفهم لغة الحيوان الأعجمي.

سليمان عليه السلام وملكة سبأ

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا
شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ
بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ
مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ
كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

مناسبة المقطع بما قبله:

وهنا الانتقال إلى حلقة أخرى عن قصة سليمان عليه السلام. لم تذكر في سورة غير هذه - وهي قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ ونجد فيها جمال العرض القرآني للقصة لنحقق العبرة التي من أجلها يساق القصص القرآني.

ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الإشارة إلى الجن والإنس والطير وإلى نعمة العلم، فإن القصة تحتوي أدوار لكل من الجن والإنس والطير، ويبرز فيها دور العلم وكما كانت تلك المقدمة إشارة إلى أصحاب الأدوار الرئيسية في القصة، كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة: شخصية سليمان، وشخصية الملكة، وشخصية الهدهد، وشخصية حاشية الملكة(١).

تبدأ الآيات بعرض سليمان وتفقده لجنوده بعدما أتوا على وادي النمل وما حدث هناك فيقول سبحانه ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ فعلم سليمان بغياب الهدهد فسأل متعجباً كيف يتسنى لهذا الهدهد أن يغيب بغير عذر.

وفي هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم، فانظر إلى الهدهد مع صغره، كيف لم يخف على سليمان حاله، فكيف بعظام الملك، ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته، قال: لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب، لسأل عنها عمر، فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية والرعيان(٢).

ثم توعده سليمان عليه السلام فقال: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ فسليمان لم يجزم بتعذيبه وفقط - بل خيره بين ثلاثة أمور إما أن يعذبه أو يذبحه أو يأتي بحجة قوية - لأنه قد يكون له عذر بين.

وفي الآية دليل على أن الحد على قدر الذنب لاعلى قدر الجسد، أما أن يرفق بالمحدود في الزمان والصفة.

فمكث الهدهد زماناً يسيراً ثم جاء فقال لسليمان﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ أي: بما لم

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٣٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١١٩.

تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ بخبر صادق، وسبأ هم: حمير، وهم ملوك اليمن ثم أخبره بما رأى في سبأ فقال ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ وقد أتاها الله من كل متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن، وكان لها عرش عظيم مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر.

وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم، عندي ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع جلالته رضي الله عنه وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان حتى سأل أبا موسى الأشعري[1]، وكان علم التيمم عند عمار وغيره وغاب عن عمر وابن مسعود، حتى قالا: لا يتيمم الجنب [2].

ثم أخذ الهدهد يحثه بما هو أعظم وأخطر فقال ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾.

يقول الهدهد لسليمان: لقد وجدت ملكة سبأ وقومها وثنيين، يعبدون الشمس ويتركون عبادة الواحد الأحد، وقد حسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة، وهي عبادة الشمس والكواكب، فمنعهم عن طريق الخير والهدى، فهم لا يهتدون إلى الله وإلى توحيده، ثم قال الهدهد متعجباً: أيسجدون للشمس ! ولا يسجدون لله الخالق المدبر العظيم، الذي يعلم الخفايا والنوايا ويعلم كل مخبوء في العالم العلوي والسفلي، ويعلم السر والعلن، وهو رب العرش العظيم، والمتفرد بالعظمة والجلال

ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له نهي النبي ﷺ عن قتله فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: (نهي النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب - النمله، والنحلة

(١) أخرجه البخاري (١٩٢٩) ومسلم (٤٠٠٦).
(٢) سنن البيهقي (٢٧٣) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/ ١٢٢).

والهدهد، والصرد)[١].

أما النملة فلأنها أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه لأنهم لا يشعرون إن حطموكم، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم، فنفت عنهم الجور، وأما الهدهد فلأنه كان دليل سليمان ورسوله إلى بلقيس، والصرد يقال له الصَّوام - أول من صام - وقيل كان دليل إبراهيم في بناء البيت الحرام فكان دليله على الموضع[٢]. وأما النحلة فلما تخرجه من بطونها من العسل الذي فيه شفاء للناس.

هنا أراد الله لسليمان أن يثبت من هذا النبأ الخطير، الذي اهتزت له مشاعره، فكيف يكون في زمانه، من يسجد للشمس ويعبد غير الله، وهو الذي قد بعث بدعوة التوحيد والإيمان، ولهذا أراد أن يثبت من الأمر فكتب كتاباً وأرسله مع الهدهد، وطلب منه أن يأتيه بجوابه: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

وفي الآية: دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أحوالهم، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه، ولكنه لم يتسرع في قبول كلامه حتى امتحنه - إذ أن هذا الأمر من الأمور العظيمة التي ينبغي جهاده، ولكنه طلب منه أن يذهب بكتابه إليهم. وفيها دليل كذلك على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ودعائهم إلى الإسلام وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار.

قوله ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فيه حسن الأدب مع الملوك حيث أمره أن يكون قريباً حتى يرى مراجعتهم[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٣٢، وإسناده صحيح.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١١٥-١١٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٢٧.

ثم أخذ الهدهد الكتاب وذهب إلى ملكة سبأ، فرفرف فوق رأسها، ثم ألقى الكتاب في حضنها، وتنحى جانبا أدباً وامتثالاً.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

في هذه القصة العجيبة التي تعتبر متابعة لقصص الأنبياء، وماختصهم الله تعالى به من المعجزات التي تحتم تصديقهم واتباعهم فهي عين المحور وملاكه.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* شرف سليمان عليه السلام وفضله.
* مكانة الهدهد وحرمته التي اكتسبها من قيامه بدعوة التوحيد.

موقف ملكة سبأ من كتاب سليمان عليه السلام

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ
تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ
إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ
فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ
أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ
﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ
قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ
إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ
﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت
تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن
سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

مناسبة المقطع بما قبله:

هذا المقطع لصيق الصلة بما قبله، وإنما فصلته هنا ليسهل تناوله فهو في بيان الحالة التي استقبلت فيها بلقيس الكتاب.

هنا وصل الكتاب إلى الملكة فتحيرت مما رأت وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب ففتحته وقرأته، فإذا فيه: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ووصفت الكتاب بأنه كريم لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم، فعظمته إجلالا

لسليمان عليه السلام أو لأنه مطبوع عليه بالخاتم، فكرامة الكتاب ختمه.

ومن هنا اتفقوا على كتب ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في أول الكتب والرسائل وعلى ختمها، لأنه أبعد من الريبة، وعلى هذا جرى الرسم وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال: أيما كتاب لم يكن مختوماً فهو أغلف [(١)].

فلما علمت أن الأمر خطير، فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها، وكبار رجال دولتها ثم قالت لهم:

﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ أي موحدين طائعين مستسلمين، تشير الآية إلى قوة الملك والسلطان ولهذا لم تبت في الأمر بل استشارت الكبراء والوزراء، لأنها شعرت أن هذا الكتاب لا يصدر إلا من ملك عظيم، له عزة ومنعه وسلطان فقالت: ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

أي: ماكنت لأبرم قضاء دون مشورتكم ورأيكم وخاصة في هذه النازلة الكبرى، فراجعها الملأ بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى رأيها، وهذه محاورة حسنة.

وفي هذه الآية دليل على صحة المشاورة وقد قال الله لنبيه ﷺ ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد مدح الله الفضلاء بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الشورى: ٣٨].

والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب، فهذه بلقيس امرأة جاهلية تعبد الشمس ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ١٢٩.

لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم وحزمهم فيما يقيموا أمرهم، وإمضاءهم على الطاعة لها، إذ أنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم.

وإنما أجابوها بقولهم ﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أرجعوا المشورة والرأي إليها بعد أن أظهروا قوتهم وشدة بأسهم، فلما أحست منهم الميل إلى الحرب، شرعت في تزييف رأيهم، وتنبيههم إلى خطأهم في التعجل في الحكم دون روية.

وفي هذا الكلام خوف على قومها، وحيطة واستعظام لأمر سليمان عليه السلام فقالت ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

قالت لهم: إني أخشى أن نحاربهم فلا نقدر عليهم فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه ويخلص إلي وإليكم الهلاك والدمار، وإن عادة الملوك إذا استولوا على بلدة قهراً، خربوها وأهانوا أشرافها وأذلوهم بالأسر، وهذه عادتهم في كل بلد يدخلونها عنوة ﴿ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وإني سأبعث إليه بهدية عظيمة فإن قبل الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي صادق فاتبعوه، وقد كان النبي ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها، ولا يقبل الصدقة وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما في نفسها لأنه قال لها في كتابه: ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ وهذا لا تقبل فيه فدية ولا تأخذ منهم هدية [1].

وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد، وعلى كل حال ما لم يكن من مشرك، والهدية مندوب إليها وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة فقد روى عن النبي ﷺ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٣٢.

(تصافحوا يذهب الغِلُ وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء)(١)

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ (تهادوا فإن الهدية تذهب وحر الصدر ولا تحقرن جارة لجارتها ولو شق فرسن شاة) (٢).

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

فلما جاء رسل بلقيس إلى سليمان بالهدية العظيمة، وكانت آنية من ذهب، فلم ينظر إليها بل أعرض عنها، وقال منكراً عليهم: أتصانعوني بالمال والهدايا لأترككم على كفركم وشرككم فما أعطاني الله من النبوة، والملك، والجنود، خير مما أعطاكم من زينة الدنيا، بل أنتم تفرحون بمثل هذه الهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا.

ثم قال لمن قدم الهدايا: ارجع إليهم بهديتكم، فسوف نأتيكم بجنود لا طاقة لكم بمقاتلتهم ولنخرجنكم من مملكتكم أذلة صاغرين ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

ثم تمضي بنا الآيات لتبين موقف سليمان فيما بعد ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

فلما رجعت الرسل إلى بلقيس فعرفت أن هذا ما هو بملك، وليس لها قدرة على قتاله فبعثت إليه أني قادمة مع أشراف قومى لأنظر ما أمرك، وما هذا الدين الذي تدعون إليه؟ فلما علم بقدومها طلب من يأتيه بعرشها ليريها بعض الخوارق التي أجراها الله على يديه، الدالة على عظم ملكه وسلطانه وصدقه في دعوى النبوة، ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

(١) موطأ مالك ٢/ ٩٠٨ وهو عن عطاء بن أبي مسلم معضلاً، فهو ضعيف كما في إرواء الغليل (٦/ ٤٦).

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٤٤١ وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه، مسند أحمد ٢/ ٤٠٥، وفي إسناده أبو معشر المدني وهو ضعيف. ومعنى وحر الصدر: (غشه وحقده).

فقال رئيس الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلس الحكم وإني على حمله قوي أمين على ما فيه من الجواهر (١).

﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ ﴾ فقال له آصف بن برخيا كاتب سليمان أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك بصرك، أي: آتيك به بلمح البصر، قبل أن تفتح عينك ثم تغمضها، وهذا غاية في الإسراع ومثل فيه، وأكثر المفسرين على أنه آصف بن برخيا وكان صديقا يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ثم قام هذا الرجل الصالح فتوضأ ودعا الله، فإذا بعرش بلقيس بين يديه. (٢)

فلما عاين سليمان ذلك ورآه مستقراً عنده قال: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴾. إنها معجزة أخرى لسليمان إذ كيف يأتي بهذا العرش، وقد خبأته في قصرها وعليه من الحراس ما شاء الله. وكيف له ذلك والمسافة بين بيت المقدس واليمن ليست بالقصيرة؟

فما كان من سليمان عليه السلام إلا أن توجه بالشكر لملك الملوك الذي هو غني عن العباد وعبادتهم وهو كما قال موسى: ﴿ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾. [إبراهيم:٨].

وكما جاء في الحديث القدسي: يقول الله تعالى: **(ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)**(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ١٢٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٣٦، وإسناده ضعيف فيه محمد بن إسحاق لم يصرح بالسماع.

(٣) صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٤ح٢٥٧٧، مسند أحمد ٥/ ١٦٠، والمستدرك على الصحيحين ٤/ ٢٦٩.

ولما جيء سليمان – عليه السلام – بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال: ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾؟ غيروا بعض أوصافه وهيئته كما يتنكر الإنسان حتى لا يعرف لينظر هل تعرف أنه عرشها أم لا !﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ ﴾ عرض عليها عرشها وقد غير ونكر وزيد فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل، ولها لُب، ودهاء، وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر فقالت: ﴿ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ ﴾ أي: يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم.[١] ثم قال سليمان ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ لقد أعطانا الله العلم والإسلام قبلها فنحن أسبق منها علما وإسلاما، وقد منعها عن عبادة الله وحده أنها كانت تعبد الشمس والقمر لسبب نشوئها بين قوم كافرين، وهذا كالاعتذار لعبادتها الشمس من دون الله.

أمر سليمان عليه السلام الشياطين فبنوا لها قصراً عظيماً من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه، ثم قال لها: ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ ﴾ أي: القصر ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ ﴾ فلما رأت ذلك القصر الذي هو أعظم من ملكها ظنته لجة ماء فشمرت عن ساقيها ظناً منها أنه ماء ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ ﴾ فما توهمته ماء ليس بماء، وإنما هو قصر أملس، مصنوع من الزجاج الصافي فلما عاينت تلك المعجزة قالت: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فأسلمت وحسن إسلامها وإنما اتخذ سليمان هذا القصر العظيم ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله، وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره وانقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم فأسلمت لله – عزوجل –[٢]

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ١٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ١٢٤، إسناده حسن، وانظر مخطوطة رسالة الماجستير بتحقيق د. نشأت من سورة النمل ص ٢٦٨ / ٣٤٤- ولم تطبع.

موت سيدنا سليمان ﷺ.

يذكر القرآن كيفية موت سليمان ﷺ وكيف أخفى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه وهي منسأته بلغة الحبشة، وظل متوكئاً على عصاه مدة عام، فلما أكلتها دابة الأرض وهي الأرضة، ضعفت وسقط على الأرض، وعلم الجن أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة.

فيقول سبحانه: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٤].

ففي الآية: دليل على أن الجن لا يعلمون الغيب، إذ لو كانوا يعلمونه ما ظلوا في السخرة هذه المدة الطويلة بعد موت سليمان ﷺ، إذ كانوا مسخرين في بناء المسجد الأقصى، ولم يكتمل هذا البناء إلا بعد موت سليمان بسنة كما ذكر المفسرون.

قال ابن مسعود: (ظل حولاً والجن تعمل بين يده حتى أكلت الأرضة منسأته فسقط ويرى أنه لما سقط لم يعلم منذ أن مات، فوضعت الأرضة على العصا، فأكلت منها يوماً وليلة ثم حسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة). [1]

قال القرطبي: وحكي أن سليمان ﷺ ابتدأ بنيان بيت المقدس وهو ابن عشرين سنة، وكان مدة ملكه خمسين سنة وابتدأ بنيان بيت المقدس في السنة الرابعة من ملكه، وقرب بعد فراغه منه اثني عشر ألف ثور، ومائة وعشرين ألف شاة، واتخذ اليوم الذي فرغ فيه من بنائه عيداً، وقام على الصخرة رافعاً يده إلى الله تعالى بالدعاء فقال: اللهم أنت وهبت لي هذا السلطان وقويتني على بناء هذا المسجد، اللهم فأوزعني شكرك على ما أنعمت علي وتوفني على ملتك، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتنى، اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجدخمس خصال: لا يدخله مذنب

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/ ١٧٨.

دخل للتوبة إلا غفرت له وتبت عليه، ولا خائفاً إلا أمنته، ولا سقيماً إلا شفيته، ولا فقيراً إلا أغنيته، والخامسة: أن لا تصرف نظرك عن من دخله حتى يخرج منه إلا من أراد إلحاداً أو ظلماً، يا رب العالمين (١).

وهذا أصح ما تقدم أنه لم يفرغ من بنائه إلا بعد موته بسنة، والدليل على صحة ذلك ما روي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: (أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاث: حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله تعالى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله حين فرغ من بناء المسجد ألا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه حتى يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه)(٢)

وهكذا نجد أن أولئك الجن الذين يعبدهم بعض الناس هؤلاء هم سخره لعبد من عباد الله، وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب، وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

هذه الآيات الكريمات هي المحور الأساسي في السورة الكريمة حيث التفاصيل التي مرت بالقارئ بين نبي الله سليمان ﷺ وملكة سبأ التي كانت تعبد الشمس من دون الله تعالى وكيف أخبر الهدهد عنها سليمان، فأرسل اليها يدعوها إلى الله تعالى، كما فصل ذلك القرآن الكريم وماكان من أمرها.

---

(١) المرجع السابق ١٤/ ١٨٠.

(٢) سنن النسائى ٢/ ٣٤ح٦٩٣، سنن ابن ماجه ١/ ٤٥٢ح١٤٠٨، والمستدرك على الصحيحين ١/ ٨٤ح٨٣.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* اختصاص سليمان عليه السلام من النعم العظيمة لبيان عطاء الله غير المجذوذ وإظهار فضيلة سليمان عليه السلام.
* الحث على التواضع والافتقار إلى الله تعالى قصداً.
* فضيلة ملكة سبأ ومسارعتها إلى الإسلام فور ظهور الدلائل والبينات، وهكذا شأن المنصف العاقل.
* ثبوت الكرامات للأولياء، وأن الله تعالى يظهر على أيدي عباده مايشاء من خوارق العادات.

قصة نبي الله صالح عليه السلام

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟
ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ
يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا
شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ
خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟
يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع بما قبله:

بعد أن أفاضت السورة في ذكر ما خص الله به نبيه الكريم سليمان بن داود عليه السلام الذي وهبه الله الملك والنبوة، والذي جعل من الملك وسيلة للدعوة إلى الله والتبشير بدينه، وما كان من أمره مع ملكة سبأ (بلقيس) التي أسلمت مع قومها بدعوة الملك النبي الصالح (سليمان

عليه السلام) ذكر سبحانه قصة نبي الله صالح عليه السلام مع قومه ثمود حين بعثه الله إليهم فدعاه إلى عبادة الله وحده فانقسموا إلى فريقين مؤمن وكافر.

وهذه هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة، وقد ذكرت هنا بإيجاز دون تفصيل لأن الغرض من القصص العظة والاعتبار والتذكير والإنذار، وبيان سنة الله في إهلاك المكذبين.

كذلك لخصت قصة صالح - عليه السلام - في حقيقة واحدة: ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ فهذه هي القاعدة التي تركزت عليها رسالة السماء إلى الأرض في كل جيل، ومع كل رسول، وهذا هو المناسب للجو العام للسورة فهي إحدى السور المكية التي تحدثت عن وحدانية الله تعالى.

فيقول سبحانه ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

وثمود قبيلة من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر الرسول ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع[(١)].

فعن عبد الله بن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا لها القدور فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا عجين الإبل ثم ارتحل بهم، حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب فيه الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: (إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم)[(٢)].

وقد دعاهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وهي دعوة المرسلين جميعاً

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٦٩.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٧٣٧ ح٢٤٢٥، صحيح مسلم ٤/ ٢٢٨٦ ح٢٩٨٠.

قال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ويقول سبحانه ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

فلما دعاهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله وحده سألوه أن يأتيهم بآية فقال لهم قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به وكانوا هم الذين اقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة عينوها بأنفسهم وهي صخرة منفرده في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن تخرج لهم ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لإن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثقهم. قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله - عزوجل - فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت تلك الصخرة عن ناقة جوفاء وبراء فآمن به رئيسهم وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم. (١)

وأقامت تلك الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً وتدعه يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم قال تعالى ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القمر:٢٨].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٥٥].

وكانت تلك الناقة خلقاً عظيماً ومنظراً رائعاً إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم واشتد تكذيبهم لصالح النبي - عليه السلام - عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال: أنهم اتفقوا كلهم على قتلها ويشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾ [الشمس: ١٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٧٠.

وقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ ﴾ [الإسراء: ٥٩].

فدل ذلك على رضى الجميع بذلك فكأنهم عقروها جميعاً. (١)

وقد أنعم الله على ثمود نعماً عظيمة فكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً عظيمة تناسب أعمارهم الطويلة هذا إلى جانب الزروع والنخيل والجنات التي كانوا يعيشون في رغدها فيقول سبحانه ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الشعراء ١٤٦ - ١٤٩].

ومع كل هذه النعم لم يؤمنوا فأحياناً ينسبونه إلى السحر فيقول سبحانه ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء ١٥٣- ١٥٤].

وتارة يسخرون منه فيقول سبحانه ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [هـود:٦٢].

وتارة يستهزؤن بأتباعه فيقول سبحانه ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأعراف ٧٥-٧٦].

وتارة يتشاءمون منه فيقول سبحانه ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

فكانوا يظنون أنهم سبب ما حل بهم من قحط وجوع فكانوا يتشاءمون منه ومن أتباعه، فأمره الله عز وجل أن يقول لهم: طائركم عند الله فليس ما حل بكم من بلاء بسببنا، بل هو بشؤم أعمالكم وبكفركم وإجرامكم، فليس لنا دخل فيه فإن الله كتب الشقاء والبلاء على من كفر

---

(١) المرجع السابق ٣/ ٢٧٠.

وكذب بآيات الله وهذا كما حكى القرآن عن قوم فرعون: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وكما حكى كذلك عن كفار مكة عندما تشاءموا بالنبي ﷺ في قوله تعالى ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٨].

وحتى هذه اللحظة ترى الذين يهربون من الإيمان بالله ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه لأنهم قد انتهوا إلى حد من العلم لا يليق معه إلى خرافة الدين !

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا بدينه ولا بغيبه، نراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم ١٣، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم إلى آخر هذه الخرافات الساذجة ذلك أنهم يعاندون حقيقة الفطرة فلما قالوا ذلك رد عليه صالح بأن حظكم ومستقبلكم ومصيركم عند الله، والله قد سن سنناً وأمر الناس بأمور، وبين لهم الطريق المنير فمن اتبع سنة الله وسار على هداه فهذا هو الخير بدون حاجة إلى زجر الطير، ومن انحرف عن السنة وحاد عن الطريق المستقيم فهذا هو الشر بدون حاجة إلى زجر الطير [1].

ثم تخبرنا الآيات بعد ذلك عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح، وقد وصفهم القرآن بأنهم أشقياء فيقول سبحانه ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾ [الشمس: ١٢].

فيقول سبحانه ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

فقد اتفق هؤلاء الأشقياء الذين عقروا الناقة وهم الذين ذكرهم الله بقوله ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي: تسعة أشخاص حلفوا بالله بأن يبيتوه في أهله، ويقتلوه ليلاً غيلة، ثم ينكروا أمر القتل ولكن الله تعالى العليم الخبير كان لهم بالمرصاد، فقد أهلك هؤلاء الطغاة المجرمين بالصيحة بحجارة، ودمرهم بها ونجا صالحاً ومن كان معه من المؤمنين فيقول سبحانه ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٤٥.

مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ فقد جعل الله عليهم الدائرة، (يروى أنهم بعد ما عقروا الناقة قالوا: هلموا فلنقتل صالحاً فإن كان صادقاً فقد عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبيتوه في أهله، فقذفتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رموا بالحجارة وماتوا فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثم هموا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح فقالوا لهم: والله لا تقتلوه أبدا وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث فإن يك صادقا فلا تزيدوا رأيكم غضباً وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم). [١]

ولكن الله من ورائهم محيط جعل تدميرهم في تدبيرهم فيقول سبحانه ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ فمكرهم معروف وهو ما أخفوه من تدبير القتل لصالح عليه السلام وأهله ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون [٢].

فلما دبروا قتل صالح أرسل الله الملائكة عليهم رضختهم بالحجارة قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث وجوههم مسودة ثم أصبحوا في اليوم الرابع منتظرين لعقاب الله – عياذاً بالله تعالى من ذلك – لا يدرون ما يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب.

ولما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت أرواحهم وزهقت النفوس في ساعة واحدة يقول سبحانه ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[٣] [الأعراف:٧٨].

وقال سبحانه ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ١٢٧.
(٢) الكشاف للزمخشري ٣/ ٣٧٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٢٧١.

يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هـود: ٦٧-٦٨].

وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الحجر: ٨٣-٨٤].

فما أغنى عنهم ما كانوا يستغلونه من زروع ونخيل وبيوت فارهة ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾. فانظر يا محمد إلى أولئك الظالمين كيف دمرهم الله - عزوجل - فأصبحت بيوتهم خربة بعد أن كانت عامرة، فما أغنى عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى لماجاء أمرهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وهكذا ختمت الآية بالعلم الذي ركزت عليه السورة في أكثر من آية في مضمونها ثم يأتي المشهد المقابل لهلاك الظالمين وهو النجاة للفريق المؤمن فيقول سبحانه﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ نجا الله صالحاً ومن آمن معه ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [هـود: ٦٦].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

وهذه أيضاً قصة سيقت للعظة والاعتبار كسابقتها من القصص إلا أن هذه القصة كانت أكثر دلالة على عاقبة أولئك الذين كادوا لنبيهم وأرادوا الإيقاع به، لكن الله جل جلاله حال دون مايريدون، فكان تدبيرالله تعالى أدق وأسرع من كيدهم، وهكذا يكون العقاب الأبلغ في المجرمين.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* أن الله ينصر عبادة المؤمنين من الأنبياء والصالحين ولو بعد حين ويفرج عنهم من حيث لايحتسبون.
* أن عاقبة الظلم وخيمة، ولو تأخرت عقوبة الظالمين، فإنها واقعة بهم لامحالة.

قصة لوط عليه السلام

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ
شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟
أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع بما قبله:

بعد أن ذكر الله عزوجل قصة ثمود وتكذيبهم لنبي الله صالح - عليه السلام - وما آل إليه مصيرهم من الهلاك والتدمير مضت الآيات بعد ذلك لتذكرنا قصة قوم لوط - عليه السلام - في عجالة قصيرة أيضاً، وذلك على سبيل العظة والاعتبار لقريش الذين كذبوا النبي ﷺ حتى يعتبروا مما حدث بالأمم السابقة.

وهذه الحلقة القصيرة من قصة لوط تجئ مختصره، تبرزفعل قوم لوط بإخراجه، لأنه أنكر عليهم الفاحشة الشاذة التي كانوا يأتونها عن إجماع واتفاق وتعارف وعلانية، فاحشة الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال، وترك النساء، على غير الفطرة التي فطر الناس عليها بل عامة الأحياء. وهي ظاهرة غريبة في تاريخ الجماعات البشرية، فقد يشذ أفراد لأسباب مرضية نفسية أو لملابسات وقتيه فيميل الذكور لإتيان الذكور وأكثر ما يكون هذا في معسكرات الجنود حيث لا يوجد النساء، أو في السجون التي يقيم فيها المسجونون فترات طويلة معرضين لضغط الميل الجنسي، محرومين من الاتصال بالنساء، أما أن يشيع هذا الشذوذ فيصبح هو القاعدة في بلد بأسره، مع وجود النساء وتيسير الزواج، فهذا هو الحادث الغريب حقاً في تاريخ الجماعات البشرية ! (١).

لقد جعل الله من الفطرة ميل الجنس إلى الجنس الآخر، لأنه جعل الحياة كلها تقوم على قاعدة

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٤٧.

التزاوج فقال سبحانه ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يسن:٣٦] فجعل الأحياء كلها أزواج سواء النبات والإنسان وما لا نعلمه، ولما كان التزاوج هو ناموس الكون، فقد جعل التجاذب بين الزوجين هو الفطرة التي لا تحتاج إلى تعليم، ولا تتوقف على تفكير، ومن ثم يكون عجيباً أن تنحرف الفطرة الإنسانية انحرافاً جماعياً، كما حدث في قوم لوط بدون ضرورة دافعة إلى عكس اتجاه الفطرة المستقيم ولهذا وجههم لوط عليه السلام بالإنكار عليه فيقول سبحانه: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ ولوط هو ابن هاران بن آزر ابن أخي ابراهيم عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عزوجل ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المأثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور دون الإناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله. (١)

فيقول سبحانه ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأعراف:٨٠-٨١].

وقال منكراً عليهم فعلتهم الشنيعة فيقول سبحانه ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

وقال سبحانه: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ ﴾ [العنكبوت:٢٩]

فماذا كان جواب أولئك السفهاء؟ فقد كان جوابهم أقبح من الذنب:

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٢٧٢.

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: اطردوا لوطاً وأهله ومن معه من المؤمنين من بلدكم، وأخرجوهم من أوطانكم وسبب هذا القرار الظالم أنهم أناس يتنزهون عما نفعله من إتيان الرجال في الأدبار، عجباً لهؤلاء السفهاء!! لقد صارت الرذيلة فضيلة في نظرهم، وصار من لا يفعل الرذيلة مجرماً يجب أن يعاقب بالطرد والإبعاد من وطنهم، وصارت النجاسة طهارة، والقذارة شرفاً يفخر به الإنسان، هذا هو منطق السفهاء في كل زمان ومكان، يسخرون ممن يجتنب القاذورات والموبقات ويعدونه متخلفاً (رجعياً) لأنه لا يساير الناس في أهوائهم، وأما من غرق في الفسوق والمجون إلى الآذان، وسخط إلى درجة الحيوان، فهو الإنسان الألمعي المتقدم الذي يسمونه (تقدمياً) وما أكثر ما نسمع في عصرنا من يسخر من الشباب المسلم المستمسك بدينه، المحافظ على آداب الإسلام الذي أبى الإنحراف مع الشهوات الدنيئة، من نساء، وخمور، وفجور، ويعينهم من البله الذين لم يعرفوا طعم الحياة، ويصفونهم بألفاظ قبيحة، يقولون أنهم (رجعيون، متأخرون متزمتون) تماما كما قال قوم لوط عن المؤمنين الشرفاء: ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾.

فما أشبه الليلة بالبارحة، وقد كانت عاقبة قوم لوط وخيمة، فقد دمر الله ديارهم، وقلب عليهم مساكنهم، فجعل عاليها سافلها، وأرسل عليهم حجارة من السماء، كالمطر الزاخر فأهلكهم عن بكرة أبيهم، فلم تبق منهم عين تطرف، ولم يبقى لهم ذكر ولا أثر، وجعل الله عذابهم عبرة لمن اعتبر فيقول سبحانه ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هـود: ٨٢-٨٣].

فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات كما يقول سبحانه ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم: ٥٣].

قال السدي: لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبعة أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء فسمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم،

ومن لم يمت منهم أمطر الله عليهم الحجارة فقتلهم. [١]

ونجى الله عزوجل لوطاً وأهله إلا امرأته كانت مع أولئك الهالكين، وذلك لأنها كانت مع قومها على زوجها، وكلما جاءه ضيف كانت تخبر قومها ليأتوا الضيفان ليراودوهم عن نفسهم كما حكى القرآن الكريم ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ ﴾ [هـود:٧٨].

ونجى الله لوطاً ومن معه من المؤمنين فيقول سبحانه ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾. أي: الهالكين. وقال تعالى ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٣٥- ٣٦].

وقد أمر الله لوطاً أن يسير بأهله ليلاً، ويمشي هو خلفهم ليكون أحفظ لهم فيقول سبحانه ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الحجر: ٦٥-٦٦].

وهكذا كانت نهاية قوم لوط هذه النهاية الأليمة جزاءاً وفاقاً على فعلتهم القبيحة، واختلف العلماء في عقوبة اللائط:

فذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، وروي عن الشافعى أنه يرجم سواء أكان محصناً أم لا [٢]

والأولى هو قتله، والحجة في ذلك ما روي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به) [٣].

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ١٤٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٢٧٨.

(٣) مسند أحمد ١/ ٣٠٠ح٢٧٢٧، شعب الإيمان ٤/ ٣٥٧.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

وههنا خبر عن قوم آخرين قارفوا الفواحش، وتنكروا لدعوة نبيهم، فضرب الله بهم أبلغ الأمثال، وأوقع بهم أشد العذاب، وليعتبر من بعدهم بهم، فكان المقطع متعانقاً مع المحور ومفصلاً له.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* دعوة جميع الأنبياء متوافقة مع الفطرة، فلايأمرون إلا بما هوطيب فطرة، كما لاينهون إلا عما تتجنبه الفطرة.

* أن أصحاب الفواحش إذا أعلنوها وتوافقوا عليها استحقوا عذاب الله عليهم.

البراهين الدالة على وحدانية الله

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ
لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ
أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾
أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ
رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ
بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

بعد استعراض حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط - عليهم السلام - وهذا الختام متصل بمطلع السورة في الموضوع، والقصص بينهما متناسق مع المطلع والختام، كل قصة تؤدي جانب من جوانب الغرض الذي يعالجه سياق السورة كلها.

وهو يبدأ بحمد الله وبالسلام على من اصطفاهم من عباده من الأنبياء والرسل، ومنهم الذين ورد قصصهم من قبل يفتح بذلك بالحمد وهذا السلام جولة عن العقيدة، جولة في مشاهد الكون وأغوار النفس، وأطواء الغيب، وفي أشراط الساعة ومشاهد القيامة، وأهوال الحشر الذي يفزع لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله. (١)

وفي هذه الآيات يوقفهم أمام مشاهدات في صفحة الكون، وفي أطواء النفس، لا يملكون إنكار وجودها، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق سبحانه. ويتوالى عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة، تأخذ عليهم أقطار الحجة، وأقطار المشاعر وهو يسألهم أسئلة متلاحقة: من خلق السماوات والأرض؟ من أنزل من السماء ماءاً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة؟ من جعل الأرض قراراً؟ وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء؟ من يجعلكم خلفاء الأرض؟ من يهديكم في ظلمات البر والبحر؟ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته؟ ومن يبدأ الخلق ثم يعيده؟ من يرزقكم من السماء والأرض؟ وفي كل مرة يقرعهم بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾

وهم لا يملكون بهذه الدعوى أن يقولوا: إن إلهاً مع الله يفعل كل شيء، وهم مع هذا يعبدون أرباباً من دون الله. (٢)

ثم تمضي الآيات إلى عرض مشهد الحشر وما فيه من هول وفزع، ويرجع بهم في ومضة

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٥٤.

(٢) المرجع السابق.

خاطفة إلى الأرض، ثم يردهم إلى الحشر، وكأنما يهز القلوب هزاً عنيفاً. ثم في النهاية يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم بعد أن قدم الأدلة والبراهين على وحدانية الله ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ ﴾.

ثم يختم الجولة بالحمد لله كما ابتدأها بالحمد له وحده، ويتركهم وآيات الكون ومشاهده التي تدل على وحدانية الله وربوبيته ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٩٣ ﴾.

البرهان الأول:

فبعد أن ذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ قصص المرسلين مع أقوامهم، وما لاقوه من إيذاء وتكذيب، وصبرهم في تبليغ الدعوة إليهم، أثنى الله ـ عزوجل ـ عليهم هذا الثناء العاطر، وخصهم بالسلام والإكرام عن رب العزة والجلال، لينبه على فضلهم وعظيم أجرهم فقال سبحانه ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ ﴾ تهكم وسخرية وتقريع وتوبيخ لأولئك المشركين الضالين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى، هي جمادات لا تسمع ولا تنفع، ولا تغني عن عابدها شيء فيقول سبحانه﴿ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾؟

هل الخالق المبدع الحكيم خير أم الأوثان التي عبدوها من دون الله؟ وهل فيها من صفات إله الحق، ما تستحق به أن تسوى بينها وبينه في الألوهية والربوبية؟ وهو تهكم لاذع، فيه سخرية واستهزاء بعقول المشركين لا يطلب منهم الجواب ولا يريده غيره لأنهم كانوا مقرين بأن هناك إلهاً خالقاً لهذا الكون، ولكنهم أشركوا معهم غيره فيقول سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ ﴾ [العنكبوت:٦٣].

فهم معترفون ومقرون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه

غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، ثم يسوق سبحانه الدلائل الصارخة من الكون على وحدانيته وقدرته على الخلق والإيجاد، وهي مشاهد يرونها بأعينهم حتى يجعلهم يقروا بأنه الخالق الواحد، وهذا دائماً هو أسلوب القرآن الكريم في خطاب المشركين يسوق الدلائل في سورة استفهام إنكاري توبيخي، فنجد في سورة المؤمنون قوله تعالى ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[المؤمنون: ٨٤-٨٩].

فها هو يأمر بالتفكر في الكون حتى يجعلهم يقروا بأنه لا خالق ولا مبدع إلا الله سبحانه وتعالى ويقول سبحانه ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[القصص: ٧١-٧٢].

فيأمرهم بالتبصر في أحوالهم، والله جعل الليل ليسكنوا فيه والنهار للمعاش فكيف بهم إذا انقلب الأمر وصار النهار دائماً أو الليل دائماً ويقول سبحانه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [السجدة:٢٧].

فيأمرهم بالنظر في الماء الذي يسوقه الله إلى الأرض اليابسة الجامدة التي لا نبات فيها.

ويقول سبحانه ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ: ٢٤]. فمن ذا الذي يرزقكم من السماوات والأرض؟ من الذي يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السماوات ومن المطر ومن الشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع؟ ومن الأرض من الماء والنبات؟ فلا يمكنهم أن يقولوا هذا فعل آلهتنا؟ وهكذا نجد أن هذا هو نهج القرآن عندما يخاطب المشركين يقدم لهم البراهين

الدالة على وحدانية الله فما هو مشاهد وواقع كما في هذه السورة فقدم هنا خمسة براهين على وجوده سبحانه ووحدانيته.

أما الأول فيقول سبحانه ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾.

فالسماوات والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد إنكار وجودها ولا يملك كذلك أن يدعى أن هذه الآلهة المدعاة خلقتها، وهي أصنام أو أوثان، أو ملائكة وشياطين، أو شمس أو قمر، فالبداهة تصرخ في وجه هذا الادعاء، ولم يكن أحد من المشركين يزعم أن هذا الكون قائم بذاته كما وجد من يدعي مثل هذا الادعاء المتهافت في القرون الأخيرة ![1].

فكان مجرد التذكير بوجود السماوات والأرض، والتوجيه إلى التفكر فيمن خلقها كفيلاً بإلزام الحجة ودحض الشرك، وإفحام المشركين، وما يزال هذا السؤال قائماً، فإن خلق السماوات والأرض الذي يبدو فيه القصد ويتضح فيه التدبير، ويظهر فيه التناسق المطلق الذي لا يمكن أن يكون مصادفة، ملجئ بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد، الذي تتضح وحدانيته بآثاره.[2]

ثم يقدم لهم لمحة أخرى من واقعهم أيضاً، وهو الماء النازل من السماء وهو أمر مشاهد ملموس ولا يمكن لأحد أن ينكره فهو يوجه قلوبهم وأبصارهم إلى آثار ذلك الماء ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾.

لقد أنبت الله لكم الحدائق الجميلة التي تسر الناظر وتبعث في نفسه البهجة والنشاط، فتأمل هذه البهجة والجمال الناضر الحي الذي يبعثها كفيل بإحياء القلوب، وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل أيضاً بتمجيد الصانع الذي أبدع كل شيء خلقه.

فإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر، وإن تموج

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٥٦.

(٢) المرجع السابق ٥/ ٢٦٥٦.

الألوان، وتداخل الخطوط، وتنظيم الوريقات للزهرة الواحدة ليبدوا معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث فضلاً عن معجزة الحياة النامية في الشجر، وسر الحياة لا يزال مستغلقاً على الناس سواء في النبات أم في الحيوان أم في الإنسان[1].

فمع التطور العلمى الهائل لا يستطيع البشر أن يقفوا على حقيقة الحياة وسرها.

قال القرطبي وقد يستدل بهذه الآية على منع التصوير لشيء كان له روح أم لم يكن، وهو قول مجاهد[2] ويعضده قوله ﷺ: (قال الله عزوجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقى فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة)[3].

فعم بالذم والتهديد والتقبيح كل من تعاطى تصوير شيء مما خلقه الله، وضاهاه في التشبيه في خلقه، وقد ذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والإكتساب به وقد قال ابن عباس للذي سأله أن يصنع الصور: (إن كنت لابد فاعلاً فاصنع الشجرة وما لا نفس له)[4].

ثم يهجم عليهم بالسؤال ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾؟

أإله مع الله يستحق العبادة، لا مفر من الإقرار له بالوحدانية، ومع هذا هم يسوون آلهتهم المدعاة بالله سبحانه فيعبدونها من دون الله فيقول سبحانه: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾.

البرهان الثاني:

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٥٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٤٧.

(٣) صحيح البخاري ٦/ ٢٧٤٧/ ح ٧١٢٠، صحيح مسلم ٣/ ١٦٧١ح ومسند أحمد ٢/ ٢٣٢.

(٤) صحيح مسلم ٣/ ١٦٧٠ح ٢١١٠، ومسند أحمد ١/ ٣٨٠ح ٢٨١١.

ثم ينتقل بهم إلى حقيقة كونية أخرى، وهي الهيئة التي خلق الله عليها الأرض لتكون صالحة للحياة مستقرة ثابتة لا تتحرك، وجعل لها وضعاً معيناً من الشمس والقمر بحيث لو تغير وضعها أو تغير شكلها، أو تغيرت عناصرها المحيطة في الجو بها، أو تغيرت سرعة دورانها حول نفسها أو حول الشمس أو حول القمر، لو تغير شيء من هذا لما كانت الأرض صالحة للحياة.

وربما لم يكن المخاطبين إذ ذاك يدركون من قوله ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾؟كل هذه العجائب، ولكنهم كانوا يرون الأرض مستقرة صالحة للحياة على وجه الإجمال، ولا يملكون أن يدعوا أن أحداً من آلهتهم كان لهم شرك في خلق الأرض على هذا المنوال، وهكذا نجد أن النص بقي بعد ذلك مفتوحاً للأجيال، وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئاً من معناه الضخم المتجدد على توالي الأجيال، وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول، على توالي الأزمان فهو صالح لكل زمان ومكان. (١)

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها في خلالها وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه.

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾ ثم هو سبحانه بعد أن خلق الأرض وجعل فيها الأنهار جعل فيها الرواسي وهي: الجبال الشامخات التي تثبت الأرض، وتحافظ عليها من أن تميد بمن فيها. ثم بعد ذلك تذكر الآية مشهداً آخر من مشاهد الكون ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أي: جعل بين البحر الملح الأجاج، والنهر العذب الفرات مانعاً يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٥٧.

فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً يسقى الحيوان والنبات والثمار منها، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً لئلا يفسد الهواء بريحها [1] كما قال تعالى ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الفرقان٥٣].

﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ ﴾؟

وما يملك أحد أن يدعي هذه الدعوى، ووحدة التصميم أمامه تجبره على الإعتراف بوحدة الخالق ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وهنا يذكر العلم لأن هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتدبر السنة فيها والناموس، ولأن التركيز في السورة كلها على العلم كما ذكرت سابقا. [2]

البرهان الثالث:

ثم تنتقل الآيات من مشاهد الكون إلى خاصة أنفسهم:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾. فيلمس وجدانهم، وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم وواقع أحوالهم فالمضطر في لحظات الكرب والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله، يدعوه ليكشف عنه ما به من ضر فهو سبحانه المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ ﴾ [الإسراء:٦٧].

وقال سبحانه ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]. وهو هنا يقول ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ من الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه.

فالمضطر في لحظات الضيق لا يجد مأوى ولا ملجأ إلا إلى الله حين تضيق الحلقة، وتشتد

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٣٠.

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٥٨.

الخنقة، وتتخاذل القوى، وينظر الإنسان فلا يجد أسباباً للخلاص والنصر ولا قوة في الأرض تنجده، وكل ما كان يعده لساعة الشدة تخلى عنه في هذه اللحظة فتستيقظ فيه الفطرة ويلجأ إلى الله الذي هو وحده القادر على أن يكشف ضره.

فعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في دعاء المضطر: (اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت) [١].

وقد ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجوء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عمن سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة، وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ ﴾[يونس:٢٢]

وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٥].

فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم وقال تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥ ﴾ العنكبوت:٦٥].

وكذلك يجيب دعوة المظلوم فقد قال ﷺ لمعاذ حين وجهه إلى اليمن: (واتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب)[٢]

وقال ﷺ: (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده)[٣]

---

(١) سنن أبى داود ٤/ ٣٢٤ح٥٠٩٠، صحيح ابن حبان ٣/ ٢٥٠ح٩٧٠، والمستدرك على الصحيحين ١/ ٧٣٠ح٢٠٠٠.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٥٤٤ح١٤٢٥، صحيح مسلم ١/ ٥٠ح١٩.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٣١٤ح١٩٠٥، صحيح ابن حبان ٦/ ٤١٦ح٢٦٩٩.

فالمظلوم مضطر، ويقرب منه المسافر، لأنه منقطع عن الأهل والوطن منفرداً عن الصديق والحميم، لا يسكن قلبه إلى مسعد ولا معين لغربته، وتصدق ضرورته إلى المولى فيخلص إليه في اللجاء، وهو المجيب للمضطر إذا دعاه، وكذلك دعوة الوالد على ولده لا تصدر منه مع ما يعلم من حنانه عليه وشفقته إلا عند تكامل عجزه عنهم وصدق ضرورته وإياسه عن بر ولده مع وجود إيذائه، فيسرع الحق تبارك وتعالى إلى إجابته [1].

ثم يلمس مشاعرهم بما هو واقع في حياتهم فقال تعالى ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ يخلف قرناً لقرن قبلهم وخلفاً لسلف كما قال تعالى ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [الأنعام:١٣٣]. وقال سبحانه ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الأنعام:١٦٥].

وقال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠]. أي: قوماً يخلف بعضهم بعضا وهكذا في هذه الآية ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أي: أمة بعد أمة، وجيل بعد جيل، وقوماً بعد قوم، ولو شاء سبحانه لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض ولكن اقتضت حكمته سبحانه وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ثم يكثرهم غاية الكثرة ويذرأهم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون، وأمماً بعد أمم حتى ينقضي الأجل، وتفرغ البرية كما قدر ذلك سبحانه، ثم يقيم القيامة ويوفى كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله.

ولهذا قال تعالى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣/ ١٤٩.

أيقدر أحد على ذلك أو هناك إله معبود سوى الله؟ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم (١).

البرهان الرابع:

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾.

فالناس - ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن - يسلكون فجاج البر والبحر في أسفارهم، ويسبرون أسرار البر والبحر في تجاربهم، ويهتدون فمن يهديهم؟ من أودع كيانهم تلك القوى المدركة؟ من أقدرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات والمعالم؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون وطاقاتهم بأسراره من جعل لآذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات ولعيونهم القدرة على التقاط الأضواء؟ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ؟ ومَنْ يرسل الرياح؟ ومهما قيل في أسبابها الفلكية والجغرافية، تابعه لتصميم الكون الأول الذي يسمح بجريانها على النحو الذي تجري به، حاملة السحب من مكان إلى مكان مبشرة بالمطر الذي تتجلى فيه رحمة الله وهو سبب الحياة. ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٢).

البرهان الخامس:

ثم ختم تلك البراهين بما كانوا منكرين له من إعادة الخلق فقال سبحانه﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾.

فهو سبحانه الذي بدأ الخلق قادر على إعادته كما قال تعالى في آية أخرى ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) ﴾[البروج: ١٢-١٣].

أما بدأ الخلق حقيقة واقعة لا يمكن لأحد إنكارها، ولا يمكن تعليلها بغير وجود الله

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٣٢.

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ٥٢/ ٢٦٥٩.

ووحدانيته، فوجود الكون على هذا النظام الدقيق والتدبير المحكم، ملجئ للإقرار بوجود إله خالق واحد، وقد باءت بالفشل المنطقي كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو بغير الإقرار بوجود الله ووحدانيته، وأما إعادة الخلق فهذه التي كانوا يجادلون فيها ويمارون فالإقرار ببدء الخلق على هذا النحو ملجئ كذلك للتصديق بإعادة الخلق، ليلقوا جزاءهم الحق على أعمالهم في دار الفناء، وهذا لا يتم في الحياة الدنيا، فلابد من التصديق بحياة الآخرة يتحقق فيها التناسق والكمال، ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[١]

فالرزق من السماء والأرض متصل بالبدء والإعادة سواء، ورزق العباد من الأرض يتمثل في صور شتى أظهرها النبات والحيوان، والماء، والهواء، الطعام، والشراب، والاستنشاق ومنها: كنوز الأرض من معادن، وكنوز البحر من طعام وزينة، وقوى أخرى لا يعلمها إلا الله، ويكشف عن شيء منها لعباده آن بعد آن.

وأما رزقهم من السماء فلهم منه في الحياة الدنيا: الضوء، والحرارة، والمطر، وسائر ما يسيره الله لهم من القوى والطاقات، ولهم منه في الآخرة عطاء الله الذي يقسمه لهم.

والرزق من السماء والأرض متعلق بالبدء والإعادة فعلاقة رزق الأرض بالبدء معروفة فهو الذي يعيش عليه العباد، وعلاقته بالإعادة أن الناس يجزون في الآخرة على عملهم وتصرفهم في هذا الرزق الذي أعطوه في الدنيا، وعلاقة رزق السماء بالبدء واضحة فهو في الدنيا للحياة وهو في الآخرة للجزاء، وهكذا تبدو دقة التناسق في السياق القرآني العجيب)[٢].

﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وإنهم ليعجزون عن البرهان كما يعجز عنه من يحاوله حتى الآن وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٦٠.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٦٦٠.

وهكذا ساق القرآن خمسة براهين في هذه السورة الكريمة على ألوهيته جل وعلا ووحدانيته، وذلك بالخلق والإيجاد والإبداع، والرزق والإحياء، والإماتة وكلها براهين ساطعة قاطعة لا يستطيع المشركون أنفسهم أن يكابروا فيها أو يعادوا، وكل هذه البراهين مشتقة من واقع الحياة، من الطبيعة التي يعيشونها، والكون الذي يشاهدونه، فالسماء والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد إنكارها، ولا أن يزعم أن هذه الآلهة المصنوع خلقها، والماء النازل من السماء كذلك حقيقة مشهورة يستحيل إنكارها، والأنهار في الأرض هي شرايين الحياة، والجبال الرواسي هي في الغالب منابع الأنهار، والبحر الملح الأجاج، والنهر العذب الفرات، سماها بحرين على سبيل التغليب، والحاجز هو اليابسة، وهو الحاجز الطبيعي الذي يجعل البحر لا يفيض على النهر فيفسده، إذ إن مستوى سطح النهر أعلى من مستوى سطح البحر، ولو كان العكس لطغى البحر على النهر فأفسده، وأفسد الحياة على وجه الأرض، فمن فعل هذا كله؟ ومن نظم الكون بهذا النظام الدقيق البديع؟ ولهذا كان القرآن يذكر هؤلاء الغافلين، بهذه الحقائق الكونية المشاهدة، وفي كل مرة يقرعهم بهذا الخطاب التهكمى الساخر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ لينبههم إلى سخافة ما يعبدون من حجارة وأوثان، وقد أعيدت هذه العبارة خمس مرات مع كل برهان يذكره القرآن.

ففي الأولى ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

وفي الثانية ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وفي الثالثة ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

وفي الرابعة ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وفي الخامسة ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وهذه هي طريقة القرآن في الجدل حول العقيدة والإيمان، يستخدم مشاهدة الكون وحقائق النفس البشرية، فيجعل الكون كله مسرحاً للمناظر والجدل، ويقطع على الخصم

طريق الشغب، حيث يحمله ليقر بنفسه، فلا يستطيع أحد أن يقول أنا خلقت، أو الأصنام ترزق، أو تحيي أو تميت.!

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

بعد هذه الجولة في الآفاق وفي أنفسهم لإثبات الوحدانية ونفي الشرك، يأخذ معهم في جولة أخرى عن الغيب المستور الذي لا يعلمه إلا الخالق الواحد المدبر، وعن الآخرة وهي غيب من غيب الله، يشهد المنطق والبداهة، والفطرة بضرورته، ويعجز الإدراك والعلم البشري عن تحديد موعده.

والإيمان بالبعث والحشر، وبالحساب والجزاء، عنصر أصيل في العقيدة، لا يستقيم منهجاً في الحياة إلا به، فلا بد من عالم مرتقب، يكمل فيه الجزاء، ويتناسق فيه العمل والأجر، ويتعلق به القلب، وتحسب حسابه النفس، ويقيم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك. (١).

ولقد كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ، سخرياً فجاءت الآيات لتقرر أن الساعة من أمر الغيب، وأن الغيب لا يعلمه أحداً من نبي، ولا ملك، ولا بشر إنما هو من خصائص الخالق الواحد المدبر علام الغيوب، فإذا لم يخبرهم الرسول ﷺ عن وقت قيام الساعة فلا ينبغي أن يكون هذا مجالاً للطعن في رسالته، والشك في صدق ما أخبرهم عنه من أمور الآخرة، ولهذا قال تعالى ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾.

فهو سبحانه وحده المختص بعلم الغيب، والآخرة كذلك أمر غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله قال تعالى ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ ﴾ وقال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ والآيات كثيرة جداً في هذا. وقالت عائشة رضي الله عنها: من زعم

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٦١.

أن محمداً يعلم ما في الغد فقد أعظم على الله الفرية: والله تعالى يقول ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[1]

وهذه الآية هي نص قاطع لا تبقي بعده دعوى لمدعي، ولا يبقى معه مجال للوهم والخرافة، ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ وما يشعر الخلائق الساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة فإذا لم يعرف الرسول ﷺ، وقتها فلا يقدح ذلك في رسالته ودعوته ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي انتهى علمهم وعجزوا عن معرفة وقتها، وقرأ آخرون ﴿ بَلِ أَدْرَكَ ﴾ من الإدراك أي: تساوى علمهم كما في الحديث (إن رسول الله ﷺ قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة: ما المسئول عنها بأعلم من السائل)[2]. أي تساوى في العجز عن معرفة وقتها، وقيل أدرك بمعنى غاب، ثم تبين الآية حالهم ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ بل هم يشكون في الآخرة بل هم في عمى عنها، ليس لهم بصيرة يدركون بها الأشياء لأنهم كالبهائم والأنعام، لا يتبصرون ولا يتدبرون كما قال سبحانه ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

مناسبة المقطع لمحور السورة:

أن ماذكره الله تعالى في المحور كان يومي بإشارات لاخفاء فيها حيث جمع القرآن العظيم مابين ماقصه من الأمور التاريخية البحتة، وعاقبة أولئك الذين كذبوا رسل الله، وما آل اليه مصيرهم من دمار لهم ولبنيانهم، ثم أعقب ذلك محاجة المعاندين والمكابرين وذلك بطلبه للأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، ليدل على المقصود مما هو مطلوب منهم.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* بيان القدرة الإلهية فيما خلق وأوجد جل في عُلاه.

(١) صحيح مسلم ١/ ١٥٩ ح١٧٧، وسنن الترمذي ٥/ ٢٦٢ح٣٠٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٧٩٣ح٤٤٩٩، صحيح مسلم ١/ ٣٧ح٨.

* حث الخلق وخاصة المنكرين منهم على قدر الله حق قدره لأنه الأول في كل شيء.
* إنصاف الخلق لأنفسهم وذلك بالإيمان بوجود الخالق الموجد لهم.
* التحدي الواضح لأولئك المدعين بأن مع الله خالقاً آخر أن يأتوا ببرهان ذلك، ولكن دون ذلك خرط القتات فلاخالق إلاّ الله، ولاموجد إلاّالله، تعالى الله عمايقول الظالمون علّواً كبيراً.

إنكار المشركين للبعث، والرد عليهم

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ
وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي
ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

تبين الآيات بعد ماسبق موقف أولئك الكفار الذين كانوا يسألون عن وقت الساعة مع أنهم منكرون لها، ومنكرون للبعث والنشور، مستبعدين الحياة بعد موت الأجساد، وبعد أن تصير رفاتاً وتراباً فيقول سبحانه ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

فذكر سبحانه الشبهات التي أوردها المشركون حول البعث والنشور، وأراد فيها بذكر الدلائل القاطعة وذكر بعض الأهوال التي تكون بين يدى الساعة.

ومسألة البعث والنشور من أعقد المسائل في نظر المشركين من كفار مكة، وهي عقدة

المنكرين للبعث والنشور من ملاحدة العصر !! يقولون: أإذا فارقتنا الحياة، وبليت أجسادنا، وتناثرت أشلاؤنا، فأصبحت ذرات مختلطة بتراب الأرض، هل سنرجع إلى الحياة مرة أخرى؟

يقولون هذا وتوقف هذه الصورة المادية بينهم وبين تصور الحياة الأخرى، وينسون أنهم خلقوا أول مرة ولم يكونوا من قبل شيئاً، ولا يدري أحد أين كانت الخلايا والذرات التي تكونت منها هياكلهم الأولى، فلقد كانت مفرقة في أطواء الأرض وأعماق البحار وفي الفضاء ولكنهم هكذا كانوا يقولون، وبعضهم ما يزال يقوله اليوم مع شيء من الإختلاف، ثم يتبعون هذه القولة الجاهلة المطموسة بالتهكم والاستنكار [1].

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

مستبعدين الإعادة، وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخباراً عنهم ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ [النازعات: ١١-١٤].

وقوله سبحانه ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[يس: ٧٧-٧٩]. فهم كانوا يعرفون أن الرسل أنذروا آباءهم بالبعث والنشور، مما يدل على أن العرب لم تكن أذهانهم خالية من العقيدة، ولا غفلاً عن معانيها، إنما كانوا يرون أن الوعود لم تتحقق منذ بعيد، فيبنون على هذا استهتارهم بالوعد الجديد قائلين: إنها أساطير الأولين، غافلين أن للساعة موعداً لا تتقدم عنه ولا تتأخر إنما تجئ في الوقت المحدد لها، ولقد قال رسول الله ﷺ لجبريل - عليه السلام - وهو يسأله عن الساعة: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)[1] .

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٦٢.

وأما هذه السخرية والإستهزاء بالعذاب الذي كان يخوفهم به رسول الله ﷺ يأتي دور الوعيد والتهديد للمكذبين، والتسلية للرسول ﷺ لئلا يأسف ويحزن عليه فيقول سبحانه مسلياً له -ﷺ- ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

فهنا يأمر أولئك المشركين بالنظر، والتدبر في أحوال من مضى ومصارعهم التي يمرون عليها كقرى قوم لوط، وآثار قوم ثمود في الحجر، وآثار عاد في الأحقاف، ومساكن سبأ بعد سيل العرم، وما حدث لهؤلاء سوف يحدث لمن يكذب من المشركين، فإن السنن لا تنقطع، والقرآن يأمرهم بالسير في الأرض لتتفتح أذهانهم ويعيشوا حياة متصلة الأوشاج متسعة الآفاق.

ثم يوجه نبيه ﷺ ألا يحزن على أولئك المشركين، ولا يضيق صدره بمكرهم فإنهم لن يضروه شيئاً فقد أدى واجبه تجاههم، وأبلغهم دعوة الله إليهم وإن الله ناصرك ومؤيدك.

ثم تمضي الآيات في سرد استهزاءهم واستهتارهم بالبعث والنشور فيقول سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

ثم يأتيه الرد على هذا السفه: ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ أي: لعل الذي تستعجلون به من العذاب قدرنا وقرب منكم بعضه، والرديف هو الشخص الذي يكون خلف الراكب، وهو تمثيل لقرب العذاب منهم، وكأن العذاب خلف ظهر الراكب وهم لا يشعرون.

ومن يدري فالغيب لا يعلمه إلا الله، فقد يكون العذاب على قيد خطوات ما يذهل وما يهول، وإنما العاقل من يحذر.

ثم تبين الآيات فضل الله على عباده في تأخير العقوبة، وإدرار الرزق عليهم، وهم مذنبون أو مقصرون، مع علمه - سبحانه - بما تكن صدورهم وما تعلنه ألسنتهم وأفعالهم، ولكن

أكثر الناس لا يشكرون على هذا الفضل فيقول سبحانه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ثم تختم هذه الآيات ببيان علم الله الشامل الذي لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض فالله تعالى يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ وقال تعالى ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرعد: ١٠].

وقال تعالى ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طـه: ٧]. وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج: ٧٠].

وإن الفكر ليجول في السماء والأرض وراء كل غائبة من شيء، ومن سر، ومن قوة، ومن خير، وهي مقيدة بعلم الله سبحانه الذي لا تغيب عنه غائبة فيقول سبحانه ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

هو بيان لعاقبة الظالمين المنكرين لخبر الله تعالى فيما أخبر عنه مما سيكون يوم القيامة من أهوال وأمور تلحق بالجاحدين، وفيه أعظم العظة والاعتبار، وهو عين محور السورة.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* بعد كل ماسبق من آيات الله الكونية كان التكذيب بالبعث جريمة شنيعة من هذا الإنسان الملحد المكابر.
* أن الله سبحانه حليم ذو فضل على الخلق يرزقهم وهم به كافرون، ويحلم عليهم وهم بآياته مكذبون.

إخبار القرآن الكريم عن أنباء السابقين

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لما قبله:

وبمناسبة الحديث عن علم الله الشامل، الذي لا تغيب عنه غائبة إلا وقد أحاط بها وبأصحابها علماً، يأتي الحديث عن القرآن، وما فيه من فصل الخطاب، فيما اختلف فيه بنو اسرائيل، وهو في أنبائه وأخباره عما في كتب السابقين أعظم شاهد على صدق محمد ﷺ، فمن أين لرسول الله – النبي الأمي – أن يخبرهم عما في كتبهم من التحريف والتبديل، وأن يبين لهم ما وافق الحق وما خالفه منها، لو لم يكن نبياً صادقاً يوحى إليه من عند الله؟

هيمنة القرآن الكريم على الكتب السابقة، وبيان الاختلاف الجوهري الخطير في معتقداتهم وبيان القول الصواب فيه

يقول سبحانه ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

فالقرآن الكريم بما فيه من الهدى والبيان يقص على بني اسرائيل - وهم حملة التوراة والإنجيل – أكثر الذي هم فيه يختلفون، فالنصارى اختلفوا في المسيح وأمه فقالت جماعة: إن المسيح إنسان محض، وقالت جماعة إن الأب والابن والروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس فالله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة، الأب والابن والروح القدس (فالابن هو عيسى) وقالت جماعة إن الابن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم ولذلك هو دون الأب وخاضع له.

فجاء القرآن الكريم ليقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعاً فقال عن المسيح ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا

عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٩].

كما اختلفوا كذلك في مسألة صلبه فمنهم من قال: أنه صلب حتى مات ودفن ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء، ومنهم من قال إن يهوذا أحد حوارييه الذي خانه ودل عليه ألقي عليه شبه المسيح وصلب، وقص علينا القرآن الكريم الخبر اليقين فقال سبحانه ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال تعالى ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

والمراد بالوفاة هاهنا النوم كما قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[الزمر: ٤٢].

وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم (الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا)[١].

وأخبر ﷺ اليهود (أن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة)[٢].

وكذلك حرف اليهود التوراة وعدلوا تشريعاتها الإلهية، فجاء القرآن يثبت الأصل

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٢٦ ح٥٩٥٣، صحيح مسلم ٤/ ٢٠٨٣ح٢٧١١، سنن الترمذي ٥/ ٤٨١ح٣٤١٧.

(٢) تفسير الطبري ٣/ ٢٨٩، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٢٨.

الذي أثبته الله فيقول سبحانه ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة: ٤٥].

فإن هذا مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار.

كذلك نسبوا إلى الأنبياء عليهم السلام الأساطير التي كتبوها في التوراة فلم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفاً فيزعمون أن إبراهيم قدم امرأته لملك فلسطين، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما، ويعقوب الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده بطريق السرقة والحيلة والكذب، وداود رأى امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنوده فأرسل هذا الجندي إلى الحرب ليفوز بامرأته إلى غير ذلك من تلك الأساطير.

فجاء القرآن الكريم ليطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة فالقرآن الكريم فيه الهدى والرحمة للمؤمنين، والمنهج القرآني منهج رباني فريد، فهو يتفق مع الفطرة التي خلقها الله فهو يرحمهم من الشطط والحيرة والتخبط، بل يجعل النفوس مطمئنة بهذا المنهج، تعيش معه في أمان وسعادة لا يدركها إلا المؤمنون بالله وحده. ولذا يقول تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾[النمل٧٧: ٧٨].

ثم تمضي الآيات في تسلية رسول الله ﷺ فقد أوحى الله إليه بهذا القرآن ليبلغه لقومه وللناس أجمعين، وهو لم يقصر في دعوته، ولكنه إنما يسمع الأحياء أحياء القلوب، الذين تعي آذانهم، فتتحرك قلوبهم، فيقبلون على الناصح الأمين، فأما الذين ماتت قلوبهم وعميت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان فما له فيهم حيلة، وليس له إلى قلوبهم سبيل فيقول سبحانه ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى

اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

أي: أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك عنك مدبرون كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم بل ذلك إلى الله سبحانه فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه.

والصحيح عند العلماء أن الميت يعرف بزيارة الحي ويستبشر له وذلك لما روى من حديث عبدالله بن عمر في مخاطبته ﷺ لقتلى بدر حتى قال له عمر يا رسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا؟ فقال (والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون) (١).

وثبت عنه ﷺ أنه قال لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم بسلام من يخاطبونه فيقول المسلم: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين) وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ولولا هذا لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد(٢).

فالتعبير القرآني البديع يرسم سورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة، حالة جمود القلب، وجمود الروح، وبلادة الحس، وهمود الشعور فيخرجهم مرة في صورة الموتى، والرسول - ﷺ- يدعو، وهم لا يسمعون الدعاء، لأن الموتى لا يشعرون ! ويخرجهم مرة في هيئة الصم مدبرين عن الداعي، لأنهم لا يسمعون ! ويخرجهم مرة في صورة العمى يمضون في عماهم، لا يرون الهادي لأنهم لا يبصرون(٣).

وفي مقابل الموتى والعمي والصم، يقف المؤمنون فهم أحياء، وهم السامعون، وهم

(١) صحيح البخاري ١/ ٤٦٢ح١٣٠٤، وصحيح مسلم ٣/ ٦٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٣) في ظلال القرآن سيد قطب ٥/ ٢٦٦٦.

المبصرون فيقول سبحانه ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

إنما تسمع الذين تهيأت قلوبهم لتلقي آيات الله، بالحياة والسمع والبصر، وآية الحياة الشعور، وآية السمع والبصر الإنتفاع بما يسمع وبما يرى، فالمؤمنون هم المنتفعون بالهداية كذلك، فالإسلام دين الفطرة فما يكاد القلب السليم يعرفه حتى يستسلم له.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

وهذا المقطع يدور حول المحور نفسه من الاعتبار بقصص السابقين الذين أخبر عنهم القرآن الكريم لإرشاد الأمة وحثها على تلقي تلك الدروس الإيمانية تلقياً قوياً من مصدر الهداية، وهو وحي الله تعالى.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* أن القرآن هو مصدر الهداية، والمرجع عند الاختلاف، فحكمه الفصل ومنبره الحق.
* أن كل اختلاف وقع للسابقين واللاحقين إنما هو لتنكرهم هدى القرآن، وتنكبهم عن سبيله.

بعض علامات الساعة وبعض مشاهد يوم القيامة

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ
(٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم
بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى
ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا
جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ
فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ (٨٩) وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

بعد أن ذكر -الحق تبارك وتعالى- فضل القرآن وحكايته للأنبياء السابقين وأن فيه الهداية للمؤمنين بعد ذلك يجول بهم في جولة أخرى في أشراط الساعة وبعض مشاهدها، قبل الإيقاع الأخير الذي يختم به السورة، جولة يذكر فيها ظهور الدابة التي تكلم الناس الذين كانوا لا يؤمنون بآيات الله الكونية، ويرسم مشهداً للحشر والتبكيت للمكذبين بالآيات وهم واجمون صامتون ثم يعود بهم من هذا المشهد إلى آيات الليل والنهار المعرضون للأبصار وهم عنها غافلون، ثم يرتد بهم ثانية إلى مشهد الفزع يوم ينفخ في الصور ويوم تسير الجبال وتمر مر السحاب ويعرض عليهم مشهد المحسنين الآمنين من ذلك الفزع والمسيئين كبت وجوههم في النار[١].

---

(١) المرجع السابق ٥/ ٢٦٦٧.

فيقول سبحانه ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ والمراد بالوقوع: الدنو والاقتراب كما في قوله تعالى ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾ [النحل: ١].

أي: إذا دنا واقترب وقت قيام الساعة، ونزول العذاب بالمجرمين المكذبين، أخرجنا لهم دابة من الأرض، هي (الجساسة) لأنها تتجسس أخبار الناس، وهي من آيات الله الكبرى، ومن علامات الساعة الباهرة، لأنها تكلم الناس كلاماً فصيحاً صحيحاً، وتخاطبهم مخاطبة صريحة تقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، كما روي عن عطاء وابن عباس.

فهذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله -عزوجل- وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض، من مكة، وقيل: من غيرها، فتكلم الناس كلاماً أي: تخاطبهم مخاطبة[١]، وقد رُوي عن وهب بن منبه قال: تخرج تكلم الناس، كل يسمعها وتضع الحبالى قبل التمام، ويعود الماء العذب أجاجا، ويتعادى الأخلاء، ويرفع العلم، وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يبلغون، ويتعبون فيها لا ينالون، ويعملون فيها لا يأكلون.

وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث كثيرة منها ما روي عن ابن عمرو قال: حفظت من رسول الله حديثا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتها كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً**)[٢].

وما روي عن النبي ﷺ قال: (**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم عليه السلام والدجال، وثلاثة خسوف -يعنى خسوف الأرض- خسف بالمغرب - وخسف بالمشرق وخسف**

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٣٦.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٦٠ ح ٢٩٤١، سنن الترمذي ٤/ ٤٧٧ح٢١٨٣.

بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا)[1].

فإذا آل أمر الناس إلى أن كانوا لا يؤمنون بآيات الله المشهودة لهم، وبطل استعدادهم للإيمان بالله بالتعقل والاعتبار، فذلك وقت أن يريهم الله ما وعدهم من الآيات الخارقة للعادة، ومن هذه الآيات خروج الدابة، وقد ذكر المفسرون أحاديث كثيرة في وصف الدابة وهل هي من الإنس وغير ذلك، وهي أمور لا حاجة إلى ذكرها إذا لم يصح من هذه الأحاديث شيء، وحسبنا أن نقف على النص القرآني والحديث الصحيح الذي يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة.

صور من مشاهد يوم القيامة:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

بعد أن ذكر الحق - تبارك وتعالى - علامة من علامات الساعة وهي خروج الدابة التي تكلم الناس، جاءت الآيات بعد ذلك لتذكر بعض من مشاهد يوم القيامة، وموقف المكذبين لآيات الله ورسله، حين يقفون بين يدى أحكم الحاكمين، ويسألون سؤال تحقير وتصغير: أكذبتم بآيات الرحمن من غير دليل ولا برهان؟ وماذا كنتم تعملون في الدنيا؟ وهناك لم يكن لهم جواب إلا الصمت والخذلان، واسوداد الوجوه فيقول سبحانه ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

فهو توبيخ لهم وتقريع وتحقير كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الصافات: ٢٢]. وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾ [التكوير: ٧].

فهؤلاء يساقون كما تساق الأنعام يرد أولهم على آخرهم، حتى يتلاحقوا ويتجمعوا في موقف التوبيخ والتحقير ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ

(١) صحيح مسلم ح٢٩٠١، والترمذي ح٢١٨٤.

تَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [النمل: ٨٤].

أي: حتى إذا حضروا موقف الحساب والسؤال، خاطبهم الله تعالى بقوله: أكذبتم بآياتي التي جاء بها الرسل، من غير تفكر ولا تدبر؟ أم أي شيء كنتم تعملون في الدنيا؟

والسؤال الأول للتأنيب فمعروف أنهم كذبوا بآيات الله والسؤال الثاني للتهكم والسخرية، كأنه يقول لهم ماذا قدمتم ليومكم هذا؟ وما هي الأعمال الصالحة التي تستحقون بسببها الإكرام؟

فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة، وكانوا كما قال الله عنهم ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القيامة٣١: ٣٢]. فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به كما قال تعالى ﴿ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المرسلات ٣٥-٣٦].

وهكذا قال ها هنا: ﴿ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم الجواب لأنهم كانوا في الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية. (١)

ولما ذكر الحشر، استدل عليهم بحشرهم كل ليلة إلى الميت، والختم على مشاعرهم، وبعثهم من المنام، وإظهار الظلام الذي هو كالموت بعد النور، وبعث النور بعد إفنائه بالظلام فقال تعالى ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

وقد جعل الله الليل للراحة لتسكن النفوس، وتستريح من النصب والتعب في النهار، وجعل الله تعالى النهار للسعي وكسب المعايش، والأسفار، والتجارات، وغير ذلك من شؤونهم فالليل والنهار جزء من نظام الكون، الذي هيأه الحكيم العليم لمصالح العباد، فلو لم يكن ليل ولا نهار لانعدمت الحياة على وجه الأرض بل لو كان النهار أو الليل أطول مما هما

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٣٨.

الآن عشر مرات فقط، لأحرقت الشمس كل نبات ولتجمد في الليل كل نبات ولا استحالت الحياة على وجه الأرض ولهذا لفت القرآن أنظارهم إلى تعاقب الليل والنهار إذا هي من أعظم الآيات والدلائل على وجود الله فقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان:٤٧].

ثم تنتقل الآيات إلى مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة وهو النفخ في الصور فيقول سبحانه ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

فلما ذكر الله تعالى مشهد الحشر وموقفهم المهين بين يدى الله تعالى تنتقل الآيات إلى مشهد آخر وهو النفخ في الصور فيقول سبحانه ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

فيخبر سبحانه عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة في الصور وهو كما جاء في الحديث (قرن ينفخ فيه)[1] وفي حديث الصور أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى فينفخ فيه أول نفخة الفزع ويطولها وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على أشرار الناس من الأحياء فيفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله.

وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون[2].

ففي الحديث «قلت: يا رسول الله ما الصور؟ قال: قرن والله عظيم، والذي بعثني بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات، النفخة الأولى: نفخة الفزع،

---

(١) هذا الحديث رواه أبو داود (٢٧٤٢)، والترمذي (٢٤٣٠) وحسنه.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٣٨.

والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة البعث، والقيام لرب العالمين»، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ولهذا قال سبحانه ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ أي: طائعين صاغرين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء:٥٢].

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٥].

قال القرطبي: والسنة الثابتة من حديث أبي هريرة وحديث عبدالله بن عمرو يدل على أنهما نفختان لا ثلاث وهو الصحيح قال تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر:٦٨].

فاستثنى هنا كما استثنى في نفخة الفزع فدل على أنهما واحدة، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن كلا الأمرين لا زمان لهما أي: فزعوا فزعاً ماتوا منه، أو المراد النفخة الثانية، أي: يحيون فزعين يقولون ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يس: ٥٢] ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم، وهذا النفخ كصوت البرق لتجتمع الخلق في أرض الجزاء[(١)].

وعن أبي هريرة قال: عن النبي ﷺ قال: ما بين النفختين أربعون؟ قالوا: يا أبا هريرة؟ أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة[(٢)].

ثم استثنى سبحانه من نفخة الفزع هذه الذين لا يعتريهم الفزع إلا من شاء الله قيل: هم الشهداء لما روي عن حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: سألت جبريل عليه السلام عن هذه الآية

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣ / ١٥٩.

(٢) صحيح البخاري (٤٩٣٥).

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ من الذين لم يشاء الله تعالى أن يصعقهم؟ قال: هم شهداء الله[1].

ثم تذكر الآيات مشهداً آخر أعظم من فزع الناس وهو الجبال الجامدة الراسخة فيقول سبحانه ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

أي يحسبها الرائي ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب، أي: تزول عن أماكنها كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾[الطور:٩-١٠]. وقال سبحانه ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾[طه: ١٠٥-١٠٧] وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾[الكهف:٤٧]. وقال تعالى﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ففي هذا إشارة إلى أن هذا الصنع والفعل منه تعالى تخريب الدنيا وهدم للعالم، لكنه في الحقيقة تكميل لها وإتقان لنظامها لما يترتب عليه من إنهاء كل شيء إلى غايته وإيصاله إلى وجهته التي هو موليها من سعادة أو شقوة لأن ذلك صنع الله الذي اتقن كل شيء فهو سبحانه لا يسلب الإتقان عما اتقنه ولا يسلط الفساد على ما أصلحه ففي تخريب الدنيا تعمير للآخرة فهو سبحانه الخبير الحكيم.

ثم تبين الآيات بعد ذلك حال الناس بعد أن يحشروا وبعد أن يروا تلك الجبال التي صارت هباءاً منثوراً فيقول سبحانه ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾. وقد يبين الله تعالى في موضع آخر أن الحسنة بعشر أمثالها فيقول سبحانه ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[الأنعام: ١٦٠].

وهذه الآية مفصلة لما أُجمل في الآية الأولى ووردت أحاديث مطابقة لهذه الآية فقد روى

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٥٣ وصححه.

عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عزوجل قال: قال رسول الله ﷺ: (إن ربكم عزوجل رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عزوجل ولا يهلك على الله إلا هالك)[1].

وفي حديث عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله -عزوجل -: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئاً جعلت له مثلها مغفرة ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتانى ماشياً أتيته هرولا)[2].

قال ابن كثير[3]: واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله عزوجل - فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونية ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة كما جاء في بعض ألفاظ الحديث (إنما تركها من جرائي) أي لأجلي وتارة يتركها ناسياً وذهولاً عنها فهذا لا له ولا عليه لأنه لم ينوب خيراً ولا فعل شر وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها فهذا يتنزل منزلة فاعلها كما جاء في الحديث (إذا توجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار وقالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: (إنه كان حريصاً على قتل صاحبه)[4].

ثم تختم الآيات بأن الجزاء لابد أن يكون من جنس العمل جزاءاً وفاقاً على ما قدموه فالمؤمنون أمنوا من هذا الفزع الأكبر وهو وحده جزاء منه وفضل من الله كما قال سبحانه

---

(١) رواه أحمد ١/ ٢٧٩، وأخرجه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (١٣١) دون قوله: «إن ربكم رحيم».
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٨٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٣٤.
(٤) صحيح البخاري، ١/ ٢٠ ح ٣١، صحيح مسلم ٤/ ٢٢١٣ ح ٢٨٨٨، سنن أبي داود ٤/ ١٠٣ ح ٤٢٦٨.

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ومن عمل السيئات فكان جزاؤه أن يلقى في النار جزاء ما قدم وهو مشهد مفزع، وهم يكبّون في النار على وجوههم، فقد أعرضوا عن الهدى، وأشاحوا عنه بوجوههم، فهم يجزون به كباً لهذه الوجوه في النار.

وفي النهاية تجئ الإيقاعات الأخيرة حيث يلخص الرسول ﷺ دعوته ومنهجه في الدعوة ويكلهم إلى مصيرهم الذي يرضونه لأنفسهم بعد ما مضى من بيان، ويختم بحمد الله كما بدء ويدعوهم إلى أن الله يكشف لهم آياته ويحاسبهم على ما يعملون: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

وتختم السورة فكانت مكة حرماً آمنا لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصطاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر، وهذه الآية تبين منهج الدعوة الحق التي فيها التبشير والإنذار لإتمام الحجة من غير أن يرجع إليه رسول الله ﷺ من أمرهم شيء، وإنما الأمر إليه وحده سبحانه وسيريهم آياته فيعرفونها كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يونس: ١٠٤].

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش ٣-٤].

فأمرهم سبحانه أن يوحدوه ويفردوه بالعبادة كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً فقد ت تفضل عليهم بنعمة الأمن وهو الذي أطعمهم من جوع فيفردوه بالعبادة ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً، ولهذا من آمن بالله جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ومن عصاه

سلبها منه كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل ١١٢-١١٣].

وقد حرمها النبي ﷺ أيضاً فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال ﷺ يوم فتح مكة «إن الله حرمه يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها بتمامه»[(١)] فقد أثبتت الآيات أن الله تعالى له كل شيء وإليه المرجع والمآل.

وبعد أن بينت الآيات ذلك المنهج الذي رسمه الله تعالى للدعوة الإسلامية بدأ ليبين وسيلة تلك الدعوة وهي تلاوة القرآن فقال سبحانه ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

فالقرآن هو الكتاب الخالد ودستور تلك الدعوة إلى أن تقوم الساعة وقد أمر أن يجاهد به الكفار، وفيه وحده الغناء في جهاد الأرواح والعقول، وفيه ما يأخذ عن النفوس أقطارها وعلى المشاعر طرقها، وفيه ما يزلزل القلوب القاسية ويهزها هزاً لا تبقى معه على قرار، والقرآن فيه الهداية فمن اهتدى فلنفسه ومن لم يهتد به بالإعراض عن ذكر ربه فعليه ضلاله ووبال كفره لا عليَّ لأني لست إلا منذر مأمور بذلك ولست عليه وكيلاً والله هو الوكيل عليه قال تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود:١٢] وقا ل سبحانه ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠].

وهنا تتمثل فردية التبعة في ميزان الله، فيما يختص بالهدى والضلال وفي فردية التبعة تتمثل كرامة الإنسان، التي يضمنها الإسلام فلا يساق سوق القطيع إلى الإيمان، قال تعالى ﴿ وَلَا تَزِرُ

---

(١) والحديث عند الشيخين البخاري (١٨٣٢) ومسلم (١٣٥٤) وبألفاظ متعددة.

وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[الإسراء: ١٥].

فلا يحمل أحد ذنب أحد ولا يجنى جان إلا على نفسه، ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

لأن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ولا يحمل عنهم شيئاً وهذا من عدل الله ورحمته بعباده.

وقال تعالى ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم: ٣٨-٣٩].

فقد استنبط الإمام الشافعي رحمه الله من هذه الآية أن إهداء ثواب القراءة إلى الموتى لا يصل لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة، إذ لو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والأراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولها ومنصوص من الشارع عليهما. والمسألة خلافية بين أهل العلم.

وأما ما روي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده أو علم ينتفع به)[(١)]. فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله كما جاء في الحديث (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه)[(٢)] والصدقة الجارية كالوقف ونحوها هي من آثار عمله والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى الناس به بعده هو أيضاً من سعيه وعمله.

ثم تختم السورة بالحمد والثناء على الله تبارك وتعالى فيقول سبحانه ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ

---

(١) صحيح مسلم رقم (٤٣٠ ٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣١) وأبوداود (٣٥٢٨) والترمذي (١٣٥٨) والنسائي (٧/ ٢٤٠) عن عائشة، وقال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح).

ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي وقل الثناء الجميل لله تعالى فيما يجريه في ملكه حيث دعا الناس إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وهدى الذين آمنوا بآياته وأسلموا له وأما المكذبون فأمات قلوبهم وأصم آذانهم وأعمى أبصارهم فضلوا وكذبوا بآياته وقال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت:٥٣].

أي: سنظهر لهم دلالتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسوله ﷺ بدلائل خارجية في الآفاق من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان، وكذلك الدلائل في أنفسهم كما هو معروف في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة وقيل انظر في نفسك تعرف ربك.

وقد ذكر ابن أبى الدنيا في كتابه التفكر والإعتبار عن شيخه أبى جعفر القرشى أنه قال وأحسن المقال:

وإذا نظرت تريد معتبراً ... فانظر إليك ففيك معتبَر
أنت الذي تمسي وتصبح في ... الدنيا وكل أموره عبر
أنت المصرف كان في صغر ... ثم استقل في شخصك الكبر
أنت الذي ينعاه خلقته ... ينعاه منه الشعر والبشر
أنت الذي تعطى وتسلب ... لا ينجيه من أن يسلب الحذر
أنت الذي لا شيء منه له ... وأحق منه بماله القدر

ثم تختم الآية بأن الله وحده لا يخفى عليه شيء، ولا يغفل عن شيء فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (ياأيها الناس لا يغترن أحدكم بالله فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرة)[١].

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٨٠.

وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله أنه كان ينشد هذين البيتين إما له وإما لغيره:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفي عليه يغيب

مناسبة المقطع لمحور السورة:

مما يسترعي الانتباه أن السورة ختمت بالتذكير باليوم الآخر معرجة على ذكر الأهوال التي تحدث في ذلك اليوم الجلل فكان الارتباط جلياً واضحاً ينادي العباد بالإستقامة وسلك سبيل الرشاد للنجاة من أهواله، ويكون بمثابة التحذير الضمني لهم، وفيه مزيد اعتبار وعظة.

الهدايات المستفادة من المقطع:

* الرجوع الى القرآن في جميع شؤون الحياة الدنيا والآخرة فهو زاد المؤمنين، ودستور الدعاة المصلحين.
* الدعوة إلى الله تعالى ترتكز على ركيزتين أساسيتين هما: الترغيب والترهيب، والإنذار والتبشير.
* فضل الله تعالى على عباده بمضاعفة الحسنات وعدم المؤاخذة إلاعلى مااقترفه العبد من السيئة ومع ذلك فالعفو مرجو منه ليس ببعيد.
* مراقبة الله تعالى في جميع الأحوال، وتذكر الآخرة والإعداد للقائه والوقوف بين يديه سبحانه وتعالى.

سورة القصص

أولا: بين يدي السورة، وفيه:

أ - اسمها:

تسمى سورة القصص، ولم أقف على من ذكر لها اسماً آخر، وكان يمكن أن تسمى باسم موسى عليه السلام لبسط قصته فيها [1]، ولكن اسم القصص أليق وألصق بها، كما سيأتي بيانه.

وأما سبب تسميتها بسورة القصص فظاهرة، لأنها تناولت الكثير من القصص وخصوصاً قصص موسى عليه السلام وقومه، حيث تناولت السورة حياة موسى عليه السلام، فمهدت بأمر فرعون مع قوم موسى، ثم تناولت ميلاد موسى عليه السلام، ثم قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقصته مع الرجلين، ثم قصة خروجه وعمله مع الرجل الصالح وزواجه من ابنته، ثم قصة الوحي إليه وكلام الله تعالى له، ورسالته وإيتائه الكتاب، وكفر قومه به. ثم ربطت السورة ذلك بتكذيب كفار قريش للنبي ﷺ، ثم انتقلت السورة إلى تسلية النبي ﷺ، فتناولت قصة قارون من قوم موسى، وتكذيبه للدعاة من قومه، وكيف خسف الله به الأرض رغم ماله وطغيانه، وختمت ببشارة النبي ﷺ بالوعد بالعود إلى مكة، وأمرته بالإعراض عن المشركين، وأن لا يكون ظهيراً للكافرين.

ونلاحظ أن سورتين في القرآن الكريم تبدآن بطريقة متشابهة، هما سورتا يوسف عليه السلام وسورة القصص، وفي كلتا السورتين تركيز على قصة أساسية تتخللها قصص فرعية تشكل جوانباً رئيسة في القصة الأساسية، مع الفارق بينهما.

نجد أن سورة يوسف عليه السلام بدأت هكذا: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾ [يوسف: ١-٤]، فيما بدأت سورة القصص هكذا: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ١٥٧).

وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ ﴾.

وقد يقول البعض: إن سورة يوسف ﷺ ألصق باسم القصص من هذه السورة، لورود لفظة القصص في أولها، وتداخل قصص عديدة ضمن القصة الأساسية، إلا أن سورة يوسف ﷺ لم تتناول الصراع بين الخير والشر المطلقين، بل إن الشر فيها يؤول إلى خير؛ فتتوب امرأة العزيز وتعترف بالذنب، يتوب إخوة يوسف ﷺ، ولهذا كانت تسميتها بيوسف ﷺ أليق والصق بالسياق، لما أنها تناولت قصة يوسف ﷺ دون غيره.

بخلاف سورة القصص التي وإن تناولت عدة جوانب من قصة سيدنا موسى ﷺ إلا أنها ركّزت بالذات على علاقة الإيمان بالكفر، والخير بالشر، علاقة موسى بفرعون، وكيف تتداخل قصتهما وحياتهما قبل الصراع والمواجهة، وكيف تنتهي.

وبما أن أكثر القصص الدينية والدنيوية تتمحور حول الصراع بين الخير والشر، وهو ما تتناوله هذه السورة، سميت بسورة القصص، وكان هذا الاسم أليق بها من أن تسمى بسورة موسى ﷺ مثلاً؛ لأن المحور الأساسي فيها هو الصراع بين الخير والشر، حيث تمثل الخير في موسى ﷺ بطريق مباشر، وفي محمد ﷺ بطريق غير مباشر، وتمثل الشر فيها طغيان سلطة فرعون وطغيان مال قارون بطريق مباشر، وفي كفار قريش بطريق غير مباشر.

قال السمرقندي: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ، فيشكون إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه السورة في شأنهم، لكي يعرفوا ما نزل في بني إسرائيل من فرعون وقومه، ليصبروا كصبرهم، وينجيهم ربهم كما أنجى بني إسرائيل من فرعون وقومه، وهذا كقوله ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤] الآية[١].

(١) بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي (٢/ ٥٠٨).

الجدير بالذكر أن لفظ القصص ورد في أول سورة القصص لكن بطريق غير مباشر وذلك في قوله تعالى ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ ﴾، أي: نقص قصاً متتابعاً متوالياً بعضه في إثر بعض[(١)]، والله أعلم.

ب. فضائلها:

سورة القصص هي إحدى السور المثاني[(٢)]، ولم أقف على حديث خصّها بالفضل[(٣)]، والله أعلم.

ج. مكية السورة أو مدنيتها:

سورة القصص مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء، وقال ابن عباس وقتادة: إلا قوله عز وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾، فإنها نزلت بين مكة والمدينة وقال ابن سلام: نزلت بالجحفة في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقال مقاتل: فيها من المدني قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ إلى قوله ﴿ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[(٤)]، وعن ابن عباس أنها نزلت في أصحاب النجاشي الذين قدموا وشهدوا وقعة أحد[(٥)].

---

(١) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١٤/ ٢٣٤).

(٢) انظر: الإتقان (١/ ١٧٦). نقله عن ابن أشته.

(٣) ذكر السمرقندي في بحار العلوم (٢/ ٥٢٩) حديثاً في فضل سورة القصص، فقال: وعن رسول الله ﷺ أنه قال: من قرأ سورة القصص كان له من الأجر بعدد من صدق موسى وكذب، ولم يبق ملك في السماوات والأرض إلا شهد له يوم القيامة إنه كان صادقاً في قوله ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، وذكره الزمخشري في تفسيره (٣/ ١٩٤)، وأبو السعود (٧/ ٢٨)، والبيضاوي (٤/ ٣٠٦). ولم أقف عليه، كما لم يذكر له سند فيدرس. والله أعلم.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/ ٢٤٧)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٤/ ٢٧٥)، والبرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٠١).

(٥) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١/ ٥١).

د - عدد آياتها:

عدد آياتها: ثمان وثمانون آية باتفاق، لكن اختلف في التقسيم، فعدّ أهل الكوفة قوله تعالى {طسم} آية كاملة، وهو الذي في المصاحف، وعدّ الباقون بدلها قوله تعالى {أمة من الناس يسقون}[1].

هـ: محور السورة:

محور السورة هو إبراز الصراع بين الحق والباطل، وأن العاقبة للحق وأهله. فتدور مقاطع السورة حول الصراع بين الحق والباطل والخير والشر، حيث تمثل الخير في موسى ﷺ بطريق مباشر، وفي محمد ﷺ بطريق غير مباشر، وتمثل الشر فيها في طغيان السلطة عند فرعون وطغيان المال عند قارون بطريق مباشر، وفي كفار قريش بطريق غير مباشر.

كما بيّنت السورة أن العاقبة للحق وأهله، والعقاب للباطل وأتباعه، فلم ينفع فرعون سلطته ولا أعوانه، ولم ينفعهم هو أيضاً، كما لن ينفع المشركين آلهتهم المزعومة يوم القيامة ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ بل تتبرأ منهم، وكذلك لم ينفع قارون ماله، بل يكون عقابه عبرة لمن خلفه ممن كان يتمنى مالا مثل ماله. وبهذا تشير السورة إلى مصير مشركي قريش الذين كذبوا بمحمد ﷺ.

و: المناسبات في السورة:

- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها ظاهرة، لأن القصص هو أفضل وسيلة لإبراز جانب الصراع بين الحق والباطل وعاقبة هذا الصراع ونتيجته، وهو ما توضحه جوانب القصص في هذه السورة الكريمة.

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١/ ١٨٣).

- **المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:**

لما بدئت السورة بالحديث عن أمر موسى عليه السلام مع قومه ونصرته، وتمسكه بعبادة الله تعالى حيث قال ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾، وخروجه من وطنه، ختمت بأمر النبي ﷺ بألا يكون ظهيراً للكافرين، وبتسليته عليه الصلاة والسلام عن إخراجه من مكة، ووعده بالعود إليها، ويناسب هذا أيضاً ما جاء في أول السورة الكريمة من قول الله تعالى ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾[1].

وظهر لي فيها مناسبة أخرى، وهي: أنه لما ذكر في أول السورة علو فرعون في الأرض وإفساده، نبّه سبحانه وتعالى في آخر السورة إلى أن الدار الآخرة ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾.

- **المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:**

مناسبة سورة القصص لما قبلها وهي سورة النمل -وكذا لسورة الشعراء- ظاهرة، ووجه المناسبة اشتمالها على شرح بعض ما أجمل في سورة النمل وسورة الشعراء معاً من أمر موسى عليه السلام.

قال السيوطي: لما حكى سبحانه في سورة الشعراء قول فرعون لموسى ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾، إلى قول موسى ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾، وذكر في سورة النمل قول موسى لأهله ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾، إلى آخر ما وقع له بعد الفرار، ولما كان ذلك على سبيل الإشارة والإجمال هناك بسط في هذه السورة ما أوجزه في السورتين وفصّل ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما. فبدأ بشرح تربية فرعون له مصدراً بسبب ذلك من علو فرعون وذبح أبناء بني إسرائيل

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١/ ١٨٥-١٨٦)، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (٢/ ٢٩٦).

الموجب لإلقاء موسى عند ولادته في اليم خوفاً عليه من الذبح، وبسط القصة في تربيته وما وقع فيها إلى كبره، إلى السبب الذي من أجله قتل القبطي وهي الفعلة التي فعل، إلى الهم بذلك عليه والموجب لفراره إلى مدين، إلى ما وقع له مع الرجل الصالح وتزوجه بابنته إلى أن سار بأهله وآنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله ﴿ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾، إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربه وبعثه إياه رسولاً وما استتبع ذلك إلى آخر القصة. فكانت السورة شارحة لما أجمل في السورتين معا على الترتيب[1].

يضاف إلى ذلك أن في هذه السورة من الإعجاز بذكر الغيب من أخبار الأمور الماضية في عصر موسى عليه السلام، وقبله وبعده، مصداقاً لقوله تعالى في آخر سورة النمل: ﴿ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ ﴾ [النمل: ٩٣][2].

وهناك مناسبة خفية أخرى بين السورتين؛ وهي قوله تعالى في آخر النمل ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا ﴾إلى آخر السورة، وفيها ذكر حرمة مكة المكرمة، والتهديد والوعيد لكفار قريش الذين لم يراعوا حرمتها، ففيها إشارة إلى أن النبي ﷺ سيفتح مكة، فتعود حراماً كما كانت. والمناسبة هي أن ذكر نصر الله تعالى لموسى على فرعون وقومه في أول سورة القصص، يناسب الوعد للنبي ﷺ بفتح مكة في آخر سورة النمل.

ومناسبة أخرى وهي بين قوله تعالى في آخر النمل: ﴿ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ ﴾، أي: ليسمعوا ما جرى لمن كفر وطغى وكيف كانت عاقبته، وبين قوله في أول القصص: ﴿ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣ ﴾، فكأنه قيل لهم: لستم أكثر قوة وجبروتاً من فرعون وقومه، وليس أتباع النبي ﷺ في مكة بأضعف من بني إسرائيل في عصر فرعون حين كان يعذبهم ويذبح أبناءهم، فهلا تأملتم عاقبة الفريقين وسلكتم أنهج الطريقين[3].

---

(١) انظر: أسرار ترتيب القرآن للسيوطي (ص١٢٢-١٢٣)، وروح المعاني، للآلوسي (٢٠/ ٤١).

(٢) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١٤/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٣) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١٤/ ٢٣٥-٢٣٨).

- المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

مقاطع السورة تتناسب مع محورها بوضوح تام، لأن محور السورة العام هو: إبراز الصراع بين الحق والباطل، وأن العاقبة للحق وأهله، وهو ما توضحه القصص المذكورة في هذه السورة الكريمة، فهي تبيّن عاقبة الظلم والاستكبار والطغيان، وعاقبة الإيمان وأهله.

ففي بداية السورة بيان لوجه من أوجه القدرة الإلهية؛ حيث نجّى الله تعالى موسى عليه السلام من القتل عند الولادة، بينما استمر فرعون في ذبح الأولاد خوفاً من مولود يقضي على ملكه، لكن عندما ولد موسى عليه السلام تولى فرعون بنفسه تربيته وخدمته، ليعلم لمن التدبير والقضاء والإمضاء[1]، قال تعالى ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾.

ثم نجى الله تعالى موسى عليه السلام من الغرق، وأمّن أمه من الخوف عليه من الغرق والحزن على فراقه، ثم ردّه إليها ﴿ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ثم نجى الله تعالى موسى عليه السلام من فرعون وملئه لما أرادوا قتله في شبابه بعد أن قتل القبطي. وأمّنه منهم لما عاد وخاف أن يقتلوه، ﴿ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [٣٣]، فأيده بالآيات الباهرات، ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ﴾، وشدّ عضده بأخيه هارون، وجعل لهما سلطاناً، كي لا يتمكنوا من إيذائهما، ووعد بنصرهما ﴿ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾.

ثم نصره على السحرة بعد أن ﴿ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وخيّل ﴿ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه: ٦٦-٦٨].

ثم نجى الله تعالى موسى عليه السلام وبني إسرائيل من فرعون وقومه بأن فلق لهم البحر،

---

(١) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١٤/ ٢٣٨).

وأغرق فرعون وجنوده ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

ثم فيها بعد ذلك تحذير لكفار قريش من الركون إلى الدنيا والاغترار بها والبطر فيها حتى لا يصيبهم العذاب بظلمهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ ويخسروا يوم الحساب، حين يتبرأ الأتباع من الأصحاب، عندما يرون العذاب.

تلا ذلك قصة قارون وطغيانه في المال، وعدم قيامه بحقه، وظلمه لقوم موسى، وأنكر فضل الله عليه، وأنكر حق عباد الله تعالى في المال فقال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾، ولم يتعظ بمن قبله ممن هو ﴿ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ ﴾، فخسف الله تعالى به وبداره الأرض.

وهكذا تختم هذه القصص بقاعدة عامة لا تتغير ولا تتبدل: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾، تليها قاعدة مثلها: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

لتختم السورة ببشارة عظيمة للنبي ﷺ بالعودة إلى مكة منتصراً، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ ﴾، وفيها تهديد ووعيد ضمني لكفار قريش، كي يتعظوا بهذه القصص وما جاء فيها، ويلحظوا تدبير الله تعالى لعباده الصالحين، عندما يثبتون على الحق.

هذا وعد الله تعالى لعباده الصالحين، ووعيده للمكذبين والظالمين، لا يتخلف ولا يتبدل فهو الله سبحانه الإله الحق ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾. وفي تفسير قوله تعالى ﴿ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ ﴾ قولان: أحدهما: إلا ما أريد به وجهه، من الإيمان والعمل الصالح[1]، والثاني: إلا هو سبحانه وتعالى[2]. وكلاهما ينسجم

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٣/ ٤١١).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (٣/ ٣٠٣)، وزاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٦/ ٢٥٢)، ومعالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٢٢٨).

مع السياق العام للآيات، ومع محور السورة.

وهكذا تتناسب مقاطع السورة مع محورها أفضل تناسب وتنسجم وتتناغم، حيث توضح هذه المقاطع في هذه السورة الكريمة سوء خاتمة الظالمين المستكبرين المفسدين، وعاقبة المؤمنين الصادقين الموحدين. والله أعلم.

- المناسبة بين مقاطع السورة مع بعضها:

يأتي في بداية كل مقطع أثناء التفسير إن شاء الله تعالى.

- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

سورة النمل وسورة القصص مكيتان، وترتيبها في النزول كترتيبها في المصحف والسورتان تكملان ما ورد من قصص الأنبياء في سورة الشعراء، وفي كل سورة زيادة تفصيل في جانب من الجوانب.

فسورة النمل ذكرت قصة سليمان وداود عليهما السلام، وفيها مزيد بسط لقصة لوط ﷺ، وفيها تفصيل قصة الوحي لموسى ﷺ، حيث جاء في سورة الشعراء قوله تعالى ﴿ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وتفصيلها في سورة النمل عند قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾، وما بعدها.

وفي سورة القصص تفصيل قصة موسى ﷺ مع قومه، وفيها بيان عاقبة الأنبياء وأتباعهم المتقين، وهلاك المتعالين والمفسدين (١).

ويدخل هنا ـ أيضاً ـ ما سبق ذكره من المناسبة بين سورتي النمل والقصص.

فاتحة سورة النمل وفاتحة سورة القصص:

افتتحت سورة القصص بعد الحروف المقطعة بقوله تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ

(١) انظر: أسرار ترتيب القرآن، للسيوطي (ص١٢١-١٢٢).

﴿٢﴾، أما سابقتها سورة النمل فقد افتتحت بعد الحروف المقطعة بقوله تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾، وبعد النظر في السورتين يتبين أن سورة النمل فيها إشارة للقرآن الكريم أكثر مما في سورة القصص، وفي سورة القصص إشارة للكتاب أكثر مما في سورة النمل ولعله من أسباب الاختلاف بين فاتحتي السورتين، كما يأتي:

الإشارة إلى القرآن الكريم في سورة النمل:

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾(الآية: ٦).

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾(الآية:٧٦).

﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾(الآية: ٧٧).

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الآية: ٩٢).

والإشارة إلى القرآن الكريم في سورة القصص:

١ - ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾(الآية: ٨٥).

- وهناك إشارات أخرى ليست صريحة، وهي قوله تعالى ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (الآية: ٥٣)، وقوله ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾(الآية: ٥٤)، وقوله ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾(الآية: ٨٧).

وأما بخصوص الإشارة إلى الكتاب، فإنها في سورة القصص أكثر مما في سورة النمل، كما يأتي:

الإشارة إلى الكتاب في سورة النمل:

٢ - ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾(٢٨). وهذا كتاب سليمان عليه السلام، ولعل فيه إشارة إلى ضرورة حسن أداء مهمة التبليغ.

٣ - ﴿ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴾(٢٩). وهذا كتاب سليمان ﷺ، ولعل فيه إشارة إلى ضرورة حسن استقبال ومعاملة كتاب الله تعالى.

﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾(٤٠). والكتاب هنا: قيل اللوح المحفوظ، وقيل اسم الله الأعظم، أو غير ذلك[1].

﴿ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ۝٧٥ ﴾. وهو اللوح المحفوظ.

والإشارة إلى الكتاب في سورة القصص:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ ﴾(٤٣).

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ۝٤٨ ﴾.

﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٩ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢ ﴾.

﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٦ ﴾.

وهكذا، نجد أن ذكر الكتاب في سورة النمل يتجه إلى غير القرآن الكريم، ولعل هذا من أسباب قوله تعالى في بدء سورة النمل﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴾. أما في سورة القصص فإن ذكر الكتاب يتجه إلى القرآن الكريم تارة وإلى التوراة تارة أخرى، وجمع بينهما في آية واحدة؛﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٩ ﴾، والله أعلم.

---

(١) ينظر: مفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ١٧٠)، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٣١)، والدر المنثور، للسيوطي (٦/ ٣٦١).

ونشرع بعد هذه المقدمات في التفسير الموضوعي لمقاطع هذه السورة الكريمة، وهي أحد عشر مقطعاً، كما يأتي.

المقطع الأول: طغيان فرعون وإفساده، ووعد الله تعالى بإنقاذ المضطهدين، وتوعّده بعقوبة المفسدين

قال تعالى: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ القصص (١-٦).

التفسير الإجمالي:

تبدأ السورة بالأحرف المقطعة، وقد سبق الحديث عنها في بداية التفسير. ثم تقرر حقيقة أن ما يتلى من آيات عظيمة الشأن عالية القدر هو آيات القرآن الكريم الذي وصف هنا بأنه الكتاب المبين الموضح لحقائق الأمور، وأن ما يتلى سيتناول جوانب من نبأ موسى وفرعون، ولأنه كلام الله تعالى فهو الحق، ولا ينتفع بالحق إلا القوم المؤمنون.

تشرع السورة في التمهيد لقصة موسى عليه السلام، فتبدأ بما قبل ولادته، من طغيان فرعون وعلوه في الأرض، وكيف قام بتقسيم أهلها إلى شيع وطوائف وفرق، حيث فرّق بينهم لئلا يتمالؤا عليه فيصل إلى ما يريده منهم[1]. وفي الآية احتباك؛ حيث ذكر العلو أولاً دليلاً على السفول ثانياً، وذكر الافتراق ثانياً دليلاً على الاجتماع أولاً[2].

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٣٩)، وكأن في المطبوعة خطأ طباعيا: (فلا يصل إلى ما يريده).

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٣٩).

كما تذكر السورة قيام فرعون باستعباد طائفة من الناس وهم بنو إسرائيل واستضعافهم، حيث أمر بذبح أولادهم الذكور، وجاء فعل الذبح مشدداً ﴿ يُذَبِّحُ ﴾، أي: تذبيحاً كثيراً، خوفاً من مولود يقضي على ملكه، كما أمر فرعون بالإبقاء على نسائهم ربما من أجل العمل في الخدمة ونحوها، فصار من المفسدين. وسمّي هذا الفعل استضعافاً لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم[١].

وقد قيل في سبب ذبح الأبناء وجوه:

الوجه الأول: أن كاهناً قال له يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده، فأمر بقتل الأولاد الذكور من بني إسرائيل.

وقد قال بعضهم: في هذا دليل على حمق فرعون، فإنه إن صدق الكاهن لم يستفد من القتل، وإن كذب الكاهن فما وجه القتل؟[٢]، وقال الزجاج: والعجب من حمقه، لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع، وإن كذب فلا معنى للقتل[٣]، والحذر لا يرد القدر، قال الزمخشري: وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ يدل على أن القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب لأنه فعل لا طائل تحته، صدق الكاهن أو كذب، ولا أثر له في دفع قضاء الله تعالى[٤].

وقد يجيب المنجمون بأن النجوم دلت على أنه يولد ولد لو لم يقتل لذهب بملك فرعون، وعلى هذا التقدير لا يكون السعي في قتله عبثاً. ذكر ذلك الإمام الرازي، وأجاب عنه إجابة مقتضبة، فقال: واعلم أن هذا الوجه ضعيف لأن إسناد مثل هذا الخبر إلى الكاهن اعتراف بأنه قد يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل، ولو جوزناه لبطلت دلالة الأخبار عن الغيب على

---

(١) معالم التنزيل، للبغوي (٦/ ١٨٩).

(٢) الكشاف، للزمخشري (٣/ ٣٩٧)، ومفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ١٩٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/ ٢٤٩).

(٤) الكشاف، للزمخشري (٣/ ٣٩٧)، وينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٤٠).

صدق الرسل، وهو بإجماع المسلمين باطل[1].

والذي أراه أن الجواب عن مثل هذه الشبهة يكون بقولنا:

١- لو صدق تنبؤ الكاهن لتنبأ بالمولود بعينه، فيحدد عائلته ومولده، ونحو ذلك، فيتمكن فرعون من قتله.

٢- إن قول الكاهن (لو لم يقتل لحصل كذا) غير كاف في التدليل على علم الكاهن، ولو علم لقال: (سيقتل فلا يكون كذا)، أو (ولن يقتل فيكون كذا)، ونحو ذلك، والله أعلم.

وعلى كل احتمال، فلا تدفع شبهة الحمق عن فرعون وأعوانه.

الوجه الثاني: وهو قول السدي أن فرعون رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل فسأل عن رؤياه فقالوا يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر، فأمر بقتل الذكور[2].

الوجه الثالث: أن القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد مصر، أو قول غيره من الأنبياء عليهم السلام، وأنهم بشروا بمجيئه، وسمع فرعون بهذا القول، فلهذا كان يذبح أبناء بني إسرائيل[3].

وقد رجّح الرازي هذا الوجه، ولعله هو الأولى بالقبول، والله أعلم.

وعلى كل حال، فإن الله تعالى أثبت لفرعون فعله القبيح بقتل الأولاد والإفساد في الأرض، وهذا يكفي في القصة.

لكن إرادة الله تعالى فوق كل طاغية، وهنا تذكر السورة إرادة الله تعالى أن يمن على هؤلاء المستضعفين في الأرض، ووعده سبحانه لهم بأن يمكّن لهم في الأرض، أي: يوقع لهم التمكين،

---

(١) مفاتح الغيب، الرازي، (٢٤/ ١٩٣).

(٢) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٠/ ٢٧)، ومفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ١٩٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٢٩٥)، وقارن بمفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ١٩٣).

وأن يجعلهم ﴿ أَئِمَّةً ﴾ أي: ولاة[1]، يرثون أرض أعدائهم وملكهم ويحكمون بلدهم، قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الشعراء:٥٩]، كما وعد سبحانه أن ينتقم من عدوهم فرعون ووزيره هامان وجنودهما، وهي عاقبة جميع المفسدين، ولو بعد حين، والحمد لله رب العالمين.

وجاء لفظ التمكين مقروناً بالتهديد والوعيد لفرعون ووزيره هامان وجنودهما، لبيان أن هذا التمكين هو تمكين عظيم يؤدي إلى القضاء على ملك فرعون وملئه[2]، وهو الأمر الذي كانوا يخشونه، وذبحوا بسببه الكثير من أبناء بني إسرائيل، فقال تعالى: ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾.

وفي هذا بيان لكمال القدرة الإلهية في التصرف والتدبير، من الحكيم الخبير.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

* يهدف القصص القرآني في هذه السورة إلى إبراز جوانب الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبيان حقائق الأمور، ولذا وصف بوصف (المبين).
* لا يعتبر ولا يستفيد من القصص القرآني إلا المؤمنون.
* التفريق بين الفساد الشخصي، والإفساد الذاتي الذي يتعدى إلى الغير، والإفساد هو الذي يؤدي إلى عقوبة الله تعالى، وإيقاع الظلمة في شر أعمالهم.
* المتتبع لآيات القرآن الكريم يصل إلى وجود علاقة وثيقة بين العلو والتكبر والطغيان وبين الإفساد، وبعد اجتماعهما يكون أخذ الله تعالى.
* يجب اجتناب الاستعلاء في الأرض، والتعزز بكثرة الأتباع والأموال، كما فعل فرعون

(١) تفسير القرآن من كتاب الجامع، لابن وهب، (٢/ ١٦٤).
(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٤١).

وقارون، وفي قصتهما حجة على مشركي قريش وأمثالهم، فكما أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره، فكذلك قرابة قريش لمحمد ﷺ لن تنفعهم يوم القيامة ما لم يؤمنوا[(١)].

* يعمد الظلمة والمجرمون إلى التفريق بين أهل البلد الواحد ليسهل استعبادهم والسيطرة عليهم، كما فعل فرعون ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾.

* العاقبة للحق والخير، ولو بعد حين، حيث ينصر الله تعالى المستضعفين الصابرين، وينتقم من الظلمة وأعوانهم.

* قد يفتح الله بسبب البلاء أبواباً من الخير ولو بعد حين، فتجبّر فرعون أخرج بني إسرائيل من ذلّ العبودية، وصاروا أئمة يحكمون، ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[(٢)].

* إظهار أن العلو الحق لله تعالى وللمؤمنين وأن علو فرعون لم يغن عنه شيئاً في دفع عواقب الجبروت والفساد ليكون ذلك عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة[(٣)].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهذا المقطع يتحدث حول الصراع بين الحق والباطل، فيبين أفعال الظالمين وجرائمهم، كما يبين وعد الله تعالى بنصرة عباده المستضعفين.

وقد ذكرت فيه خمس صفات ذميمة للعتاة، وهي الاستعلاء في الأرض، واستضعاف الغير وقتل الأبناء، وإبقاء البنات واستعبادهن، والسعي في الإفساد. وذكر في مقابل هذه الصفات الخمس، خصائص خمساً للمستضعفين من بني إسرائيل، وهي: إنقاذهم من الظلم، وجعلهم القادة بعد فرعون وقومه، وجعلهم ورثة لملكهم، وتمكينهم وجعل السلطة لهم، وإظهار ما كان يحذره فرعون وهامان وجنودهما من دمارهم وذهاب ملكهم على يد بني إسرائيل[(٤)].

---

(١) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٥٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ٦٦).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ٨٥).

(٤) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٥٧).

المقطع الثاني: ميلاد موسى عليه السلام، ونجاته من القتل

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ
إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ
إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى
وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ
إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ
قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ
أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا
تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع لما قبله:

المناسبة ظاهرة، فهذا المقطع يكمل القصة، ويتحدث هنا عن ميلاد موسى عليه السلام، وخوف أمه من أن يقتله أتباع فرعون، وكيف نجاه الله تعالى منهم.

التفسير الإجمالي:

بعد ميلاد موسى عليه السلام خافت أمه عليه، لأن أتباع فرعون كانوا بالمرصاد لكل مولود ذكر. وهنا تتدخل الإرادة الإلهية، فيأتي الوحي إلى أم موسى عليه السلام ـ وكان وحي إلهام[1] ـ ويأمرها بأن ترضعه، وتلقيه -عند خوفها عليه- في اليم، كما بشرها الوحي بأن موسى عليه السلام سيرجع إليها، ويكون من المرسلين، فلا داعي لأن تخاف أو تحزن.

وفي الآية لفتة عجيبة إلى تعانق الأخذ بالأسباب مع الثقة بالله تعالى، والتسليم لقضائه فقد

---

(١) ذكره ابن وهب في تفسير القرآن من كتابه الجامع، (٢/ ٥٣-٥٤)، وينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٣/ ٣٩٠)، ومعالم التنزيل، للبغوي (٦/ ١٩٠). وقيل: أتاها جبريل بذلك. والله أعلم.

أمر الله تعالى أم موسى أن تحافظ عليه وترضعه، ثم إذا خافت عليه الذبح تلقيه في اليم، ونهاها عن الخوف عليه من الغرق أو الذبح أو الموت جوعاً أو أي خوف آخر قد يتصور، كما نهاها عن الحزن عليه لفراقه، وبشرها بعودته ولقائه وإكرامه بالرسالة، أي: أنه هو النبي المنتظر الذي سيقضي على ملك فرعون.

ويسير المهد بموسى عليه السلام في حفظ من الله ورعايته، حتى يصل إلى قصر فرعون، لتلتقطه زوجة فرعون، التي كانت محرومة من الولد، فرغبت في الاحتفاظ به وتربيته، وتوسلت كي لا يقتلوه، فكان أن تربى موسى عليه السلام في قصر ألد أعدائه فرعون الذي أمر بقتل كل مولود ذكر! لكنها إرادة الله تعالى، وهي فوق كل شيء.

ولما كانت عاقبة التقاط موسى عليه السلام إهلاك فرعون وملئه، عبّر سبحانه وتعالى بلام العاقبة التي معناها التعليل، فقال تعالى ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1]، وذلك تهكماً بفرعون لحمقه وجهله، إذ أن العاقل - لاسيما المتحذلق - لا ينبغي له أن يقدم على شيء حتى يعلم عاقبته، فكيف إذا كان هذا الإنسان يدعي أنه إله، كما فعل فرعون؟، ففي الآية تهكم بحمق فرعون وجهله، وبيان لكذب ادعائه، فلم ينفعه وزيره ولا جنوده، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾، أي: دأبهم تعمد الذنوب والضلال عن المقاصد؛ فالخاطئ هو من تعمد ما لا ينبغي[2]، فلا بدع في أن يخطئوا ويربّوا من ذبّحوا الأبناء من أجله، مع أنه من بني إسرائيل[3].

ثم أكدت الآيات على كذب فرعون في ادعائه الإلوهية حيث وافق على طلب زوجته

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٢٩٧).

(٢) بخلاف المخطئ، لأن الخطأ هو: ما لم يُتَعَمَّد، ويقال لمن أَراد شيئاً ففعل غيره أَو فعل غير الصواب: أَخْطَأ، وقال الأموي: المُخْطِئ: من أَراد الصواب، فصار إِلى غيره، والخاطِئ: من تعمَّد لما لا ينبغي. ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (خ ط أ).

(٣) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٤٥-٢٤٦).

أن لا يقتل موسى عليه السلام، ولو كان إلها لعلم الغيب، أما وقد وافق فهو لا يعلم عاقبة فعلته، لذا قال تعالى ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: بعاقبة فعلتهم، وأدخل في الآية أتباعه الذين أطاعوه وصدقوه، ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الزخرف، ٥٤].

أما أم موسى عليه السلام فقد طغت عليها مشاعر الأمومة الفطرية، وكادت من شدة حزنها عليه أن تظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن تداركتها عناية الله تعالى بالصبر والتثبيت[١]. ثم أرسلت الأم أخت موسى عليه السلام لتقص أثره وتتبع خبره، حتى وقفت عليه في قصر فرعون دون أن يشعروا بها ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، بل هم في صفة الغفلة التي هي أبعد ما يكون عن صفات الإله[٢]، ففيها تكذيب لفرعون وتبكيت لأتباعه.

وكان من شأن الرضيع أنه امتنع عن أخذ الحليب ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾، تحريم منع لا تحريم شرع[٣]، وخشي آل فرعون عليه من الهلاك، فتدخلت أخت موسى عليه السلام دون أن تعرّف عن نفسها، وقالت لهم إنها تعرف أهل بيت لا يرفض حليبهم، وأنها على استعداد لكي تدلهم عليه، وهم لن يرفضوا لفرعون طلباً، فوافقوا على ذلك، وهكذا اجتمع شمل الأم بوليدها، وقرت عينها برؤيته.

وهنا أيضاً دليل آخر على كذب فرعون في ادعائه الإلوهية، حيث إن كل ما تقدم من القرائن يؤكد أن هذا الرضيع من بني إسرائيل ويجعله موضع الريبة والشك، حيث كان ملقى في البحر، والتقط منه، والتي دلّتهم على المرضعة من بني إسرائيل، والمرأة التي سترضعه من بني إسرائيل، وقد قبل ثديها دون غيرها من القبط، فلو علم شيئاً لتخلص منه. ولكنها إرادة الله تعالى، ولذا قال تعالى ﴿ فَرَدَدْنَاهُ ﴾، أي: مع هذا الظاهر في الكشف لسره الموجب للريبة في

---

(١) ينظر: لباب التأويل، للخازن (٣/ ٣٩٩).

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٤٩).

(٣) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي (٦/ ٢٠٦)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/ ٢٥٧)، ومدارك التنزيل، للنسفي (٣/ ٢٢٩).

أمره، فعدوّه في كفالته، وهو يقتل العالم لأجله(١).

وهذا كله مصداق وعد الله تعالى، فهو الحق وقوله الحق ووعده الحق، ﴿ وَلِتَعۡلَمَ ﴾ علم اليقين ﴿ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ واقع، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، فكثير من آل فرعون ومن الناس لا يعوون هذه الحقائق، ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧ ﴾ [الروم:٧]، وفيها تأكيد لما تقدم من كذب فرعون في ادعائه الإلوهية. وهكذا أبدل الله تعالى أم موسى من بعد خوفها أمنا، في عزّ وجاه ورزق مستمر(٢).

ولله تعالى حِكَم فيما يجري لخلقه، فقد يكون الشيء مكروهاً للنفس وعاقبته خير، كما قال تعالى ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء: ١٩].

وفي قوله تعالى ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧ ﴾ احتباك: حيث ذكر الإرضاع أولاً دليلا على تركه ثانياً، وذكر الخوف ثانياً دليلاً على الأمن أولاً(٣).

وفي الآية أيضاً بلاغة عالية أخرى، حيث جمع في آية واحدة خبرين، وأمرين، ونهيين وبشارتين.

فالخبران هما ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ وقوله ﴿ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ ﴾ لأنه يشعر أنها ستخاف عليه. والأمران هما:﴿ أَرۡضِعِيهِۖ ﴾و﴿ فَأَلۡقِيهِ ﴾. والنهيان: ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾ و﴿ وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ ﴾. والبشارتان ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾(٤).

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٥١).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٢٩٩).

(٣) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٤٤).

(٤) انظر: أحكام القرآن، محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (٣/ ٤٩١)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/ ٢٥٢)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ٧٤-٧٥).

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

* إرادة الله تعالى فوق كل شيء.
* الفرج بعد الشدة.
* من عجائب قدرة الله تعالى أن تكون النجاة على يد من لا يتوقع منه ذلك.
* عاطفة الأمومة تغلب على النساء، ولولا تثبيت الله تعالى لأم موسى ﷺ لكشفت عنه.
* هناك فرق بين العلم بالظواهر والعلم بالحقائق.
* وجوب الأخذ بالأسباب، حيث أمر الله تعالى أم موسى ﷺ أن ترضعه، وتحافظ عليه، حتى إذا خافت عليه ألقته في اليم، لترعاه عناية الله تعالى.
* يقين المؤمنين بالله تعالى يجعلهم يثقون بوعد الله تعالى، بخلاف غيرهم.
* الإشارة إلى حكمة ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ في جانب بني إسرائيل ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ ﴾[البقرة: ٢١٦] في جانب فرعون إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدبير قطع نسلهم(١).
* لا يشعر الناس بتدبير الله تعالى للأمور، وقد تكرر ذلك المعنى في الآيات فقال تعالى ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(٢).
* إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أملوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر وأوقع حسرة على المستبصر وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو(٣)، وقد قيل: من مأمنه يؤتى الحذِر.
* وعد الله -سبحانه- للمؤمنين ووعيده -جلّ وعلا- للكافرين حق لا يتخلف، وقد يتأخر

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ٨٥-٨٦).

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٦٩).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ٨٦).

لحكمة يعلمها الله تعالى، وقد ردّ الله لأم موسى ولدها، وانتقم من فرعون وجنوده، ومكّن لبني إسرائيل.

* تعليم أن الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي، ولما قدّر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة، ولأنجى موسى مبني إسرائيل إنجاء أسرع، ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال[1].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهنا حفظ الله ورعايته لموسى عليه السلام، وإنجائه من الذبح، ومن الغرق، ومن الموت جوعاً، ومن القتل من قبل فرعون وأعوانه. ثم إعادته إلى أمه وإقرار عينها باجتماعها معه. وهكذا يتحقق وعد الله تعالى، ووعده الحق، وهكذا يتولى الله الصالحين، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ٨٦).

المقطع الثالث: قتل القبطي خطأ، ثم الخروج إلى مدين

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة ظاهرة، فهنا متابعة لقصة موسى عليه السلام، والحديث هنا عن شباب موسى عليه السلام وحادثة قتل القبطي، ثم توبة موسى عليه السلام واستغفاره، ثم المطاردة ومحاولة القتل، وصولا إلى هروب موسى عليه السلام من المدينة.

التفسير الإجمالي:

هذا الآيات تفصيل لما جاء في شطر آية في سورة طه، وهو قوله تعالى ﴿ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴾[طه: من الآية: ٤٠].

لما بلغ موسى عليه السلام أشده ونمت قوته واكتمل عقله آتاه الله تعالى الحكم والعلم ثم آتاه النبوة من بعد[١]، فعلم موسى عليه السلام وحكم قبل أن يبعث نبياً[٢].

(١) في معنى بلوغ الأشد والاستواء أقوال، ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي (٢٤/ ١٩٩).

(٢) معالم التنزيل، للبغوي (٦/ ١٩٦).

وقد وردت آية شبيهة بهذه عند الحديث عن يوسف ﷺ، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[يوسف: ٢٢]، بدون قوله تعالى ﴿ وَٱسۡتَوَىٰٓ ﴾، ولعل الزيادة هنا في وصف موسى ﷺ تشير إلى أنه أوتي قوة كبيرة، كما تشير القصة بعد ذلك، حيث أنه ﷺ قتل القبطي بضربة بجمع كفه. وفسّر مجاهد الاستواء بأنه بلوغ أربعين سنة[(١)]، والله أعلم.

أكرم الله تعالى موسى بالحكم والعلم، وقيل: معناها النبوة، وهذا - والله أعلم - بعيد، لأن الوحي إلى موسى ﷺ وتكليفه بالرسالة كان بعد أن أنهى العمل مع الرجل الصالح، كما سيأتي في الآيات. وقد كان إكرام الله تعالى لموسى جزاء على إحسانه في حياته قبل النبوة، فقد ذكر أنه ﷺ كان يحسن إلى الفقراء والضعفاء كما فعل حين ساعد المضطهد الذي استغاث به من بني إسرائيل، فكافأه الله تعالى على إحسانه ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾، فعاقبة الإحسان حسنة، كما قال تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة الرحمن: ٦٠].

تنتقل القصة بعد ذلك إلى حادثة فارقة في حياة موسى ﷺ، حيث دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، قيل: في وقت راحتهم وقيلولتهم أو في يوم عيد، وقيل ما بين المغرب والعشاء[(٢)] وقيل غير ذلك، فوجد في المدينة رجلين يقتتلان، أحدهما من بني إسرائيل شيعة موسى ﷺ والآخر من أعدائهم القبط، فطلب الإسرائيلي الغوث من موسى ﷺ على القبطي، فأجابه موسى ﷺ، فضرب القبطي بلكمة أو طعنة أو ضربة أو دفعة، وقد ذكرنا أن موسى ﷺ كان قوي البنية ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ﴾، فمات القبطي.

ندم موسى ﷺ على هذه الحادثة واستحى من ربه الذي أكرمه ونجّاه، وأحسن إليه

(١) أخرجه ابن وهب في تفسير القرآن من كتابه الجامع، (١/ ١٣٤)، والطبري في تفسيره (٢٠/ ٤٢).
(٢) ذكر ابن وهب هذا القول في تفسير القرآن من كتابه الجامع (١/ ٣٤-٣٥).

ورعاه[(١)]، إذ كيف يقع منه ذلك وهو الذي أوتي حكماً وعلماً، فندم في الحال، وقال: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾، قال ذلك: لأنه لم يؤمر بهذا القتل، ولم يكن يقصد أن يفعله. ثم أخذ في تنبيه نفسه وتحذيرها من مكائد الشيطان لأنه ﴿ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ في عداوته وفي إضلاله[(٢)]، ومع كون القتيل كافراً معتدياً إلا أن القتل بدون سبب ذنب عظيم، فبادر موسى عليه السلام بعد الندم إلى الاستغفار، فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي ﴾، ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران، ١٣٥] ﴿ فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

لم يكتفِ موسى عليه السلام بذلك، بل أخذ على نفسه عهداً أنه لن يكون ﴿ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي: لن يكون معيناً للمجرمين[(٣)]، فالظهير هو المعين[(٤)].

أدت هذه الحادثة إلى خوف موسى عليه السلام من انتقام القبط لهذا القتيل، فأصبح خائفاً مترقباً[(٥)] ينتظر وقوع مكروه، ففوجئ بالإسرائيلي الذي طلب نصرته بالأمس، يصرخ طلباً

---

(١) سيبقى موسى عليه السلام يذكر هذه الحادثة، ويستحي منها، كما جاء في حديث (الشفاعة) الصحيح، وفي لفظ مسلم (١٩٣): (ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربَّه منها)، وفي لفظ ابن ماجة (٤٣١٢): (فيقول: لست هُناكم، ويذكر قتله النفس بغير النفس)، وفي لفظ أحمد (١١٧٤٣): (فيقول: لست هُناكم، ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس فيستحيي ربَّه من ذلك).

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٥٧).

(٣) اختار البقاعي أن يكون المعنى: أي: لا أكون بين ظهراني القبط، فإن فسادهم كثير، وظلمهم لعبادك متواصل وكبير. ينظر: نظم الدرر (١٤/ ٢٥٨).

وهذا المعنى بعيد، إذ الظاهر من السياق أن المعنى: فلن أكون معيناً ومساعداً للمجرمين. ولعل المقصود بالمجرمين الإسرائيلي وأمثاله، بدليل قول موسى له في اليوم التالي: {إنك لغوي مبين}، والله أعلم.

(٤) ينظر: لسان العرب لابن منظور، مادة (ظ هـ ر)، ومختار الصحاح، للرازي، مادة (ظ هـ ر)، وينظر: مفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ٢٠١)، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٤١).

(٥) التَّرَقُّبُ: الانتظار وتوقع الشيء. ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (ر ق ب). ويستخدم في انتظار المكروه. ينظر: لباب التأويل، للخازن (٣/ ٤٠١). وأصله كثرة الالتفات برقبته ذعراً. ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١٤/ ٢٥٩).

للنجدة، فوقع في نفس موسى أن هذا الإسرائيلي صاحب خصام وغواية وضلال، إذ لم يمر يوم على مقتل شخص بسبب خصامه، وإذا به يعاود الخصام في اليوم التالي!، فقال له موسى ﷺ ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾.

ثم لما أراد موسى ﷺ أن يبطش بالقبطي الذي هو عدو لموسى ﷺ وللإسرائيلي ويخلص الإسرائيلي منه قال أحد الرجلين لموسى ﷺ: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾، لأنه ليس من شأن المصلحين القتل بدون سبب، بل هو من شأن الجبابرة العتاة الذين يقتلون بغير حق.

وقائل هذا الكلام أما أن يكون الإسرائيلي ويكون المعنى: لما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الذي هو عدو له وللإسرائيلي ظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به إذ قال له ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ فقال الإسرائيلي لموسى: ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ ﴾[(١)]، وزعموا أنه لم يعرف قتله بالأمس للرجل إلا هو وصار ذلك سببا لظهور القتل ومزيد الخوف[(٢)]، وإما أن يكون القائل هو القبطي، ويكون قد عرف القصة من الإسرائيلي[(٣)]، كأن يكون الإسرائيلي هدده بموسى ﷺ وقوته وأنه قد قتل بالأمس رجلاً بمجرد لكمه، وقد رجّح الرازي أن يكون القائل هو القبطي، ولعله هو الأقرب إلى السياق، والله أعلم.

وصلت قصة قتل موسى ﷺ للقبطي إلى فرعون وتأكد من أنه موسى ﷺ هو الذي قتل القبطي، فبدأ الملأ يأمر بعضهم بعضاً بقتل موسى ﷺ.

وهنا تتدخل الإرادة الربانية مرة أخرى حيث يأتي ﴿ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾[(٤)] ماشيا

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٤٢)، ومعالم التنزيل، للبغوي (٦/ ١٩٨).
(٢) مفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ٢٠٢).
(٣) مفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ٢٠٢).
(٤) قدم لفظ الرجل في هذه الآية {رجل من أقصى المدينة} لأن هذا الأمر مهم يحتاج إلى عزم وقوة وجرأة، بخلاف ما في سورة يس حيث أخّر اللفظ هناك {من أقصى المدينة رجل}، والله أعلم. ينظر: نظم =

وفي كون الرجل يأتي من أقصى المدينة ماشياً بيان للقدرة الإلهية[1]، ومزيد من الإثارة في القصة حيث ينزل النصر بعد أن تضيق الأمور، كما في قوله تعالى ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ وقوله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ ﴾.

يأتي الرجل فيخبر موسى بالمؤامرة التي تحاك ضده من قبل أتباع فرعون، وعزمهم على قتله حيث لن يشفع له كونه عزيزاً عند فرعون، وينصحه بالخروج من المدينة، فيخرج عليه السلام بسرعة، خائفاً يتلفت، ويلتجئ إلى ربه التجاء الخائف الوجل الصادق في التجائه ودعائه ويقول: ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾، فيستجيب له ربه تبارك وتعالى، ويلهمه سلوك الطريق إلى مدين، فقال وهو متوجه إليها ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[2] فلا يضل الطريق أو يسلك طريقاً يجده فيه أتباع فرعون.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

* بعثة الأنبياء تأتي على خلاف المعتاد، حيث يبعثون بعد الأربعين ويفتح الله عليهم من عنده بحار المعرفة والعلوم التي لم يعرفوها من قبل ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢].

* قتل موسى عليه السلام للقبطي كان خطأ، والقتل الخطأ ذنب، بدليل إيجاب الكفارة عليه في شرعنا، ولأنه لا يخلو عن إهمال أو تقصير أو تجاوز الحدود المعروفة، قال تعالى ﴿ وَمَن

= الدرر، للبقاعي (١٤/ ٢٦٢). وقد يدلّ الذي في سورة يس على انتشار الدعوة أيضاً، حتى وصلت إلى أقصى المدينة، لذا قدم اللفظ هناك إغراءً لهم باتباع الدعوة.

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٦٢).
ومن الملاحظ في قصص الأنبياء وفي السيرة النبوية كثرة الوقائع التي تضييق فيها الأمور، حتى ليتخيل للسامع أن لا مخرج، ثم يتنزل النصر من عند الله تعالى، كما حصل في غار ثور، وفي طريق الهجرة، ويوم أحد، ويوم الأحزاب، ويوم حنين، وغيرها.

(٢) من اللفتات في الآية تقديم موسى عليه السلام في دعائه لفظة {ربي}، وذلك من شدة مراقبته لله تعالى، واتكاله عليه. ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٦٤).

قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ﴾ [النساء:٩٢][1].

* نصر المظلوم وإغاثة الملهوف دين في الملل كلها، وفرض في جميع الشرائع[2].
* فضيلة الاستغفار من الصغائر والكبائر، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقد استغفر موسى عليه السلام ربه، ﴿ فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.
* من توكّل على الله كفاه، ونلحظ لجوء موسى عليه السلام إلى ربه في كل أحواله، وسيأتي المزيد من ذلك في المقطع الآتي.
* شكر النعم يقتضي الابتعاد عن مواطن الفتن، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.
* دلّ قول موسى عليه السلام ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ على أنه لا تجوز معاونة الظلمة والفسقة[3].
* الخوف غريزة بشرية، وهو لا ينافي المعرفة بالله تعالى ولا التوكل عليه[4].
* الإيمان رابطة وثيقة بين المؤمنين، ولهذا بادر مؤمن آل فرعون - وهو ابن عم فرعون فيما روي - إلى إخبار موسى عليه السلام بمكيدة فرعون وملئه، ونصحه بالخروج مسرعاً[5].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهنا مزيد من الكرم والإنعام على موسى عليه السلام، حيث بلغ أشده واستوى

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٧٨).
(٢) أحكام القرآن، محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (٣/ ٤٩٢).
(٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٧٨).
(٤) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٧٨-٧٩).
(٥) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٧٩).

خلقه، وآتاه الله تعالى حكماً وعلماً. وفي المقطع أيضاً: انتصار موسى ﷺ للإسرائيلي المضطهد وضربه للقبطي الظالم. وفيه أيضاً: إنجاء موسى ﷺ من القتل، حيث جاء الرجل الصالح من أقصى المدينة لنصرة موسى ﷺ ونصحه بالخروج حتى لا يقتل.

المقطع الرابع: اللجوء إلى مدين، والزواج من ابنة الرجل الصالح

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة ظاهرة، فلا يزال الحديث حول شباب موسى ﷺ، ولجوئه إلى مدين، ثم تعرّفه على الرجل الصالح، الذي عرض عليه العمل أجيراً مقابل الزواج من إحدى ابنتيه.

التفسير الإجمالي:

هدى الله سبحانه وتعالى عبده موسى ﷺ إلى طريق مدين بعد توجهه إليها، فنجا من فرعون وجنوده، حتى وصل إلى مكان الماء الذي يستقي منه أهل مدين لأنفسهم وأنعامهم، فشاهد منظراً لفت انتباهه، فبينما تزاحم الرعاء على الماء كلهم يريد أن يسقي أنعامه إذا بامرأتين

تذودان[(١)] وتبعدان أغنامهما عن السقي!، وقيل: تمنعان غنمهما أن تختلط بأغنام الناس[(٢)] فسألهما عن حالهما، فأجابتاه بعذر المرأة المحتشمة ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فالسبب كونهما امرأتين فلم ترغبا في مزاحمة الرجال، أو لم تتمكنا من مزاحمة الرجال لضعفهما[(٣)]، وقد اضطرتا لسقي الماشية لأن أبوهما شيخ كبير لم يعد يستطيع ذلك.

فقام موسى عليه السلام بشهامته المعهودة [(٤)] في السقي لهما[(٥)]، ثم جلس في الظل يستريح، وقام بمناجاة ربه الذي أكرمه وتعهده منذ ولادته قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

والخير الذي أنزله الله تعالى إليه كثير، فمن ذلك أن نجاه من القتل حين كان صغيرا، ورباه في بيت الملك، وجعله قوياً حسن الخِلقة، ونجاه من القوم حين قرروا قتله، وهداه الطريق إلى مدين حين خرج هارباً. ولذلك أظهر فقره الآن أمام الله تعالى إلى مثل هذا النوع من الخير والإحسان.

فاستجاب الله دعاءه، وهيأ له الرجل الصالح ليستضيفه شكراً على مساعدة ابنتيه، ثم هيأ الله تعالى له عملاً ومأوى وطعاماً وزوجة، وكل هذا لدى رجل من الصالحين[(٦)]، وكل هذا

---

(١) الذَّوْدُ: السَّوْق والطرد والدفع. ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (ذ ود).

(٢) تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (٣/ ١٩١).

(٣) ينظر: معالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٢٠٠)، وأحكام القرآن، لابن العربي (٣/ ٤٩٣).

(٤) كما مرّ في نصرته للإسرائيلي.

(٥) في المصنف لابن أبي شيبة (١١/ ٥٣٠) أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم. وإسناده صحيح كما يقول ابن كثير. وليس العجب من قوة موسى عليه السلام الذي {بلغ أشده واستوى}، ولكن الظاهر من سياق الأثر أنه يخالف ظاهر سياق القرآن الكريم، بدليل قول المرأتين: {لا نسقي حتى يصدر الرعاء}، ولو كان كما في الأثر لما تمكنتا من السقي أصلاً. والله أعلم.

(٦) يرى بعض المفسرين أن الرجل الصالح في القصة هو شعيب عليه السلام، ينظر: جامع البيان، للطبري، =

بطلب من الرجل، وليس بطلب من موسى عليه السلام.

وذلك بأن أتت إليه إحدى المرأتين، تمشي على استحياء يزين المرأة ويدفع عنها سوء الظن ووساوس الشيطان، فتقول له بعبارة في تأدب ووضوح: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة [١]، فالدعوة صادرة من أبيها، والغرض منها مجازاته ومكافأته على ما قام به من مساعدة المرأتين في السقي.

ويفهم من سياق القصة شدة حاجة موسى عليه السلام في هذه المرحلة[٢]، حيث دعا ربه وتضرع إليه، وأبدى فقره بين يديه أولاً، ثم أجاب إلى المكافأة دون تردد ثانياً[٣]، ومكافأة المحسن خلق

= (٢٠/ ٦٢)، ومعالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٢٠٠)، وغيرها.

وقد تعقب ذلك ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٠٥) فقال: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ها هنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده.

وقد تراجع سيد قطب في ظلال القرآن عن قوله بأن هذا الرجل هو شعيب عليه السلام، ورجح أنه شيخ آخر من مدين. (٥/ ٢٦٨٧) حاشية رقم (١).

وقد جزم ابن زمنين في تفسيره بأنه ليس شعيباً، ولكنه كان سيد أهل الماء يومئذ. ينظر: تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (٣/ ١٩١).

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٠٤).

(٢) هكذا حال كبار النفوس مع الدنيا، فها هما أعظم رجلين في زمانهما، وهما من المصطفين الأخيار، وكلاهما ليس في يده من الدنيا إلا القليل، وما ذاك إلا صوناً للأنبياء عن الدنيا، ورفعة لدرجاتهم في الأخرى، والله أعلم. ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٣/ ٢٦٧).

(٣) يلحظ عدم التردد من التعقيب بالفاء في قوله تعالى {فلما جاءه}، والله أعلم. ولدى الكاتب بحث يصدر قريباً إن شاء الله تعالى حول: اللفظين: {ولما} و{فلما} وعلاقتهما بالمعنى في القرآن الكريم، سورة يوسف عليه السلام أنموذجاً.

كريم، وقبول المكافأة لا عيب فيه[١].

قص موسى ﷺ قصصه على الرجل الصالح، فبشره بالأمان والنجاة من أتباع فرعون الظالمين. وهنا تتحدث إحدى المرأتين إلى أبيها كي يستأجر موسى ﷺ للعمل في السقي، معللة ذلك بحكمة سارت مثلاً: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، وهذا كلام حكيم، فلا خير في قوة بلا أمانة، ولا كبير فائدة من أمانة بلا قوة، قال أبو حيان: وقولها كلام حكيم جامع لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر فقد تم المقصود[٢]. قال ابن مسعود ﷺ: أفرس الناس ثلاثة،...، وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[٣].

قال شريح القاضي واصفاً أمانته: أمرها أن تمشي خلفه، وغضّ عنها بصره[٤]. وقد

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٦٨). وقد ورد في بعض الروايات أن موسى ﷺ رفض أن يقبل ضيافة الرجل الصالح خوفاً من أن تكون عوضاً لما سقي لهما، وهو لا يبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً. ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٣/ ٣٩٦).

وفي هذه الرواية تكلف شديد، بل إن ظاهرها يخالف ظاهر الآيات، حيث استجاب موسى ﷺ لدعوة الرجل ليجازيه على ما فعل، والله أعلم.

(٢) وهو كلام جرى مجرى المثل. البحر المحيط، لأبي حيان (٧/ ١١٤).

(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣/ ٢٧٣)، وأخبار المدينة، للنميري (١/ ٣٥٥)، وتفسير القرآن العظيم مسنداً، لابن أبي حاتم، سورة القصص، برقم (١٦٨٣٨).

(٤) أخرجه ابن وهب في تفسير القرآن من كتابه الجامع (١/ ٩)، وقارن بـ: لباب التأويل، للخازن (٤٠٣).

وتعقبه سيد قطب في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٨٨) فقال: ولا حاجة لما رواه المفسرون عن دلائل أمانته من قوله للفتاة: امشي خلفي ودليني على الطريق خوف أن يراها، فهذا كله تكلف لا داعي له، ودفع لريبة لا وجود لها. وموسى ﷺ عفيف النظر نظيف الحسن، وهي كذلك. رغم أنه قال قبل ذلك بقليل (٥/ ٢٦٨٧): (ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته)، ولم يبين ما الذي رأته وأين. والذي يهم في التفسير هو وصفها له بالأمانة لشيء رأته أو لاحظته، سواء أكان تصرفاً منه =

وصف القرآن الكريم موسى عليه السلام بالأمانة، فقال على لسانه مخاطباً فرعون: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الدخان:١٧-١٨].

تتوالى نعم الله تعالى على موسى عليه السلام، حيث يعرض عليه الرجل الصالح الزواج من إحدى ابنتيه الموجودتين أمامه، ليس مقابل المال الذي لا يملكه الفقير إلى ربه موسى عليه السلام وإنما مقابل العمل أجيراً عنده لمدة ثمانية أعوام، أو عشرة أعوام إذا أراد الإكرام(١)، دون مشقة منه في العمل أو المدة على موسى عليه السلام، مع التأكيد على التساهل معه بقوله ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

وافق موسى عليه السلام على هذا الشرط، وجعل الأمر بينهما على التساهل والتراضي، مع التأكيد على حق موسى عليه السلام في قضاء أي من الأجلين دون تبعية عليه في ذلك ﴿ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾، قال القاسم بن محمد: ما أبالي أي ذلك كان، إنما هو موعد وقضاء(٢).

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* جواز مباشرة المرأة الأعمال والسعي في طرق المعيشة، مع الستر والحياء(٣).
* في الآيات دليل على أن شكوى الضر إلى الله تعالى مباحة، وسؤاله الغوث جائز، وليس على من أصابه ذلك أن ينتظر إتيانه من الله قبل المسألة اعتماداً على أن الله جل جلاله يعلم حاله فيأتيه برزقه، فمثل هذه المسألة لا تؤثر في درجات المتوكلين، بل هي زيادة في

= معها أو مع غيرها، وهذا يكفي في التفسير، والله أعلم.

(١) علل البقاعي سبب تعيين ثماني حجج بقوله: (وكان تعيين الثماني لأنها - إذا أسقطت منها مدة الحمل - أقل سن يميز فيه الولد غالباً، والعشر أقل ما يمكن فيه البلوغ، لينظر [الرجل الصالح] سبطه إن قدر فيتوسم فيه بما يرى من قوله وفعله)، نظم الدرر (١٤/ ٢٧١).

(٢) أخرجه ابن وهب في تفسير القرآن من كتابه الجامع، (٢/ ٣٤-٣٥).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٠١).

درجاتهم[١].

* جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوجها رغبة في صلاحه[٢].

* في القصة دليل على أن من تطوع بعمل لآخر فعليه أن يطعيه أجراً على سبيل المروءة وحسن الخلق لا على سبيل الفرض، إلا أن يمتنع من أخذه[٣].

* وجواز أمور منها: ولاية الأب في النكاح، وجعل العمل البدني مهرا، وجمع النكاح والإجارة في عقد واحد، ومشروعية الإجارة[٤]، وقد استوفى القرطبي الكلام عليها[٥].

* جواز تزكية النفس لغرض الدَّيْن أو المعاملة، لأنه لغاية حسنة، كما قال يوسف ﷺ: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف، من الآية: ٥٥]، وأما تزكية النفس المنهي عنها فهي ما قصد به الفخر والتمدح[٦].

* يحكم على الإنسان بظاهره، كما استدلت المرأة على عدل موسى ﷺ وأمانته من ظاهر عمله[٧].

* الحرص على الفضائل والأخلاق الحسنة، كالتي كان عليها موسى ﷺ، من صنع المعروف وإغاثة الملهوف، والرأفة بالضعيف، والزهد والقناعة، وشكر الله تعالى، والرغبة في عشرة

---

(١) نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٥٤).

(٢) ينظر: أحكام القرآن، لابن العربي (٣/ ٤٩٤)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٠٦).

(٣) نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٥٥).

(٤) ينظر: نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٦١-٥٦٢)، وأحكام القرآن، لابن العربي (٣/ ٤٩٤)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٠١).

(٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٣/ ٢٧١ وما بعدها)، وينظر: نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٦١-٥٦٤)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٠٧). وقارن بـ: أحكام القرآن، لابن العربي (٣/ ٤٩٤-٥١١).

(٦) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٠٩).

(٧) ينظر: نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٥٦).

الصالحين، والوفاء بالعهد، وكالتي كان عليها الرجل الصالح من كرم الضيافة، وتأمين الخائف، والرفق في المعاملة[١].

* يمكن للعاقل أن يلتمس جوانب الشبه بين أخلاق النبي ﷺ وما عرف به من زكي الخصال وكريم الفعال، وأخلاق الأنبياء من قبله، وبين زواجه صلى الله عليه وسلم من أفضل نساء قومه، وزواج موسى ﷺ من ابنة الرجل الصالح من مدين. وفي هذا إشارات واضحة وإرهاصات بينة على نبوة محمد ﷺ[٢].
* الترغيب في الخير، والحث على المعاونة على البر، وبذل المعروف للغير[٣].
* وجوب تأسي المسلمين بأخلاق الأنبياء والصالحين، وخصوصاً أخلاق أفضل الأنبياء محمد ﷺ[٤].
* جواز قبول المكافأة، ولا غضاضة في ذلك، والمكافأة من شيم الكرام [٥].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فقد تولى الله تعالى رعاية أوليائه، فأرشد موسى إلى الطريق، وهيئ له عملاً وسكنا وطعاماً وزوجة، وهيئ للرجل الصالح نسيباً صالحاً، وعاملاً قوياً أميناً، وكفى المرأتين الخروج ومزاحمة الرجال.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١١٠).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١١٠-١١١).
(٣) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٦٧).
(٤) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١١١).
(٥) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٦٨).

المقطع الخامس: بعثة موسى وأخيه هارون عليهما السلام، وتأييدهما

قال الله تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

المناسبة ظاهرة، فبعد الحديث عن شباب موسى عليه السلام وتعرّفه على الرجل الصالح، وبعد انتهاء مدة عمله أجيراً وزواجه من المرأة، ينطلق في طريقه عائداً إلى أهله في مصر، حيث يأتيه الوحي من الله تعالى، ويكلف بالرسالة، ويرسل إلى فرعون وملئه لدعوتهم إلى عبادة الله تعالى بعد فسقهم وخروجهم عن طاعته سبحانه وتعالى.

التفسير الإجمالي:

قضى موسى عليه السلام الأجل الأوفى وهو عشر سنين، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قضى أكثرهما وأطيبهما)[1]، ثم سار بأهله راجعاً إلى قومه بمصر. وفي طريق العودة رأى

---

(١) ينظر: الكتاب الجامع الصحيح، للبخاري، كتاب: الشهادات، باب: من أمر بإنجاز الوعد (٢٦٨٤).
وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عدة آثار مرفوعة منها: (عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا أبا ذر، إن سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل: خيرهما وأوفاهما)، وأخرج عن عكرمة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ سأل جبريل: أي الأجلين قضى موسى، فقال: =

ناراً فأنس برؤيتها، إذ تدل على وجود أناس حولها، يمكنه أن يسألهم عن الطريق أو يعطوه جذوة أو عوداً غليظاً مشتعلاً ليوقد به ناراً يتدفأ هو وأهله بها. وليس في هذا دليل على أن الوقت كان شتاءاً، وإن كان يستأنس به، لأن ليل الصحراء بارد.

عندما وصل موسى عليه السلام إلى النار سمع نداءاً من الجانب الأيمن للوادي ﴿ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ ﴾، وكان النداء صادراً من الشجرة(١). كانت بداية الوحي إلى موسى عليه السلام، حيث ناداه الله تعالى قائلاً: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

ثم أمره الله تعالى أن يلقي عصاه ليريه من آياته سبحانه(٢)، فألقاها موسى عليه السلام ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴾ [الشعراء: ٣٢]. وقع الخوف في نفس موسى عليه السلام، عندما رأى هذه الحية العظيمة، وهي على كبر حجمها وضخامتها كانت تهتز وتتحرك بسرعة وخفة ﴿ كَأَنَّهَا جَآنّٞ ﴾ أي: حية صغيرة!، فما كان من موسى عليه السلام إلا أن انطلق هارباً خوفاً منها، ولم يلتفت إلى جهتها وهي خلفه، كناية عن شدة التصميم على الهرب والإسراع فيه خوفاً من أن تلحق به(٣). فناداه الله تعالى ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ ﴾ وتقدم جهة الحية ﴿ وَلَا تَخَفۡ ﴾ منها، وطمأنه بقوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴾، وذلك لأن النفس لا تنسى الخوف بسرعة وسهولة.

ثم أمره الله تعالى بقوله ﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ ﴾، أمره الله تعالى أن يدخل يده في شق ثوبه

= أتمها وأكملها. ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم الرازي، رقم (١٦٨٦٤، ١٦٨٦٥)، وما بعدها. وقارن بـ: المستدرك على الصحيحين، للحاكم (٢/ ٤٤٢)

(١) اختلف في نوع الشجرة المذكورة، فقيل كانت سمرة، وقيل عوسجة، أو من العليق، أو العناب. ولا فائدة من تعيين نوعها.

(٢) ذكر بعض المفسرين هنا أقوالاً ورويات عن هذه العصا ومصدرها. ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٠/ ٦٦-٦٧)، ومعالم التنزيل، للبغوي (٦/ ٢٠٤-٢٠٥). وليس فيها حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، ولا يترتب على معرفة نوعها ومصدرها فائدة تذكر. بل الذي يسبق إلى ذهني أن كونها عصا عادية أقرب، وأظهر للإعجاز. والله أعلم.

(٣) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٨٠).

ثم يخرجها، فإذا هي بيضاء بياضاً خارقاً للعادة، بخلاف البياض الذي يكون من سوء ومرض نحو البرص وأثر الحريق وغيره، وأمره بقوله ﴿ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ ﴾، والجناح هو العضد أو اليد كلها(١)، وفي تفسير هذه الجملة قولان؛ أحدهما على أن المراد أن يدخل يده مرة أخرى في الرهب، وهو الكم(٢)، لتعود إلى لونها الطبيعي كما كانت، وثانيهما على أن المراد أن يضم يده إلى صدره كي يذهب خوفه من الحية، أو خوفه من آل فرعون(٣). والظاهر أن المراد أعم من هذا، وهو أن موسى عليه السلام أمر إذا خاف من شيء أن يضم يده إلى صدره ووعده أنه إذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف(٤).

كانت العصا واليد آيتين عظيمتين وبرهانين ساطعين من الله تعالى أظهرهما على يد موسى عليه السلام، وأرسله بهاتين الآيتين إلى فرعون وملئه بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى. وهنا تذكر موسى عليه السلام النفس التي قتلها فخاف أن يقتلوه بها(٥)، فطلب من الله تعالى أن يرسل

---

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (ج ن ح).

(٢) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (ر هـ ب).

(٣) تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (٣/ ١٩٣).

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٢١٤). قال ابن كثير بعده: (وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده، فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة)، وقارن بمعالم التنزيل، للبغوي (٦/ ٢٠٧)، ولباب التأويل، للخازن، (٣/ ٤٠٥).

(٥) خوف الأنبياء من ظلم قومهم لا ينقصهم من قدرهم شيئاً، إذ أنهم لم يتركوا الدعوة خوفاً، وإنما استفسروا عن الأمر كيف يكون؟، كما قال النبي ﷺ في الصحيح (مسلم: ٢٨٦٥): (وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً). وكأن مراد الأنبياء عليهم السلام الاستفسار عن الأمر هل يجري على العادة أم لا؟، فإن كان يجري على العادة وطنوا أنفسهم على الموت في سبيل الله، وإلا ذكر لهم الأمر الخارق فيكون بشارة لهم ليمضوا في الأمر على بصيرة. ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾. ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٨٥).

معه أخاه هارون[١]، ﴿ رِدْءًا ﴾ أي: زيادة[٢]، كي يعينه على مشاق الرسالة، ويقف معه عندما يكذبه المعاندون، فيشرح لهم إذ هو أفصح لسانا[٣] من موسى ﷺ[٤].

استجاب الله تعالى لطلب موسى فأرسل معه أخاه هارون عليهما السلام[٥]، ووعده

---

(١) ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منّة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣١٥).

(٢) أخرجه ابن وهب في تفسير القرآن من كتابه الجامع (١/ ٢٥).

(٣) قال البقاعي في نظم الدرر (١٤/ ٢٨٣): (... فاشترط لنفسه حتى رضي، وتلك كانت عادته ثباتا وحزما، وحلما وعلما، ألا ترى إلى ما فعل معنا ﷺ والتحية والإكرام من الخير ليلة الإسراء في السؤال في تخفيف الصلاة).

(٤) قيل: بسبب العقدة التي حصلت له في طفولته عندما اختبره فرعون، فوضع موسى ﷺ الجمرة في فمه. وقد يكون في هذا القول شيء، إذ سأل موسى ﷺ ربه أن يحلل عقدة لسانه قبل أن يطلب وزارة أخيه ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [طه، ٢٧-٣٠]، والله أعلم. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره هذا القول ولم ينتقده (٦/ ٣١٥). ونقل محققوا معالم التنزيل للبغوي في الحاشية (٦/ ٢٠٧) انتقاد ابن كثير لهذا القول في البداية والنهاية (١/ ٣٠٠-٣٠٧)، وقد رجعت إليه فوجدته انتقاد لخبر طويل يعرف بحديث الفتون، فيه جوانب من قصة موسى ﷺ، والظاهر أنه من الإسرائيليات وفي بعضه نكارة. فتعليق ابن كثير كان منصباً على بعضه لا كله، والله أعلم.

(٥) في سبب اختيار الله سبحانه سن الأربعين لبعثة الأنبياء حكمة عظيمة، لأن الإنسان يكون إلى رأس الأربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الإنسان منجذبا إليها، فإذا انتهى إلى الأربعين أخذت القوى الجسمانية في الانتقاص والقوة العقلية في الازدياد فهناك يكون الرجل أكمل ما يكون، فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحي (مفاتح الغيب، للرازي (٢٤/ ١٩٩)). وفي اختيار هذا السن إعجاز أيضاً، وتأكيد للناس على صدق المرسلين، لأن هذا السن هو بداية الانتكاس في الخَلْق، قال: تعالى ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾ [يس، ٦٨]، فلا يزاد بعدها في قواه الظاهرة ولا الباطنة شيء، بل يبدأ في التناقص، وهي سنة الله تعالى في جميع بني آدم، إلا الأنبياء، فإنهم في هذه السنّ يؤتون من بحار العلوم بغير اكتساب، ويؤتون من قوة الأبدان كذلك، ففي وقت انتكاس غيرهم يكون نموهم (ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٥٤)).

الحماية والتأييد، وبالنصر له ولأتباعه[١].

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* الرسالة اصطفاء واختيار من الله تعالى، ولا يمكن تحصيلها إلا بذلك.
* يأتي الوحي بالرسالة بغتة، كما نودي موسى عليه السلام بجانب الطور، وكما نودي محمد ﷺ في غار حراء، وكلاهما اعتراه الخوف منها، ثم ثبته الله تعالى[٢].
* فيه إشارة إلى أن الله تعالى سيحمي محمداً ﷺ من أعدائه، كما حمى موسى وهارون عليهما السلام من فرعون وأتباعه[٣].
* الغلبة والنصر لأتباع الأنبياء عليهم السلام على أعدائهم.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فقد أكرم الله موسى عليه السلام بالرسالة، وكلفه أداء الأمانة، وأظهر على يديه الآيات المعجزات، وأمنه من خوفه، وأمره بالذهاب بالآيات إلى فرعون وملئه لدعوتهم وأرسل معه أخاه هارون عليه السلام مؤيداً ومعيناً، وتكفل بحمايتهما ورعايتهما، ووعدهما وأتباعهما بالنصر والتأييد.

---

(١) قال البقاعي: (وهذا يدل على أن فرعون لم يصل إلى السحرة بشيء مما هددهم به، لأنهم من أكبر الأتباع الباذلين لأنفسهم في الله)، نظم الدرر (١٤/ ٢٨٦). وليس في هذه الآية دليل على ذلك، إذ لا يلزم من قوله تعالى ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ دخول جميع الأتباع فرداً فرداً فيها، فلا يقتل منهم أحد، وإنما المراد الأتباع بجمعهم، فلا يمنع من أن يصل الأذى إلى بعضهم، وهذا مشهور في التاريخ والسير، والله أعلم.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١١٨).

(٣) المرجع السابق.

المقطع السادس: بدء الدعوة، وتكذيب فرعون وجنوده لها ونزول العقاب بهم

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةًۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة ظاهرة، فبعد تكليف موسى ومعه هارون عليهما السلام بالرسالة، انطلق موسى عليه بالآيات البينات التي أظهرها الله على يديه إلى فرعون ملئه، فكذبوا واستكبروا، فعذبهم الله تعالى، وكانت عاقبتهم كعاقبة كل ظالم.

التفسير الإجمالي:

انطلق موسى ومعه أخوه هارون عليهما السلام، مستجيباً لنداء الله تعالى وتكليفه، عائداً إلى مصر، إلى فرعون وملئه، ومعه الآيات البينات التي أظهرها الله على يديه؛ العصا واليد البيضاء.

وقد كان توقع موسى عليه السلام لموقفهم من الدعوة صائباً، فقد كذبوه واتهموه بالسحر والافتراء، وتمسكوا بالشبهة المتكررة وهي تقليد الآباء، وقالوا عن معجزاته ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ

مُّفْتَرًى ﴾ أي: مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، فما يستطيعوا[١].

وقد اختصرت السورة تفاصيل المواجهة بين موسى عليه السلام وفرعون، وهي مبسوطة في سور أخرى، وإنما ركّزت على إبراز جانب العلو والاستكبار عند فرعون وملئه، وجانب القدرة الإلهية على الانتقام من الظلمة وهم في أوج كبريائهم وطغيانهم.

ويظهر جانب الغش والخداع من فرعون لقومه وملئه، حيث أظهر نفسه بمظهر المنصف الباحث عن الحق، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾، وحتى يمعن في التشكيك أمر وزيره أن يبني له بناء عالياً لكي يصل إلى إله موسى الذي يدعوهم إليه، رغم أنه يظن أن موسى عليه السلام من الكاذبين – حاشاه عليه السلام –.

وهنا نلحظ جانباً آخر من نفسية فرعون وطريقة خداعه لشعبه، وهي تشبه كثيراً ما يفعله الجبابرة والطغاة في كل زمان، ويبدو أن فرعون لجأ إلى هذا الأسلوب بعد فشله في المواجهة الأولى مع موسى عليه السلام، والتي مرت في أول سورة الشعراء[٢].

والعجيب أن تصرف فرعون هذا ينسجم مع نفس الحماقات التي قام بها من قبل، حيث ظن هنا أنه يستطيع أن يبني بناء يصل إلى السماء[٣]، ثم على تقدير وصوله إلى السماء وصعوده على ظهرها على عظمتها فهل كان يظن أنه سيتمكن من منازعة بانيها وخالقها؟[٤].

وهكذا يواصل فرعون وجنوده استكبارهم في الأرض بغير الحق، غافلين عن الحياة الآخرة، ظانين أن لا بعث ولا حساب، فحق عليهم من الله العذاب، فأخذه الله تعالى وجنوده فقذفهم في

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣١٦).

(٢) ينظر: سورة الشعراء، الآيات: ١٦-٣٥.

(٣) وهذا لا ينسجم مع الرأي الشائع من أن قوم فرعون بلغوا مبلغاً عالياً من المعرفة بالفلك والنجوم، فعلى هذا الافتراض فإن فرعون قال قولاً يستهزئ به قومه العارفون بحقائق الفلك، ولم يجرؤ أحد من الملأ على تبيان ذلك لفرعون.

(٤) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٢٩٦).

اليم كما تقذف الحجارة الصغيرة، وجعلهم عبرة لأولي الألباب، وهكذا (ذهبوا في طرفة عين كأن لم يكونوا، وغابوا عن العيون كأنهم قط لم يبينوا، وسكتوا بعد ذلك الأمر والنهي فصاروا بحيث لم يبينوا، فليحذر هؤلاء الذين ظلموا إن استمروا على ظلمهم أن ينقطعوا ويبينوا)[١].

وهكذا كانت عاقبة الظالمين، حيث جعلهم الله تعالى أئمة في الظلم والفساد، والدعوة إلى النار، أي: صاروا ولاة[٢] وقادة في ذلك، وأصبحوا مثلاً يوصم به أهل الظلم والضلال، والكفر والطغيان، دون أن ينفعهم أتباعهم وأعوانهم، بل يتبرؤون منهم يوم القيامة، وربما تبرؤوا منهم في الدنيا وأظهروا الندامة، واستحقوا التابع والمتبوع جميعاً اللعنة في الدنيا والفضيحة يوم القيامة، نسأل الله تعالى العافية والسلامة.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* في الآيات دليل على أن ما أقيم عليه البرهان فهو حق، وإن لم يسبق به قول متقدم، وأن الراد لما لم يسبق به قول متشبه بهؤلاء القوم[٣]، فهؤلاء حكموا العادات والتقاليد القديمة على الحقائق والبراهين القائمة[٤].
* تشابه أحوال أهل الضلال في الإعراض والاستكبار، وإنكار الحق وتكذيب أهله[٥].
* الإمامة قد تكون في الشر، كما تكون في الخير، لأن معناها أن يصير المرء قدوة يؤتم به فيما يقول ويفعل[٦].

١- تشابه أحوال أهل الضلال في طلب المحال، كما أراد فرعون أن يطلع إلى الإله، وطلب

(١) تعبير أدبي للبقاعي في نظم الدرر (١٤/ ٢٩٧-٢٩٨).
(٢) تفسير القرآن من كتاب الجامع، لابن وهب، (٢/ ١٦٤).
(٣) نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٦٥).
(٤) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي، (١٤/ ٢٩٢).
(٥) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٢٥-١٢٦).
(٦) نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٦٩).

مشركو قريش أن يروا الله تعالى جهرة، وتشابه أحوالهم في إنكار البعث[١].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فقد خسر فرعون المواجهة والمحاجة مع موسى ﷺ، ولجأ إلى الخداع والمراوغة، وتكبر وطغى، فعاقبه الله تعالى عقاباً شديداً، وأغرقه وجنوده في اليم، وهكذا هي عاقبة الظالمين. كما جُعل فرعون مثلاً يضرب لكل مجرم وجبار وطاغية، تتنزل اللعنات عليه وعلى أتباعه كل حين، ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾.

المقطع السابع: إيتاء الكتاب المقدس لموسى ﷺ، والقرآن الكريم لمحمد ﷺ، وتكذيب الكفار لهما

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى
ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ (٤٤) وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا
فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ
نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
(٤٦) وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ (٤٨) قُلْ
فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ
فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٥٠) ﴾.

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠/ ١٢٦).

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة ظاهرة، حيث تواصل آيات السورة الحديث عن قصص موسى ﷺ، فبعد قصة المواجهة مع فرعون وإغراقه وملئه في اليم، تتجه الآيات بالحديث إلى إيتاء التوراة لموسى ﷺ، والمنة على بني إسرائيل به، وتربط ذلك بإيتاء القرآن الكريم لمحمد ﷺ، والمنة على مشركي العرب به، وتتحدث الآيات عما لاقاه الكتابان التكذيب من الكفار.

التفسير الإجمالي:

يبدأ هذا المقطع بواو القسم مع (قد) التي جاءت هنا تفيد التحقيق أو تفيد التوقع[١] وذلك لأن حال كفار قريش كحال المنكر لحقيقة القدرة الإلهية على نصرة المستضعفين، إذ كذبوا النبي ﷺ وعذبوا أصحابه وأنكروا كتابه، فاحتاج السياق إلى تأكيد الخبر بالقسم.

والتوراة هي أول كتاب أنزل من الله تعالى متضمناً لتفاصيل الفرائض والأحكام، ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام، ١٥٤]، ولهذا عبر عنها بلفظ ﴿ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾. جاء نزول التوراة بعد أن أهلك الله القرون الأولى من المكذبين من قوم نوح ﷺ إلى فرعون وملئه، وفي السياق إشارة إلى أنه لا يعم أمة من الأمم الهلاك بعد إنزالها[٢]، وفيه إشارة بالوعيد والتهديد للمكذبين الظالمين، كي يتذكروا ما جرى للسابقين[٣].

---

(١) اقتصر البقاعي على معنى التوقع هنا، وعلله بأن العرب وإن كانوا مصدقين لما وقع من المنة على بني إسرائيل بإنقاذهم من فرعون وإنزال الكتاب عليهم، فحالهم بإنكار التمكين لأهل الإسلام والتكذيب بكتابهم حال المكذب بأمر بني إسرائيل. ينظر: نظم الدرر (١٤/ ٣٠٠-٣٠١).

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٠١).

(٣) ذكر البقاعي هنا أن في قوله تعالى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ إشارة إلى أنه ليس في الشرائع ما يخرج عن العقل، بل متى تأمله الإنسان تذكر به من عقله ما يرشد إلى مثله، نظم الدرر (١٤/ ٣٠٢)، وقد يفهم من العبارة غير ما قصده البقاعي رحمه الله تعالى، فهو لا يقصد استقلال العقل بمعرفة ذلك، وإنما دلالته على ما جاء به الوحي. وقد صرّح بهذا في موضع آخر (١٤/ ٣٠٦-٣٠٧) فقال إنهم (إذا قبلوا ما جئت به وتدبروه أذكرهم إذكاراً ظاهراً ... ما في عقولهم من شواهده، وإن كانت لا تستقل بدونه).

وهنا تقرر الآيات حقيقة رسالة محمد ﷺ، الذي جاء بالقرآن العظيم وقال إنه من عند الله تعالى، وأخبر فيه عن أحوال الأمم السابقة كقصص موسى عليه السلام وأخبار موسى وفرعون، وما جرى بينهما قبل البعثة وبعدها، وهذه الأخبار لم يكذبها الأحبار من بني إسرائيل، ولم يعرفها النبي ﷺ من قبل الوحي، فدل دلالة قاطعة للمنصف على أن القرآن من عند الله تعالى، فما كان النبي ﷺ بجانب الجبل عندما بعث موسى عليه السلام بالرسالة، ولم يكن ممن شهد نزول التوراة على موسى عليه السلام[١]، كما لم يكن ممن شهد غير ذلك من المواقف في حياة موسى عليه السلام ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، كما لم يأخذ هذه المعلومات ممن شهدها أو عرفها[٢]، بل إن هذه الأخبار قد حرفت وبدلت ونسي بعضها بسبب مرور الأيام والقرون، فلم يبق إلا أن يكون النبي محمد ﷺ أخذه من الخالق سبحانه وتعالى الذي أرسله وأنزل عليه القرآن رحمة من عنده لينذر به[٣].

ثم بينت الآيات جانباً من حكمة إرسال الأنبياء، وهو قطع حجة الكفار وتعللهم عند نزول العذاب بعدم مجيء الرسول إليهم وتباعد الفترة بينهم وبين الرسل السابقين.

وهي حجة باطلة وكاذبة في نفس الوقت، فأهل الضلال يتشبثون بالشبهات لرد الحقائق والآيات، ولو أرادوا الإيمان لكفتهم آية واحدة، بل لو عادوا إلى فطرتهم لعرفوا الحق واتبعوه دون لجاج.

ولهذا انتقل الحديث إلى بعثة النبي ﷺ، والحق الذي جاء به متضمنا آيته العظمى وهي القرآن الكريم، فماذا فعلوا لما جاءهم الحق؟، كفروا به كما كفر من قبلهم، ولجؤوا إلى حيلة أخرى وهي المقارنة بين آيات موسى عليه السلام وآيات النبي محمد ﷺ وطالبوا بآيات شبيهة لآيات موسى عليه السلام ﴿قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾. وهذا طلب

---

(١) مع السبعين الذين حضروا مع موسى عليه السلام كما في قوله تعالى ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف، ١٥٥].

(٢) وهو ما يعرف بالإعجاز بأخبار الغيب الماضية.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٢٠-٣٢١).

يقصد به المجادلة فقط، فقد كفر الناس بموسى عليه السلام رغم كثرة آياته وتنوعها، واتهموه بالسحر، فاتباع الناس للأنبياء ليس مرتبطاً بكثرة الآيات، بل بنوعيتها، كما قال النبي ﷺ: (مَا مِنْ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[1]، فمعجزة النبي ﷺ عقلية باقية إلى قيامة الساعة، بخلاف معجزات موسى عليه السلام التي انقطعت في وقتها.

وهكذا يكون موقف الطغاة من الدعوة والدعاة في كل الأوقات، ﴿ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا ﴾ أي: تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر[2]، ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾ حيث وصفوا التوراة والقرآن بالسحر كما روي عن ابن عباس وغيره[3]، أو: اتهموا موسى وهارون عليهما السلام بالسحر، أوالمعنى أنهم اتهموا موسى ومحمد عليهما السلام بالسحر والاتفاق على ما جاءا به، وهو الأقرب والأليق بالسياق[4]. وهذه التهمة باطلة من كل وجه، إذ أن مجرد تظاهر السحرة واتفاقهم لا يجعل الأمر معجزاً خارقاً للعادة، ولكان تظاهر سحرة فرعون معجزاً لا يقدر موسى عليه السلام على ردّه.

وتنزّلاً معهم في المجادلة، وإظهاراً لعجزه وكذبهم في ادعائهم قال الله تعالى لنبيه أن يأمرهم بالإتيان بأي كتاب يزعمون أنه من عند الله تعالى ﴿ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ ﴾ أي: من التوراة التي جاء بها موسى عليه السلام والقرآن الذي جاء به محمد ﷺ، كي أتبع هذا الكتاب وأترك التوراة والقرآن، ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أن موسى ومحمد عليهما السلام ساحرين. ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ ﴾ يا نبي الله ولهذا الطلب المنصف ﴿ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ ولا يبحثون عن الحق والهدى، فيسيرون في الضلال والعمى، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم مسنداً، لابن أبي حاتم، تفسير سورة القصص، (١٦٩٥٩).

(٤) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٠٩)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٢٣).

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* بيان عاقبة أصحاب الحق، وعقاب أصحاب الباطل، فهنا إكرام موسى عليه السلام بالتوراة، وإهلاك الكافرين المعاندين.

* الإعجاز بأخبار الغيب الماضية من الأدلة على صدق النبي ﷺ وأن القرآن الكريم من عند الله تعالى، حيث لم يشهد النبي ﷺ هذه الأحداث، ولم يسمعها من أحد، وجاء بها مطابقة للواقع.

* إرسال الرسل لحكم عظيمة، منها: تبليغ شرع الله وإقامة الحجة على الناس، كي لا يقولوا ﴿ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

* اللجاج بالباطل والمغالطة هي من صفات الكافرين المعاندين، إذ بعد مجيء الحق إليهم على لسان النبي ﷺ ﴿ قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ﴾ رغم كفرهم بما جاء به موسى عليه السلام من الآيات.

* إن اتباع الهوى هو أقصر طريق إلى الضلال. وإن من صفات المؤمنين مخالفة هوى النفس ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النازعات: ٤٠].

* في الآيات دليل على أن ما قدمت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم، ولولا قبحه لم يكن سبباً لذلك[2].

* خطة الكفار واحدة في كل زمان، دأبهم المكابرة والعناد والإنكار، وطلب المعجزات المادية المحسوسة، وإنهم بالرغم من حدوثها لن يؤمنوا؛ لأن المكذب بمعجزة واحدة مكذب بكل المعجزات[3].

---

(١) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١١٧).

(٢) بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، (٣/ ٣٥٠-٣٥١).

(٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١٢١).

* حجة الكفار في تكذيب كتب الله تعالى ورسله واحدة أيضاً، وهي الاتهام بأن تلك الكتب سحر مختلق، وأولئك الرسل سحرة مبطلون، بل إنهم متواطئون على السحر والتدجيل ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[الكهف: ٥][1].

* قسمت الآية الناس إلى مستجيبين للرسول، ومتبع لهواه، فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة وعدل عنها إلى خلافها فقد اتبع هواه[2].

* في الآية دليل على أن الهوى قد يكون في الحق أيضاً، إذا كان فيه هدى من الله تعالى، وهدى الله في هذا الموضع حجته، وهي كتابه ورسوله ﷺ[3].

* إقامة الدليل على إعجاز القرآن الكريم، وأنه من عند الله تعالى، عبر تحدي الجميع لأن يأتوا بكتاب من عند الله تعالى فيه هداية وإرشاد، فيكون أهدى من التوراة والقرآن، فلم يفعلوا. وقد صرح بالتحدي في آيات أخرى كثيرة[4].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهنا يتواصل التأييد والكرم الإلهي لأتباعه، فيؤتي موسى عليه السلام التوراة فيها هدى ونور، ويؤتي محمداً ﷺ القرآن الكريم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، ويقيم الدلائل على صدق النبي ﷺ فيما جاء به عن ربه. كما تهدد الآيات الذين يعرضون عن الهدى ويتبعون الهوى.

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١٢١).

(٢) بدائع التفسير، لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٥١-٣٥٢).

(٣) ينظر: نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٧٠).

(٤) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١٢٣).

المقطع الثامن: الإشارة إلى مؤمني أهل الكتاب، وتحذير كفار قريش من الإعراض والركون إلى الدنيا، مع تذكيرهم بما أنعم الله عليهم من الأمن والخيرات

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ
هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟
ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا
تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ
نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ
تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا
رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن
شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة بين هذا المقطع والذي سبقه ظاهرة أيضاً، فبعد أن بين الله تعالى صدق النبي ﷺ وأنه جاء بالحق من الله تعالى، ذكر هنا نزول القرآن الكريم ووصوله إليهم تذكيراً لهم بما في الفطرة من توحيد الله وعبادته. كما نبّه إلى استجابة أهل الكتاب لهذا القرآن الذي جاء مصدقاً لما بين يديهم من خبر الأمم السابقة، وحذر كفار قريش من التكذيب والإنكار مع ما أنعم الله به عليهم من الأمن والخيرات، حتى لا يلاقوا مصير القرى التي كفرت بأنعم الله واغترت بمتاع الدنيا وزينتها، ونسوا أن ما عند الله خير وأبقى، ورغبّهم في اتباع النبي ﷺ للحصول على ما وعد الله به الصالحين من الجنة ونعيمها يوم القيامة بدلاً من الحساب والعقاب.

التفسير الإجمالي:

يبدأ هذا المقطع - كسابقه - بواو القسم مع (قد) التي جاءت هنا تفيد التحقيق، وذلك لأن كفار قريش برفضهم اتباع النبي ﷺ رغم كل الأدلة والبراهين التي جاءتهم وأخبار الغيب التي وصلتهم كانوا كأنهم منكرون لأن يكون جاءهم شيء من ذلك[١]، فأكد الخبر بالقسم.

ونبه إلى وصول القرآن الكريم إلى قريش خاصة وللناس عامة، عبر نزوله على النبي محمد ﷺ، لعلهم أن يتذكروا ويعودوا إلى فطرتهم التي جبلت على عبادة الله تعالى وتوحيده.

ثم جاءت الآيات التالية كجواب عن سؤال تقديره: هل تذكروا؟، لتشهد باستجابة الصادقين من أهل الكتاب لهذا القرآن، فهم أهل كتاب وعلم، وقد جاء القرآن مصدقاً لما بين أيديهم من خبر الأمم السابقة، كما تسجل الآيات شهادتهم للقرآن الكريم بأنه الحق من الله تعالى، مما يدل على صدق إسلامهم لله تعالى فيما مضى، وتسليمهم له فيما قضى، فعندما وصلتهم الرسالة الجديدة من الله تعالى على لسان خاتم الأنبياء ﷺ استجابوا لها وآمنوا بها، كما استجابوا وآمنوا من قبل ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾، ولهذا استحقوا ﴿ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾، لإيمانهم بالكتابين التوراة والقرآن، كما قال رسول الله ﷺ: {ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي} الحديث[٢]، أو لأنهم آمنوا بالنبي ﷺ إيماناً غيبياً قبل مجيئه، ثم آمنوا به عندما شاهدوه، وصبروا على ما عانوه جراء تبديل الكتاب والرسول والتشريع أو غير ذلك.

ثم تذكر الآيات بعض لوازم الصبر الحقيقي وصفات الصادقين من أهل الكتاب من درء [٣] السيئة من الأقوال والأفعال ودفعها بالأقوال والأفعال الحسنة، ودفع الأموال للمحتاجين.

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣١٣).

(٢) متفق عليه، البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤).

(٣) الدرء هو الدفع، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (د ر أ).

ولما ذكر أن بذل ما تضن به النفوس من فضول الأموال من أمارات الإيمان، أتبعه بذكر أن منع ما تبذله الألسن من فضول الأقوال هو من علامات العرفان(١)، لذا وصفهم الله تعالى بالانصراف عن اللغو وفضول اللسان وما لا ينفع من الكلام(٢)، فقال سبحانه ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾، أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم بل ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢](٣)، ثم بعد إعراضهم عنه قالوا - ربما على سبيل الموعظة والنصح لأصحاب اللغو -: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾، لا تجازون على أعمالنا، ولا نسأل عن أعمالكم، (لأن ذمكم لنا لا ينقصنا شيئاً من أجرنا، ولا الاشتغال برده [ينفعنا])(٤)، ثم أتبعوا ذلك بإلقاء السلام على أصحاب اللغو تطميناً لهم أن إعراضهم لا يعني أنهم سيسعون في أذيتهم، وإنما بعداً عن الجاهلين وأعمالهم.

وبعد الحديث عن إيمان الصادقين من أهل الكتاب تنتقل الآيات إلى تقرير حقيقة أزلية ربانية هي أن الهداية بيد الله تعالى، وليست بيد النبي ﷺ، وأن الله تعالى أعلم بمن كتب لهم الهداية سواء من قريش أو أهل الكتاب أو غيرهم.

وقد جاءت هذه الآية في هذا السياق لأن المعلوم أن العاقل يسعى في منفعة أحبائه وأقرب الناس إليه أولاً، ويحرص على ذلك، وبما أن الحديث قد سبق عن إيمان أهل الكتاب، ومعلوم أن أكثر قريش لم يؤمن وقتها، فلربما ظن ظان أن هذا بسبب تقصير من النبي ﷺ - حاشاه - في الدعوة أو بذل الجهد(٥)، فأتت هذه الآية لتقرر هذه الحقيقة المطلقة دفعاً لهذه الشبهة، وتسلية للنبي ﷺ، وذلك قبل الانتقال إلى تحذير كفار قريش من تكذيب النبي ﷺ وإنكار القرآن.

---

(١) تعبير أدبي للبقاعي، في نظم الدرر (١٤/ ٣١٦).

(٢) وهو نفس الوصف الذي وصف به المؤمنون من أمة نبينا محمد ﷺ في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣]، وقوله ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢].

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٢٦).

(٤) نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣١٦)، وفيه: (ولا الاشتغال برده ينقصنا)، ولعل الصواب ما أثبت.

(٥) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣١٧).

والهداية المنفية في الآية هي التي تكون بخلق الإيمان في قلب العبد، فهذه ليست إلا لله تعالى، وأما هداية الإرشاد والبيان فهي مثبتة لكل من قام بها، بل هي أساس إرسال الأنبياء، كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد ورد في سبب نزول الآية: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: (أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله)، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟، فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنه)، فنزلت: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[1].

ثم تتابع الآيات نقل أقوال قريش للنبي ﷺ فبعد قولهم السابق: ﴿ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾، يقولون هنا: ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾، أي: إننا نخاف إذا اتبعناك وآمنا بك أن تتخطفنا العرب لقلتنا وكثرتهم، والخطف: سرعة أخذ الشيء[2]. وقولهم هذا خلاف الواقع، فقد أنعم الله عليهم بالأمن والخيرات، في حلّهم وترحالهم، مع كثرة قطاع الطرق والعداوة بين العرب، بل الحق أن العرب سوى قريش كانت تعاني من ذلك، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، أما قريش فقد كانت آمنة بسبب البيت الحرام، ولهذا قال تعالى في سورة قريش: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش: ١-٤]، وقال سبحانه وتعالى هنا: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا ﴾، وقد أقر الإسلام الأمن في الحرم، فأمّن حتى الشجر والطير كما هو معلوم.

(١) متفق عليه، البخاري (٣٨٨٤)، واللفظ له، ومسلم (٢٤).

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (خ ط ف).

وبالإضافة إلى الأمن وهو النعمة العظمى فقد أكرم الله تعالى قريشاً بجلب الخيرات من ثمار وغلال وأنعام إليها بسبب الحرم أيضاً ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾، رزقاً من الله تعالى لهم وبشارة بالنبي ﷺ(١).

وبعد الامتنان عليهم بالأمن والخيرات حذرهم الله تعالى من الهلاك والويلات بسبب البطر والطغيان في النعمة(٢) وعدم شكرها وإنكارها، وحذرهم من ملاقاة مصير القرى التي كفرت بأنعم الله فعصوا الله الذي خولهم فيها فخالفوا أمره، وأنساهم الكبر بما أعطاهم ذكرَه(٣) واغتروا بمتاع الدنيا وزينتها، ونسوا أن ما عند الله خير وأبقى، فجاءهم العذاب وفجأهم فأهلكهم، وبقيت وراءهم مساكنهم، ﴿ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ من قبل بعض المسافرين والسائحين، كما قال تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣]، فلم يظلمهم الله سبحانه وتعالى شيئاً بل أرسل إليهم الرسل وأظهر الآيات وأنذرهم وأمهلهم ﴿ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر: ٣٧]، فإن الله تعالى أخذ على نفسه ألا يهلك القرى إلا بعد أن يبعث في مكة المكرمة (٤) وهي أعظمها وأشرفها رسولاً يدعو أهل القرى إلى عبادة الله تعالى(٥)، ويتلو عليهم آيات الله تعالى، فإن هم أبوا وظلموا أهلكهم الله

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٢٥)، فقد قال: (تؤطئة لنبوتك، وتمهيداً لرسالتك)، لكنه أضاف بعدها: (ومتى غبت عنهم غاب عنهم ذلك كله وسينظرون)!، ولم أفهم موقعها في السياق، والله أعلم.

(٢) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ب ط ر).

(٣) التعبير للبقاعي، نظم الدرر (١٤/ ٣٢٨)، بتصرف.

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣٠).

(٥) يحتمل سياق الآية أن يكون المراد عاماً، كما يحتمل أن يكون المراد بعثة النبي ﷺ في مكة أم القرى، ولعله الأقرب لقول الله تعالى بعده: ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾. ينظر: الكشاف للزمخشري (٣/ ١٧٥)، وتفسير=

تعالى بعد أن يعم ظلمهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾.

ثم تقرر الآيات حقيقة أخرى يفقهها العاقلون وغفلت عنها قريش عندما زعموا أن اتباعهم للنبي ﷺ سيؤدي إلى أذيتهم من قبل باقي العرب، ويغفل عنها كثير من الناس، وهي: أن الحياة الدنيا هي محطة مؤقتة، ومتاعها وزينتها زائلة، وما عند الله أفضل وأحسن بالإضافة إلى كونه دائماً لا ينقطع، فلا يمكن لعاقل أن يقارن بينهما، فكيف بالذي يفضل الدنيا على التي هي خير وأبقى، ولهذا ختمت الآية بالإنكار المغلظ عليهم بقوله تعالى ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، كأنه قال: على افتراض أن اتباعكم للحق الذي جاء به محمد ﷺ سيؤدي إلى حصول الأذى لكم وذهاب بعض متاع الدنيا وزينتها عنكم أفلا تعقلون أن ما سيكون لكم عند الله تعالى بالمقابل هو خير وأبقى؟. ثم أي الفريقين خير: الذي وعده الله وعداً حسناً سيلاقيه يوم القيامة يقيناً، أم الذي ركن إلى الدنيا واستمتع بها وبطر نعم الله تعالى مع أنه سيُحْضَر يوم القيامة للحساب على ما فعل؟

ففي الآية ترغيب لهم في اتباع النبي ﷺ للحصول على الوعد الحسن الذي وعد الله به أتباعه، وفي الآية أيضاً تهديد ضمني لهم من يوم الحساب والعقاب.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* إذا كان الإيمان بالله صحيحاً منسجماً مع الوحي الثابت الصحيح، سهُل التقاء رافدي الإيمان، كما آمن الصادقون من أهل الكتاب بنبوة محمد ﷺ وبالقرآن الكريم(١).
* للإيمان لوازم وتوابع، من عمل صالح وصبر وإنفاق في سبيل الله تعالى.
* من شأن المؤمن الصادق الابتعاد عن اللغو الذي لا فائدة فيه، وتجنب الجاهلين، والاشتغال بصالح الأعمال.
* وفي المقطع دليل على أن من آمن بمحمد ﷺ وكان قبل ذلك على شريعة من مضى لم يغير

= القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣١).

(١) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١٢٨).

ولم يبدل، فآمن به وبما جاء به، ضوعف له الأجر مرتين[١].

* الهداية بخلق الإيمان في القلوب هي من خصائص الله تعالى، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، سبحانه. وأما هداية الأنبياء والدعاة فهي هداية البيان والإرشاد.

* وفي الآية حجة على المعتزلة والقدرية[٢].

* البطر في العيش وكفر النعمة يستجلب غضب الله تعالى وعقابه، ويكون ذلك بسبب ظلمهم وطغيانهم.

* في الآيات دليل على أن النبي محمد ﷺ المبعوث من أم القرى هو رسول إلى جميع القرى من عرب وعجم، كما قال تعالى ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧][٣].

* لا مقارنة عند العاقل بين متاع الدنيا الزائل، وخير الآخرة الدائم. قال رسول الله ﷺ: {والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر ماذا يرجع إليه}[٤].

* سيقف الناس يوم القيامة أمام ربهم فيحاسبهم ويجازيهم، وسيحضر الذين استهوتهم متع الحياة الدنيا ولذائذها فأنستهم الآخرة والعمل لها، ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٨].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهنا الحديث عن استقبال طائفتين من الناس للقرآن العظيم، حيث كذبت به قريش، وآمن به الصادقون من أهل الكتاب، وفي هذا المقطع بيان لبعض صفات المؤمنين الصادقين.

---

(١) نكت القرآن الدالة على البيان، محمد بن علي الكرجي القصاب (٣/ ٥٧١).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٥٧١-٥٧٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣٠-٣٣١).

(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٨٥٨).

كما تتحدث الآيات عقوبة البطر والكفر بنعم الله تعالى، وحث الناس على عدم الانسياق وراء متاع الدنيا القليل الزائل، والسعي وراء نعيم الآخرة الدائم. كما تمهد الآيات لعاقبة الصنفين من الناس يوم القيامة.

المقطع التاسع: موقف المشركين يوم القيامة، ودعوتهم للتوبة، وتوحيد الله تعالى قبل فوات الأوان

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ
ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ
لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ
(٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ
إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ
(٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم
بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا
مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ
(٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا
يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾.

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة بين المقطعين ظاهرة، فقد ختم المقطع السابق بالترغيب فيما عند الله من الخيرات، والتهديد من الوعيد والويلات، وافتتح هذا المقطع بموقف من مواقف يوم القيامة لتأكيد

المعنى الذي سبق، كما ختم المقطع بموقف آخر من مواقف يوم القيامة، وتوسطهما موقف ثالث.

كما تضمن هذا المقطع تأكيد الترغيب الذي مر بالدعوة إلى التوبة والعمل الصالح قبل فوات الأوان ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾، والتحذير من مصير الكافرين الذين سيعلمون الحق بعد فوات الأوان ولن ينفعهم ما أشركوا بالله شيئاً ﴿ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

التفسير الإجمالي:

يصور هذا المقطع عدة مواقف من مواقف يوم القيامة، تدور كلها حول إحضار الكافرين المنكرين للمساءلة، حيث ينادون بعد إحضارهم، فيقول الله تعالى ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾؟، أين هم في هذا اليوم، وماذا لهم من الملك؟، وهنا يجيب الشركاء المزعمون ﴿ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ واستحقوا العذاب، فيقولون في ذلة وخضوع لا يتناسب مع طغيانهم وكبريائهم بالباطل في الأرض: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الغواة التابعون لنا ﴿ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ ﴾ أي: دعوناهم إلى الغي[1] والشرك، فغووا غياً مثل ما غوينا نحن، فكما لم نغو إلا باختيارنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم[2]، دون أن نجبرهم أو نكرههم على الغواية، كما يقول إبليس لأتباعه يوم القيامة ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ [إبراهيم:٢٢]، ثم يتبرؤون منهم بقولهم: ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ﴾ منهم، ويتبرؤون من عبادتهم لهم بقولهم: ﴿ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾، وإنما كانوا يعبدون الأوثان، يقولون ذلك خوفاً من العذاب وتهربا من العقاب، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٦].

---

(١) ينظر: معالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٢١٧)، ولباب التأويل، للخازن، (٣/ ٤١٠).

(٢) تفسير النسفي، بهامش لباب التأويل، (٣/ ٤١٠)

وهنا يعود الخطاب إلى الأتباع الغاوين، فيُقال لهم: ﴿ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ الذين زعمتم، ومن شدة ذهولهم وحيرتهم وتقطع الأسباب بهم يفعلون ذلك، فيدعون شركاءهم!، كما يتعلق الغريق بأي شيء يصله ولو كان قشة طمعاً في النجاة. يدعون شركاءهم، وشركاؤهم لا يستجيبون!، إذ كلاهما مصاب بالحيرة والذهول، وهنا يتمنون أن يتمكنوا من التخلي عن هؤلاء الشركاء المزعومين، كما جاء في موضع آخر: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وهكذا يصابون بخيبة الأمل والحسرة، مع تيقن العذاب، ﴿ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾، أي: فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا(١)، وكم كان سهلاً عليهم ألا يقفوا هذا الموقف ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾عندما جاءهم النذير من الله تعالى.

وهنا وبعد المساءلة الأولى تكرر عليهم المساءلة مرة أخرى، وهذه المرة يسألون عن موقفهم مما جاء به المرسلون، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾؟، لقد جربوا اللجاج والحجاج بالباطل فلم ينفعهم شيئاً، ووقع الخصام بين شركاء السوء، ولهذا فإنه في هذه المرة لا يردون ولا يجيبون فقد ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ ﴾ والأخبار العظيمة التي يمكن أن تنفعهم في هذه اليوم، والمعنى: عموا عنها من شدة الهول فلم يجيبوا، وأيقنوا بالهلاك ولم يعد ينفع الكلام والخصام، ولذا ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ هذه المرة.

وبعد هذا التهديد والتخويف من هذا الموقف في يوم القيامة ومن مصير الكافرين، تنتقل الآيات إلى تأكيد الترغيب الذي مر من قبل، والدعوة إلى التوبة والعمل الصالح قبل فوات الأوان ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾. وفي قوله تعالى ﴿ فَعَسَىٰٓ ﴾ إشارة إلى صعوبة الاستمرار على طريق الهدى إلا بالمجاهدة، كما أنها تدل على أن الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣٣).

(٢) نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٣٨).

وبما أن سياق الآيات لبيان تفرد الله تعالى بالألوهية، والملك المطلق، والهداية لمن يشاء فقد أكد هذا المعنى في الآية التي بعدها فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ من الهداية والضلال لمن شاء، لا رادّ لقضائه، وليس لأحد سواه أن يوقع الهداية أو الضلال، أو يختار النبي أو الآيات التي يأتي به، ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾، ولا لشركائهم المزعومين، في أن يختاروا الأنبياء[1] أو الآيات التي تظهر على أيديهم، تنزه الله تعالى عن أن يشركه شيء في اختياره، والاختيار المقصود في الآية هو الاجتباء والاصطفاء[2]، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

وتستمر الآيات في تقريع الكافرين والرد على زعمهم أنه لو جاء محمد بآيات كآيات موسى عليه السلام فإنهم يؤمنون، بينما هم في الحقيقة يخفون الكفر ويظهرون البحث عن الحق والإنصاف، ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ الله الذي خلقك وتولاك يا نبي الله ﴿ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ﴾ وتخفي ﴿ صُدُورُهُمْ ﴾ من الكذب والمعاندة واللجاج بالباطل ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من ذلك، إذ هو الله سبحانه وتعالى، الإله الحق الواحد ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وحده ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ والكمال المطلق ﴿ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾، كما أنه له وحده ﴿ ٱلْحُكْمُ ﴾ والقضاء المطلق، ولا راد لقضائه، وكلكم ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيحاسبكم ويجازيكم.

وقبل الانتقال إلى موقف المساءلة الثالث، تأتي ثلاث آيات مناسبتها للسياق قد لا تكون ظاهرة، وهذه الآيات هي حول رحمة الله تعالى لعباده في تقلب الليل والنهار، ولم أقف في أقوال المفسرين على ما تطمئن إليه النفس في مناسبة الآيات للسياق، إلا أنه خطر في ذهني بعض المناسبات التي رأيتها أليق بالسياق.

فبعد أن ذكر الله تعالى تفرده بالخلق والاختيار، ذكر هنا آيتي الليل والنهار، وهما الآيتان اللتان اختارهما الله تعالى على هذه الهيئة، وتختم الآيتان بتقريع المنكرين لنعم الله تعالى، بينما

---

(١) تفسير القرآن العزيز، محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (٣/ ١٩٩).

(٢) بدائع التفسير، لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٥٣).

تدعوهم الآية الثالثة إلى شكر نعم الله تعالى. فالآيات تؤكد الحقيقة التي مرت في الآيات السابقة وهي تفرد الله بالخلق، وفيها تحد ضمني للمنكرين والمشركين بأن يغيروا هاتين الآيتين المتعاقبتين، ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾، ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾. ونفس الذي قيل هنا عن تفرد الله تعالى بالخلق والاختيار يقال أيضاً في تفرد الله تعالى بالحكم والقضاء والسياق يحتمله، والله أعلم.

ومعنى الآيات: ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي: أخبروني، ﴿ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾ بظلامه وبرده ﴿ سَرْمَدًا ﴾دائماً ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾، ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ كي يكون نهار تتمكنون فيه من مزاولة معاشكم وأمور حياتكم، ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾، فتعوون وتشكرون.

و﴿ قُلْ ﴾ لهم أيضاً يا محمد ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي: أخبروني، ﴿ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ ﴾ بضوئه الساطع وحرارة شمسه ﴿ سَرْمَدًا ﴾ دائماً ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ وترتاحون من عناء النهار، ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾، فتعرفون نعم الله وتشكرون.

وقد قيل في سبب ختم الآية الأولى بقوله تعالى ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ وختم الثانية بقوله تعالى ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ أقوال. والذي أراه أن ختم الآيتين بهاتين الجملتين هو لإضفاء مزيد من الواقعية على هاتين الصورتين المتخيلتين، فكأن الخطاب في الأولى يوجه إليه وهم في ليل مظلم لا ضياء فيه، فيقال في آخر هذا الخطاب ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾، وكأن الخطاب في الثانية يوجه إليه وهم في نهار ساطع، فيقال في آخر هذا الخطاب ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾، والله أعلم بأسرار كلامه.

وختمت هذه الآيات بامتنان الله تعالى على عباده بنعمتي الليل والنهار، حيث الليل للسكون والراحة، والنهار للسعي في المعاش، وتذكيرهم بهاتين النعمتين من أجل شكره، ففيها دعوة وترغيب لهم في اتباع أوامر الله تعالى والإيمان به وبما جاء به نبيه ﷺ قبل أن يقفوا هذا الموقف يوم القيامة، فلا تنفعهم الندامة، التي يقع فيها الكفرة والمشركون حين يتمنون لو

أنهم كانوا مهتدين.

ولهذا أتبع هذه الآيات بالمساءلة الثالثة في موقف يوم القيامة، وهي قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ الله تعالى ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾، وهذه المرة لا ينتظر منهم جواب، فقد عميت عليهم الأسباب، بل لا يؤذن لهم في الخطاب، كما قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[النحل: ٨٤].

ثم ينتقل الخطاب إلى أسلوب العظمة لله تعالى، فيقول سبحانه ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ أي: أفردنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾، هو رسول تلك الأمة، يشهد عليها بما فعلت به وبدعوته، كما قال تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١]، وقال عن عيسى عليه السلام ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[النساء: ١٥٩]، وقال على لسانه ﴿ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾[المائدة: ١١٧]، فيشهد الأنبياء على أقوامهم. ثم يوجّه الخطاب إلى المكذبين المشركين، فيقول الله تعالى لهم ﴿ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ ودليلكم على ما أشركتم بي. وأنّى لهم ذلك هنالك، ﴿ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ ﴾ في الألوهية ﴿ لِلَّهِ ﴾ تعالى وحده،﴿ وَضَلَّ ﴾ وغاب ﴿ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ ويكذبون في الدنيا ويزعمون الشريك لله سبحانه بدون دليل ولا برهان.

وفي الآية تحذير لأهل الدنيا من مصير أولئك المشركين الذين سيعلمون الحق بعد فوات الأوان حين لا ينفعهم ما أشركوا بالله شيئاً.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* تهديد الكافرين والمشركين من الموقف المهين يوم الدين، وإعلامهم أن الشركاء المزعومين لن يغنوا عنهم من الله شيئاً، بل سيتبرؤون منهم.

* ترغيب الناس في التوبة إلى الله تعالى وإخلاص العبادة له والعمل الصالح من أجل النجاة والفوز والفلاح يوم القيامة.

* تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى، كما مرّ تفويض الهداية إليه سبحانه وتعالى، فهو يخلق ما

يشاء ويختار، وليس لأحد فيها لم يشأ اختيار.

* علم الله تعالى مطلق غير محدود، يشمل الظاهر والباطن، وما تكن الصدور.
* تفرد الله تعالى بالإلوهية والعبادة، والحكم المطلق في الدنيا والآخرة.
* إثبات البعث بعد الموت، والوقوف للحساب والجزاء.
* امتنان الله تعالى على عباده بنعمتي الليل والنهار، وهما نعمتان مستمرتان على الدوام، مما يستدعي المؤمن الصادق أن يشكر الله تعالى عليهما بالقول والعمل.
* سيعلم المشركون علم اليقين أن الحق في العبادة هو لله تعالى وحده لا شريك له.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، ففي هذه المواقف من يوم القيامة تظهر الحقائق. وكما لم ينفع فرعون سلطانه وجنوده عند نزول العذاب، فلن ينفع المشركين شركاءهم يوم القيامة حين يرون العذاب، بل سيتبرؤون منهم. وكذلك لن تنفع قارون أمواله ولن ينفعه أتباعه، كما سيأتي. ففي هذا المقطع بيان لحال أهل الباطل والضلال يوم القيامة.

كما يبين المقطع ضرورة التوبة والعمل الصالح للنجاة يوم الحساب. ويبين أيضاً تفرد الله تعالى بالخلق والاختيار في هذا الكون، وعليه فإنه سبحانه متفرد بوقت وكيفية نصرة أوليائه والانتقام من أعدائه.

المقطع العاشر: قصة قارون، وعاقبة البغي والتكبر

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

المناسبة بين هذا المقطع وسابقه ليست ظاهرة تماماً، وإن كانت مناسبته لمحور السورة أكثر ظهوراً. وقد اجتهد بعض العلماء في الربط بين هذا المقطع وسابقه، فقال: لما دلّ عجزهم في الآخرة وعلموا أن المتصرف في جميع الأقدار هو الله الواحد القهار، دلّ على أن ذلك له أيضاً في هذه الدنيا، بوقوع عقابه في أهل البطر والطغيان(١). وخطر في ذهني مناسبة أخرى، وهي: أنه لما ذكر سبحانه وتعالى أن الشركاء لن يغنوا عن أتباعهم شيئاً، بل ينادونهم فلا يستجيبون، وعنهم يضلون، ذكر بعد ذلك قصة قارون التي تدل على أن المال لن يغني أهل الطغيان أيضاً، والله أعلم.

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٤٧).

التفسير الإجمالي:

يبدأ المقطع بالتأكيد على أن قارون كان من قوم موسى ﷺ، وليس من قوم فرعون وسبب التأكيد هو أن قارون بغى على قومه وهو منهم، وكان المتوقع ألا يبغي عليهم وهو منهم(١)، وأكثر أهل العلم على أنه ابن عم موسى ﷺ(٢).

وسبب بغيه أن الله تعالى آتاه كنوزاً لا تحصى، حتى إن مفاتح الكنوز ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾، أي: تثقل مفاتحه على الجماعة من الرجال الأقوياء حتى تميل بهم(٣)، والمعنى: أن العصبة أولو القوة تعجز عن حمل مفاتيح الخزائن(٤)، والعصبة: جماعة متعصبة متعاضدة(٥)، فأنسته كثرة الأموال، شكر الكبير المتعال.

وقد بغى قارون على قومه عندما وعظوه ونصحوه ألا يفرح فرحاً يطغيه وينسيه الآخرة(٦)، فيبعد عن فريق من يحبهم الله تعالى، كما نصحوه أن ينفق الأموال في سبيل الله والدار الآخرة، لا على سبيل الزهد والتخلي عن كل متع الحياة، وإنما على سبيل الاعتدال، ولذا قالوا له ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، ودعوه إلى الإحسان بدفع الأموال للمحتاجين والمستحقين، شكراً لعطاء الله تعالى وإحسانه إليه(٧)، وحذّروه من اتباع سبيل فرعون وملئه المفسدين في الأرض، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٤٩).

(٢) جامع البيان، للطبري (٢٠/ ١٠٥-١٠٦).

(٣) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٠/ ١٠٩-١١٠)، وغريب القرآن، للسجستاني (ص ١٥٢)، وإعراب القرآن للنحاس (٣/ ٢٤٢)، والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي (٢/ ١٥١).
يقال: ناء به الحمل، إذا أثقله حتى أماله. انظر: تفسير أبي السعود (٧/ ٢٤).

(٤) بحر العلوم، نصر بن محمد السمرقندي (٢/ ٥٢٦).

(٥) المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد، مادة (ع ص ب).

(٦) روي عن مجاهد في قوله تعالى ﴿ٱلْفَرِحِينَ﴾ قال: يعني: الأشرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٣٧).

(٧) في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أقوال كثيرة، جماعها: استعملْ نعم الله =

لكن قارون لم يكتف بعدم الإصغاء إليهم والسعي في ما هو فيه من اللهو ومتاع الدنيا، كما لم يكتف بما أوقعه في بني قومه من البغي والعدوان، بل زاد أن أنكر فضل الله عليه وإحسانه إليه، فقال عن المال الذي بين يديه ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، وهذا العلم هو سبب حصولي على هذه الكنوز[1].

وكغيره من الطغاة يتناسى مصير أمثاله ممن سبق، فلا يعتبر بغيره حتى يكون هو عبرة لغيره، ولهذا وبخ بقول الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾، حيث بلغوا من الإجرام والبغي ما بلغوا حتى اشتهر ذلك وانتشر ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾، والله عليم بما يفعلون.

وبعد أن رفض قارون النصيحة، أراد أن يستعرض زينته وأمواله على قومه، ليبين لهم أنه على حق وأنهم على باطل، ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾ وأبهته وسلطانه، مستعرضاً متكبراً. وعندما رآه العوام من الناس ﴿ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ قالوا متمنين ما هو مستحيل في نظرهم ﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾ من الأموال والكنوز، ﴿ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾. وهنا أجابهم العقلاء من قومهم ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ بحقائق الأمور وبواطنها زجراً لهم عن الدنيا وحثاً لهم على الآخرة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ ما أعجب أمركم، ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ من كنوز الدنيا ﴿ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ ابتغاء وجه الله، كما قال تعالى ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ

= في طاعته. ينظر: أحكام القرآن، لابن العربي (٣/ ٥١٢).

(١) قيل في معنى العلم أنه علم الكيمياء، وتعقبه ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٣٨) فقال: وهذا القول ضعيف، لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل. الجدير بالذكر أن المقصود بعلم الكيمياء عندهم تحويل المعادن إلى ذهب، وليس علم الكيمياء الذي نعرفه الآن.

وقيل: إنه كان يعرف اسم الله الأعظم، فكان يدعو به حتى كثر ماله، وقيل: المعنى: على علم أني أهل لذلك. وهذان القولان بعيدان، والله أعلم.

ووقع في ذهني معنى ثالث، وهو أن يكون حصل المال بعلمه وتجارته ومهارته، حيث نسب العلم لنفسه {علم عندي}، ولم ينسبه إلى الله تعالى، والله أعلم.

﴿ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال سبحانه ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٧].

ومثل هذه النصيحة في مثل هذا الموقف مع معاينة الزينة حاضرةً صعبةٌ على النفس لذلك ختمت الآية بقوله تعالى ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ أي: لا يجعل لاقياً لهذه النصيحة وعاملاً بها، أو لا يوفق لقيل هذه الكلمة ﴿ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[1].

وهنا ينتقل المشهد بسرعة إلى خاتمة مروعة لهذا المجرم المفسد، حيث خسفت الأرض به وبداره التي تحتوي على أمواله، حتى لا يقال إن الخسف كان للرغبة في أخذ أمواله[2]، كما قال رسول الله ﷺ {بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة}[3] ولم ينصره قرابته ولا أعوانه ولا عماله من عذاب الله تعالى، ولم يكن هو ذا قوة للانتصار لنفسه، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]، وفي الآية تحذير ضمني لكفار قريش وهم من قوم النبي ﷺ، وقد بغوا عليه وعذبوه، وتخويف لهم من نزول العذاب بهم كما نزل بقارون وهو من قوم موسى لما بغى عليهم.

وعندما وقع الخسف وحل العذاب عاد الجهال الراغبين في الدنيا إلى عقلهم، ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾القريب ﴿ يَقُولُونَ ﴾ تعجباً وندماً: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾، أي: يضيق على من يشاء، وذكروا فضل الله تعالى عليهم ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾، وعلموا أنه لا يفلح الكافرون. وفي هذه الآية تأكيد على إلوهية الله تعالى وتفرده سبحانه بالحكم والقضاء، في توزيع الرزق وإنزال العذاب.

وبعد بيان حقيقة الدنيا ومتاعها، يختتم المقطع ببيان عظمة الآخرة، وترغيب الناس في العمل من أجلها، والحصول على الكرامة فيها بحقها، فقال تعالى ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾، بل يتبرؤون من أعمال المفسدين المتعالين كفرعون

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٠/ ١١٦)، ونظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٥٨).
(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٥٨).
(٣) أخرجه البخاري (٥٧٩٠).

وهامان وقارون وكفار قريش، إذ الكبر خلق ذميم محرم، كما قال النبي ﷺ {إنه أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد}[١]، ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ ﴾ في الدارين ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾. ثم يتلو ذلك بيان أن الآخرة هي دار الجزاء على الأعمال، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أضعافاً مضاعفة فضلا وكرامة من الله تعالى، ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [النبأ: ٢٦]، وأظهر في الآية ﴿ ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ تصويراً لحالهم وتقبيحاً لأعمالهم وتنفيراً من فعالهم[٢].

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

* البغي مرتعه وخيم، والظلم مؤذن بخراب العمران والديار[٣].
* كثرة المال قد تكون محنة وبلاء، وسبباً للطغيان والفساد في الأرض[٤].
* يغتر الكفار بمتاع الحياة الدنيا، ويبطرون نعم الله تعالى، مما يجعلهم مستحقين للعقوبة.
* لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم سؤال استعلام واستعتاب، فالله عليم بكل شيء، ولا يقبل اعتذارهم يوم القيامة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ[٥].
* الإيمان الصادق يقتضي العمل الصالح، والصبر على التكاليف.
* العاقل من اتعظ بغيره، ولم ينتظر حتى يكون هو عبرة لغيره.
* من الناس من يغتر بظواهر الأمور[٦]، وينبهر بالمظاهر، وهم الذين أعجبوا بمنظر قارون

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).
(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٧٣).
(٣) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١٦٢، ١٦٩).
(٤) المصدر السابق، (١٩/ ١٦٢).
(٥) المصدر السابق، (١٩/ ١٦٣).
(٦) المصدر السابق، (١٩/ ١٦٨).

وهو خارج في زينته، حتى إنهم تمنوا مثل ماله، واعتبروه إنساناً محظوظاً. ولكنهم بعد قليل من وقوع العذاب به عادوا إلى رشدهم، وتذكروا نعمة الله عليهم في أن أنقذهم من مصير قارون وأتباعه.

* العلو والكبر والفساد في الأرض من الموبقات في الدنيا والآخرة.
* العاقبة للمتقين، والخاتمة الحسنة للحق وأتباعه.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهنا بيان لعاقبة أهل البغي والفساد، وهنا تضرب قصة قارون كمثل للبغي والفساد بسبب كثرة الأموال.

وفي المقطع دعوة إلى استخدام خيرات الدنيا من أجل الحصول على الدرجات العليا في الدار الأخرى. وفيه دعوة إلى الإيمان والعمل الصالح، والاتعاظ بمصائر الظالمين المفسدين وتذكر أن العاقبة للمتقين، والاستعداد للحساب يوم الدين.

المقطع الحادي عشر: بشارة النبي ﷺ بالعودة إلى مكة وخاتمة السورة

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ
وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا
تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ
لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

مناسبة المقطع لسابقه:

المناسبة بين المقطعين ظاهرة؛ فعلى تفسير {المعاد} بأنه يوم القيامة يقال في المناسبة: بعد أن ذكر الله تعالى الدار الآخرة وما يكون فيها من جزاء وحساب وثواب وعقاب، أتبع ذلك بتأكيد

القيامة والبعث بقوله ﴿ لَرَآدُّكَ ﴾ بعد الموت ﴿ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[(١)].

وعلى تفسير {المعاد} بأنه مكة المكرمة يقال في المناسبة: بعد أن ذكر الله تعالى جزاء المفسدين المعاندين، وبين أن العاقبة للمتقين، بشّر نبيه ﷺ بحسن العاقبة ووعده بالعودة إلى مكة المكرمة عوداً حميداً مكرماً. وكلا التفسيرين ينسجم تماماً مع محور السورة في بيان الصراع بين الحق والباطل، وبيان عاقبة المتقين وعقاب المفسدين.

التفسير الإجمالي:

يبدأ المقطع بمخاطبة النبي ﷺ وتأكيد أن الله تعالى الذي أنزل عليك القرآن وأوجب عليه اتباعه والعمل به[(٢)] ﴿ لَرَآدُّكَ ﴾ بعد الموت ﴿ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي: مرجع هو يوم القيامة، ليثيبك على قيامك بمهام الرسالة والدعوة التي كلفت بها، ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩]. هذا على أن المراد بالمعاد يوم القيامة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾، قال: إلى مكة[(٣)] فمعاد الرجل: بلده، لأنه يتصرف في البلاد، ويضرب في الأرض، ثم يعود إلى بلده[(٤)]، فسميت مكة معاداً لعوده إليها[(٥)]، وقيل المراد بالمعاد: الموت، وقيل: الجنة[(٦)].

ثم يتواصل الخطاب للنبي ﷺ: ولا عليك من الكافرين المعاندين المنكرين، بل قل لهم ﴿ رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ وهو النبي ﷺ الذي جاء بالقرآن الكريم ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]، وربي أعلم بمن

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٧٤)، بتصرف.
(٢) ينظر: لباب التأويل، للخازن (٤١٥).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، برقم (٤٧٧٣).
(٤) مشكل القرآن، لابن قتيبة. وقارن بـ: معالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٢٢٦-٢٢٧).
(٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٣/ ٤١١).
(٦) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٦/ ٢٥٠)، ولباب التأويل، للخازن (٤١٥)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٤٥-٣٤٧).

﴿ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، وهو أنتم أيها المنكرون، الذين رفضتم اتباع ما جئتُ به من الله تعالى.

ثم ينتقل الخطاب إلى النبي ﷺ امتناناً عليه بفضل الله وإحسانه إليه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ الذي جئتَ به من الله تعالى، وإنما ألقي إليك ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بك ورحمة للناس كافة تهديهم به، ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا ﴾ ومعينا ﴿ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ بعد أن علمت كفرهم وعنادهم، وتبين لك أن طلباتهم إنما كانت على سبيل المغالطة والعناد، وليس بحثاً عن سبيل الهدى والرشاد. بل استمر في دعوتهم وبيان الحق لهم، ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ ﴾ الكفار بإعراضهم وكفرهم ﴿ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ والدعوة إليها ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أي: بعد وقت إنزالها[1]، فادع إلى ما فيها من أوامر ونواهي، وترغيب وترهيب، ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ الذي أحسن إليك، ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ بأن تترك نهيهم عن شركهم فتكون معدوداً في عدادهم، إذ الساكت عن فاعل المنكر شريك له، وفي تأكيد النهي في الآية تنبيه على الاهتمام بدرء المفاسد قدر المستطاع[2].

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ كما قد يطلب منك المشركون أن تعبد آلهتهم المزعومة والتي لا تغني شيئاً، لأنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وحده جل وعلا، وهو وحده الذي يبقى سبحانه وتعالى، إذ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ لا محالة إلا الله سبحانه وتعالى الحي القيوم، ﴿ لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾ والتصرف النافذ المطلق ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد به أهل دينه، أي: لا تظاهروا الكفار ولا توافقوهم[3]، والعصمة للنبي ﷺ لا تمنع من توجيه النهي[4]، والله أعلم.

---

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري، (٣/ ١٩٤).

(٢) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٤/ ٣٨١).

(٣) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (٣/ ٤١١)، ومعالم التنزيل، للبغوي، (٦/ ٢٢٨)، ولباب التأويل، للخازن، (٣/ ٤١٦). وقارن بـ: زاد المسير، لابن الجوزي (٦/ ٢٥١).

(٤) تفسير النسفي، بهامش لباب التأويل (٣/ ٤١٦).

وهكذا تختتم هذه السورة الكريمة بهذا البيان البديع لحقائق الأمور في الدنيا ومآلها في الآخرة، بعد أن تنوعت مقاطعها، وانسجمت في عقد نضيد، مبينة أن الشركاء لن يغنوا عن أتباعهم شيئاً، لا في الدنيا عند نزول العذاب، كما حصل لفرعون وهامان ولقارون، ولن يغنوا عنهم شيئاً يوم القيامة، كما سبق بيانه في مواقف المساءلة الثلاثة، وحينها يتمنى هؤلاء المشركون ﴿ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ ﴾ في الدنيا ﴿ يَهۡتَدُونَ ﴾.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

* البشارة للنبي ﷺ في العودة إلى مكة منصوراً ظافراً، بعد أن أخرجه قومه منها، مصداقاً لقول الله تعالى ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾.
* ضرورة استعمال أسلوب اللين والحكمة وإثارة الانتباه ودفع المقابل إلى التفكير في حقيقة الإسلام، وفسح المجال للمناقشة والأخذ والرد، وهو الأسلوب الذي استخدمه القرآن في قوله تعالى: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[١].
* لم يكن أحد يعلم أن الله سيبعث محمداً ﷺ رسولاً، وينزل عليه القرآن الكريم نوراً وهدى وتشريعاً مفروضاً، حتى الرسول محمد ﷺ لم يكن يعلم بذلك[٢].
* في الآيات نفي لكل معبود سوى الله تعالى، وإثبات العبادة لله تعالى وحده، حيث كلّفت الآيات الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى وتحمل المشاق التي قد يواجهها، وعدم الالتفات إلى أقوال الكفار وأذاهم، وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والتكليف موصول إلى أمته ﷺ[٣].
* إثبات يوم القيامة، والبعث والنشور، وإعادة الخلق بعد الموت، ووقوفهم بين يدي الله

(١) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ١٧٩).
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق، (١٩/ ١٨٠).

تعالى للحساب والجزاء.

* بيان نهاية العالم كله، وهي الهلاك الشامل لكل شيء سوى الله تعالى، ففيها إخبار بأنه سبحانه الدائم الباقي الحي القيوم، كما قال سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الرحمن: ٢٦-٢٧]، وفيها إخبار برجوع الخلق كلهم إليه للحساب والجزاء[1].

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة، فهنا وعد بحسن عاقبة سيد المتقين، وأفضل الخلق أجمعين، ﷺ، وعد له بالرجوع إلى مكة المكرمة ظافراً منتصراً معززاً مكرماً. وقد جاء هذا الوعد وهو في طريق خروجه من مكة المكرمة!، زيادة في تأكيد تفرد الله تعالى بالحكم والقضاء والاختيار. وفي المقطع تحذير من اتباع سبيل الكافرين أو التساهل معهم أو التكاسل في دعوتهم أو الخوف منهم.

ويختتم المقطع والسورة ببيان حقائق كونية، هي تفرد الله تعالى بالإلوهية، ونفي الشركاء عنه، وإثبات البقاء له وحده سبحانه، وتفرده بالحكم والقضاء، وإثبات البعث والحساب والجزاء. والله أعلم.

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦/ ٣٤٨)، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، أ. د. وهبة الزحيلي، (١٩/ ٥٤).

سورة العنكبوت

بين يدي السورة:

تسميتها:

تسمى سورة العنكبوت، وسميت بهذا الاسم عند أهل التفسير والحديث، وهو اسم توقيفي لها، ويدل على هذه التسمية، حديث ابن عباس -رضي الله عنهما - فيما نزل بمكة وما ذكر بمكة «سورة العنكبوت» واتفاق المصاحف على ذكرها بهذا الاسم وهذا الاسم موافق لما ورد فيها من قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[العنكبوت: ١٤][1]

وذكر السخاوي أن لها اسما آخر وهو﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾[٢: العنكبوت] والذي يبدوا ان هذا الاسم من باب تسمية السورة بأول جملة فيها[2].

عدد آياتها:

تسع وستون آية بالإجماع[3].

مناسبتها لما قبلها:

ذكر الله تعالى في سورة القصص قبلها استعلاء فرعون وجبروته وقوته، باستضعاف بني إسرائيل وذبح أبنائهم، واستحياء نسائهم، ونجاة موسى - عليه السلام- وقومه، وانتصاره

(١) عبدالله بن سالم الهنائي: أسماء سور القرآن: ٢٠١.

(٢) السخاوي، جمال القراء: ١/ ٢٠٠.

(٣) إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٤/ ٣٨٤. وانظر: الآلوسي: روح المعاني: ٦/ ٣٩٢.

على فرعون ومن معه، وذكر الله تعالى قصة قارون وبغيه، وعاقبه بأن خسف به الأرض، وفي هذه السورة ذكر قصة المشركين في مكة، الذين عذبوا المؤمنين، وقصة نوح مع قومه واغراق الذين كذبوه وختمت سورة القصص [الآية ٨٨]، بقوله تعالى:﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

وفي مطلع هذه السورة رد على منكري الحشر، وأن الله يثيب المطيع العابد، ويعذب الكفور الجاحد. فالمناسبة بين السورتين، بذكر الأمثلة الواقعية من الصراع بين الحق والباطل والصبر وعدم الصبر، والبعث والجزاء(١).

ومحورها:

محور سورة العنكبوت يدور حول الإيمان وتثبيته وقت الابتلاء والشدائد والمحن فالإنسان معرض لأن يفتن في كثير من الأمور، كفتنة المال، والبنين، والشهوة، والسلطة، وهذا الابتلاء من تدبير الله سبحانه وتعالى ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً، من أول حياتهم إلى نهايتها فلا يظن الإنسان أن الإيمان يبعده عن البلايا، فإذا نزلت به ارتد، وعذاب الآخرة أشد وأبقى وقد ابتلى الأنبياء، فواجهوا الابتلاء بالصبر، فكان النصر حليفهم. وفي هذا يقول سيد قطب: إن محور السورة هو الحديث عن الإيمان والفتنة، وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدن النفوس، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف عن طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف(٢).

سبب نزولها:

أنزلت في أناس كانوا بمكة، أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة أنه لا يقبل منكم حتى تهاجروا، فخرجوا قاصدين المدينة، فتبعهم المشركون، فردوهم،

---

(١) د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢٠/ ١٨١. وانظر: البقاعي: نظم الدرر: ١٤/ ٣٨٤.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧١٨.

فنزلت فيهم هذه الآيات. فكتبوا إليهم أنه قد نزل فيكم كذا وكذا، فقالوا: نخرج، فإن اتبعنا أحد قاتلناه، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل، ومن هم من نجا فنزل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩][1].

مقاطعها:

والسورة تنقسم إلى عشرة مقاطع:

المقطع الأول: اختبار الناس وجزاؤهم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

ابتدأ هذا المقطع بالحروف المقطعة التي تنبه على إعجاز القرآن، ثم بالاستفهام الإنكاري لمن ظن من المؤمنين الذين كانوا بمكة مستضعفين، وكان كفار قريش يعذبونهم ويؤذونهم لأنهم أسلموا، فضاقت صدورهم، فآنسهم الله بهذه الآية، ووعظهم وأبان لهم أن هذه سنته في عباده المؤمنين السابقين الذين أوذوا وعذبوا فصبروا، وثبتوا على الإيمان، وعليهم الصبر كذلك ليميز الله الصادقين من الكاذبين في دعوى الإيمان، فمن اعترف بالآخرة وعمل لها لن يضيع الله عمله، ولا يخيب أمله. ومن كان يرجو ثواب الله فليصبر على المجاهدة في طاعة الله حتى يلقى الله فيجازيه، وهو سبحانه السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم الظاهرة والباطنة. فمن جاهد بالصبر على الطاعة، وكبت نفسه عن الشهوات المحرمة، فسيلقى منفعة جهاده لنفسه،

(١) د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢٠/ ١٨٦.

والله مستغن عن عبادة العباد، لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين.

فالذين آمنوا وعملوا مع الإيمان الأعمال الصالحة يمح الله عنهم سيئاتهم التي سبقت منهم ويجازيهم بأحسن أعمالهم وهي الطاعات. قال النسفي:﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي الشرك والمعاصي بالإيمان والتوبة[1]، وقال الشيخ هود: «يجزيهم بأعمالها الجنة»[2].

دروس وعبر:

* المؤمن هو المجاهد الصابر، الذي يصبر على المكاره والأحداث الجسيمة، وهو في اختبار في هذه الحياة الدنيا، على الشدائد والمحن فإن صبر ظفر بالجنة، ونال رضاء الله.

* أما المنافق أو مهتز الإيمان فلا يتحمل الأذى في سبيل الله وسرعان ما يظهر الكفر، ويعود إلى الضلال، وجزاؤه جهنم، وعذابها أشد عذاباً من عذاب الدنيا.

* الدنيا دار ابتلاء واختبار، وتكليف؛ فمن صبر وأدى ما أمره الله من طاعات واجتناب للمعاصي فاز، ومن عصى الله وعمل المعاصي هلك، والهدف من الابتلاء في الدنيا إظهار صدق الصادقين، وكشف كذب الكاذبين.

* الحث على العمل الصالح وكل ما أمر الله به، واجتناب كل ما نهى الله عنه، ومن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها.

---

(١) النسفي: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢/ ٦٦٥.

(٢) الشيخ هود بن محكم الهواري: تفسير كتاب الله العزيز: ٣/ ٢٩٧.

المقطع الثاني: التوصية بحسن معاملة الوالدين وبيان خسة المنافقين

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ
مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ
خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ
وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

وفي هذا المقطع يأمر الله سبحانه الإنسان بالإحسان إلى الوالدين، لأنهما سبب وجوده ولهما عليه غاية الفضل والإحسان فعليه طاعتهما إلا إذا أمراه أن يشرك بالله ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ومرجعكم جميعا إلى الله يوم القيامة، المؤمن والكافر والبار بوالديه والعاق لهما، فيجازي المحسن بإحسانه وصبره على دينه والمسيء بإساءته. فالذين عملوا بما أمرهم ربهم، فأصلحوا نفوسهم وأدوا فرائضهم، لندخلنهم في زمرة الصالحين في الجنة: وهم الأنبياء والأولياء[1]، والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص، فإنه حين أسلم أمرته أمه أن يتراجع فلم يطعها، وأمره رسول الله ﷺ بصلتها والعطف عليها[2]. وقال القرطبي: ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾كرر تعالى التمثيل بحال المؤمنين العاملين لتحرك النفوس إلى نيل مراتبهم وقوله: ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ مبالغة على معنى؛ فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته، وإذا تحصل للمؤمن هذا الحكم تحصل ثمرته وجزاؤه الجنة[3].

ولما ذكر الله تعالى ما أعده للمؤمنين الصادقين، ذكر حال المنافقين المتقلبين، الذين

---

(١) أ. د. وهبة الزحيلي: التفسير المنير: ٢٠/ ٢٠١.

(٢) الشيخ عبدالكريم المدرس: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦/ ٢٥٥.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٢١٤.

يقولون بألسنتهم آمنا بالله، فإذا أوذي أحدهم ارتد عن الدين، وجعل ما يصيبه من أذى الناس صارفا له عن الإيمان كعذاب الله الشديد الذي يصرف الإنسان عن الكفر، «ولئن جاء نصر من ربك للمؤمنين بأن صارت لهم غنيمة، ليقولن: إنا معكم فاتركونا فيما عندكم من الغنائم والخيرات، والله يعلم أن أولئك الناس كانوا كافرين ولم يكونوا مع المسلمين، فالله يعلم المخلصين ويعلم المنافقين»[1] يعلم ما انطوت عليه الضمائر من خير وشر، ويعلم ما في قلوب الناس من إيمان ونفاق، إنه بكل شيء عليم، وأكد ذلك بقوله: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ﴾أي وليظهرن الله لعباده حال المؤمنين وحال المنافقين حتى يتميزوا، فيفتضح المنافق، ويظهر شرف المؤمن الصادق من المنافق الكاذب ثم يقول الله تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا نحمل آثامكم وقد كذبهم الله فقال: وما هم بحاملين، لأنه لا يحمل أحد وزر أحد، وليحملن أوزارهم وأوزار من أضلوهم دون أن ينقص من أوزار أولئك شيء، وليسألن يوم القيامة سؤال توبيخ وتقريع، عما كانوا يختلقونه من الكذب على الله عز وجل[2].

دروس وعبر:

* برّ الوالدين واجب على المؤمنين لأنهما سبب وجوده وتربيته والإنفاق عليه، فطاعتهما واجبة إلا إذا دعوا الابن إلى الشرك والعصيان، فلا تجوز طاعتهما.
* كشف المنافقين الذين يقولون بألسنتهم إنهم مصدقون بالله، مؤمنون به ولكن لم يثبت الإيمان في قلوبهم، لأنهم سرعان ما يتخلوا عن دينهم، خسروا الدنيا والآخرة وذلك لأن الإيمان كان مجرد قول باللسان، فإذا تعرض لأذى ترك الإيمان.
* محاولة فتنة المؤمنين عن دينهم، وهذا شأن الكافرين في كل زمان أن يرتد المؤمن عن دينه،

---

(١) الشيخ عبدالكريم: مواهب الرحمن: ٦/ ٢٥٦.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٧٦.

ويغرونه بكل ما يستطيعون من صنوف الإغراء بالمال، والشهوات، بل يقولون أكثر من ذلك لهم كما أشارت الآيات الكريمة تحمل أوزاركم يوم القيامة، وهم كاذبون فيما يقولون، فإنهم لا يستطيعون عمل شيء بل يتبرؤون منهم.

المقطع الثالث: قصة نوح عليه السلام:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

وقد ذكر الله تعالى في هذا المقطع قصة نوح عليه السلام مع قومه حيث مكث يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده تسعمائة وخمسين سنة، فكذبوه وأصروا على كفرهم وظلمهم، وعبادة الأصنام فأهلكهم الله سبحانه وتعالى بالطوفان فأغرقهم، ونجى نوحا ومن كان معه في السفينة من أهله وأولاده وأتباعه من المؤمنين، وجعل الله تلك الحادثة عظة وعبرة للناس. وفي هذه القصة تسلية للنبي ﷺ عما كان يلقاه من أذى المشركين، وعدم اتباعهم له، وإيذاء أتباعه، فمكث نوح عليه السلام هذه المدة الطويلة يدعوهم إلى الله ليلا ونهارا، وسرا وجهارا، ومع هذا ما زادهم إلا فرارا عن الحق وإعراضا عنه وتكذيبا له وما آمن معه إلا قليل، فما نجح فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، واعلم أن الله سينصرك عليهم ويؤيدك ويذلهم ويجعلهم أسفل سافلين[١].

دروس وعبر:

* ذكر الله سبحانه وتعالى هذه القصة تسلية للنبي ﷺ لأن قومه أعرضوا عنه، ولم يقبلوا دعوته، فأخبره الله بأن الأنبياء قبله أوذوا من أقوامهم فصبروا، وخص نوحاً في هذا لأنه لم يلق نبي مثل ما لقي نوح من قومه فصبر، دعاهم إلى توحيد الله ولم يؤمن برسالته إلا

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٧٧.

القليل.

* يجب على الدعاة إلى الله اليوم الصبر، وتحمل الأذى في سبيل نشر الدعوة إلى عبادة الله واتباع دينه، والصبر على المكاره التي سيلاقونها والنصر حليفهم في الدنيا وفي الآخرة.

* مصير المؤمنين النجاة في الدنيا وفي الآخرة، ومصير الكافرين الخذلان في الدنيا والعقوبة في نار جهنم في الآخرة.

المقطع الرابع: قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وجوابهم له

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ
كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ
تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ
فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وفي هذا المقطع يخبر الله سبحانه وتعالى عن قصة رسوله وخليله سيدنا «إبراهيم» ﵇، الذي دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وشكره على نعمه التي لا تحصى، فهو الذي يسدي النعم، وبين لهم أن عبادة الأوثان التي يعبدونها لا تنفع ولا تضر وإنما هي حجارة صنعتموها بأيديكم، فهي لا تقدر على رزقكم، فاطلبوا الرزق من الله وحده، فإنه القادر على ذلك، وخصوه بالعبادة وحده، واخضعوا له واخشعوا، واشكروه على نعمه التي أنعم عليكم، فإليه مرجعكم يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله[١].

وإن تكذبوني في رسالتي، فلا تضروني أبدا، فإن الأمم السابقة كذبوا رسلهم، وبلغكم ما حل بهم من العذاب والعقوبة في مخالفة الرسل، فأضروا أنفسهم، وما على الرسول إلا أن يبلغ ما أمره الله به من الرسالة.

وبعد بيان التوحيد وهو الأصل الأول، والإشارة إلى الرسالة وهي الأصل الثاني، شرع في بيان الأصل الثالث، وهو الحشر والبعث يوم القيامة، والنشور، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ فإن الله خلق الخلق بعد أن لم يكونوا شيئا، وهو قادر على إعادته، بل هو أهون عليه، فقل لهم يا محمد سيروا في الأرض أيها المنكرون للبعث والنشور فانظروا كيف بدأ الله خلق السموات وما فيها من الكواكب، والأرضين وما فيها من جبال وأنهار وبحار، وأشجار وأثمار كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها المتفرد بالخلق، ومن قدر على الخلق قدر على الإعادة يوم القيامة فإن الله قدير على كل شيء، أي لا يعجزه تعالى شيء ومنه البدء والإعادة[٢].

ثم ذكر سبحانه ماذا يكون بعد الإعادة، إنه الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله الخلق والأمر، وإليه ترجعون يوم القيامة، ولا مهرب لكم في الأرض ولا في السماء، قال القرطبي: ليس لكم غير الله ولي يحميكم من بلائه، ولا نصير ينصركم من عذابه،

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٧٩.

(٢) وهبه الزحيلي: التفسير المنير: ٢٠/ ٢١٦.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ ﴾ أي كفروا بالقرآن والبعث، أولئك المنكرون الجاحدون يئسوا من الجنة ونسب اليأس والمعنى أويسوا وهذه الآيات اعتراض من الله تعالى تذكيرا وتحذيرا لأهل مكة[١]. ثم عاد الخطاب إلى قصة إبراهيم، فما كان جواب قومه حين دعاهم إلى الله تعالى إلا أن قال كبراؤهم المجرمون: اقتلوه أو حرقوه بالنار، فألقوه في النار فجعلها الله بردا وسلاما عليه، إن في ذلك أي في إنجائه من النار، لدلائل وبراهين على قدرة الله تعالى لقوم يصدقون بوجود الله، وكمال قدرته...

وقال إبراهيم لقومه: إنما عبدتم هذه الأوثان والأصنام وجعلتموها آلهة مع الله، من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم في هذه الحياة باجتماعكم على عبادتها، وفي يوم القيامة ينقلب الحال فتصبح الصداقة والمودة عداوة وبغضاء، ويلعن ويشتم كل فريق منكم الفريق الآخر ومصيركم جميعا إلى جهنم فهي منزلكم الذي تأوون إليه ولا ترجعون منه أبدا، وما لكم ناصر أو معين يخلصونكم منها[٢] وينقذكم من عذاب الله. ثم ذكر سبحانه وتعالى أنه لم يؤمن بإبراهيم ولم يصدق دعوته إلا لوط، وهو ابن أخيه، وأول من آمن به لما رأى من الآيات الباهرة ثم ترك إبراهيم الخليل وطنه﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾ رغبة في رضى الله، فهاجر من سواد العراق إلى حران، ثم إلى فلسطين، وهاجر معه لوط ونزل بلدة سدوم.

ثم عدد تعالى نعمه على إبراهيم في الدنيا والآخرة فقال: ووهبنا لإبراهيم بعد إسماعيل اسحق، وكذا من نسله يعقوب حفيدا له وجعلنا في ذريته النبوة، فكان الأنبياء كلهم بعد إبراهيم من ذريته، وأتيناه الكتاب، فكانت التوراة منزلة على موسى، والزبور على داود والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم جميعا وكلهم من نسله. وآتيناه أجره في الدنيا بكثرة الذرية والأموال والزوجة الصالحة والثناء الحسن ﴿ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي وأنه يحشر في الآخرة في زمرة الكاملين في الصلاح الذين لهم

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٢١٩.

(٢) الشيخ إسماعيل البرسوي: تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: ٣/ ٢٦٦.

الدرجات العلا[١].

قال ابن كثير: (وهذه خلعة سنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلا، وجعله للناس إماما أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم -عليه السلام- إلا وهو من سلالته فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن اسحق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى بن مريم، فقام في ملئهم مبشرا بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة: الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة إسماعيل ابن إبراهيم عليهم السلام، ولم يوجد [نبي] من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام[٢].

دروس وعبر:

* أن دعوة إبراهيم -عليه السلام- كانت كدعوة جميع الأنبياء -عليهم السلام- وهي توحيد الله سبحانه وتعالى ونفي الشرك عنه، وعبادة الله تعالى بفعل أوامره وترك معاصيه.
* أن الله سبحانه هو الذي يطلب منه الرزق وحده، وهو الذي ينفع ويضر، أما الأصنام التي يعبدها المشركون فلا تنفع ولا تنصر، ولا تقدر على جلب الرزق لأحد.
* الله سبحانه هو الذي خلق الخلق وهو الذي يهلكهم، ثم يعيدهم إلى الحياة يوم القيامة وكل شيء عليه هين يسير، إنما أمره بين الكاف والنون إذا أراد شيئاً يقول له (كن فيكون). فالإنسان وآفاق الكون سمائه وأرضه خلقها الله، وهو المتصرف فيها، ويحكم ما يريد يعذب من يشاء وهم الكفار المكذبين، ويرحم المؤمنين المصدقين، والجميع عائدون إليه فالذين كذبوا رسله وكفروا بما أنزل، رغم ما أقام لهم رسلهم من أدلة على وجوده وقدرته لا نصيب لهم في الآخرة من رحمة الله، والذين آمنوا فيكونون في رحمة الله.
* وقد أثبت لهم سيدنا إبراهيم خليل الله – عليه الصلاة والسلام – أصول الدين الثلاثة:

(١) وهبه الزحيلي: التفسير المنير: ٢٠/ ٢٢٤.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٨٥.

الوحدانية، والرسالة، والبعث، وأقام لهم البراهين على ذلك، فكان نصيبه أن اتفقوا على إحراقه بالنار وقتله، ونجّاه الله منها فكانت النار برداً وسلاماً، ولم يؤمن الكفار بعد هذه المعجزة العظيمة بدعوته فهاجر من أرض الكفر. وفي هذه الهجرة عبرة للمؤمنين بجواز الهجرة عند الشدائد إلى دار الإيمان.

* أن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة.

المقطع الخامس: قصة لوط عليه السلام مع قومه

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟
أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ
لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ
بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وفي هذا المقطع يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: واذكر رسولنا لوطا عليه السلام حين قال لقومه: إنكم لترتكبون أقبح فاحشة لم يسبقكم إليها أحد من الخلق (وهي اللواطة) أي أنكم لتأتون الذكور في الأدبار، وذلك منتهى القذارة والخسة وتقطعون الطريق على المارة بالقتل والسلب والنهب، وأخذ الأموال، فقد كانوا قطاع طرق، وتفعلون في مجلسكم ومنتداكم ما لا يليق من المنكرات

جهارا وعلنا[١].

فكان جواب قومه ردا على نصحه لهم الاستهزاء به: وقالوا: ائتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا إن كنت من الصادقين فيما تهددنا به، فيئس منهم لوط: وقال: رب اهلكهم وانصرني عليهم، فإنهم سفهاء مفسدون لا يرجى منهم صلاح، فاستجاب الله دعاءه، وأرسل ملائكته لاهلاكهم، فمروا على إبراهيم أولا فبشروه بغلام وذرية صالحة، ثم أخبروه بما أرسلوا من أجله، إن الله أرسلهم لإهلاك هذه القرية، قرية قوم لوط. فقال لهم إبراهيم: إن فيها لوطا وهو نبي ومن الصالحين، فكيف تهلكوها؟ فأجابوه، نحن أعلم بمن فيها، ثم بشروه بإنجاء لوط والمؤمنين إلا امرأته، فستكون من الهالكين، لأنها توافقهم على الكفر. وساروا من عنده إلى لوط، فدخلوا عليه في صورة شبان حسان فحزن لوط بسببهم، وضاق صدره من مجيئهم، لأنه خاف عليهم من قومه، فأعلموه أنهم رسل الله، وقالوا: لا تخف ولا تحزن بسببنا فلن يصلوا إلينا، وسننجيك وأهلك منهم إلا امرأتك ستكون من الهالكين معهم في العذاب، وسننزل عليهم عذابا من السماء بسبب فسقهم المستمر، وكان ذلك العذاب كما وصفه ابن كثير: (وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسل عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً ﴾ أي واضحة، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٢] أي لقوم يتفكرون ويتدبرون ويعتبرون.

دروس وعبر:

* أن واجب المؤمن أن ينكر الفاحشة مهما كان نوعها: قطع الطريق، واللواطة، وفعل المخازي في المجالس كما فعل سيدنا لوط.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٨٥.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٨٧.

* أن اللواطة كالزنى توجب الحد، فما شرع زاجراً للزنا يكون زاجراً للواطة.
* جواز الدعاء بطلب هلاك القوم الذين ييأس الداعي لهم من الهداية، وذلك لكثرة إفسادهم، والهلاك يلحق بالظالمين المفسدين في الأرض مرتكبي الفواحش، والدالين عليه.
* إن على الناس أن ينظروا إلى آثار منازل المفسدين الخربة، ومصير الظالمين الضالين.
* أن الله رحيم بالمؤمنين، وشديد العقاب للكافرين.

المقطع السادس: قصة شعيب وهود وصالح وموسى عليهم السلام

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟
فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾
وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

وفي هذا المقطع يبين الله قصص مجموعة من الأنبياء مع أقوامهم وما ارتكب أقوامهم من ذنوب، ولم يستجيبوا لأنبيائهم، فشعيب -عليه السلام- أرسله الله تعالى إلى أهل مدين وقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وخافوا عقابه في اليوم الآخر، واتركوا الفساد في الأرض، فكذبوه ولم يستجيبوا

له، فأهلكهم الله برجفة عظيمة دمرت بلادهم، وصيحة كبيرة هائلة، فأصبحوا هالكين. كما أهلك عادا وثمود، وقد ظهر ذلك لكم يا أهل مكة من منازلهم التي كانت بالحجاز واليمن آيتنا في هلاكهم أفلا تعتبرون؟ وحسن لهم الشيطان أعمالهم من المعاصي والكفر، حتى رأوها حسنة، فصدهم عن طريق الحق، وكانوا عقلاء متمكنين من الاستدلال والنظر ولكنهم أصروا على الكفر والعناد.

وكذلك أهلكنا الجبابرة الظالمين قارون وهامان وفرعون، فقارون صاحب الكنوز الكثيرة، وفرعون صاحب السلطان والملك، وهامان الذي كان يعينه على الظلم والطغيان. هؤلاء الذين استكبروا في الأرض عن عبادة الله وطاعة رسوله موسى، الذي دعاهم لعبادة الله وجاءهم بالحجج الباهرة، والآيات الظاهرة،﴿ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴾ قال البرسوي: أي فائتين بل أدركهم أمر الله فهلكوا ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ أي فكلا من هؤلاء المجرمين أهلكناه بسب ذنبه، وعاقبناه بجنايته[1]. قال ابن كثير: أي وكانت عقوبته بما يناسبه فمنهم من أرسلنا عليه ريحا عاصفة مدمرة، فيها حجارة كقوم لوط، ومنهم من أخذته صيحة العذاب مع الرجفة كثمود، ومنهم من خسفنا به وبأمواله الأرض حتى اختفى كقارون، وأصحابه، ومنهم من أهلكناه بالغرق كقوم نوح وفرعون وجنده، وما كان الله ليعذبهم من غير ذنب فيكون ظالما لهم، ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب والدمار[2].

وفي نهاية هذا المقطع شبه الله تعالى عبدة الأوثان، واعتمادهم عليها، ورجائهم نفعها بحال العنكبوت التي اتخذت بيتا لا يغني عنها، أي لا يقيها من حر ولا برد ولا مطر ولا أذى، وأن أضعف البيوت لبيت العنكبوت لتفاهته وحقارته، وهو مثل الأصنام التي عبدوها لا تجلب

(١) البرسوي: تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: ٣/ ١٦٨، وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٢٣.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٨٨، وانظر: النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ٢/ ٦٧٦.

لهم نفعا، ولا تدفع عنهم ضرا. والله عالم بما عبدوه من دونه لا يخفى عليه، وسيجازيهم على كفرهم، وهو سبحانه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه، وتلك الأمثال التي بينها للناس في القرآن الكريم، ليقر بها إلى أذهانهم، وما يفهمها إلا الراسخون في العلم الذين يعقلون مراد الله سبحانه وتعالى.

دروس وعبر:

* أن هلاك الأمم السابقة كان بسبب كفرهم وعنادهم، وفسادهم بارتكابهم المعاصي والكبائر، فزلزل الله الأرض تحت أقدام قوم شعيب الذين رفضوا عبادة الله، وعاد وثمود أنكروا وجود الله القادر فدمر بنيانهم بالريح وآثار التدمير باقية لتكون عبرة لمن يعتبر من أهل النظر والاعتبار.
* ورؤوس الطغيان والبغي في مصر قارون وفرعون وهامان طغوا وبغوا واستكبروا، فخسف الله الأرض بقارون وأغرق فرعون وهامان ليكونوا عبرة لمن يسير في طريق الطغيان والكفر.
* أن الله سبحانه سيأخذ الظالمين بسبب ظلمهم لأنفسهم وعدم إتباعهم أوامر أنبيائهم، وأن أخّر عقابهم في الدنيا، فسيكون عقابهم في الآخرة أشد وأبقى.
* أن الله ضرب مثلاً لعبدة الأوثان، وأن ما يعبدون لا ينفعهم وأن بنيانهم كبنيان العنكبوت المتشابك الواهي الضعيف، ولكنهم لم يفهموا ولم يعتبروا، واستمروا في ضلالهم.
* أن الكافر والمشرك يعبد ما لا ينفعه، وأما المؤمن فيعلم أن نجاته بعبادة الله الواحد القهار.

المقطع السابع: فائدة خلق السموات والأرض وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

وفي هذا المقطع من السورة نقلة أخرى ترتبط بالمقطع السابق الذين يتفكرون ويعقلون مراد الله عز وجل، فبين لهم أنه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض لا على وجه العبث واللهو بل للدلالة على وجوده ووحدانيته، خلقها بشكل بديع، وصنع محكم، وفي ذلك آية للمؤمنين الموحدين، ثم خاطب نبيه محمد ﷺ أن يقرأ القرآن الذي أوحاه الله ويتقرب إليه بتلاوته، وترداده، لأن فيه محاسن الآداب ومكارم الأخلاق، وأن يقيم الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها فهي عماد الدين، وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا أداها المصلي خاشعا في صلاته، متذكرا عظمة خالقه متدبرا لما يتلو، فذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا، فيجب أن لا يغيب عن الإنسان في الصلاة، وفي أمور حياته كلها، والله يعلم جميع أعمال الإنسان وأفعاله فيجازيه عليها أحسن الجزاء.

دروس وعبر:

* أن الله سبحانه خلق السماوات والأرض ليستفيد منها الإنسان في معرفة الله سبحانه وتعالى والاستدلال على وجوده في هذا الخلق المحكم، والصنع المتقن، وما ينكر ذلك إلا الكافر.
* على المؤمن المواظبة على تلاوة القرآن، والتمسك به في جميع أمور حياته، فهو طريقه إلى النجاة في الدنيا وفي الآخرة.

المقطع الثامن: مناقشة أهل الكتاب بالحسنى، ومطالبهم التعجيزية

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا
بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ
ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ
﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾
وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ
يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ
وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وفي هذا المقطع تعليم للمؤمنين كيف يناقشون أهل الكتاب في أمر الدين؟ ويكون ذلك بالطريقة الحسنى، كالدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه وبيناته، فإنهم آمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل إلا الاعتراف بالنبي -عليه الصلاة والسلام-. وفي هذا يقول الرازي(١): فلمقابلة إحسانهم يجادلون بالأحسن إلا الذين أشركوا منهم بإثبات الولد لله، والقول بثالث ثلاثة فإنهم يجادلون بالأخشن من تهجين مقالتهم، وتبيين جهالتهم. وقولوا لأهل الكتاب: آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا، وبالتوراة والإنجيل التي أنزلت إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون أي مطيعون، مستسلمون، لحكمه وأمره. فكما أنزلنا الكتاب على من قبلك يا محمد أنزلناه عليك والذين أعطيناهم الكتاب كعبدالله بن سلام وأمثاله من اليهود والنصارى ممن

(١) الرازي: التفسير الكبير: ٢٥/ ٦٣ المجلد التاسع.

أسلموا يؤمنون بالقرآن، كما يؤمن به من أهل مكة من المؤمنين، وما يكذب بأياتنا وينكرها بعد قيام الدليل على صحتها إلا المصرون على الكفر والعناد.

وإنما يكون الجحود بعد المعرفة: وهم يعرفون أنك ما كنت تتلو يا محمد قبل هذا من كتاب، فقد عشت بينهم وما علموا أنك تقرأ أو تكتب قبل نزول القرآن، عرفوك أميا، ولو عرفوا أنك تقرأ وتكتب لكان معهم دليل وشك في القرآن، ولقالوا لعله التقطه من كتب السابقين ونسبه إلى الله.

وفي هذا المعنى يقول ابن كثير(١): قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمرا لا تقرأ كتابا، ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك يعرف أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، وكان له كتاب يكتبون له الوحي. وهذا دليل على أنها آيات واضحات الإعجاز ساطعات الدلالة على أنها من عند الله سبحانه، محفوظة في صدور المؤمنين العلماء، وما ينكر هذه الآيات ويكذب بها إلا المتجاوزون الحد في الكفر من أهل مكة الذين قالوا: هلا أنزل على محمد آيات خارقة من ربه تدل على صدقه، مثل ناقة صالح، وعصى موسى ومائدة عيسى فقال لهم النبي ﷺ، إنما الآيات من عند الله، فهذه الخوارق والمعجزات ليست بيدي وإنما أنا منذر أخوفكم عذاب الله.

ثم قال لهم: أولم يكف هؤلاء المشركين من الآيات هذا الكتاب وهو المعجزة الكبرى التي لا تزال تقرع أسماعهم وهو أعظم الآيات وأوضحها دلالة على صدق نبوة محمد ﷺ هذه المعجزة التي أعجزت فصحائهم وبلغاءهم عن معارضته، بل عن معارضة سورة منه، أو لم يكف أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى؟ وفي إنزال هذا القرآن لنعمة عظيمة على العباد بإنقاذهم من الضلالة، وتذكرة بليغة لقوم غرضهم الإيمان لا التعنت والكفر، وقل لهم يا محمد: كفى أن يكون الله

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٩٤.

سبحانه شاهدا على صدقي يشهد لي أني رسوله، ولا تخفى عليه خافية من أمر العباد، فلو كنت كاذبا لانتقم مني، والذين اتبعوا الأوثان وكفروا بالرحمن أولئك هم الخاسرون، حيث اشتروا الكفر بالإيمان(١).

هؤلاء الكفار المشركون يستعجلونك يا محمد بالعذاب ويقولون امطر علينا حجارة من السماء، استهزاء وتكذيبا.

ولولا أن الله قدر لعذابهم وهلاكهم وقتا محددا لجاءهم العذاب الذي طلبوه، وسوف يأتيهم فجأة وهم ساهون لاهون لا يشعرون بوقت مجيئه، ويتعجب من قلة فطنتهم وتعنتهم وعنادهم كيف يستعجلون العذاب، وجهنم محيطة بهم يوم القيامة كإحاطة السوار بالمعصم، لا مفر لهم منها؟ ويوم يحيط بهم العذاب من كل جانب من فوقهم ومن تحتهم ومن جميع جهاتهم يقول الله عز وجل لهم: ذوقوا ما كنتم تعملونه في الدنيا من الاستهزاء والإجرام وسيء الأعمال.

دروس وعبر:

* المناقشة والجدال يجب أن يكون بين الأفراد بالحكمة والموعظة الحسنة لأنها السبيل إلى الإقناع وتحقيق الأهداف، وخاصة في إيصال الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بالحجة والمنطق والبرهان ولين الخطاب.

* إثبات نبوة محمد ﷺ أنه كان قبل نزول القرآن لا يقرأ ولا يكتب وعاش بين قومه أربعين سنة على ذلك، وقد شهد له بذلك الكتب المتقدمة، وأميته ﷺ دليل واضح وقاطع على أن القرآن كلام الله سبحانه، لأنه آيات واضحات محكمات، وليس بشعر، ولا سحر، ولا ينكره إلا المبطلون الجاهلون، والكفار الظالمون، حفظه الله من التغيير والتبديل.

* لقد تحدى الله سبحانه وتعالى الإنس والجن بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بمثل عشر

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٩٧.

سور، أو بمثل سورة واحدة من أقصر السور، وتحداهم فعجزوا وهذا دليل قاطع على أنه كلام الله الموحى به إلى قلب نبيه المصطفى ﷺ.[(١)]

* القرآن الكريم المعجزة العقلية الباقية على مر الزمان والتحدي لا يزال قائماً وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو كتاب الله الخالد، من آمن به وعمل به نجى من عذاب الله، ومن كفر به ولم يعمل بما فيه عاش في ضنك العيش وهو في الآخرة من الخاسرين سواء كانوا من المشركين أو الكفار أو أهل الكتاب.

* أن الله يمهل ولا يهمل العقوبة للكافرين والمشركين الذين طلبوا العقوبة العاجلة، فقد اقتضت الحكمة الإلهية رحمة بالعباد إعطائهم فرصة التوبة وإصلاح أنفسهم، فمن أصرّ على الكفر فقد أعد له الله عذاب جهنم، الذي هو أشد عذاب.

المقطع التاسع: حض المؤمنين على الهجرة عند التضييق عليهم

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

وفي هذا المقطع بين حال الأبرار المتقين من ضعفاء المؤمنين الذين كانوا بمكة، وآذاهم المشركون، ولم يهاجروا خشية من الجوع، وضيق العيش، فخاطبهم اله تعالى خطاب تشريف لهم ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ تحريضا لهم على الهجرة إلى دار الإسلام ولا تجاوروا الظلمة في مكة، فأرض الله واسعة، وأمرهم بأن لا يعبدوا إلا الله سبحانه. قال ابن كثير: هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله

(١) الزحيلي: التفسير المنير: ٢١/ ١٣.

الواسعة حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم...، ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك.. ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة يثرب المطهرة(١).

وإن كنتم تخافون الموت فالموت يدرككم أينما كنتم، فكونوا دائما وأبدا في طاعة الله، فحيث أمرتكم فهاجروا، ثم إلى الله المرجع والمآب، فالذين جمعوا بين إخلاص العقيدة والعبادة والعمل لننزلنهم أعالي الجنة، ولنسكننهم منازل رفيعة حدائقها تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها لا يخرجون منها أبدا، إنها جنات النعيم التي أعدها الله أجرا للعاملين الذين صبروا على تحمل المشاق والهجرة في سبيله وعلى ربهم يعتمدون في أمورهم، وهذان جماع الخير كله: الصبر وتفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى.

ثم يبين لهم الله سبحانه، كم من دابة ضعيفة لا تقدر على كسب رزقها الله تعالى يرزقها كما يرزقكم، وقد تكفل سبحانه برزق جميع خلقه، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتم قال في التسهيل: والقصد بالآية التقوية لقلوب المؤمنين إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم، كما يرزق الحيوانات الضعيفة وهو السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم وبحركاتكم وسكناتكم(٢).

دروس وعبر:

* الحض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام عندما يكثر الأذى وإذا لم يتمكن المسلم من إقامة شعائر دينه.
* وعد الله المؤمنين الصابرين بالجنة عند صبرهم على الأذى، وتحملهم المكاره.
* بدد الله مخاوف المؤمنين الذين خافوا من الهجرة، وبين لهم أن الموت حق يأتي المقيم والمهاجر، وأن الرزق مكفول ييسره الله لجميع مخلوقاته.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٢٩٩.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٣٠١.

المقطع العاشر: تبيين حال الدنيا والآخرة واعتراف المشركين بالله الخالق الرازق المحيي

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾

وفي هذا المقطع يبين الله سبحانه وتعالى إقرار المشركين بوحدانية الله(1)، فيقول: ولئن سألتهم يا محمد من خلق السموات والأرض وما فيهما من العجائب والغرائب؟ ومن سخر الشمس والقمر لمصالح العباد بجريانهما وفق نظام دقيق محكم؟ ليقولون: الله خالق ذلك فكيف يصرفون بعد هذا الإقرار عن عبادته(2)، وهو سبحانه وتعالى الرازق لعباده يوسع الرزق لمن يشاء، ويضيق الرزق على من يشاء، امتحانا وابتلاء، ليظهر الشاكر والصابر، والله تعالى يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

ويوجه لهم توبيخا آخر ليقيم الحجة عليهم فيقول: ولئن سألتهم من أنزل المطر من السماء فأخرج به أنواع الزروع والثمار بعد جدب الأرض ويبسها؟ ليقولن: الله فاعل ذلك. فقل يا محمد: حمدا لله على ظهور الحجة عليهم، بل أكثرهم لا يعقلون، حيث يقرون بأن الله هو

---

(١) النسفي: مدارك التنزيل: ٢/ ٦٨٤.

(٢) الرازي: التفسير الكبير: ٩/ ٧٤.

الخالق والرازق ويعبدون غيره.

ثم أقام على المشركين حجة ثالثة وهي دعائهم الله عند الشدائد واشراكهم في حال الرخاء فإذا ركبوا في السفن وخافوا الغرق دعوا الله مخلصين له الدعاء، لعلمهم أنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو سبحانه، فلما نجاهم من أهوال البحر إلى البر، عادوا إلى إشراكهم وكفرهم، ونسوا ربهم الذي أنقذهم من الشدائد والأهوال، فوجه إليهم تهديدا بقوله: (فليكفروا) بما أعطاهم الله من النعم، والإنجاء من البحر، وليتمتعوا في هذه الحياة، وسوف يعلمون عاقبة أمرهم.

أولم ير هؤلاء الكفار أنا جعلنا بلدهم (مكة) حرما مصونا من السلب والنهب، والقتل والسبي والناس حولهم يسبون ويقتلون، أفبعد كل هذه النعم التي أنعمها الله عليهم يؤمنون بالأوثان، ويكفرون بالرحمن؟ فلا أحد أظلم ممن عبد غير الله وكذب بالقرآن حين جاءه ومثواهم جهنم جزاء كفرهم وكذبهم.

ويختتم المقطع والسورة بأن المجاهدين الصادقين الذين جاهدوا أنفسهم، والشياطين والكفرة أعداء الدين ابتغاء مرضاة الله لنهدينهم طريق السير إلينا وإن الله مع المؤمنين بالنصر والعون. قال صاحب الظلال: «الذين جاهدوا في الله ليصلوا إليه، ويتصلوا به الذين احتملوا في الطريق إليه ما احتملوا فلم ينكصوا ولم ييأسوا. الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس الذين حملوا أعباءهم وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب، أولئك لن يتركهم الله وحدهم ولن يضيع إيمانهم... وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء»[(١)].

دروس وعبر:

* أن المشركين متناقضين مع أنفسهم فهم يقرون بأن الله هو الخالق المبدع الذي خلق السماوات والأرض والشمس والقمر، وسخر الليل والنهار، وأنه هو سبحانه الرازق لعباده، والذي يحيي الأرض بعد موتها بالماء، ثم يشركون معه إلهاً آخر.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٥٢.

* كل شيء بقضاء الله وقدره، فالرزق بأمره، والتقتير بأمره، وهو أعلم بما يصلح لعباده، وقد أوضح الحجج والبراهين على قدرته ولكن المشركين لا يعون هذه الحجج ولا يتدبرونها.
* الحياة الدنيا زائلة والحياة الآخرة باقية، والحياة الدنيا ملهاة بما فيها من المال والجاه والسلطان وكل شيء فيها زائل، أما الحياة الآخرة فباقية وهي الحياة الحقيقية.
* المؤمنون يعرفون الله في وقت الرخاء والشدة فيعملون للآخرة أما المشركون فلا يعملون إلا في وقت الشدة الشديدة، حيث يلجؤون إلى الله إذا خافوا الغرق، فإذا نجاهم يعودون إلى ضلالهم، ويجحدون نعم الله عليهم، فهم بالشرك يؤمنون وبالله الواحد يكفرون، ولا أحد أظلم ممن جعل لله شريكاً، وإذا فعل فاحشة قال: وجدت عليها آبائي. وهذه صفة المشركين في مكة الذين جعل الله لهم البيت الحرام فيها آمناً يستحق الشكر، وحمد الله على ذلك.
* إن الذين يطلبون مرضاة الله، وينصرون دينه، ويردون على الظالمين، ويتحملون أذاهم ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون أنفسهم في طاعة الله يحفظهم الله وهم سعداء الدنيا والآخرة.

الخاتمة:

سورة العنكبوت كسائر السور المكية تقرر أصول العقيدة الإسلامية وهي: الوحدانية، والرسالة، والبعث والجزاء وتثبيت الإيمان. فالمؤمنون في حالة اختبار في الدنيا على الشدائد والمحن. فلا يحسبوا أن الله لا يبتليهم، وأن الإيمان يحميهم من الابتلاء والشدة، فإذا نزلت بهم الشدة ارتدوا عن الإسلام، لكي لا تصيبهم الشدة في الدنيا، وكأن عذاب الآخرة أهون من عذاب الدنيا فوصفهم الله بهذا الوصف بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[١٠: العنكبوت]. فالمؤمن هو الذي يصبر عند الشدائد ويتحمل الأذى.

والسورة تحدثت عن محنة الأنبياء صلوات الله عليهم، وما لاقوه من الشدائد والمصاعب في سبيل تبليغ الرسالة بدءاً بقصة نوح، ثم إبراهيم، ثم لوط، ثم شعيب - صلوات الله عليهم وتحدثت عن بعض الأمم والطغاة والأفراد كعاد وثمود، وقارون وهامان وغيرهم، وتذكر السورة ما حلّ بهم من الهلاك والدمار، كما أشارت الآيات الكريمة: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[٤٠: العنكبوت].

وفي هذه القصص دروس من المحن والابتلاء، ذكرها الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين تسلية لهم على ما لاقوه من أصناف العذاب، فما عليهم إلا الصبر في الدعوة إلى الله، والآيات خطاب للمشركين لأنها تدل على صدق نبوة محمد ﷺ، الرجل الأمي الذي عاش بين أظهرهم لا يقرأ ولا يكتب، ثم جاءهم بكل هذه الأخبار عن الأمم السابقة، والأنبياء الذين أرسلهم إليهم، فلم يؤمنوا وعاقبهم الله، وكان النصر للمؤمنين، والهلاك للكافرين.

وقد تحدثت السورة عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية بمسلماتهم منبثقة من هذا الكون الفسيح، وأخبرهم بأن الحياة الدنيا التي تؤثرونها على الآخرة شيء قليل حقير في جنب الآخرة، وذمهم لتقلبهم وشنع عليهم إيمانهم بالباطل وكفرانهم نعمة الله[1].

ثم ختمت السورة ببيان جزاء الصابرين أمام البلايا والمحن والشدائد، وجاهدوا المفسدين الضالين من الكفار، واحتملوا أذاهم بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[٦٩: العنكبوت]. وفي ذلك إشارة إلى أن الفتن مستمرة في حياة الإنسان من أولها إلى آخرها، وأن الله مع الصابر على الفتن التي يمتحنهم الله تعالى بها، وكيف يواجهونها؟ فإن اشتد الأذى يؤذن لهم بالهجرة من ديارهم فراراً بدينهم من الفتن وإبعاد خوف الموت عن نفوسهم، وترغيبهم بالصبر الذي تكون عاقبته السلامة.

---

(١) الشيخ القاضي شمس الدين بن بشير محمد: أنوار التبيان في أسرار القرآن: ١٥٩، تحقيق: د. حكمت الحريري.

الفهرس

السورة	الصفحة
الأنبياء	١
الحج	٧٥
المؤمنون	١٢١
النور	١٦٥
الفرقان	٢٦٣
الشعراء	٣٢٧
النمل	٤١٧
القصص	٥٠٥
العنكبوت	٥٧٩

مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS
Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com